

أرنولد توينبي مختصر دراسة للتاريخ

الجزء الأول

ترجمة: فؤاد محمد شبل
مراجعة: محمد شفيق غربال
تقديم هذه الطبعة: عبادة كحيلة

ميراث الترجمة

1714
علي مولا

مختصر دراسة للتاريخ
(الجزء الأول)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1714
- مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الأول)
- أرنولد توينبي
- فؤاد محمد شبل
- محمد شفيق غريال
- عبادة كحيلة
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

A Study of History (Vol. I)

By: Arnold J. Toynbee

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة، ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egypticouncil@yahoo.com

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الأول)

تأليف : أرنولد توينبي
ترجمة : فؤاد محمد شبل
مراجعة : محمد شفيق غربال
تقديم هذه الطبعة : عبادة كحيلة



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ - ١٩٧٥

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الأول) / تأليف: أرنولد توينبى،
ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٥٠٨ ص، ٢٤ سم

١- التاريخ

(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)

(ب) غربال، محمد شفيق، ١٨٩٤-١٩٦١ (مراجع)

٩٠٧، ٢

(ج) العنوان

رقم الإيداع ٤٨٩١ / ٢٠١١

الترقيم الدولى : 0-482-704-977-978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم هذه الطبعة

تعرفت إلى الأستاذ فؤاد محمد شبل وأنا - بعد - فى مقتبل عمرى وعنفوان شبابى، أخطو خطواتى الأولى فى مشوار حياتى، فلفت نظرى إليه قربه الشديد فى هيئته وفى ملامحه من الممثل الألمانى الكبير كورت يورجنس Kurt Jurgens، وكان قد أخذ بلبى بأدائه المتمكن فى فيلم "الملاك الأزرق" المقتبس من رائعة الكاتب الألمانى الأشهر توماس مان Thomas Mann.

إننى بعد أن اقتربت منه على نحو أوفر، وعلى مدى سنوات تالية، وجدته أشبه بموسوعة فى علوم إنسانية شتى وفنون. وكان - رحمه الله تعالى - ذا دراية واسعة بالموسيقى - شرقها وغربها - ولديه دراية واسعة كذلك بموسيقار الشعب "سيد درويش"، حياته وفنه، ومن طريف ما حكاه لى ذات يوم، أنه أدرك إبان كان شابا محبوبا هذا الموسيقار وتدعى "جلیلة"، وكانت تسكن فى منزل أسرته بالإسكندرية.

المهم أن فؤاد شبل واحد فى كتيبة من الدبلوماسيين المصريين الذين كان تأثيرهم فى ثقافة وطنهم يضاهى تأثيرهم فى سياسة وطنهم، أذكر من بينهم يحيى حقى وحسين ذو الفقار صبرى وحسين شريف.

ألف فؤاد شبل وترجم، وفى مقدمة ما ألف "حكمة الصين"، وهو دراسة تحليلية لمعالم الفكر الصينى منذ أقدم العصور، وفى مقدمة ما ترجم هذا الكتاب الذى نقدم له اليوم وهو "مختصر دراسة للتاريخ".

هذا الكتاب الذى يقع فى ترجمته العربية فى أربعة مجلدات هو المختصر الذى قام عليه سومرفيل Somervell للأجزاء العشرة الأولى من كتاب "دراسة للتاريخ" A Study of History للمؤرخ والمفكر البريطانى الكبير أرنولد توينبى Arnold Toynbee (١٨٨٩-١٩٧٥).

حين يطالع القارئ العربى هذا المختصر، ربما يساوره هاجس بكونه مؤلفاً وليس مترجماً، وتلك شيمة المترجمين الكبار، مثل مترجمنا هذا الكبير ومترجم آخر كبير هو على أدهم (ت. ١٩٨٠)، أثرى مكتبتنا العربية بمؤلفاته - وهى كثر - ومترجماته - وهى كثر كذلك - ومضى دوس أن ينال حقه من تقدير هو أهل له.

وكان من حظ المترجم الفاضل ومن حظنا على السواء، أن يقوم على مراجعة الترجمة أستاذان جليلان؛ هما محمد شفيق غربال (ت ١٩٦١) وأحمد عزت عبد الكريم (ت ١٩٨١) وهما - معا - يقفان فى طليعة المدرسة التاريخية المصرية، ويذكر أن أولهما - وهو محمد شفيق غربال - كان تلميذاً مباشراً ونجيباً لأرنولد توينبى، وعلى يديه أعد أطروحته الشهيرة لدرجة الماجستير وعنوانها "بدايات المسألة المصرية وظهور محمد على" The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Muhammed Ali ، وهى أطروحة ظلت منذ طباعتها فى عام ١٩٢٩ حتى أيامنا أصلاً لا مندوحة من معاودته لدى الكتابة عن تلك المرحلة من تاريخ مصر. كما أن كتاب غربال الصغير فى حجمه الكبير فى قيمته عن "تكوين مصر" يعد امتداداً - على نحو أو آخر - لكتاب أستاذه "دراسة للتاريخ" وفيه يقرر أن مصر ليست "هبة النيل" إنما هى "هبة المصريين".

ولد أرنولد توينبى فى عام ١٨٨٩ فى عائلة عريقة مثقفة، وتلقى تعليمه فى مدارس الصفوة البريطانية وجامعاتها، واهتم على نحو خاص بالهليينيات أى

الدراسات اليونانية التي صارت تخصصه الأصلي، ويذكر أنه كان يجيد اليونانية (واللاتينية) إجادته للإنجليزية، وقد كان لثقافته اليونانية هذه أثرها في تعميق إنسانيته، وجعله أكثر انفتاحاً على ثقافات أخرى غير ثقافته.

بعد تخرجه عمل توينبي في عدة هيئات علمية، أهمها "المعهد الملكي للشئون الدولية" (R.I.I.A) The Royal Institute of International Affairs وولى عمادته سنوات طويلة (١٩٢٩-١٩٥٦) كما أفادت الخارجية البريطانية بخبراته في سنوات الحربين العالميتين الأولى والثانية، فاكسب خبرات أخرى كان لها صداها في كتاباته المتنوعة وفي الصدارة منها "دراسة للتاريخ".

وأنولد توينبي ليس غريباً على القارئ العربي، ففضلاً عن تفردّه في مجال الفكر التاريخي وفلسفته، فقد تفرد عن الكثرة الغالبة من أهل عصره ومجايليه في كونه يقف في طليعة المفكرين الغربيين القلائل الذين صاروا يصدفون عن فكرة "المركزية الأوروبية" Eurocentrism، والفكرة الأخرى التي تقول بتفوق العرق الأبيض، فكان كما يتضح من كتاباته يقف على مسافة واحدة من الحضارات التي مرت بعالمنا كافة، وإن كان في تطلعه إلى المستقبل، يتطلع إلى الحضارة الغربية - بعد أن تصير إنسانية - حضارة للبشر كافة.

الأهم أن مفكرنا ووفقاً لقناعاته الفكرية كان صديقاً لنا - نحن العرب - فكان يجل الإسلام وحضارته، واختص مصر بعنايته، فهي التي أهدت العالم الرهينة واللاهوت المسيحي، وهي التي ابتكرت الزراعة والتقويم الشمسي والكتابة، كما عرف بمناهضته للصهيونية ومناصرته للقضية الفلسطينية، وكان له موقف نبيل تجاه العدوان الثلاثي علينا، مما أهمّ أستاذاً صهيونياً يدعى فرانتس بوركيناو Franz Borkenau إلى أن أتهمه بمعاداة السامية.

باعتبارى أنتمى إلى جيل عاصر الحقبة الأخيرة فى حياة توينبى، فإننى ما أزال أتذكر محاضراته الشهيرة التى ألقاها فى القاهرة عندما زارها فى العام ١٩٦٤، وقام على ترجمتها إلى العربية الراحل الكبير فؤاد زكريا، كما أننى ما أزال أتذكر سجله الشهير فى العام التالى مع ياكوف هرتسوج وكان سفيراً لإسرائيل فى كندا، وهو سجل يليق برجل عالم وشجاع، يقول ما يرى انه حق غير آبه بما قد يترتب عليه من تبعات.

على مدى نحو من ستين عاماً خرج علينا أرنولد توينبى بنحو من خمسين كتاباً... هاك بعضاً منها :

تركيا : ماضيها وحاضرها ١٩١٧ .

الفكر التاريخى عند الأغريق من هوميروس إلى هرقل ١٩٢٤.

رحلة إلى الصين ١٩٣١.

مستقبل الحضارة الغربية ١٩٤٩

الحرب والحضارة ١٩٥٠.

العالم والغرب ١٩٥٣

الديمقراطية فى عصر الذرة ١٩٥٦

تاريخ الحضارة الهلينية ١٩٥٩.

أمريكا والثورة العالمية ١٩٦٢

بين النيجر والنيل ١٩٦٥

ميراث هاينبال؛ حروب هاينبال وأثرها فى الحياة الرومانية ١٩٦٥.

بعض مشكلات التاريخ اليونانى ١٩٦٩

قسطنطين بورفير وجنيتوس وعالمه ١٩٧٣

الإغريق وتراثهم ١٩٨١ (صدر بعد وفاته)

بدأ توينبى فى كتابة دراسته الشهيرة للتاريخ فى العام ١٩٢١، وطلع علينا بالأجزاء الثلاثة الأولى فى العام ١٩٣٤، ثم الأجزاء الثلاثة التالية فى العام ١٩٣٩، والأجزاء الأربعة الأخيرة فى العام ١٩٥٤. وتقع هذه الأجزاء جميعها فيما يربو على الستة آلاف صفحة، ثم أضاف صاحبها جزءاً يضم أطلس ومعجماً جغرافياً فى العام ١٩٥٩، وأضاف جزءاً آخر بعنوان "مراجعات" Reconsiderations وذلك فى العام ١٩٦١.

ولما كان من الصعب على غير المتخصصين - بله البعض من المتخصصين - فى موضوع الكتاب مطالعة هذا العمل الضخم، وفهم ما حفل به من مصطلحات وأفكار، فقد نهض الأستاذ سومرفيل باختصار الأجزاء الستة الأولى وذلك فى العام ١٩٤٦، كما نهض باختصار الأجزاء الأربعة الباقية فى العام ١٩٥٧، ثم نشر المختصر كاملاً مع مقدمة من توينبى فى العام ١٩٦٠. وأخيراً وبعد إثنى عشر عاماً قام توينبى نفسه بالاشتراك مع تلميذته جين كابلان Jane Caplan باختصار العمل كله فى مجلد واحد صدر فى العام ١٩٧٢ أى قبل وفاته بثلاث سنوات.

جدير بالذكر أن سومرفيل فى مختصره الذى نقدم له اليوم، حرص على أن يلتزم بألفاظ المؤلف الأصلية، مع استبعاد بعض الأمثلة والاستطرادات، دون أن يخل بالأفكار الأساس، ومن هنا فقد اكتسب عمله - أى عمل سومرفيل - اسمه فهو "مختصر" Abridgement وليس خلاصة أو مخلصاً Summary .

هذا وقد زاد المترجم الفاضل - فؤاد شبل - بأن عرّف بتوينبى ونوّه بإيجاز إلى أفكاره، ودعم الكتاب بشروح لألفاظ وأفكار ربما تستغلق على القارئ العربى.

ينتمى كتاب توينبى الذى نحن بصددده إلى "فلسفة التاريخ" وهى موضوع مهم من موضوعات الفلسفة، اختصه هيجل F. Hegel بأحد كتبه، كما تخلّل عمل ماركس K.Marx الأشهر "رأس المال" Das Kapital وصار أهم إنجاز لأوزفالد شبنجلر Oswald Spengler فى كتابه "أفول الغرب" Der Untergang des Abendlandes. وقد تفاوتت أفكار هؤلاء الفلاسفة الكبار، بين مثالية هيجل ومادية ماركس وتشاؤمية شبنجلر.

يذهب توينبى إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة، اندرس معظمها ولم ينبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات؛ هى المسيحية الغربية، المسيحية الأرثوذكسية، الإسلامية، الهندية، الشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية.

يدور الكتاب حول ثلاثة محاور؛ انبعاث الحضارات، ارتقاء الحضارات، انهيار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما، فإن توينبى يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرد بصنع الحضارة، فالأعراق - فى معظمها - ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما إنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

فى هذا الصدد يرى توينبى أنه بين إحدى وعشرين حضارة، هناك خمس عشرة منها تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها، فالحضارة الإسلامية - كمثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل؛ هما الإيرانية والعربية، وهما - معاً - ترجعان إلى حضارة مندرسة؛ هى الحضارة السورية، التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.

لدينا - إذن - ست حضارات فقط انبعثت مباشرة من الحياة البدائية، أى أنه لم يكن لها أسلاف، تلك الحضارات هى؛ المصرية - السومرية - المينوية - الصينية - المايانية - الانديانية (والحضارتان الأخيرتان تنتميان إلى القارة الأمريكية).

ولكن كيف تنشأ الحضارة؟

يرى توينبى أن الحضارة لا تنشأ فى ظروف سهلة، إنما هى - على النقيض - تنشأ فى ظروف صعبة، تخلق للإنسان تحديًا Challenge ، هذا التحدى يسفر عن استجابة Response تتفاوت حسب الأحوال.

المثال الأوضح على ذلك الحضارة المصرية القديمة، فقد كانت السهوب الممتدة لدى الشمال الإفريقى والجزيرة العربية أراضى عامرة بالمياه، وعندما أتى أوان الجفاف، تفاوتت استجابات السكان، فتمسك بعضهم بأرضهم وغيروا نمط حياتهم فصاروا بدوًا، واختار بعضهم الآخر الارتحال جنوبًا، حيث المناطق الاستوائية، فزاولوا حياةً بدائيةً صاحبته حتى أيامنا، وولج بعضهم الأخير المستنقعات والغابات فى وادى النيل ودلتاه، فأقاموا الحضارة المصرية.

على غرار المصريين نهض السومريون لدى الجهات الدنيا من نهري دجلة والفرات، وليس لدى الجهات العليا من هذين النهرين، فأقاموا حضارةً تعاصرت مع الحضارة المصرية، وفي قاصية المشرق بزغت الحضارة الصينية لدى النهر الأصفر، وهو نهر يصعب قياده، وليس لدى نهر اليانجستي وهو نهر يسهل قياده.

يرتبط التحدى الطبيعى بتحد آخر بشرى، فالشعوب التى تعيش فى مناطق يتهددها بالعدوان شعوب غيرها، تصير أكثر صلابةً من شعوب تعيش فى مناطق محمية.

على أن لهذا التحدى (الطبيعى خاصة) حدوداً لا ينبغى عليه تجاوزها، من أجل أن تكون الاستجابة مناسبة، لأنه فى أحوال بعينها تكون الاستجابة سلبية، ولدينا جماعات أخفقت فى استجابتها لتحديات واجهتها، وهذا من شأنه وجود قانون للتفاعل بين التحدى والاستجابة، يطلق عليه المؤلف تعبير "الوسط الذهبى".

هذا عن البدايات الأولى للحضارة، أما عن ارتقائها، فإن هذا الارتقاء يحتاج بدوره إلى المزيد من التحديات، والمزيد الآخر من الاستجابات، وهو ما هياً للحضارة الهلينية ما تحقق لها من إنجازات.

يقرر توينبى أن الارتقاء لا يتم بغزو للخارج، ولا بتقدم تكنولوجيا مادية فى الداخل، إنما هو يتم وفق عملية يدعوها بالتسامى، وهى عملية روحانية أكثر منها مادية، تستهدف إطلاق طاقات المجتمع من عقالها، الأمر الذى لا يتأتى إلا على يد ما يدعوها "بالقلة" (أو الصفوة) المبدعة، ويعد أفرادها عباقرةً بالمعنى الحرفى للكلمة، وليس بالمعنى المجازى فحسب، وهى التى أسست المدارس الفلسفية القديمة، وتفتقى الأكثرية العاطلة من الإبداع أثرها عن طريق ما يدعو توينبى بالمحاكاة.

يذهب توينبى إلى أن الحضارة تدخل فى دور الانحلال إذا أخفقت الطاقة الإبداعية عند الأقلية المبدعة، وكيف المجتمع - فى الوقت ذاته - عن محاكاتها، وتتحول هى بدورها إلى أن أقلية مهيمنة تستند إلى القوة للإبقاء على سيطرتها، تجاورها بروليتاريا داخلية، تمثل غالب المجتمع، وبروليتاريا خارجية، تقع على هامش المجتمع وتتربص به. ولكل منهم وظيفته، فالأقلية المسيطرة تنزع إلى إنشاء دولة عالمية (إمبرطورية) والبروليتاريا الداخلية تنزع إلى إنشاء عقيدة دينية عالمية (كالمسيحية) والبروليتاريا الخارجية تنزع إلى الانقضاض على المجتمع لتتبنى بديلا عنه مجتمعا جديداً.

تلك هى النظرية العامة لأرنولد توينبى، والمهم لنا الآن أن نتعرف على ما عليه الحال فى زماننا.

يقرر توينبى أن الحضارات الباقية فى زماننا وعددها خمس حضارات، تبدو على أربع منها مظاهر الانحلال، فى حين تتفرد الحضارة الغربية بكون بروليتارياتها الداخلية، قد عقلت عن إجاب أديان عليا بسبب حيوية الكنيسة المسيحية، كما أن بروليتارياتها الخارجية لم تتحقق لها أهدافها، بسبب الكفاية المادية الساحقة للمجتمع الغربى.

على أن المجتمع الغربى يمر بأزمة، هى فى جوهرها روحية أكثر منها مادية، فبه فراغ روحى أتاح الفرصة لظهور دعوات قومية متطرفة كالفاشية والنازية، وصراعات طبقية فى الداخل، وحروب مدمرة فى الخارج.

وعلى النقيض من تشاؤمية شنبجلر يرى توينبى أن خلاص الحضارة الغربية يكمن فى المزيد من الحريات الشخصية ومن العدالة الاجتماعية فى آن. ثم يتطلع إلى قيام تنظيم دولى أو دولة عالمية تستند إلى الإيمان، وينتقى فيها التعصب

القومى والنزوع إلى الحرب، وتقود هذه الدولة حكومة عالمية توجه شئون العالم لمصلحة الجميع دون ما تمييز، وأن من واجب الإنسان الغربى أن يتيح لغيره من إخوانه فى الإنسانية مشاركته رخاءه المادى، وبذا تصبح الحضارة الغربية هى مدينة العالم.

هذا هو الحل، وإلا حاق الفناء بالجميع.

عبادة كُحيلة

(أبو أدهم)

تقديم

أتيج لي الاطلاع على كتاب « دراسة للتاريخ » للعلامة أرنولد توينبي منذ أمد طويل . ثم أسعدتني الظروف عام ١٩٥٦ وقما كنت مستشاراً للسفارة (المصرية) في طوكيو باليابان ، أن أحضر مؤتمراً صحفياً عقده الأستاذ توينبي ، شن فيه حملة صادقة على العدوان الثلاثي ، ووجه اللوم الشديد إلى حكومة بلاده لاشتراكها في ذلك العدوان الأثيم .

ولم أستغرب صدور هذه الآراء عن الأستاذ توينبي ؛ لأن الفكرة السائدة لمؤلفه القيم عن التاريخ ؛ تقوم على اعتبار الحرب السبب الرئيسي لانهايار الحضارات والمجتمعات ، وأن مصير المعتدى الفناء ؛ وأبرز مثال يطالعنا ، زوال دولة آشور بفعل مغالاتها في العدوان ، واندثار ما خلفته أسبرطة من آراء ، لقيامها على الحرب والاستعداد لها .

وسعدت مرة أخرى في نوفمبر ١٩٥٦ بلقاء الأستاذ توينبي بمدينة كيوتو ، تلبية لدعوة القصر الإمبراطوري الياباني لمشاهدة الكنول الإمبراطورية في تلك المدينة القديمة عاصمة اليابان الأولى . فكان أن برزت لدى فكرة ترجمة كتاب « دراسة للتاريخ » . . ومن ثم لييت شاكرآ دعوة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية لترجمة المختصر الذي وضعه للدراسة ، المستر سومرفيل ؛ وفيه بسط جميع آراء الأستاذ المؤلف مستخدماً عباراته الأصلية في معظم الأحيان ، واقتصر في مختصره على حذف الأمثلة والآراء التي وجد أن حذفها لا يخل بفكرة الكتاب الأصلية .

وتمتاز آراء الأستاذ توينبي بالعمق الشديد ، ويتسم كتابه بتحميل العبارات أكثر مما تطبق من المعاني والأفكار ، مع افتراضه أن قراءه من

جها بذه العلماء ؛ الأمر الذى أضفى على الكتاب غموضاً وتعقيداً فائقين . ولعل محاولتى تبسيط آراء الأستاذ توينبى وتقریبها إلى الأذهان بشرح ما أمكننى شرحه فى هوامش الكتاب ؛ مما يساعد القارئ الكريم على استيعاب آراء المؤلف التى تسمو إلى الذروة فى إصالتها و طرافتها .

ويعتقد الأستاذ المؤلف أن الدراسة التاريخية الحقة ، ليست هى دراسة أمة بعينها أو عصرأ بذاته . بل إن البحث التاريخى يجب أن ينصبّ على « المجتمعات » : إذ لا توجد أمة فى العالم تتأتى دراسة تاريخها بمعزل عن تواريخ بقية الأمم . وقد قسم المؤلف المجتمعات للوفاء بأغراض دراسته ، إلى واحد وعشرين مجتمعاً ، اندرس معظمها ، ولم يتبق منها سوى خمسة مجتمعات هى المسيحية الغربية - المسيحية الأرثوذكسية - الإسلامى - الهندى - الشرق الأقصى . تضاف إليها مخلفات المجتمعات المتحجرة غير المعينة الشخصية مثل اليهود .

ويصدف المؤلف عن فكرة أن صفات خاصة فى الجنس هى التى تقود إلى تفوق أمة بعينها : ونجده يسخر من القائلين بتفوق الجنس الأبيض من الناحية الحضارية ، وبالأحرى العنصر الثورى بالذات الذى تنتمى إليه أمم أوروبا الشبالية ؛ على سائر الأجناس . فعنده أن الأجناس جميعها - عدا القليل منها - قد ساهمت فى انبعاث الحضارات إلى الوجود ، واشتركت فى تقدم البشرية فى مختلف مناحى العرفان .

كذلك لا يؤمن المؤلف بأن توافر عوامل معينة فى البيئة الجغرافية ، هى العامل الأساسى فى انبعاث الحضارة . ونجده يسوق أمثلة كثيرة تؤيد رأيه .

ويخلص المؤلف من آرائه بشأن ظهور الحضارات إلى أنها نتيجة استجابة لتحدد مصادر ؛ إما عن البيئة المادية ، وإما عن الوسط البشرى ؛ أو عن كليهما . وذلك فى ظل ظروف معينة أوردها فى مؤلفه .

(ز)

ويطيب لى أن أزجى خالص الشكر إلى الأستاذ المؤرخ الكبير محمد
شفيق غربال لتفضّله بمراجعة هذه الترجمة : فقد كانت لإرشاداته القيمة
وآرائه الناضجة وتوجيهاته السديدة ؛ أكبر الأثر فى ظهور هذه الترجمة
لكتاب يعتبر فى طليعة المؤلفات الثقافية العالمية :
والله تعالى أسأله التوفيق والسداد ،

فؤاد محمد سبل

٤ سبتمبر سنة ١٩٦٠

الباب الاول

مقدمة

الفصل الأول

وحدة دراسة التاريخ

المؤرخون على وجه التعميم ، أميل إلى توضيح آراء الجماعات التي يعيشون ويكدحون في محيطها ، منهم إلى تصحيح تلك الآراء .

والتطور الذي حدث في خلال بضعة قرون الأخيرة ؛ وبصفة خاصة في خلال الأجيال القليلة الفارطة ، نحو وجود الدول القوية المكتملة السيادة العاملة على الاستكفاء بذواتها ، قد حمل المؤرخين على أن يتخذوا من الأمم ميدانهم المألوف للدراسة التاريخية .

غير أننا لن نقع على أمة بمفردها ، أو على دولة قومية في أوروبا ، تطلعنا على تاريخ يمكن أن يقوم مفسراً لنفسه بنفسه .

وإذا وجدت دولة في ميسورها أن تزودنا بمثل ذلك ، لكنت بريطانيا العظمى . وفي الحق إذا لم ير أن بريطانيا العظمى — أو بالحرى إنجلترا في القرون السابقة — تهيئ لنا ميداناً للدراسة التاريخية قابلاً للفهم بذاته ، فلا مندوحة لنا من أن نستنتج بثقة ، أنه لا توجد دولة قومية أخرى من الدول الأوروبية الحديثة ، يمكن أن تجتاز هذه التجربة .

فهل التاريخ الإنجليزي قابل للفهم في حد ذاته ؟

وهل يتأتى عزل تاريخ إنجلترا الداخلى عن علاقاتها الخارجية ؟

وإن استطعنا ، هل سيكون لما يتبقى من علاقاتها الخارجية أهمية ثانوية ؟

وإذا تولينا تحليل هذه العلاقات ، هل سنجد مرة أخرى التأثيرات الأجنبية على إنجلترا ، طفيفة بالمقارنة بتأثيرات إنجلترا على بعض أجزاء العالم الأخرى ؟

إذا كان الرد على هذه الأسئلة بالإيجاب ؛ يحق لنا أن نستنتج ، أنه على حين لا يتأتى فهم التواريخ الأخرى من غير الإشارة إلى إنجلترا ، فإنه يتيسر - إلى حد ما - فهم التاريخ الإنجليزي دون الإشارة إلى أجزاء العالم الأخرى .

وخير طريقة لبحث هذه الأسئلة ، هي الرجوع بفكرنا القهقري عبر سير التاريخ الإنجليزي ، مستعدين فصوله الأساسية . فإذا عكسنا ترتيبها الزمني ، ألفيناها :

(أ) إقامة نظام الاقتصاد الصناعي (منذ الربع الأخير للقرن الثامن عشر) .

(ب) تشييد صرح الحكومة البرلمانية المستولة (منذ الربع الأخير للقرن السابع عشر) .

(ج) التوسع عبر البحار (مبتدئاً من الربع الثالث للقرن السادس عشر ، بالقرصنة ؛ ومتطوراً تدريجياً إلى تجارة خارجية عالمية النطاق . والاستحواز على الممتلكات الاستوائية . وإقامة جماعات جديدة تتكلم لإنجليزية في بلاد معتدلة المناخ فيما وراء البحار) :

(د) الإصلاح الديني (منذ الربع الثاني للقرن السادس عشر) .

(هـ) النهضة ؛ وتشتمل على الجوانب السياسية والاقتصادية بالإضافة إلى نواحيها الفنية والفكرية (منذ الربع الأخير للقرن الخامس عشر) :

(و) إقامة النظام الإقطاعي (منذ القرن الحادى عشر) .

(ز) تحوّل من المعتقدات الدينية السائدة فيما يسمى « بعصر البطولة » إلى المسيحية الغربية ؛ (منذ السنوات الأخيرة للقرن السادس) .

توضّح هذه اللوحة العكسية التي ألفيناها على مجرى التاريخ الإنجليزي ابتداء من يومنا هذا ، أنه كلما رجعنا القهقري ، ضعفت شواهد الاستكفاء الذاتي أو العزلة .

فإن التحول الديني — الذي كان حقيقة مبدأ كل شيء في التاريخ الإنجليزي — ينقض ذلك الاستكفاء نقضاً ظاهراً . فقد أدى التحول إلى إدماج بضع جماعات همجية منعزلة في حظيرة مجتمع غربي ناشئ .

أما بالنسبة للنظام الإقطاعي ، فقد أثبت المؤرخ فينوجرادوف في براعة ، أن بذوره قد نبتت في التربة البريطانية فعلاً قبل الفتح النورمندی : على أنه حتى إذا كان الحال كذلك ، ساعد عامل خارجي — هو الغزوات الدنماركية — على تطور النظام الإقطاعي . وهذه الغزوات هي أيضاً جزء من هجرات الشعوب السكندنافية ، وقد عززت في الوقت نفسه تطور نظام الإقطاع في فرنسا . كما لا ينكر أن الغزو النورمندی قد عجل باكتمال نمو النظام الإقطاعي .

وأما بالنسبة للنهضة ، فإن من المسلم به عند الجميع ، أنها من جانبها انتقافية والسياسي ، نسمة حياة هبت من شمال إيطاليا . فلو لم تبلر بذور المذهب الإنساني والسلطان المطلق وإقامة العلاقات الدولية على توازن القوى ، على صورة مصغرة في شمال إيطاليا — مثلما تزرع الفسائل في مشتل محمي من تقلبات الجو — طوال قرنين يقعان تقريباً بين عامي ١٢٧٥ و ١٤٧٥ ؛ لما قدر لهذه المذاهب بحال ، أن تغرس شمال جبل الألب ، ابتداء من عام ١٤٧٥ وما تلاه .

كذلك أمر حركة « الإصلاح الديني » ؛ لم تكن ظاهرة تقتصر على إنجلترا وحدها . لكنها حركة عامة قامت في شمال أوروبا الغربية وهدفت إلى التحرر من السلطان الديني للجنوب ، حيث كانت أبصار سكان غرب البحر الأبيض المتوسط لا تتحول عن عوالم مانت واندريست . ولم تكن إنجلترا رائدة حركة الإصلاح ، كما أنها لم تكن الرائدة إبان المنافسة بين الأمم الأوروبية المطلة على الساحل الأطلسي ، وكان الاستحواز على العوالم الجديدة عبر البحار جائزة السابق : بل إن إنجلترا قد فازت بالجائزة مع أنها دخلت السباق متأخرة ، نتيجة لسلسلة من الاشتباكات مع دول سبقتها إلى الميدان .

بقي أن نبحث في الفصلين الأخيرين : مبدأى النظامين البرلماني والصناعي اللذين يشيع الاعتقاد بأنهما قد تطورا محلياً على التربة الإنجليزية ثم انتشرا يعدنذ إلى غيرها من بقاع العالم .

وهنا ، لا يأخذ الثقات بهذا الرأى على علانه .

فبالنسبة للنظام البرلماني ، قال اللورد أكتون « إن مجرى التاريخ العام يتشكل بفعل قوى ليست قومية ولكنها تنشأ عن مسببات أوسع مدى . فكان قيام الملكية الحديثة في فرنسا ، جزءاً من حركة مماثلة في إنجلترا ، وخضع البوربون وآل ستيوارت لنفس العوامل وإن اختلفت النتائج » . وبعبارة أخرى كان النظام البرلماني — وهو نتيجة محلية خاصة بإنجلترا فقط — حصيلة قوة لم يقتصر أثرها على إنجلترا وحدها ، ولكن شمل إنجلترا وفرنسا في آن واحد .

أما عن مبدأ الثورة الصناعية في إنجلترا ، فإننا لن نستطيع أن ننقل عن ثقات أعلى كعباً من مستر هاموند وقرينته ، وقد أخذوا في مقدمة كتابهما « قيام الصناعة الحديثة » بالرأى القائل بأن العامل الأساسى الجدير بالاعتبار في نشوء الثورة الصناعية في إنجلترا — دون غيرها من البلاد — هو مركز إنجلترا بصفة عامة في دينا القرن الثامن عشر : مركزها الجغرافى بالنسبة للأطلسى ، ومركزها السياسى بالنسبة لتوازن القوى في القارة الأوروبية .

وهكذا يتضح أن التاريخ القومى البريطانى ، لم يكن فى أى وقت من الأوقات — ولن يكون بكل تأكيد فى المستقبل — ميداناً منعزلاً للدراسة التاريخية قائماً وقابلاً للفهم فى حد ذاته . وإذا صح ذلك عن بريطانيا العظمى ، فهو يصدق من باب أولى بالنسبة لأية دولة قومية أخرى .

وإنه وإن أسفر فحصنا الموجز للتاريخ الإنجليزى عن نتيجة سلبية ، إلا أنه قد زدنا بدليل نهتدى به . فإن الفصول التى استوقفت نظرنا فى محتنا العكسية عن مجرى التاريخ الإنجليزى ؛ فصول واقعية فى قصة أمة من الأمم ،

ولكنها أيضاً قصة تاريخ مجتمع ، ليست بريطانيا إلا جزءاً منه فقط . وما التجارب التي مرت بها إنجلترا ، سوى تجارب شاركت فيها الأمم الأخرى . ويتضح لنا بالفعل ؛ أن ميدان الدراسة القابل للفهم بذاته ، هو يقينية مجتمع يضم عدداً من الجماعات من النوع الذي تمثله بريطانيا ، لا بريطانيا وحدها . ولكنه يضم فرنسا وأسبانيا وهولندا والبلاد السكندنافية وغيرها أيضاً . والفكرة المستشهد بها من آكتون ، تبين العلاقة بين هذه الأجزاء وذلك الكل .

ولم تكن العوامل الفعالة ، قومية الطابع ، ولكنها صدرت عن أسباب أوسع مدى تؤثر على كل جزء من الأجزاء . وهي في تأثيرها الجزئي ، لا تفهم إلا بالنظر الشامل إلى تأثيرها في المجتمع بأسره . حقيقة أن السبب العام الواحد يؤثر في الأجزاء المختلفة تأثيراً يختلف من جزء إلى آخر ، وذلك لأن كل جزء فيها تشكّله — على وجه خاص — القوى التي تنبعث عن السبب العام ، كما أنه يؤثر على وجه خاص في القوى ذاتها .

ويمكننا أن نقرر أن المجتمع يجابه أثناء حياته مشكلات متتابعة ، تفرض على كل عضو فيه أن يحلها لنفسه على خير ما يستطيع . وتعتبر كل مشكلة منها تحدياً لعضو المجتمع ، تفرض عليه محنة يجتازها . وتؤدي تلك السلسلة من المحن إلى تمايز أعضاء المجتمع بالتدرج بعضهم عن بعض . ويستحيل في جميع الحالات إدراك معنى سلوك عضو معين من الأعضاء أثناء محنة خاصة ، إلا بعد أن يؤخذ في الاعتبار تشابه سلوكه — أو عدم تشابهه — مع سلوك زملائه ؛ وإلا بعد أن ينظر إلى المحن المتلاحقة ، على أنها سلسلة من الأحداث في حياة المجتمع بأسره .

وقد يمكن زيادة توضيح هذه الطريقة في تفسير الوقائع التاريخية إذا مثلنا لها بمثل فعلي ملموس يصح أن نختاره من المدن اليونانية المستقلة القديمة ، خلال القرون الأربعة الواقعة بين عامي ٧٢٥ و ٣٢٥ قبل الميلاد .

فلقد جابه المجتمع الذى كانت هذه المدن الكثيرة أعضاء فيه ، عقب بداية تلك الفترة ؛ مشكلة ضغط السكان على وسائل المعيشة التى كانت الشعوب الهلينية تحصل عليها فى ذلك العصر - فيما يبدو - عن طريق واحد فقط هو زراعة أراضيها محاصيل متنوعة بخصيص إنتاجها للاستهلاك المحلى . فلما حلت الأزمة جابهتها المدن بوسائل اختلفت باختلافها :

فعمد بعضها مثل كورنث وخالسيس إلى التخلص من فائض سكانه بالاستحواز على الأراضي الزراعية عبر البحار فى صقلية وجنوب إيطاليا وتراقيا وغيرها واستعمارها . ومن ثم غدت المستعمرات اليونانية التى أقيمت بهذه الطريقة خارج اليونان ، مجرد امتداد لمنطقة المجتمع الهليني الجغرافية ؛ دون إحداث تغيير فى طابع هذا المجتمع . والتمست بعض المدن الأخرى ، حلولاً قادت إلى تغيير طريقة حياتها .

فأشبعت إسبارطة مثلاً اشتهاً مواطنيها الأرض ، بمهاجمة جيرانها الأقربين من اليونانيين ، واحتلال بلادهم . وأدى ذلك إلى اشتعال نيران الحروب بينها وبينهم . وهكذا اضطرت إسبارطة للحصول على أراضيها الإضافية ، إلى شن حروب شعواء متصلة على شعوب مجاورة لها وفى نفس مستواها . واضطر ساستها - لمواجهة الموقف - إلى توجيه حياتها من الرأس إلى القدم ، توجيهاً عسكرياً محضاً . ووفقت فى ذلك بفضل بعث طائفة من النظم الاجتماعية البدائية التى كانت شائعة وقتاً ما فى بعض الجماعات اليونانية ، وتكييفها وفقاً لظروفها الخاصة ؛ فى وقت كانت هذه النظم على وشك الزوال سواء فى إسبارطة نفسها أو فى غيرها .

وعالجت أثينا مشكلة السكان بوسيلة مختلفة هى الأخرى . إذ خصصت إنتاجها الزراعى للتصدير ، كما أنها اتجهت إلى إنتاج المصنوعات لتصديرها كذلك . ثم وسّعت نطاق أجهزتها السياسية لتهيئ نصيباً عادلاً من السلطة السياسية للطبقات الجديدة التى أبرزتها الابتكارات الاقتصادية إلى الوجود :

وبعبارة أخرى ، تجنّب الساسة الأثينيون الثورة الاجتماعية ، بفضل نجاحهم في القيام بثورة اقتصادية وسياسية معاً . ومن ثم فتحوا بالتبعية ، بتوفيقهم إلى هذا الحل للمشكلة المشتركة في حدود مساسها بهم ؛ سبيلاً جديداً للتقدم أمام المجتمع الهليني بأسره . وهذا مصداق لما عناه بركليس عندما قرر أثناء اجتياز بلاده أزمة أملت بأوضاعها المادية ، أن أثينا هي معلمة هيلاس^(١) .

ومن هذه الناحية - أى إذا لم نأخذ أثينا أو إسبارطة أو كورنث أو خاليسيس موضوعاً للبحث بل نظرنا إلى المجتمع الهليني كله - نستطيع إدراك معنى تواريخ الجماعات المتعددة خلال الفترة من ٧٢٥ إلى ٣٢٥ قبل الميلاد . وكذلك إدراك معنى الانتقال من هذه الفترة إلى الفترة التي تلتها . ولوجدنا الرد على أسئلة ما كنا نستطيع أن نجد لها جواباً قابلاً للفهم ؛ طالما كنا نبحث في تاريخ خاليسيس أو كورنث أو إسبارطة أو أثينا كل على حدة ، عن ميدان للدرس يكون قابلاً للفهم في حد ذاته . إذ كل ما كان يتيسر إدراكه بهذه الطريقة ؛ أن تاريخ كل من خاليسيس وكورنث كان طبيعياً نوعاً ما ، بينما خرج تاريخ كل من إسبارطة وأثينا على القاعدة من نواحي متعددة . ولم يكن ليتيسر بهذه الطريقة تحليل السبيل الذي اتخذته هذا الخروج على القاعدة ، ولاضطر المؤرخون إلى القول بأن أهل إسبارطة وأثينا كانوا مختلفين عن غيرهم من اليونانيين ، وذلك بفضل ما أحرزوه في تطور التاريخ الهليني من صفات موروثه خاصة . وهذا يعادل تفسير تطور إسبارطة وأثينا بالقول إنه لم يحدث أى تطور وأن هذين الشعبين اليونانيين كانا ذوي صفات خاصة ، سواء في مستقبل التاريخ أو في نهايته .

على أن هذا افتراض يناقض الوقائع الثابتة .

فبالنسبة لإسبرطه مثلاً ؛ كشفت الحفائر التي أشرفت عليها المدرسة

(١) هيلاس : اليونان قاطبة . (المترجم)

البريطانية للآثار عن شواهد مذهلة . مدارها أنه حتى حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ؛ لم تختلف الحياة في إسبارطه اختلافا ملحوظا عما كانت عليه في الجماعات اليونانية الأخرى .

والمثل يقال عن السمات الخاصة بأثينا . تلك السمات التي أضفتها على العالم الهليني بأسره خلال ما يدعى بالعصر الهلينيستى (بخلاف إسبرطه التي ثبت أن منحائها الخاص طريق مسدود) . أى أنه ثبت أيضاً أنها سمات مكتسبة ، وإن مبدأها لا يستطاع إدراكه إلا بالنظر إلى المجتمع الهليني بأجمعه . وكذلك الحال فيما يتعلق بالاختلاف بين البندقية وميلان وجنوا وغيرها من مدن إيطاليا الشمالية ، خلال ما يدعى بالقرون الوسطى . وبالاختلاف بين فرنسا وأسبانيا وهولندا وبريطانيا العظمى وغيرها من دول الغرب القومية خلال القرون الأحدث .

لذلك لكى نفهم « الأجزاء » ، يجب أن نركز اهتمامنا أولاً على الكل . لأن هذا الكل هو ميدان الدراسة القابل للفهم .

ولكن ، ما هى هذه « الكليات » التي تؤلف ميادين الدراسة القابلة للفهم ؛ وكيف نكشف حدودها المكانية والزمانية ؟

علينا أن نعود مرة أخرى إلى تلك الخلاصة عن الفصول الرئيسية للتاريخ الإنجليزى بحثاً وراء ذلك الكل الكبير الذى يؤلف الميدان القابل للفهم ، والذى يعتبر التاريخ الإنجليزى جزءاً منه .

إذا بدأنا بالفصل الأخير — إقامة النظام الصناعى — ألفتنا الامتداد الجغرافى لميدان الدراسة القابل للفهم بذاته ، الذى افترضناه ؛ يشمل العالم فى مجموعه . أى أن تفسير الثورة الصناعية فى إنجلترا يتطلب أن نضع فى اعتبارنا الأحوال الاقتصادية ، لا فى أوروبا الغربية وحدها ، بل أيضاً فى إفريقيا الاستوائية وأميركا وروسيا والهند والشرق الأقصى . على أننا إن عدنا إلى النظام البرلمانى ، وتحولنا من المستوى الاقتصادى إلى المستوى

السياسى ؛ لتقلّص أفقنا . فإن العوامل المشار إليها فى عبارة اللورد أكتون -
والتي خضعت لها عائلتا البوربون وستيوارت فى فرنسا وانجلترا ، لم تعمل
عملها فيما يتعلق بآل رومانوف فى روسيا وآل عثمان فى تركيا أو التيموريين
فى الهندوستان أو المانشو فى الصين أو عائلة توكوجاوا فى اليابان^(١) .

وبالأحرى لا يمكن تفسير التواريخ السياسية لهذه البلاد الأخرى ،
باستخدام نفس الطريقة . فإن ثمة حدا لهذه العوامل التى « خضعت لها
أسرتا بوربون وستيوارت . لأنه إذا كان أثرها قد امتد إلى بلاد غرب
أوروبا الأخرى والجماعات التى أقامها مستعمروها الأوروبيون وراء البحار ،
إلا أن نفاذها لم يجاوز الحدود الغربية ، لروسيا وتركيا . إذ تأثرت فى
ذلك الوقت البلاد الواقعة شرق هذا الخط ، بعوامل سياسية أخرى أدت إلى
نتائج أخرى .

وإذا انتقلنا عائدين إلى الفصول الأقدم من التاريخ الإنجليزى المدونة
فى قائمتنا ؛ ألفينا أن التوسع عبر البحار ، لم يكن قاصراً على بلاد أوروبا
الغربية فحسب ، ولكنه حصر كلية تقريباً فى البلاد الساحلية على المحيط
الأطلسى . ونستطيع فى دراستنا تاريخ حركتى الإصلاح والنهضة ، أن
نغض الطرف عن التطور الدينى والثقافى فى روسيا وتركيا ، دون أن نخسر
شيئاً . كما لا توجد صلة سببية بين النظام الإقطاعى فى أوروبا الغربية
والظواهر الإقطاعية التى كانت قائمة فى الجماعات البيزنطية والإسلامية
المعاصرة .

وأخيراً ، فإن تحوّل الإنجليز إلى المسيحية الغربية ، قد جعلهم أعضاء
فى مجتمع ، مقابل إقصائهم عن عضوية مجتمعات أخرى . وذلك لأنه حتى

(١) عائلة من الشوجن (يعنى اللفظ الحكام المسكرين اليابانيين) ، ظلت تحكم اليابان
حوالى القرنين رنما عن أباطرتها ، إلى أن استطاع هؤلاء استرداد سلطانهم بفضل ثورة قام بها
نبلاء البلاد بعد اتصال اليابان بالغرب . (المترجم)

الجميع المنقسم الذي عقد في هويتبي عام ٦٦٤ ميلادية ، كمن من الحائز أن يعتنق الإنجليز مسيحية الغرب الأقصى التي كانت قائمة على الحدود الكلتية . وبالتالي لو قدر لبعثة أوغسطين الفشل كلية ؛ لانضم الإنجليز إلى الإيرلنديين وأهالي ويلز في إقامة كنيسة مسيحية جديدة منشقة عن روما ، مثلها مثل النسطوريين في أقصى الحدود الشرقية للمسيحية . ولكن من المحتمل أن يفقد مسيحيو الغرب الأقصى في الجزائر البريطانية ، الاتصال بمسيحيي القارة الأوربية ، عند ظهور المسلمين العرب بعد ذلك على ساحل المحيط الأطلسي ، مثلما فقد مسيحيو الحبشة وآسيا الوسطى اتصالهم تماماً بإخوانهم في الدين في القارة الأوربية . وقد يمكن تصوّر تحولهم إلى الإسلام ، كما حدث فعلاً للمسيحيين القائلين بالطبيعة الواحدة^(١) والنسطوريين ، بعدما انتقل الشرق الأوسط إلى حكم العرب . ولقد توّصم هذه الافتراضات بأنها خيالية إلى أبعد حد ، إلا أن إمعان النظر فيها ، يذكرنا أنه بينما وحدّ التحول الديني عام ٥٩٧ بين الإنجليز والمسيحية الغربية ، إلا أنه لم يوحدهم مع الجنس البشري كافة ؛ بل أقام في نفس الآن حداً فاصلاً يفصل بين الإنجليز باعتبارهم مسيحيين غربيين ، وأتباع الجماعات الدينية الأخرى .

أتاح لنا هذا الاستعراض الثاني لفصول التاريخ الإنجليزي ، وسيلة الحصول على قطاعات مستعرضة مكانية ؛ في أوقات مختلفة لذلك المجتمع ، الذي يشمل بريطانيا ، والذي يعتبر بالنسبة لها « ميدان الدراسة القابل للفهم » . وتجب التفرقة أثناء تناولنا هذه القطاعات المستعرضة ، بين طائفة من مستويات الحياة الاجتماعية تختلف بعضها عن البعض الآخر وهي :

الاقتصادي - السياسي - الثقافي .

ذلك لأنه قد اتضح تماماً الآن أن الامتدادات المكانية لهذا المجتمع ،

(١) أي القائلون بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، أي الطبيعة الإلهية . وهم أنباط مصر

والحبشة وغيرهم . (المترجم)
« المراد بوجه الامتداد المكانية هو القديس أوغسطين في وقت
انقسام الحدود التي كوّنها الكنيسة بعد تناميها المسيحية
بعد سقوط دولة روما . ووجه الامتداد المكانية هو كتاب الفهم الحديثة
الله » .

تختلف اختلافاً محسوساً يترتب على نوع المستوى الذى نركز فيه اهتمامنا .
 ففي الوقت الحاضر وعلى المستوى الاقتصادى ؛ لا شك أن المجتمع الذى
 تنتمى إليه بريطانيا العظمى ، يمتد بامتداد سطح الأرض المسكون والصالح
 للملاحة . كما أن الصفة العالمية للمجتمع نفسه ، تكاد أن تتجلى بنفس الدرجة
 تقريباً فى الوقت الحاضر فى المستوى السياسى أيضاً . على أننا إذا انتقلنا إلى
 المستوى الثقافى ، نجد أن الانتشار الجغرافى الحاضر للمجتمع الذى تنتمى إليه
 بريطانيا ، أقل بكثير من انتشاره فى مستوى السياسة والاقتصاد . لأنه ينحصر
 أساساً فى البلاد التى تقطنها الشعوب الكاثوليكية والبروتستانتية فى أوروبا
 الغربية وأميركا والبحار الجنوبية . وعلى الرغم من العناصر الثقافية الغربية
 التى تأثرت بها هذه الجماعة مثل : الأدب الروسى والرسم الصينى والدين
 الهندى . وعلى الرغم من عظم قوة تأثيرات المجتمع الغربى على المجتمعات
 الأخرى كالمجتمعات : الأرثوذكسية والمسيحية الشرقية والإسلامية والهندوكية
 والشرق الأقصى ؛ إلا أنه من الأمور الثابتة أن جميع هذه المجتمعات تقع
 خارج نطاق العالم الثقافى الذى ينتمى إليه الإنجليز .

وإذا بحثنا مزيداً من القطاعات المستعرضة فى أزمان سابقة ، نجد أنه على
 جميع المستويات الثلاثة ؛ تنقلص باطراد الحدود الجغرافية للمجتمع الذى
 ندرسه . ففي قطاع مستعرض لعام ١٦٧٥ ، يحتمل أن لا يكون التقلص
 كبيراً جداً على المستوى الاقتصادى (إن حصرنا دراستنا على الأقل فى انتشار
 التجارة ونجاهلنا حجمها ونوعها) . أما الحدود على المستوى السياسى فى
 ذلك التاريخ ، فإنها تنقلص حتى تتطابق تقريباً مع حدود المستوى الثقافى فى
 الوقت الحاضر .

وتختفى فى قطاع مستعرض لعام ١٤٧٥ ؛ أجزاء ما وراء البحار فى جميع
 المستويات الثلاثة على حد سواء . بل تنقلص الحدود على المستوى الاقتصادى
 حتى تتطابق تقريباً هى الأخرى مع حدود المستوى الثقافى الذى ينحصر فى

ذلك الوقت في أوروبا الغربية والوسطى ، باستثناء سلسلة تنفكك سريعاً من القواعد الأمامية متناثرة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط . وإن أخذ قطاع مستعرض بدائي حوالى ٧٧٥ ميلادية ؛ تنقلص الحدود إلى أضيق من ذلك على المستويات الثلاثة . إذ كانت مساحة المجتمع الذى ندرسه في هذا التاريخ محصورة تقريباً فيما كان وقتئذ أملاك شارلمان ، بالإضافة إلى الممالك الإنجليزية التى خلفت الإمبراطورية الرومانية في بريطانيا .

أما خارج هذه التخوم ، فقد كانت شبه جزيرة إيبيريا كلها تقريباً تحت سيطرة الخلافة العربية الإسلامية . وكان شمال وشمال شرق أوروبا في قبضة البرابرة الوثنيين . ويقطن المناطق النائية الشمالية الغربية من الجزائر البريطانية ، مسيحيو الغرب الأقصى ؛ وكان جنوب إيطاليا تحت حكم البيزنطيين .

فلندع هذه الجماعة - التى كنا ندرس تخومها المكانية - المسيحية الغربية . وحالها تبلور صورتها في أذهاننا بالاهتداء إلى اسم لها ، تبلور في الوقت نفسه ، صور وأسماء الجماعات المقابلة لها في العالم المعاصر ؛ سيما إن ركزنا اهتمامنا إلى المستوى الثقافي . فبالنسبة لهذا المستوى نستطيع أن نميز بلا شك وجود أربعة مجتمعات أخرى من نفس نوع مجتمعنا وهى لا تزال قائمة في عالم اليوم :

الأول : مجتمع مسيحي أرثوذكسى في جنوب شرقى أوروبا وآسيا .

الثانى : مجتمع إسلامى يتركز على المنطقة القاحلة الممتدة بانحراف عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط ؛ من الأطلسي ، حتى الواجهة الخارجية من حائط الصين العظيم .

الثالث : مجتمع هندوكى في القسم الاستوائى من الهند .

الرابع : مجتمع الشرق الأقصى في المنطقتين شبه الاستوائية والمعتدلة ، بين المنطقة القاحلة والمحيط الهادى .

ويتيح لنا إمعان النظر ، أن نميز كذلك مجموعتين تبدوان كبقايا متحجرة من مجتمعات مشابهة اندرست ، في الوقت الحاضر ، وهما :

المجموعة الأولى : تشمل المسيحيين المينوفيستيين^(١) في أرمينيا وما بين النهرين ومصر والحبشة والناطقة المسيحيين في كردستان والناطقة السابقين في ملابار . ويضاف إلى ذلك اليهود والمجوس .

المجموعة الثانية : تتضمن البوذيين المعتنقين مذهب ماهايانا^(٢) في التبت ومنغوليا والبوذيين أتباع مذهب هيناياما^(٣) في سيلان وبورما وسيام وكبوديا . وكذلك الجين^(٤) في الهند .

وإذا أعدنا النظر في القطاع المستعرض في عام ٧٧٥ بعد الميلاد ، ألفينا عدد المجتمعات وشخصيتها على خارطة العالم ، مماثلين لما هما عليه في الوقت الحاضر . ولقد ظل مصوّر المجتمعات من هذا النوع في العالم ، على حاله بصفة جوهرية منذ ظهور المجتمع الغربي لأول مرة . وأدى كفاح الغرب في سبيل البقاء ، إلى زحزحته المجتمعات المعاصرة له وإيقاعها في أحابيل شباك نفوذه الاقتصادي والسياسي ؛ لكنه لم يجردها بعد من ثقافتها المميزة . فهي وإن عانت من وقع ضغطه الشديد ، إلا أنها ما برحت تحافظ على كيائها الوجداني .

وجمّاع المناقشة - إلى المدى الذي أوصلناها إليه حتى الآن - ضرورة إقامة فاصل قاطع بين نوعين من العلاقات :

(١) القائلون بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، أي الطبيعة الإلهية وحدها . (المترجم)

(٢) الماهايانا : ضرب من البوذية ينتشر في الصين واليابان وغيرها من مناطق آسيا الشالية . (المترجم)

(٣) الهيناياما : هي بوذية آسيا الجنوبية . (المترجم)

(٤) طائفة هندية غنية تنتشر خاصة في شمال غرب الهند . وتؤمن باستقلال الروح عن الجسد سواء للحيوان أو للإنسان . ويتأقن الخلاص بتعذيب الجسد وقمع الشهوات . ويحذرون من إيذاء كل حي تطبيقاً لمبدأهم في الأرواح . (المترجم)

الأول : العلاقات بين الجماعات داخل المجتمع الواحد .

الثاني : العلاقات بين المجتمعات المختلفة .

والآن وقد استقصينا الامتداد المكاني للمجتمع الغربي ، علينا أن ننظر في امتداده الزماني . هنا تطالعنا فوراً حقيقة لباسها عجزنا عن معرفة مستقبله . وهذا قصور يحد كثيراً من كمية الضوء الذي قد تلقيه دراسة هذا المجتمع المعين (أو أى مجتمع آخر موجود) ، على طبيعة النوع الذى تنتمى إليه هذه المجتمعات . ومن ثم علينا أن نروض أنفسنا على الاكتفاء بارتياح مبادئ المجتمع الغربى .

لما قسّمت أملاك شارلمان بين حفدته الثلاثة بمقتضى معاهدة فردون عام ٨٤٣ ميلادية . طالب لوثير الحفيد الأكبر مثلاً بعاصمتى جدّه « آخن وروما » . ولكى يربط بينهما حزام متصل من الأرض ، خصصت له حصّة تفرقت عبر سطح أوروبا الغربية من مصبى نهري التير والبوا إلى مصب نهر الراين . ويعتبر نصيب لوثير أحد أعاجيب الجغرافيا التاريخية . على أية حال كان الإخوة الملوك الثلاثة أولاد شارلمان على حق فى اعتقادهم بما لهذه المنطقة من أهمية خاصة فى العالم الغربى . والواقع مهما يكن من أمر مستقبلها فقد كان لها ماض حافل .

ولقد حكم لوثير وجدّه كلاهما من آخن إلى روما . حاملين لقب « الإمبراطور الرومانى » . وكان الخط الممتد من روما عبر الألب إلى آخن (ونحو الأمام من آخن عبر المانش إلى الحائط الرومانى) فى طبيعة خطوط دفاع الإمبراطورية الرومانية التى كانت قد اندرست وقتذاك . وأمكن الرومان بإقامة خط مواصلات نحو الشمال الغربى من روما عبر الألب ، وتشديد حاجز حربى على الضفة اليسرى للراين وتنظية الجناح الأيسر لهذا الحاجز يضم جنوب بريطانيا ، أن يفصلوا الطرف الغربى من القارة الأوروبية وراء الألب . ثم ألحقوه بإمبراطورية كانت - بصفة أصلية -

مقصورة على حوض البحر الأبيض المتوسط ، فيما عدا هذا الجزء منها .

وعلى هذا النحو ، كان خط مملكة لوثير جزءاً من الكيان الجغرافي للإمبراطورية الرومانية قبل عصر لوثير ؛ كما أصبح جزءاً من الكيان الجغرافي للمجتمع الغربي بعد ذلك . على أن وظيفة هذا الخط في بناء الإمبراطورية الرومانية ، لم تماثل وظيفته في بناء المجتمع الغربي الذي تلاها . إذا كان في عهد الإمبراطورية حداً ، لكنه غدا في المجتمع الغربي قاعدة التوسع الجانبي في كلتا الناحيتين ، وفي جميع الاتجاهات . ففي غضون ما يسمى اصطلاحاً « بالرقاد العميق » (حوالى ٣٧٥ - ٦٧٥ ميلادية) والتي تتوسط فترة تفكك الإمبراطورية الرومانية ، والانبعث التدريجي للمجتمع الغربي من الفوضى ، أخذ ضلع من جنب المجتمع القديم وصنع منه العمود الفقري لكائن جديد من نفس النوع .

يتضح الآن : أن تتبع حياة المجتمع الغربي إلى الوراء في الفترة السابقة لعام ٧٨٥ ميلادية ، يكشف لنا تلك الحياة ممثلة في صورة غير صورته ، هي الإمبراطورية الرومانية والمجتمع الذي تنتمي إليه هذه الإمبراطورية . كما يمكن أيضاً إثبات أن أية عوامل في التاريخ الغربي ، يمكن وجودها في تاريخ هذا المجتمع القديم ، قد تكون لها وظائف مختلفة تماماً في كل من هاتين الجماعتين .

ولقد غدا نصيب لوثير أساس المجتمع الغربي . إذ انبعث مجتمع جديد في نهاية الأمر تحت تأثير اندفاع الكنيسة تجاه الحدود الرومانية وعلاقاتها بالبرابرة الذين كانوا يضغطون عليها من ناحية الشمال من المنطقة غير المملوكة لأحد . وعلى ذلك سيركّز مؤرخ المجتمع الغربي في تتبعه أصوله الماضية من هذه النقطة ، اهتمامه على تاريخ الكنيسة والبرابرة . وسيكون يسيراً عليه ، تتبع كلا التاريخين إلى الوراء لغاية الثورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي حدثت خلال القرنين الأخيرين قبل الميلاد ،

وقتما صرعت صدمة حرب هانيبال الجسيمة ، والمجتمع اليوناني الروماني .
 لماذا بسطت روما ساعدا طويلا تجاه الشمال الغربي ، وضمت إلى
 إمبراطورتها الركن الغربي من أوروبا ، ما وراء الألب ؟
 لأن صراع الحياة والموت مع قرطاجنة قد جذبها إلى ذلك الاتجاه .
 ولماذا توقفت عند الراين بعدما اجتازت الألب ؟
 لأن حيوية روما استنفدها قرنان من الحروب والثورات في
 عصر أوغسطين ؟

لماذا شق البرابرة في النهاية طريقهم إلى داخل الحدود الرومانية ؟
 لأنه عندما يتوقف عن الامتداد خط حدود بين مجتمعين أحدهما رفيع
 المدنية والآخر أقل مدنية ؛ لا يبقى الخط على حال ثابتة ، بل يتحول
 بمرور الوقت إلى صالح المجتمع المتأخر .
 ولما اخترق البرابرة الحدود ، لماذا تقابلوا مع الكنيسة في
 الجانب الآخر ؟

التفسير المادي لذلك : أن الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التي تلت
 حرب هانيبال ، قد جلبت معها من العالم الشرقي حشودا من الأرقاء لتعمل
 في أراضي الغرب المحرقة . وتلا هجرة هؤلاء العمال الشرقيين الإجبارية
 هذه ، تغلغل الأديان الشرقية سلميا في المجتمع اليوناني الروماني .
 والتفسير الروحي أن هذه الأديان ، بما بشرت بعالم آخر فيه انخلاص
 الذات ، قد وجدت فراغا في نفوس قلة مهيمنة فشلت في عالم الدنيا في إنقاذ
 مقادير المجتمع اليوناني الروماني ، فددت في تلك النفوس جذورها .

ويجد دارس التاريخ اليوناني الروماني من الناحية الأخرى ، أن المسيحيين
 والبرابرة كليهما ، يبدوان كمخلوقات من العالم السفلي وقد ندعوهم ببوليتاريا

داخلية وبروليتاريا خارجية^(١) للمجتمع اليوناني الروماني (والأفضل أن نسميه الهليني) في طوره الأخير . وقد يظهر أن أساطين الثقافة الهلينية حتى ماركوس أوريليوس (وهو من ضمنهم) ، غالبا ما يتجاهلون وجودهم . وقد يشخص ذلك الدارس ، الكنيسة المسيحية وعصابات البرابرة الحربية على أنها أمراض خبيثة لم تنتب جسم المجتمع الهليني إلا بعد ما ضعفت حرب هانيبال قواه أمدا طويلا .

وقد يساعدنا هذا الاستقصاء على استخلاص نتيجة إيجابية فيما يتصل بامتداد المجتمع الغربي إلى الوراء في الزمن . فإنه وإن كانت فترة حياة هذا المجتمع أطول نوعا ما من حياة أية أمة تنتمى إليه ، إلا أنها لم تبلغ من طول الحياة ، المدى الذي بلغته الأنواع التي يعتبر هذا المجتمع مثلا لها . فإن تقصينا تاريخه السابق حتى نصل إلى جذوره ؛ نلتقي بطور أخير لمجتمع آخر تمتد أصوله في الماضي - بكل جلاء - إلى مدى أبعد كثيرا . وليس اتصال التاريخ - إذا استعملنا تعبيرا مصطلحا عليه - هو ذلك الاتصال الذي يتمثل في حياة فرد ما . وما هو في الحقيقة ، إلا اتصال حياة أجيال متعاقبة .

فالمجتمع الغربي - والحالة هذه - ليتصل قرابة بالمجتمع الهليني ، تمكن مقارنتها - باستخدام تشبيه مناسب - وإن كان معينا - بالصلة بين الابن والأب . إن سلمم بالتعليل الوارد في هذا الفصل ، سيتفق الرأي على أن وحدة الدراسة التاريخية القابلة للفهم ؛ ليست هي دولة قومية . ، ولا هي - من الجانب الآخر للسلم - الجنس البشري في مجموعه . ولكن هذه الوحدة ، هي مجموعة خاصة من البشرية دعوناها نحن « مجتمع » .

ولقد كشفنا خمسا من هذه المجتمعات ما تزال قائمة في الوقت الحاضر ،

(١) يعنى المؤلف بلفظ البروليتاريا ، عنصرا اجتماعيا أو جماعة تعيش في نطاق مجتمع في أية فترة من تاريخه دون أن تكون منه . (المترجم)

فضلا عن أدلة تثبت وجود عدة مجتمعات متحجرة ذهبت وانقضت .
وعثرنا في خلال بحثنا عن ظروف ميلاد أحد هذه المجتمعات الحية ، وهو
المجتمع الغربي ، على مجتمع معروف آخر في طور الاحتضار ، يتصل به
المجتمع الغربي كما لو كان من عقبه . مجتمع تربطنا به - في كلمة واحدة -
صلة البنوة .

وسنحاول في الفصل التالي أن نضع قائمة للمجتمعات التي من هذا النوع ،
التي يعرف أنها وجدت على هذا الكوكب . وأن نبين علاقات
بعضها ببعض :

الفصل الثاني

الدراسة المقارنة للحضارات

أدركنا بما سبق ، أن المجتمع الغربي (أو حضارته) ، قد تولّد عن مجتمع سابق . ومن ثمّ تتمثل الطريقة الواضحة لمواصلة بحثنا عن مجتمعات أخرى من نفس الفصيلة ؛ في فحص الأمثلة القائمة الأخرى :

المجتمع المسيحي الأرثوذكسي ، الإسلامي ، الهندي ، مجتمع الشرق الأقصى .

علّنا نكشف عن آباء لها ، هي الأخرى .

ولكن قبل أن نمضي قدماً في هذا البحث ، علينا تحديد ما نبحث عنه . وبعبارة أخرى ، ترى ما هي أدلة التّنبؤ والتولّد التي يجب علينا أن نقبلها برهاناً صحيحاً ؟ وما هي بالضبط الشواهد التي عثرنا عليها فعلاً في موضوع تولّد مجتمعنا نحن عن المجتمع الهليني ؟

كانت أولى هذه الظاهرات وجود « دولة عالمية » (الإمبراطورية الرومانية) ، تضم المجتمع الهليني بأسره في جماعة سياسية مفردة ؛ وذلك في غضون الطور الأخير من التاريخ الهليني . وهذه ظاهرة تسرعي الانتباه . لأنها تناقض تماماً تعدد الدول المحلية التي انقسم إليها المجتمع الهليني قبل قيام الإمبراطورية الرومانية . كما أنها تناقض تماماً ، تعدد الدول التي انقسم إليها المجتمع الغربي حتى الآن .

ونجد فضلاً عن ذلك ، أن الإمبراطورية الرومانية قد « تقدمها في الزمن مباشرة » عصر اضطرابات يعود في امتداده إلى الوراء إلى حرب هانيبال على الأقل . وهو عصر توقف المجتمع الهليني خلاله عن الابتداع ، وبدأ تدهوره الفعلي أمراً واضحاً . وكان انحداراً ، وإن أمكن وقفه حقبة

من الزمن بفضل تشييد الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنه تبين في نهاية الأمر أنه عرّض داء عضال دمر المجتمع الهليني والإمبراطورية معه . هذا وقد تلا سقوط الإمبراطورية الرومانية نوع من « فترة الفراغ »^(١) بين اختفاء المجتمع الهليني ، وانبعاث المجتمع الغربي .

ويشغل هذا الفراغ نشاط هيتين :

الأولى : الكنيسة المسيحية التي أقيمت داخل الإمبراطورية الرومانية ، وعاشت بعد انهيارها .

الثانية : مجموعة من الدول قصيرة العمر ، تخلّفت عن الإمبراطورية الرومانية . وقد نشأت على الأراضي التي كانت للإمبراطورية نتيجة لما يسمى « هجرات الشعوب »^(٢) ، من المنطقة غير المأوكة لأحد وراء حدود الإمبراطورية .

ولقد سبق لنا وصف هذين العاملين بالبروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية للمجتمع الهليني . وإنه وإن اختلفا في كل شيء ، إلا أنهما يتفقان في نفورهما من الأقلية المسيطرة في المجتمع الهليني . وهي الأقلية التي كانت تتكون من الطبقات القائدة في المجتمع القديم ، ولكنها ضلّت طريقها وأصبحت لا تقود .

والواقع أن الإمبراطورية سقطت ، وبقيت من بعدها الكنيسة . لأن الكنيسة تولت الزعامة ، وكسبت ولاء الناس لها . بينما فشلت الإمبراطورية حقبة طويلة في الفوز بهذا أو ذاك . وبالأحرى غدت الكنيسة — وهي التي تخلّفت عن مجتمع محتضر — الرحم الذي خرج منه المجتمع الجديد .

وما هو الدور الذي أدّاه في مولد المجتمع الغربي المظهر الآخر للفراغ ، أي هجرات الشعوب ، وهو الذي انحدرت أثناءها انحدار السيل من وراء

(١) أي فترة غير مستقرة بين عهدين . (المترجم)

(٢) Völkerwanderung

حدود المجتمع القديم ؛ البروليتاريا الخارجية أى الألمان والسلاف من غابات شمال أوروبا ، والسرماثيون^(١) والهون من سهب أوراسيا ، والعرب من شبه جزيرة العرب ، والبربر من جبال أطلس والصحراء الكبرى ؛ الذين قامت دولهم بعد الإمبراطورية الرومانية ودالت سريعاً ، وشاركت الكنيسة مسرح التاريخ خلال الحقبة التى أطلقنا عليها اسم الفراغ أو « عصر البطولة » ؟

مدار الإجابة على ذلك السؤال :

إنه إذا ما قورن ما أدته تلك الدول للمجتمع الغربى بما قامت به الكنيسة له ؛ نجد أن دور تلك الدول سلبي ولا يعتد به . إذ هلكت جميعها تقريباً بفعل العنف قبل نهاية فترة الفراغ . فالوندال والقوط الشرقيون ، قضت عليهم الهجمات المضادة التى شنتها عليهم الإمبراطورية الرومانية نفسها . إذ كان فى بقية وميض اللهب الرومانى ، ما يكفى لإحراق هذه القراشات الضعيفة وقهر غيرهم فى حروب نشبت فيما بينهم . فالقوط الغربيون مثلاً ؛ تلقوا الضربة الأولى من الفرنجة ، ثم أجهز العرب عليهم بعد ذلك . أما البقية الباقية التى تخلّفت عن هذا الصراع بلا هوادة فى سبيل البقاء ، فقد أصيبت بانحلال مزر وتخبّطت فى حياة خاملة إلى أن استأصلتها بعد ذلك قوى سياسية جديدة تحمل بين طياتها جرثومة قوة الابتداع . ومن قبيل هذا النبت الحامل عائلتا ميرفتجيان ولومبارد^(٢) اللتان أزالهما بناء إمبراطورية شارلمان . ولم يتبق سوى دولتين من الدول التى خلفت الإمبراطورية الرومانية ، كان لهما خلف بين أمم أوروبا الحديثة ؛ مملكة أوشتراشيا الفرنجية التى ترجع إلى شارلمان ، ومملكة وسكس التى ترجع إلى ألفرد .

ومن ثم ، كانت هجرات الشعوب ومخلفاتها الفانية ، شواهد إثبات — مثل الكنيسة والإمبراطوية — على انتساب المجتمع الغربى إلى المجتمع

(١) سكان بولندا وغرب روسيا الأقدمون . (المترجم)

(٢) عائلة أسسها كلوفيس عام ٤٨٦ وسكنت الجول والألمان . (المترجم)

الهلينى . لكنها كالإمبراطورية — لا الكنيسة — مجرد شواهد فحسب . وإذا انصرفنا عن دراسة الأعراض إلى دراسة الأسباب ؛ نجد أنه بينما تنتمى الكنيسة إلى المستقبل والماضى على السواء ، انتمت الدول التى أقامها البرابرة بكلباتها إلى الماضى فقط ؛ مثلها مثل الإمبراطورية ؛ فإن قيام تلك الدول ، كان مجرد انعكاس لسقوط الإمبراطورية ، وكان هذا السقوط نذيراً أكيداً بسقوط تلك الدول .

ولقد يصدم هذا التقدير البخس لدور البرابرة فى تكوين المجتمع الغربى ، المؤرخين الغربيين فى الحيل الماضى (مثل فريمان) ؛ الذين اعتبروا نظام الحكومة القائمة على المسؤولية البرلمانية ، تطوراً لبعض نظم الحكم الذاتى التى يزعمون أن القبائل التيتونية قد جلبتها معها من المنطقة الغير المملوكة لأحد . لكن هذه النظم التيتونية — إن فرض وجودها — كانت نظماً أولية يتسم بها الإنسان البدائى فى جميع الأمكنة والعهود ؛ وهى — على ما كانت عليه — لم يقيض لها البقاء بعد فترة « الهجرات » . ذلك لأن زعماء عصابات البرابرة الحربية ، كانوا مغامرين عسكريين . وكان دستور الدول المستخلقة — مثل دستور الإمبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت — يتسم بغلبة الروح الاستبدادية عليه ، وإن لطفت الثورات من هذا الاستبداد . ولقد دالت آخر آثار هذه النظم الاستبدادية البربرية ، عدة قرون قبل البداية الحقيقية للتطور الحديد الذى أنتج بالتدريج ، ما ندعوه بالنظم البرلمانية .

ويمكن كذلك إرجاع جانب من المغالاة الشائعة فى تقدير مساهمة البرابرة فى حياة المجتمع الغربى ، إلى العقيدة الخاطئة التى تعزو التقدم الاجتماعى إلى توافر طائفة من الصفات الفطرية فى الجنس . فإن ما عمد إليه المؤرخون الغربيون فى الحيل الماضى من القياس خطأ على الحقائق التى كشفت عنها فى ذلك الوقت العلوم الطبيعية ؛ أدى بهم إلى تشبيه الأجناس بالعناصر الكيميائية ، وإلى اعتبار مزج السلالات البشرية تفاعلاً كيميائياً أطلق

الطاقات الكامنة وأحدث الفوران والتحول ، مكان الجمود والركود الموجودين من قبل . وبالحري خدع المؤرخون أنفسهم بافترضهم أن « نقل الدم الحديد » - على ما يصفون به التأثير العنصرى للتسلل البربرى - قد يفسر ما تلا ذلك لمدة طويلة من مظاهر الحياة والنمو التى يتكون منها تاريخ المجتمع الغربى . ولقد قيل إن هؤلاء البرابرة « أجناس نقية » من الغزاة الذين ما تزال دماؤهم تبعث فى أجسام خلفهم المزعومين قوة وشرافاً .

وحقيقة الأمر ، أن البرابرة لم يكونوا هم صانعى وجودنا الروحى . وإذا كانوا قد لفتوا الأنظار إلى حركاتهم ، فلأنهم حضروا موت المجتمع الهلينى ؛ لكنهم لن يستطيعوا أن يدعوا لأنفسهم شرف توجيه البشرية القاضية إلى هذا المجتمع . وذلك لأن المجتمع اليونانى كان يموت فعلاً من الجراح التى أحدثها فى نفسه إبان الاضطرابات وقبل وصولهم إلى مسرح الحوادث بعدة قرون . وما كانوا إلا نسوراً تغذى على الحيفة أو ديداناً تدب عليها . فما عصر بطولتهم إلا خاتمة التاريخ الهلينى ، لا فاتحة التاريخ الغربى .

وصفوة القول يمتاز الانتقال من المجتمع القديم إلى الحديد بثلاثة عوامل :

الأول : دولة عالمية فى المرحلة النهائية للمجتمع القديم .

الثانى : دين نما فى المجتمع القديم ، وهو بدوره ينمى المجتمع الحديد .

الثالث : اقتحام البرابرة المجتمع القديم ، فى عصر يشيع فيه الفوضى (يصطلح على تسميته بعصر البطولة البربرية) .

ويعتبر العامل الثانى ، أهم العوامل الثلاثة ، والثالث أقلها أهمية .

وهناك دليل آخر على عمليتى التبنى والتولد^(١) بين المجتمعين الهلينى والغربى ؛ نذكره قبل أن نتابع محاولتنا لاستكشاف غير ذلك من المجتمعات

(١) تتضمن عملية التبنى أن يكون مجتمع أبا روحياً لمجتمع آخر وعملية التولد تفرع

ذات القربى . ويتأتى ذلك عن طريق ابتعاد مهد المجتمع الحديد أو موطنه الأصلي ، من الموطن الأصلي للمجتمع السابق . ولقد وضح من المثال المتقدم ، أن حد المجتمع القديم أصبح مركز المجتمع الحديد ، ولذلك يجب أن نعدّ أنفسنا للملاحظة أمثال هذا الانتقال في حالات أخرى .

١ - المجتمع المسيحى الأرثوذكسى

لن يترتب على دراستنا أصول هذا المجتمع إضافة جديدة إلى قائمتنا عن نماذج الأنواع . لأنه واضح أن هذا المجتمع والمجتمع الغربى ولدان توأمان للمجتمع الهلبنى ، مع هذا الفارق وهو أن الأول رحل نحو الشمال الشرقى بدلا من الشمال الغربى . وإذا كان مسقط رأسه أو موطنه الأصلي منطقة الأناضول البيزنطية ، وإذا كان توسع المجتمع الإسلامى المنافس له قد حدث من حركته كثيراً خلال قرون عديدة ؛ إلا أنه قد استطاع مع ذلك أن يحقق توسعاً كبيراً تجاه الشمال والشرق عبر روسيا وسiberia ملتفّاً حول العالم الإسلامى وضاعطاً على الشرق الأقصى .

أما افتراق المسيحيين الغربية والأرثوذكسية إلى مجتمعين منفصلين ، فيمكن أن نعزوه إلى انشقاق الشرقة المشتركة التى خرجا منها - وهى الكنيسة الكاثوليكية - إلى هيتين : الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، والكنيسة الأرثوذكسية . وقد استغرق هذا الانشقاق ثلاثة قرون ليستكمل مقوماته : بادئاً من الجدل حول تحطيم الإيقونات فى القرن الثامن الميلادى ، ومنتهياً بقطع العلائق نهائياً عام ١٠٥٤ ميلادية إثر اختلاف حول مسألة لاهوتية . وفى نفس الوقت اصطبغت كل من كنيسة المجتمعين إبان التباين السريع بينهما ، بصفات سياسية متعارضة تعارضاً حاداً . فأصبحت الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب تركز حول سلطة مستقلة هى بابوية القرون الوسطى ، بينما غدت الكنيسة الأرثوذكسية إدارة طيعة تابعة للدولة البيزنطية .

٢ - المجتمعان الإيراني والعربي والمجتمع السوري

الإسلام هو المجتمع الحى التالى الذى تتعين علينا دراسته . وإذا أمعنا النظر فى أساس المجتمع الإسلامى ميزنا فيه :

دولة عالمية ، نظام دينى عالمى ، هجرة شعوب .

وإنه وإن كانت لا تتطابق مطابقة تامة مع مثيلاتها فى المسيحيين الغربية والأرثوذكسية ، إلا أنه بينها وبين مثيلاتها هذه تشابه كبير .

فأولاً : الدولة الإسلامية العالمية ، هى الخلافة العباسية فى بغداد^(١).

ثانياً : النظام الدينى العالمى هو بالطبع الإسلام نفسه .

ثالثاً : وحدثت فترة الهجرات عندما خربت أملاك الخلافة بفعل بدو أتراك ومغول سهب أوراسيا ، وبدو البربر فى شمال أفريقيا ، وبدو شبه الجزيرة العربية .

وتشمل فترة الفراغ التى استغرقتها هذه الهجرات ؛ القرون الثلاثة تقريباً بين عامى ٩٧٥ و ١٢٧٥ ميلادية . وتعتبر السنة الأخيرة ، بدء المجتمع الإسلامى كما نلجده فى عالم اليوم .

ويبدو كل شىء واضحاً حتى الآن . إلا أن مزيداً من البحث يجعلنا نتجابه تعقيدات . أولها أن سلف المجتمع الإسلامى (وهو ما لم نحقق ذاتيته بعد) قد ثبت أن ليس له عقب واحد فحسب ، ولكن توأمان ؛ وهو يشابه فى هذا المجال المجتمع الهلبنى . غير أن سلوك هذين التوأمين يختلف كل الاختلاف عن سلوك توأمة المجتمع الهلبنى . إذ بينما عاش المجتمعان

(١) كان إنشاء الخلافة العباسية فى القاهرة بمثابة استحضار طيف خلافة بغداد . أى أنه كان ظاهرة من نفس نوع الإمبراطورية الرومانية الشرقية الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وفى جميع الحالات الثلاث ، أنتج مجتمع متولد عن آخر أو احتفظ بطيف الدولة العالمية للمجتمع الأصل الذى تولد هو عنه . (المؤلف)

الغربي والأرثوذكسي جنباً إلى جنب قرابة الألف عام بعد انتهاء المجتمع الهليني : فإن أحد التوأمين المتولدين عن سلف المجتمع الإسلامي الذي نحاول تحقيقه ، قد ابتلع التوأم الآخر ، وضمه إليه .

وسندعو هذين المجتمعين الإسلاميين التوأمين : الإيراني والعربي .

لم يكن التباين الذي قام بين خلف ذلك المجتمع الذي لم تتحقق منه بعد ؛ مبعثه الانشقاق الديني ، كما كان الحال بالنسبة لعقب المجتمع الهليني . فإنه وإن تشعب الإسلام إلى طائفتي أهل السنة والشيعة — كما تفرعت المسيحية إلى الكاثوليكية والأرثوذكسية — إلا أن هذا الانشقاق الديني في الإسلام لم يتطابق أبداً في أية مرحلة ؛ مع الانقسام بين المجتمع الإيراني الإسلامي والمجتمع العربي الإسلامي . وذلك رغم أن الانشقاق قد مزق مع الزمن المجتمع الإيراني الإسلامي ، عندما ساد المذهب الشيعي في فارس خلال الربع الأول للقرن السادس عشر الميلادي . واستطاع المذهب الشيعي بذلك أن يستقر في مركز المحور الأساسي للمجتمع الإيراني الإسلامي (الذي يمتد شرقاً وغرباً من أفغانستان إلى الأناضول) تاركاً المذهب السني يسود كلا جانبي هذا المحور ، أي في طرفي العالم الإيراني وفي البلاد العربية إلى الجنوب والغرب .

وإذا عقدنا مقارنة بين توأمي مجتمع الإسلام وتوأمي مجتمع المسيحية ؛ وجدنا أن المجتمع الإسلامي الذي ولد فيما يمكننا تسميته المنطقة الفارسية التركية أو الإيرانية ، يشابه بعض الشيء المجتمع الغربي . بينما المجتمع الآخر الذي ظهر فيما يمكننا تسميته المنطقة الغربية ، يشابه بعض الشيء المجتمع المسيحي الأرثوذكسي . فثلاً يذكرنا طيف الخلافة العباسية الذي استحضره المماليك في القاهرة في القرن الثالث عشر الميلادي ، بطيف الإمبراطورية الرومانية الذي استحضره الإمبراطور لاوون السورى في القسطنطينية في القرن الثامن .

ولقد كان نظام المالك السياسى كنظام لاوون متواضعاً نسبياً ، إلا أنه كان أعظم تأثيراً وأطول عمراً من إمبراطورية تيمور التى أقامها فى المنطقة الإيرانية المجاورة ؛ وكانت هذه واسعة مهمة قصيرة العمر . وتشبه فى ظهورها واختفائها إمبراطورية شارلمان فى الغرب .

وثمة وجه شبه آخر : كانت اللغة العربية نفسها هى لغة الثقافة فى المنطقة العربية وفى الخلافة العباسية ببغداد . فى حين وجدت المنطقة الإيرانية فى اللغة الفارسية أداة للتعبير والثقافة ، وهى لغة هذبها تطعيمها بالعربية على غرار تهذيب اللغة اللاتينية بتطعيمها باليونانية .

وأخيراً كان قيام المنطقة الإيرانية من المجتمع الإسلامى بغزو المنطقة العربية منه وامتصاصها إياه — الذى حدث فى القرن السادس عشر — له ما يماثله فى اعتداء المسيحية الغربية على المسيحية الأرثوذكسية خلال الحروب الصليبية . وعندما بلغ هذا الاعتداء ذروته عام ١٢٠٤ ميلادية — وقما تحولت الحرب الصليبية إلى حرب ضد القسطنطينية — بدا حينذاك كما لو أن المسيحية الأرثوذكسية ستغزوها شقيقتها الأخرى وتمتصها نهائياً . وكان هو المصير الذى أصاب المجتمع العربى بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، عندما أطاح الباديشاه العثمانى سليم الأول بالممالك وأزال الخلافة العباسية فى القاهرة عام ١٥١٧ ميلادية .

أخرى بنا الآن أن نشرع فى دراسة المسألة المتعلقة بماهى المجتمع غير المعين الشخصية ، الذى كانت فيه الخلافة العباسية فى بغداد مرحلته الأخيرة على غرار ما كانت الإمبراطورية الرومانية فى المجتمع الهلنى . هل نجد إذا رجعنا التاريخ القهقرى جاعلين الخلافة العباسية نقطة البداية ، ظواهر تشابه عصر الاضطرابات ، الذى وجدناه فى المرحلة قبل الأخيرة للمجتمع الهلنى ؟

ونقول فى الإجابة عن هذا أننا لا نجد شيئاً من هذا القبيل .

وتفسير ذلك أننا نجد الخلافة الأموية فى دمشق قبل الخلافة العباسية

ببغداد . ويوجد قبلها ألف سنة من التدخل الهليني بدأ منذ فتوحات الإسكندر المقدوني في النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد . ثم تلا تلك الفتوح ، أسرة سلوقوس الملكية اليونانية في سوريا ، ثم حملات بومبي والفتح الروماني . ولم يوقف هذا التدخل ، إلا انتصار الشرق على أيدى الغزاة المسلمين الأول في القرن السابع الميلادي .

ويبدو أن الغزوات الجاثمة للعرب المسلمين الأولين ، قد تجاوزت في الإيقاع التاريخي ، تجاوباً مضاداً مع غزوات الإسكندر الأكبر الجاثمة . فكلاهما قد غير وجه العالم في حوالى ست سنوات . إلا أن الغزوات العربية بدلا من أن تغير وجه العالم على طريقة المقدونيين فتجعل منه شيئا آخر لا تمكن التعرف عليه ، غيرته بإعادته إلى شيء يشبه صورته في ماضيه شهاً ملحوظاً . وكما مهد الفتح المقدوني الأرض لاستنابات الهلينية بواسطة تحطيم الإمبراطورية الأخيانية (أى إمبراطورية قورش وخلفائه) مهد الغزو العربي كذلك الطريق للأُمويين وللعباسيين من بعدهم ، لإعادة تشييد دولة عالمية معادلة للإمبراطورية الأخيانية . ولو وضعنا خريطة كلا الإمبراطوريتين إحداهما فوق الأخرى ، لراعنا التطابق الكبير الذى تظهره حدودهما . وسنجد أن التطابق ليس جغرافياً فحسب ، بل يمتد إلى طرائق الإدارة وحتى إلى المظاهر المألوفة في الحياة الاجتماعية والروحية :

ونستطيع أن نعبّر عن الوظيفة التاريخية للخلافة العباسية بوصفها بأنها كانت تكامل الإمبراطورية الأخيانية واستعادة سيرتها . أى تكامل سياسى فككته صدمة قوة خارجية ، واستعادة طور من أطوار الحياة الاجتماعية ، قطعها تدخل أجنبي . فالخلافة العباسية إذن ، يمكن اعتبارها استمراراً للدولة العالمية التى كانت المرحلة الأخيرة في حياة مجتمعنا الذى لم نعيه بعد ، والذى انتقل من ثم البحث عنه إلى ألف سنة إلى الوراء .

أخرى بنا الآن أن نفحص الأسلاف المباشرين للإمبراطورية الأخيانية بحثاً عن الظاهرة التى لم نعر عليها فى أسلاف الخلافة العباسية . ألا وهى

عصر اضطرابات يماثل ذلك العصر في التاريخ الهليني ، الذى سبق قيام الإمبراطورية الرومانية مباشرة .

إن المشابهة العامة بين تكويني الإمبراطورية الأخيمانية والإمبراطورية الرومانية ، مما لا يمكن أن نخطأ . وأهم اختلاف ثانوي^{٢٧} هو أن الدولة العالمية الهلينية قد نمت من صميم الدولة التى كانت العامل الأساسى^{٢٨} فيما حل من تدمير إبان عصر الاضطرابات السابق عليها . على حين أن دورى التدمير والإنشاء اللذين قامت بهما روما على التعاقب فى الدولة العالمية الهلينية ، قد قامت به — فى تكوين الإمبراطوية الأخيمانية — دول مختلفة .

فقامت آشور بالدور التدميرى . وما كادت أن تستكمل مهمتها ، وتولى إنشاء دولة عالمية ، فى المجتمع الذى كانت هى آفته ، حتى جلبت الدمار على نفسها بالمغلاة فى الروح العسكرية . وهكذا ، قبل الوصول إلى الخاتمة الكبرى ، لقي بطل الرواية مصرعه فى صورة درامية (عام ٦١٠ ق . م) : ومثل دوره على خلاف ما كان يتوقع ، ممثل كان — حتى هذا الوقت — يقوم بدور ثانوى . فحصلت الأخيمانية ما زرعه آشور . بيد أن إحلال ممثل بآخر لم يغير شيئاً من سياق القصة .

وإذا كنا قد ميزنا بذلك عصر الاضطرابات ، فلربما يصبح فى مقدورنا أخيراً ، الاهتمام إلى المجتمع الذى نبهت عنه . فن الناحية السلبية ، فى استطاعتنا أن نقرر أنه لم يكن المجتمع الذى انتهى إليه الآشوريون . لأنهم — كالمقدونيين خلال مرحلة تالية من مراحل هذا التاريخ الطويل المعقد — قد أدوا دورهم كدخلاء ، وفدوا ثم رحلوا : وإنا لنستطيع أن نتبع فى مجتمعنا غير المعين أثناء وحدته فى ظل الإمبراطوية الأخيمانية — أثر الطريقة السلمية التى طردت بها العناصر الثقافية التى أدخلتها آشور عندما أحلت اللغة الأرامية وأبجديتها تدريجياً ، مكان اللغة الآكادية والخط المسهارى :

فالأشوريون أنفسهم استخدموا في أيامهم الأخيرة ، الأبجدية الآرامية في الكتابة على الرق ، بالإضافة إلى كتابتهم المسمارية التقليدية التي كانوا يطبعونها على ألواح من الصلصال أو ينقشونها على الحجر . وفي استخدامهم الحروف الهجائية الآرامية ، قرينة على استعمالهم اللغة الآرامية نفسها . وعلى أية حال ، ظلت اللغة الآرامية وحروفها بعد تدمير الدولة الآشورية وانقضاء الإمبراطورية البابلية القصيرة الأجل (أى إمبراطورية نبوخذ نصر) التي تلت تلك الدولة ، تزداد باستمرار انتشارا ، حتى اختفت تماما اللغة الأكادية والكتابة المسمارية من جميع موطنها في بلاد ما بين النهرين ، إبان القرن الأخير الذى سبق الميلاد .

ويمكن العثور على تغيير مماثل في تاريخ اللغة الإيرانية التي ظهرت فجأة بعد خول ذكر ، لتصبح لغة الميديين والفرس ، الشعبين الحاكمين في الإمبراطورية الأخمينية . فإن الفرس لما واجهتهم مشكلة تدوين سجلاتهم بلغة ليست لها كتابة خاصة بها ، اتخذوا الخط المسمارى للنقش على الحجر ، والآرامى للكتابة على الرق . ولكن الخط الآرامى هو الذى بقى وسيلة التعبير باللغة الفارسية .

وفي الواقع ؛ استقر معاً عنصران ثقافيان ، أحدهما من سوريا والآخر من إيران . وشارك كل منهما الآخر مشاركة وثيقة ، في الوقت نفسه . فمن نهاية عصر الاضطرابات الذى سبق قيام الإمبراطورية الأخمينية — عندما بدأ الآراميون المهزومون فى التسلط ثقافياً على غزاتهم الآشوريين — كانت عملية المشاركة مطردة . فإذا رغبتنا فى تعيين وجودهما قبل ذلك ، علينا أن نتطلع إلى مرآة الديانة ، لنترى كيف أن نفس عصر الاضطرابات أوحى نفس الإلهام إلى زرادشت نبي إيران ، وإلى أنبياء إسرائيل ويهوذا المعاصرين له ؛ وعلى العموم ، فإن العنصر الآرامى أو السورى — أكثر من الإيراني — هو الذى يمكن اعتباره أعمق تأثيراً . وإذا ما رجعنا إلى ما وراء عصر

الاضطرابات ، لاختفى العنصر الإيراني ، ولأربنا مجتمعاً في سوريا في عصر الملك سليمان ومعاصره الملك حيرام ، يكتشف المحيطين الأطلسي والهندي ، بعد أن كشف الأيجدية قبلئذ .

فها نحن إذن ، قد حققنا أخيراً ذاتية المجتمع الذي انحدر منه مجتمعاً الإسلام التوأمين اللذان اتحدا فيما بعد في مجتمع واحد . وسندعوه المجتمع السوري .

لننظر إلى الإسلام مرة أخرى ، على ضوء تحقيق الذاتية هذا :

كان الإسلام ، الدين العالمي الذي اتصل عن طريقه مجتمعنا السوري في نهاية المطاف بالمجتمعين الإيراني والعربي ، اتصال الأبوة .

وفي مكنتنا الآن أن نعين فارقاً طريفاً بين تطور كل من الإسلام والمسيحية . ولقد لاحظنا أن جرثومة القوة المبدعة في المسيحية لم تكن هليلية ولكنها من أصل أجنبي (في الواقع سورية الأصل ، كما نستطيع الآن أن نتحقق) . وعلى العكس نلاحظ أن الجرثومة المبدعة في الإسلام لم تكن غريبة عن المجتمع السوري ، بل إنها منه . وإن ما أتى به الإسلام عن اليهودية وهي ديانة سورية محضة وعن المسيحية النسطورية وهي أحد أشكال المسيحية ساد فيه العنصر السوري على العنصر الهليني ؛ إنما هو مصداق لما ورد في القرآن « مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل » .

إن نظاماً ضخماً كديانة عالمية ، لا يمكن طبعاً أن يكون متفرعاً عن أصل واحد ، منحدرًا من مجتمع فرد . وتأييدا لذلك ، عثرنا في المسيحية على عناصر هليلية ، استقيت من العبادات الهليلية ذوات الطقوس السرية والفلسفة الهليلية . وبالمثل — ولكن إلى مدى أقل كثيراً — نستطيع استقصاء التأثيرات الهليلية في الإسلام^(١) .

(١) لعل المؤلف يقصد تلك التأثيرات التي طرأت على آراء الكتاب المسلمين بفضل ترجمة مؤلفات فلاسفة اليونان . أما قواعد الإسلام ، فإن المؤلف يقرر أنها أصلية كل الأصل . (المترجم)

وعلى وجه العموم ، فإن الكنيسة المسيحية ، نظام عالمي تولد من جرثومة غربية عن المجتمع الذى قامت بدورها فيه ، فى حين أن الإسلام تولد فى مجتمع لم يكن غريباً عنه .

وفى الختام ، نستطيع أن نقيس درجتى تحوّل الوطنين الأصليين للمجتمعين المتولدين : الإيراني والعربي ، عن الوطن الأصلي لأيهما ، المجتمع السورى .

يبدى خط الأساس للمجتمع الإيراني / الإسلامى من الأناضول إلى السند ، تحوّل كبيراً ، فى حين يشمل موطن المجتمع العربى الإسلامى فى سوريا ومصر جميع منطقة المجتمع السورى ، وتحوّله صغير نسبياً .

٣ - المجتمع السندى :

المجتمع الحى التالى الذى يتعين علينا فحصه هو المجتمع الهندى . وهنا نلمح فى أعماقه أيضاً الشواهد القياسية على وجود مجتمع سابق فيما وراء أفقه .

إن الدولة العالمية فى هذه الحالة هى إمبراطورية الجوبتاس^(١) (حوالى ٣٧٥ - ٤٧٥ ميلادية) . والدين العالمى هو الهندوسية التى سادت الهند إبان عصر جوبتا ؛ فطردت البوذية وحلت محلّها . بعد أن كانت البوذية ، لمدة سبعة قرون ، الدين الأول فى شبه الجزيرة الهندية ، وهى موطن كلا الديانتين .

أما فترة الهجرات التى غشيت إمبراطورية جوبتا عند سقوطها ، فإنها نتيجة اندفاع قبائل الهون المنحدرة من السهب الأوراسى ؛ والتى كانت تغير على الإمبراطورية الرومانية فى نفس الوقت . وتقع فترة الفراغ التى شغلوها بتحركاتهم ، والتى شغلتها الدول التى خلفت إمبراطورية جوبتا ،

(١) تشاندرا جوبتا هو محرر الهند من سلطان المقدونيين ومؤسس أسرة موريان التى حكمت الهند وأفغانستان مدى مائة وسبعة وثلاثين عاماً . (المترجم)

بين عامي ٤٧٥ و ٧٧٥ ميلادية تقريباً ؛ وبدأ بعد ذلك ظهور المجتمع الهندي الذي ما يزال حياً . ولقد عاش شانكارا^(١) ، أبو الفلسفة الهندية حوالي سنة ٨٠٠ ميلادية .

وإذا رجعنا إلى الوراء أكثر من ذلك ، خلال بحثنا عن المجتمع العتيق الذي ينتسب إليه الهندي ؛ نجد نفس الظاهرة التي عقدت بحثنا عن المجتمع السورى - وإن كان ذلك على نطاق أضيق - ألا وهى التدخل الهليني . فلم يبدأ هذا التدخل الهليني مبكراً مع حملة الإسكندر ، التي لم تكن لها أية نتيجة دائمة من حيث التأثير فى الثقافة الهندية . وفى الواقع يبدأ التدخل الهليني فى الهند فعلاً بغزو ديمتروس - ملك باكتريا اليونانى - حوالى ١٨٣ / ١٨٢ ق . م ، وينتهى عند تدمير آخر الدخلاء المتحضرين بالحضارة الهلينية بعض الشيء عام ٣٩٠ ميلادية . ويمكن اعتبار هذا التاريخ ، التاريخ التقريبى لقيام إمبراطورية جوبتا .

وإذ نتبع الخطوط التى اهتدينا بها إلى أثر المجتمع السورى ، علينا أن نبحث فى الهند - كما بحثنا فى جنوب غربى آسيا - عن دولة عالمية سابقة للهلينية ، دولة تعتبر إمبراطورية جوبتا استمراراً لها بعد الهلينية : وهذا ما يتوافر فى إمبراطورية مورياس التى أقامها تشاندرا جوبتا عام ٣٢٣ ق . م . والذى اشتهر بها الإمبراطور أسوكا خلال القرن التالى وانتهت بفعل الغاصب بوشيا مترا عام ١٨٦ ق . م .

ونجد فيما وراء هذه الإمبراطورية ، عصر اضطرابات حافل بالحروب المدمرة بين الدول المحلية . ويضم بين ثناياه ، الفترة التى عاشها شذهارتا جوتاما بوذا . وإن فى حياة جوتاما ونظرتة إلى الحياة ، أحسن دليل على أن

(١) استطاع شانكارا فى حياته القصيرة البالغة اثنتين وثلاثين عاماً أن يجمع بين شخصيتي الحكيم والقديس . فجمع بين الحكمة والرحمة ، وهو ما يتصف به حكماء الهند فى كل زمان ومكان . (المترجم)

المجتمع الذى ينتمى إليه ، كان فى حالة سيئة إبان عصره . ويعزز هذا الدليل ، حياة ماهاويرا^(١) مؤسس الجانتيه ، ونظرتة إلى الحياة . وكذلك حيوات غيره من نفس الجيل فى الهند الذين نبذوا الحياة الدنيا ، وحاولوا الاهتداء إلى عالم آخر عن طريق الزهد .

ونتين فى أبعد فترة قبل ذلك ، فيما وراء عصر الاضطرابات هذا ، عصر بطولة سجلته أسفار الفيدا^(٢) ، وهكذا قد استطعنا التحقق من المجتمع الذى ينتسب إليه المجتمع الهندى ؛ لندعوه السندى . ويقع الموطن الأصلى للمجتمع السندى فى وادى السند والوادی الأعلى لنهر الجانج ، ومنهما انتشر هذا المجتمع إلى جميع أرجاء شبه الجزيرة . ومن ثم فإن مركزه الأصلى ، يماثل مركز المجتمع الذى خلفه :

٤ - المجتمع الصينى :

بقى أن نرتاد ما وراء المجتمع الحالى الوحيد الباقى ، وموطنه الشرق الأقصى .

هنا نجد أن الدولة العالمية ، هى إمبراطورية أسرقى تسين وهان المتعاقبتين ، المشيدة فى عام ٢٢١ ق . م . أما الديانة العالمية فهى المهايانا ، ذلك الضرب من البوذية الذى سلك طريقه إلى إمبراطورية هان والذى غدا

(١) وصف أتباع ماهاويرا (وتعنى البطل العظيم) المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبى الذى يقع فى الزمان . فكانوا يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة . وأما الحقيقة المطلقة فلا تنكشف إلا لطائفة الجنا ، أى المخلصين للبشر . والطريقة المؤدية للخلاص من لعنة تناسخ الأرواح هى توبة تقشفية والامتناع عن إيذاء أى كائن حى ، وأن ينبذ المرء الاستمتاع بالأشياء الخارجية . (المترجم)

(٢) أسفار الفيدا معناها الحرفى كتب المعرفة . وكانت أناشيد . أخذت تنمو على تنايع الأجيال التى تناقلتها بالرواية جيلا بعد جيل . ومعظم التراجم دعوات لأغراض عملية مثل الإكثار من المحصول والقطعان وطول العمر . وقليل جدا منها يرتفع إلى مستوى الأدب الرفيع . (المترجم)

بذلك الشرنقة التي خرج منها مجتمع الشرق الأقصى الحالي . أما الهجرات التي حدثت عقب سقوط الدولة العالمية ، فقد انبثقت عن بدو السهب الأوراسي الذين أغاروا على إمبراطورية هان حوالى عام ٣٠٠ ميلادية . وإن كانت إمبراطورية هان نفسها ، قد أخلت الطريق لفترة فراغ ، قبل ذلك بأكثر من المائة عام .

وعندما نولى وجهنا شطر ما قبل إمبراطورية هان ، نجد عصر اضطرابات واضح المعالم ، يعرف فى التاريخ الصينى بـ « تشان كودو » (أى فترة الدول المتحاربة) ، وقد شملت فترة قرنين ونصف قرن ؛ تلت وفاة كونفوشيوس عام ٤٧٩ ق . م .

وتعيد إلى أذهاننا ستما هذا العصر — طريقة الحكم الانتحارية والحيوية الفكرية الموجهة ناحية فلسفة الحياة العملية ؛ تعيد فترة من التاريخ الهلنى بين عصر زينو مؤسس الفلسفة الرواقية ، وموقعة آكتيوم التى أنهت عصر الاضطرابات . وفضلا عن ذلك تعتبر القرون الأخيرة من عصر الاضطرابات فى الحالتين ، ذروة الانحلال الذى بدأ قبل ذلك ببعض الوقت . وكانت جذوة الروح الحربية — التى أحرقت نفسها إبان فترة عصر كونفوشيوس — متقدة فعلا قبل أن يستخدم كونفوشيوس مقياسه للشئون البشرية . وإن حكمة هذا الفيلسوف الدنيوية ، وتصوف معاصره الفيلسوف الدنيوى لاوتسى ، لبرهان على أن كليهما قد أدركا أن فى تاريخ مجتمعهما ، عصراً لنفوس سبق أن ولّى .

فأى اسم نطلقه على المجتمع الذى كان كونفوشيوس يوقر ماضيه على حين كان لاوتسى يدير له ظهره ، مثله مثل كريستيان الذى يهجر مدينة الهلاك (١) ؟

ربما نستطيع أن نطلق على هذا المجتمع اسما مناسباً ، فلنسمه : المجتمع الصيني .

وتشابه الماهايانا - الديانة التي أصبح المجتمع الصيني ينتسب عن طريقها إلى مجتمع الشرق الأقصى الحاضر - الدين المسيحي . وتختلف عن الإسلام والهندوسية ، في أن جرثومة الحياة التي خرجت منها هذه الديانة ، لم تكن محلية بالنسبة للمجتمع الذي قامت فيه بدورها ، ولكنها وفدت إليه من مكان آخر . ويبدو أن الماهايانا قد ولدت في الأراضي الهندية الخاضعة للملوك باكتريا اليونانيين ولخلفائهم الكوشان أشباه الهلنيين ، وأنها ترعرعت بلاريب في أقاليم الكوشان في حوض نهر تاريم ، حيث خلف الكوشانيون أسرة هان الأولى ، قبل أن تعيد أسرة هان التالية غزو هذه الأقاليم وضمها إليها . ومن هذا الباب دخلت الماهايانا العالم الصيني ، ثم وامت البروليتاريا الصينية بينها وبين احتياجاتها الخاصة .

وكان حوض النهر الأصفر ، الموطن الأصلي للمجتمع الصيني ، ومنه انتشرت إلى حوض اليانجسى . ويدخل كلا الحوضين في الموطن الأصلي لمجتمع الشرق الأقصى . ذلك الموطن الذي امتد في اتجاه الجنوب الغربي على طول الساحل الصيني ، وكذلك تجاه الشمال الشرقي إلى كوريا واليابان .

٥ - الجماعات المتحجرة :

ستعاوننا المعلومات التي جمعناها حتى الآن بفضل فحص أبواب المجتمعات الحالية ، على فرز « المتحجرات » ، ونسبها إلى المجتمعات البائدة التي كانت تنتمي إليها أصلاً .

فاليهود والبارسى ، جماعتان متحجرتان من المجتمع السورى ، بالحالة التي كان عليها قبل تدخل الهلينية في العالم السورى . والمسيحيون النساطرة

والمؤفستيون ؛ هم بقايا رد فعل المجتمع السورى ضد التدخل الهليني ؛ رد فعل تمثل فى معارضاى متتالية ومتناوبة ، ضد تأثر دين — كان فى الأصل سوريا — بالهلينية .

ومن الجماعات المتحجرة للمجتمع السندى : الجانتيون فى الهند ، وأتباع بوذية هينايانا فى سيلان وبورما وسيام وكمبوديا . وهى مجتمعات تحجرت إبان فترة إمبراطورية ميريان ، قبل التدخل الهليني فى العالم السندى . ويقابل أتباع بوذية ماهايانا اللامية^(١) فى التبت ومنغوليا ، النساطرة . أى يمثلون رد فعل فاشل ضد تحول بوذية ماهايانا عن صورتها السندية الأصلية إلى صورتها التالية التى شكلتها التأثيرات الهلينية والسورية ، وهى صورتها عندما اعتنقها المجتمع الصينى فى نهاية الأمر .

ولا يتيح لنا أى من هذه الجماعات المتحجرة : دليلا يمكننا من إجراء أية إضافات أخرى إلى قائمتنا عن المجتمعات . بيد أن مواردنا لم تنضب بعد . إذ نستطيع أن نتوغل فى الماضى أكثر من ذلك ، فنجد آباء لبعض المجتمعات التى حققنا ذاتيتها باعتبارها آباء لنماذج ما تزال حية .

٦ — المجتمع المينوى :

ثمة إمارات تظهر بجلاء خلف المجتمع الهليني لقيام مجتمع سبقه فى الزمن ، تتألف دولته العالمية من الإمبراطورية البحرية التى أمكنه المحافظة عليها بفضل سيطرته على بحر إيجه من قاعدة فى جزيرة كريت ، خلقت فى التقاليد اليونانية اسم « تلاسوكراتية مينوا »^(٢) . كما تركت أثراً على سطح الأرض فى الأجزاء العليا من القصور التى كشف عنها حديثاً فى كنوسوس وفايستوس .

(١) يؤمنون بالبوذا الحى فى شخص اللاما وكان مركزه مدينة لاهاسا عاصمة التبت قبل استيلاء الشيوعيين عليها . (المترجم)

(٢) التلاسوكراتية Thalassocracy حكم أهل البحر . (المترجم)

وتيسر رؤية فترة الهجرات التي حدثت بعد هذه الدولة العالمية ،
 في الشعر الذي سجلته أعظم ملاحم الأدب اليوناني « الإلياذة والأوديسية »
 (وإن كان سحر الشعر التقليدي قد غير كثيراً من ملاحه) . كما يمكن أن نرى
 في السجلات الرسمية المعاصرة الخاصة بالأسر المصرية الثامنة عشر والتاسعة
 عشر والعشرين ؛ التي ترينا شيئاً أقرب إلى الأحداث التاريخية .

ويبدو أن الهجرات قد بدأت بغزو من البرابرة الآخيين ومن في حكمهم ؛
 الذين أتوا من أواسط أوروبا إلى ساحل بحر إيجه ، ونزلوا إلى البحر وتغلبوا
 على قوة كريت البحرية في البحر نفسه . والشهادة الأثرية التي تدل على مدى
 ما جنته أيديهم ، هي تخريب القصور الكريتية في نهاية العصر الذي اصطلح
 علماء الحفائر على تسميته بـ « الطور الثاني من الحضارة المينوية المتأخرة » .
 وبلغت الحركة أقصاها ؛ على شكل نوع من الطوفان البشري قوامه شعوب
 بحر إيجه (غالبية ومغلوبة على السواء) ، اكتسح إمبراطورية حاثي
 (الحثيين) في الأناضول وأغار على الإمبراطورية الحديثة في مصر ،
 لكنه فشل في تخطيطها . وحدد المؤرخون عام ١٤٠٠ ق . م ، تاريخاً
 لتدمير كنوسوس : وتساعدنا السجلات المصرية على وضع تاريخ هذا
 الطوفان البشري بين عامي ١٢٣٠ و ١١٩٠ ق . م .

وعلى هذا نستطيع اعتبار أن المدة من ١٤٢٥ إلى ١١٢٥ ق . م . ،
 هي الفترة التي يقع الفراغ خلالها .

ويعرقل جهودنا في تتبع آثار هذا المجتمع الأقدم ، عجزنا عن قراءة
 الكتابة الكريتية . ولكن الحفائر تنبئنا بحضارة مادية تفتحت في كريت
 وانتشرت فجأة إلى أرجوليد خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد ، عبر
 بحر إيجه ثم انتشرت تدريجياً من هذه النقطة إلى الأجزاء الأخرى من
 اليونان القارية في غضون القرنين التاليين . وثمة ما يدل أيضاً على وجود
 حضارة كريتية تمتد جذورها حتى العصر الحجري الحديث .

ونستطيع أن نطلق على هذا المجتمع : المجتمع المينوى .
لكن هل لدينا ما يبرر اعتبار المجتمعين المينوى والهلينى ينتسب أحدهما
للآخر ، على غرار المجتمعين الهلينى والغربى ، أو المجتمعات المنتسبة بعضها
من بعض ، أو التى تولدت بعضها عن البعض الآخر ، أو التى حققنا ذاتيتها ؟
تمثلت الرابطة الاجتماعية - فى تلك الحالات الأخرى - بين مجتمعين
فى دين عالمى خلقتة طبقة البروليتاريا الداخلية فى المجتمع القديم ، ثم أصبح
بعد ذلك بمثابة شرنقة تكونت داخلها هيئة المجتمع الجديد . بيد أنه لا يوجد
شئ مينووى فى أهم تعبير عن القومية الهلينية ، ألا وهو البانثيون
الأولمبى . إذ اتخذ هذا البانثيون شكله التقليدى فى ملاحم هومير ، حيث
ترى الآلهة فى صورة البرابرة الذين انقضوا على العالم المينوى خلال
الهجرات التى دمرته . وما زيوس إلا زعيم حربى آخى ، حكم الأولمب
مغتصبا مكانة كرونوس الذى كان قبله ، ثم قسم غنائم الكون ففتح المياه
والأرض لأخيه بوسيدون Poseidon وهيدس Hades ، واحتفظ بالسماء
لشخصه . وهذا البانثيون آخى ، ولاحق للعصر المينوى . بل ولا نرى مجرد
انعكاس للدين المينوى فى الأرباب التى جرّدت من سلطانها . إذ كان
كرونوس والتيتان ، كائنات من نفس مرتبة زيوس وعصبته الحربية .
ويذكرنا هذا بالدين الذى نبذته أكثرية البرابرة التيوتون قبل بدء
إغاراتهم على الإمبراطورية الرومانية . وهو دين احتفظ به وهذبّه ذوو
قرباهم فى اسكندنافيا ، ثم نبذوه بدورهم فى غضون مرحلة هجراتهم
(غزوات أهل الشمال) بعد ذلك بخمسة أو ستة قرون . فإذا كان قد وجد
شئ له طبيعة الدين العالمى فى المجتمع المينوى وقما دهمه السيل البربرى ،
لكان ذلك الشئ مختلفا عن العبادات الأولمبية اختلاف النصرانية عن عبادة
أودين Odin^(١) وثور Thor^(٢) .

(١) أودين : أحد أرباب القبائل التيتونية . وكان ينظر إليه على أنه مصدر الحكمة
والجراحة . وكان حامى الثقافة والبطولة . وقد دخل اسمه فى يوم الأربعاء بالإنجليزية .

(المترجم)

(٢) ثور : هو إله الرعد عند التيوتون . (المترجم)

هل وجد مثل هذا الشيء ؟

إن ثمة أمارات ضعيفة على وجوده ، حسب رأى أكبر مرجع في هذا الموضوع :

« اعتمادا على ما أمكن قراءته من الأدلة على طقوس العبادة الكريتية القديمة ، يبدو أننا لا نميز جوهرًا روحيا أعلى فحسب ، بل نرى في أتباعه شيئاً يشبه الإيمان الذي كان يدفع خلال الألفى سنة الماضية أتباع الديانات الشرقية المتعاقبة : الإيرانية والمسيحية والإسلامية . ويتضمن هذا الجوهر روحا في العابد تجعله يقطع في الأمور بطريقة حاسمة لا تقبل الشك . وهذه الروح هي أبعد ما تكون عن وجهة النظر الهلينية . . . وإن قورنت الخطوط الرئيسية لهذه الروح بديانة اليونانيين القدماء ، أمكن القول بأنها أعظم روحانية في جوهرها . كما أن لها من الناحية الأخرى شخصية أكبر في سلوكها . إذ يظهر على « خاتم نسطور^(١) » — حيث ترى رموز البعث فوق رأس الآلهة على شكل يرقعة وفراشة — أن لها (أى للآلهة) قوة منح عبّادها الحياة بعد الموت ، وأنها قريبة جداً من أتباعها . . . وحفظت أولادها حتى بعد الموت . . . وقد كانت للديانة اليونانية أسرارها . إلا أن الآلهة اليونانيين من الجنسين كانت على قدم المساواة تقريبا ، ولم تكن علاقات بعضهم ببعض الآخر تقوم بأية حال من الأحوال على مثل هذه العلاقة الوثيقة التي تدل عليها الشعائر المينوية . بل كان الانشقاق بينهم — الذي اتخذ شكل ضغائن عائلية وقبيلية — واضحا تماما ، مثله في ذلك مثل تعدد أشكالهم وصفاتهم . وعلى العكس من ذلك ، يظهر على الدوام في جميع أنحاء العالم المينوى ، ما يبدو أنه آلهة عليا واحدة . . . والخلاصة العامة لذلك

(١) كان نسطور في الأسطورة اليونانية ابن نيلوس ملك بيلوس . وقد ساهم في حصار طرواده . وأصبح عند اليونانيين لما تقدست به السن ، علما على الحكمة . (المترجم)

أننا تجاه ديانة تمتاز بالتوحيد إلى حد كبير ، ويشغل فيها الشكل الأنثوى للألوهية المكان الأعلى (١) .

وثمة أدلة أخرى على ذلك فى التقاليد الهلينية :

فإن اليونانيين قد احتفظوا بأسطورة « زيوس » الكريتى الذى لا يمكن أن يكون فى الواقع نفس الإله المعروف بـ « زيوس أوليمب » . إذ أن هذا الزيوس الكريتى ليس قائداً لجماعة حربية يظهر على المسرح تام النمو ، كامل التسلح ، كى يستولى على مملكته بالقوة ؛ بل يظهر كطفل حديث الولادة . وقد يكون هو نفس الطفل الذى يمثله الفن المينوى ، تحمله الأم الإلهية ليعبده العابدون . وهذا الطفل ليس مولوداً فحسب ، بل إنه يموت أيضاً . فهل تمثلت ولادته وموته فى ولادة ديونيسوس (٢) وموته ، وهو الإله التراقى الذى رؤى فيه إله طقوس ألوسيس (٣) السرية ؟

وهل كانت الطقوس السرية فى اليونان القديمة — مثل السحر فى أوربا الحديثة — بقية دين مجتمع غمره مجتمع آخر ؟
لو كانت المسيحية قد استسلمت للفايكنج ووقعت تحت سيطرتهم ،

Evans, Sir Arthur : The Earlier Religion of Greece in the Light (١)

of Cretan Discoveries صفحات ١٠٣-٤١

(٢) كان ديونيسوس فى أول الأمر من آلهة تراتيا فى شمال اليونان ، وكان إله الشراب المعصور من الشعير . فلما جاء اليونان أصبح إله الخمر وحارس الكروم . وكان فى بادئ الأمر إله الخصب ثم أصبح إله السكر . وانتهى أمره بأن صار ابن الإله الذى مات ليخلص البشر . وكان الحزن على موت ديونيسوس والاحتفال والسرور ببعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونانيين . وإذا تأملنا هذه الصورة ، طالعنا أسطورة إيزيس وأوزيريس وحورس المصرية . (المترجم)

(٣) التنقى هو أقوى العناصر فى العقيدة اليونانية . وتتضمن احتفالاً يكشف فيه عن رموز مقدسة وتقام فيه طقوس تمثل عذاب إله من الآلهة وبعثه ، أو تحيى ذكرى هذا العذاب والبحث بطريقة مسرحية . وفى طليعة الأماكن التى كانت تقام فيها هذه الطقوس ، مدينة ألوسيس . وظاهر تأثر القوم بعقيدة أوزيريس المصرية . (المترجم)

فى البروليتاريا الداخلية إبان انحدارها ، روح نعتبرها من خصائص النظم الدينية العالمية .

وتأسيساً على هذا القياس ؛ ليس من الخيال إطلاقاً ، أن نلمح فى الشعائر الألوسية وفى عقيدة أورفوس ، طيف ديانة عالمية مينووية . بيد أنه حتى إذا أصابت هذه النظرة الحقيقة (وسيكون هذا موضع مناقشة فى فقرة تالية فى هذا الكتاب حين نفحص أسس عقيدة أورفوس) ، فإن ذلك لن يقنعنا بفكرة أن المجتمع الهلينى متولد فعلاً عن المجتمع الذى سبقه .

وإلا ، لماذا تتطلب هذه الديانة أن تبعث ، إلا إذا كانت قد قتلت فعلاً ؟ ومن يكون قاتلها إلا هؤلاء البرابرة الذين أغاروا على المجتمع المينووى ؟ وإذا اتخذ المجتمع الهلينى لنفسه بانتيون^(١) من هؤلاء الأخيين القتلة « مخربو المدن » ، يكون قد أعلن أنهم آباؤه بالتبنى . وما كان ليستطيع أن يلحق نسبة بالمجتمع المينووى ، من غير أن يتحمل على رأسه وزر الدماء التى أراقها الآخيون ، والاعتراف — من ثم — بقتله أباه^(٢) .

وإذا عدنا الآن إلى ما وراء المجتمع السورى ، نجد ما سبق أن وجدناه وراء المجتمع الهلينى :

ديانة عالمية ، وهجرات ؛ يتضح أنهما نفس الديانة العالمية ونفس الهجرات اللذان ظهرا فى الفصول الأخيرة من التاريخ المينووى . ولقد تجلّت آخر حركة هجرات فى العصر الذى تلا المجتمع المينووى — فى سبيل بشرى من الشاردين الهائمين على وجوههم بحثاً عن أوطان جديدة . ولقد ساقتهم أمامها الموجة الأخيرة من البرابرة المندفعين من الشمال ، وهم الذين يدعون بالدورين ، فاختلفت حابلهم بنابلهم . ولما ردتهم مصر ، استوطن بعض هؤلاء اللاجئين فى الساحل الشمالى الشرقى من الإمبراطورية المصرية ،

(١) مجمع الآلهة اليونانية . (المترجم)

(٢) وهو المجتمع المينووى فرضاً . (المترجم)

ويعرفوا لدينا باسم الفلسطينيين الذين ذكرتهم قصص التوراة . وهنا التجأ اللاجئون الفلسطينيون النازحون من العالم المينوى ، بالبدو العبرانيين - الذين كانوا يفتدون إلى البلاد التابعة لمصر في سوريا - من شبه جزيرة العرب ، ولم يكن لها صاحب معروف . وأبعد من ذلك شمالاً ؛ أقامت سلسلة جبال لبنان حداً للتسرب المعاصر للبدو الأراميين ، وآوت الفينيقيين الذين على الساحل ، فاستطاعوا صد هجوم الفلسطينيين . وعند انتهاء هذه الحركة ، يبرز من هذه العناصر مجتمع جديد : المجتمع السورى .

وإذا كان المجتمع السورى ينتسب لآى نوع من المجتمعات الأكثر قدماً ، فهو ينتسب إلى المجتمع المينوى بنفس الدرجة التى ينتسب بها المجتمع الهلبى إلى المجتمع المينوى ؛ لا أكثر ولا أقل . ولعل الأبيدية (ولكن ذلك غير مؤكد) هى أحد الأشياء التى ورثها المجتمع السورى عن المجتمع المينوى . وقد يطالعنا تراث آخر ، يتمثل فى الشغف بالأسفار البحرية البعيدة .

ويبدو لأول نظرة ؛ أن فى القول بانتساب المجتمع السورى إلى المينوى ، بعض الغرابة . إذ كان المرء يتوقع أن تكون الدولة العالمية القائمة وراء المجتمع السورى ، هى الدولة الحديثة فى مصر . وأن وحدانية اليهود هى بعث لوحداية أختاتون ؛ إلا أن الأدلة تناهض هذا رأى . وليس ثمة دليل يقوم على انتساب المجتمع السورى إلى أى من المجتمعين اللذين تمثلهما على التوالى : إمبراطورية خاتى (الحيشيون فى الأناضول) ، والعائلة السومرية فى « أور Aur » وخليفتها عائلة « عامور » فى بابل .

وسنقوم الآن بدراسة هذين المجتمعين .

٧ - المجتمع السومرى :

أول ما يستوقف نظرنا - إن اتجهنا إلى ما وراء المجتمع السندى - أن ديانة فيداس - مثل عبادة الآلهة الأوبىجية - تتضمن أدلة على قيادتها

بين البرابرة إبان فترة هجرات . ولا تحمل أية علامة من العلامات المميزة
لدين أقامته خلال عصر اضطرابات ، البروليتاريا الداخلية لمجتمع آيل
إلى القضاء .

وفي هذه الحالة ، البرابرة هم الآريون الذين ظهروا في فجر التاريخ
السندى ، مثلما ظهر الآخيون في بحر إيجه في فجر التاريخ الهليني . وقياساً
على العلاقة التي وجدناها بين المجتمع الهليني والمجتمع المينوى ، يجب أن
نتوقع استكشاف دولة عالمية خلف المجتمع السندى . وتوجد وراء حدودها
منطقة غير مملوكة لأحد ، تعيش فيها أصول الآريين كبروليتاريا خارجية ،
حتى استطاعوا دخولها بعد سقوط الدولة العالمية .
فهل يتأتى معرفة كُنه هذه الدولة العالمية ، وتحديد موقع المنطقة غير
المملوكة لأحد ؟

قد نُوفِّق في الاهتمام إلى الإجابة على هذين السؤالين ، بإلقاء سؤالين
آخرين .

الأول — من أى مكان سار الآريون في طريقهم إلى الهند ؟
الثانى — هل وصل بعضهم — ممن بدأوا السير من نفس المكان — إلى نقطة
وصول أخرى ؟

كان الآريون يتكلمون لغة هندية أوروبية . ويظهر من التوزيع التاريخي
لهذه المجموعة من اللغات وهو : مجموعة أوروبية وأخرى هندية إيرانية ،
أن الآريين لابد وأنهم قد دخلوا الهند من السهب الأوراسي^(١) ، على
طول الطريق التي سلكها الكثيرون من بعدهم إلى وقت الغزاة الأتراك :
محمود الغزنوى (فى القرن الحادى عشر الميلادى) ، وبابير مؤسس
الإمبراطورية المغولية (فى القرن السادس عشر الميلادى) . وإنا إذا درسنا
انتشار الأتراك ، لوجدنا أن بعضهم اتجه جنوباً بشرق إلى الهند ،

والبعض الآخر جنوباً بغرب إلى الأناضول وسوريا . فمثلاً عاصر السلطان محمود الغزنوى غزوات الأتراك السلجوقيين التى أثارت الهجوم الصليبي المضاد من جانب المجتمع الغربى . وتدل سجلات مصر القديمة على أنه فى غضون الفترة ٢٠٠٠ - ١٥٠٠ قبل الميلاد ، أن الآريين قد خرجوا من السهب الأوراسى إلى المنطقة التى دخلها الأتراك بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة . فكأن الآريين قد سبقوا الأتراك فى انتشارهم التالى . وبينما دخل بعض الآريين الهند - كما تذكر المصادر الهندية - فإن آخرين منهم دهموا إيران والعراق وسوريا وأخيراً مصر ، حيث أقاموا فى القرن السابع عشر قبل الميلاد حكماً لزعماء العصابات البربرية الحربية الذين عرفوا فى التاريخ المصرى بالهكسوس .

من الذى قاد إلى هجرات الآريين ؟

نستطيع الإجابة بالتساؤل عنى قاد إلى هجرات الأتراك .

يزودنا التاريخ بالإجابة على هذا السؤال الأخير :

كان الباعث على ذلك ، انهيار الخلافة العباسية . فانتشر الأتراك فى كلا الاتجاهين السالى الذكر . لأن الإمبراطورية العباسية ، أصبحت وهى فى حالة الاحتضار ، فريسة سهلة ، سواء فى أقاليمها المركزية أو فى البلاد التابعة لها فى وادى السند .

هل يقدم لنا هذا التفسير مفتاحاً لمسألة تشتت الآريين المماثل ؟

نعم . لأننا إذا ما نظرنا إلى الخريطة السياسية لجنوب غرب آسيا حوالى ٢٠٠٠ - ١٩٠٠ ق . م ؛ نجد فى هذه المنطقة دولة عالمية - على غرار خلافة بغداد - محكومة من عاصمة فى العراق ، وتمتد فى أراضيها فى نفس الاتجاهات ومن نفس المركز .

كانت هذه الدولة العالمية ، هى إمبراطورية سومر وأكّاد التى أنشأها عام ٢٢٩٨ ق . م ، الملك السومرى أورانجور من أور ، وأحيائها حوالى

١٩٤٧ ق . م ، الملك حمورابي من عيلام . ولقد آذن تقسيم الإمبراطورية عقب موت حمورابي بزوغ عصر الهجرات الآرية . ولا يوجد أى دليل مباشر على امتداد إمبراطورية سومر وأكاد إلى الهند ، لكن هناك احتمالاً توحيه ما كشفت عنه الحفريات الحديثة في وادي السند عن وجود ثقافة ترجع (على أساس المكانين الأولين اللذين تم كشفهما) من المدة حوالى ٣٢٥٠ إلى حوالى ٢٧٥٠ ق . م ، وذات صلة وثيقة بثقافة السومريين في العراق .

هل في استطاعتنا معرفة المجتمع الذى كانت إمبراطورية سومر وأكاد الدولة العالمية في تاريخه ؟

إن فحص مقدمات الإمبراطورية يقدم لنا دليلاً على وجود عصر اضطرابات ، وكان فيه الملك الأكادى الولوع بالقتال «سارجون الأجادى»^(١) شخصية ظاهرة . وأبعد من ذلك إلى الوراء ، نجد عصر ابتداع ونمو ، كشفت عنه الحفائر الحديثة في أور .

فإلى أى زمن يرجع هذا العصر خلال الألف سنة الرابعة السابقة للميلاد أو قبلها ؟

لا نعرف .

إن هذا المجتمع الذى تحققنا منه ، يمكن تسميته بالمجتمع «السومرى» .

٨ - المجتمعان الحيثى والبابلي :

بعد أن تحققت ذاتية المجتمع السومرى ، نواصل عملنا لتحقيق ذاتية مجتمعين آخرين ، بواسطة السير هذه المرة ، لا من الأحدث إلى الأقدم ، ولكن بترتيب عكسى .

امتدت الحضارة السومرية إلى الجانب الشرقى من شبه جزيرة الأناضول الذى دعى فيما بعد كبدوكية (Cappadocia) . وتشهد هذه الحقيقة ، الوثائق

(١) كانت أجاد Agade عاصمة مملكة أكاد . (المترجم)

التجارية المسجلة بالخط المسماري على ألواح الطين والتي كشفها علماء الآثار كبدوكية . وعندما انهارت الإمبراطورية العالمية السومرية بعد وفاة حمورابي ؛ احتل البرابرة القادمون من الشمال الغربي ، مقاطعات كبدوكية . وأغار الملك مورسيل الأول ملك حاثي (وهو حاكم الدول التي خلفت الدولة السومرية في هذه المنطقة) على مدينة بابل نفسها في سنة ١٧٥٠ ق . م . ونهبها ، وانسحب الغزاة بغنائمهم . وأنشأ برابرة آخرون هم الكاشيون من إيران ، دولة في العراق استمرت ستة قرون . وأصبحت الإمبراطورية الحثائية نواة المجتمع الحيثي الذي نستمد معظم معلوماتنا المفككة عنه من سجلات مصر ، التي كان الحيثيون في حرب مستمرة معها ، بعد أن مدّ تحتمس الثالث (١٤٨٠ - ١٤٥٠ ق . م .) السلطان المصري إلى سوريا .

أما عن تدمير الإمبراطورية الحيثية بفعل هجرات الشعوب التي قضت على الإمبراطورية الكريتية ، فقد سبق ذكره . وإنه وإن بدا أن الحيثيين قد اقتبسوا نظام الكهانة السومري ، لكن كانت لهم ديانتهم الخاصة . كما كانت لهم كتابة تصويرية ، سجلوها على الأقل خمس لغات حيثية مختلفة . وهناك مجتمع آخر ينتسب كذلك إلى المجتمع السومري ، وقد عُرف بفضل السجلات المصرية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وظهر في مواطن المجتمع السورى وهى بابل وأشور وعيلام التي استمرت فيها أسرة الكاشيين حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وتشابه نظم هذا المجتمع الأحدث القائم في الأرض السومرية ؛ نظم المجتمع السومري السابق نفسه ، تشابهاً كلياً من معظم الوجوه ، إلى حد أنه يقوم شك في إمكان اعتباره مجتمعاً منفصلاً أو خاتمة للمجتمع السومري . على أننا سنؤول هذا الشك في صالحه ، فندعوه - من ثم - المجتمع البابلي .

ولقد عانى ذلك المجتمع الشيء الكثير خلال طوره الأخير (إبان القرن السابع قبل الميلاد) بسبب حرب مائة عام طاحنة دارت في صميم قلبه ،

بين بابل والقوة الحربية للآشوريين . وقد ظل المجتمع البابلي حياً فترة سبعين سنة بعد القضاء على آشور . وابتلعتة أخيراً الدولة العالمية لإمبراطورية قورش الأخمينية . وتشمل السبعون سنة هذه ، حكم نبوخذ نصر كما يشمل الأمر البابلي لليهود ، الذى ظهر قورش لهم كمخلص أرسلته السماء إليهم .

٩ - المجتمع المصرى :

انبعث هذا المجتمع الفذ للغاية فى الجزء الأسفل من وادى النيل فى غضون الألف سنة الرابعة قبل الميلاد . وانقضى فى القرن الخامس الميلادى ، بعد أن ظل باقياً - من بدئه إلى نهايته - ثلاثة أمثال حياة المجتمع الغربى منذ قيامه حتى الآن . ولم يكن له « آباء » ولم يخلف ذرية : ولا يجوز لأى مجتمع حالى أن يدعى الانساب إليه . وهذا مما يزيد من شأن انتصار فكرة الخلود التى رنا إليها المجتمع المصرى وحققها فى الحجر . إن الأهرامات التى ما تفك تحمل - قرابة الخمسة آلاف سنة الدليل الصامت على وجود منشئها ، ليتوقع بوضوح بقاؤها مئات آلاف أخرى من السنوات القادمة بعد نهاية أصحابها .

ولا يستبعد أنها ستظل ، حتى بعد فناء الإنسان نفسه . وحيث لن يبقى فى العالم عقل بشرى يطالع رسالتها ، ستستمر تشهد على أنه « قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن » (١) .

ولكن هذه القبور الأهرامية الضخمة ، إنما تنهض نموذجاً لتاريخ المجتمع المصرى بطرق متعددة . ولقد تحدثنا عن هذا المجتمع على اعتبار أنه ظل قائماً فترة تقرب من الأربعة آلاف سنة . إلا أنه لم يكن كائناً حياً أثناء نصف تلك الفترة ، بل كان ميتاً ولم يدفن . فإن أكثر من نصف التاريخ المصرى عبارة عن خاتمة ضخمة .

(١) هذه العبارة وردت فى إنجيل يوحنا (٨ - ٥٨) على لسان السيد المسيح .

(المترجم)

ويستخلص من تتبعنا ذلك التاريخ ، أن أكثر قليلا من ربع عمره ، مرحلة نماء . وأن القوة الدافعة تجلّت أولا في السيطرة على بيئة طبيعية على جانب عظيم من الصعوبة ، فأمكن تطهير مستنقعات الغاب وصرف مائها ثم زراعتها ، وهي التي كانت تشغل أصلا الوادى الأدنى ودلتا النيل ، وكانت تصدّ الإنسان عن سكناها . ثم ظهرت طاقتها المطردة في التوحيد السياسى المبكر للعالم المصرى في نهاية عصر يعرف بما قبل الأسرات . بلغت أوجها ، فيما أنجزته الأسرة الرابعة من الأعمال المذهلة .

وتحدد هذه الأسرة ، ذروة ما حققه المجتمع المصرى من مآثر لا يشاركها فيها غيره ؛ مثل تنسيق العمل البشرى في المشروعات الهندسية الكبيرة التي تتسلسل من استصلاح المستنقعات إلى تشييد الأهرامات . كما كانت هذه الأسرة أيضاً ، الذروة في الإدارة السياسية وفي الفن بل وفي محيط الدين نفسه حيث تولد الحكمة من الألم . فإن ما يدعى بنصوص الأهرام يشهد بأن هذا العصر رأى أيضاً منشأ حركتين دينيتين : عبادة الشمس . وعبادة أوزيريس ، واصطدامهما ، والمرحلة الأولى في التفاعل بينهما . وهما العبادتان اللتان بلغتا نضوجهما بعدما أخذ المجتمع المصرى في الانهيار .

انقضت الذروة ، وبدأت مرحلة الانحلال ، في فترة الانتقال بين الأسرتين الخامسة والسادسة (٢٤٢٤ ق . م) . وهنا يبدأ تعرفنا على الأعراض المألوفة للانحلال ، بالترتيب الذي ظهرت فيه لنا عند دراسة تاريخ المجتمعات الأخرى . فإن تفتت المملكة المصرية الموحدة إلى عدد من دويلات صغيرة في حرب متصلة فيما بينها ؛ يحمل الطابع الذي لا يُخطئ الخصاص بعصور الاضطرابات . ولقد تلت عصر الاضطرابات المصرى في حوالى ٢٠٧٠ ق . م ، دولة عالمية أنشأتها العائلة المالكة المحلية في طيبة ، وعززتها الأسرة الثانية عشرة حوالى ٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق . م ، ودالت الدولة العالمية بعد الأسرة الثانية عشرة ، وتلا الفراغ الذي تلا ذلك هجرة شعوب تمثلت في غزوة الهكسوس .

هنا قد يتبادر إلى الذهن ، أن هنا تقع نهاية هذا المجتمع . ولو كنا قد اتبعنا طريقتنا المعتادة في البحث ، وسرنا إلى الأقدم ابتداء من القرن الخامس الميلادى ، لربما توقفنا عند هذه النقطة وقلنا : لقد تبعنا الآن المجتمع المصرى عكسا ، من آخر آثاره الداوية فى القرن الخامس الميلادى لمدة واحد وعشرين قرناً ، ولقد عثرنا على « هجرة شعوب » لاحقة لدولة عالمية . فها نحن أولاء قد تبعنا المجتمع المصرى حتى مبدئه ، وبدأنا نلمج وراء ذلك ، العهد الأخير لمجتمع أقدم سندعوه بالنيلى .

ومع أننا نرفض أن نسلك هذا السبيل ؛ لأننا لو استأنفنا بحثنا الآن فى الاتجاه العادى أى من الأقدم إلى الأحدث لما عثرنا على مجتمع جديد ، ولكن على شىء جد مختلف . فإن الدولة المتخلفة عن الدولة العالمية ، قد زالت والهكسوس قد طردوا ، واستعبدت الدولة العالمية وعاصمتها طيبة ، عن حسن وقصد .

تعتبر هذه الاستعادة — من وجهة نظرنا — الحدث الوحيد ذا المغزى فى التاريخ المصرى (باستثناء ثورة أنخاتون الفاشلة) بين القرنين السادس عشر ق . م ، والخامس الميلادى . وتشغل فترة حياة هذه الدولة العالمية — التى تكرر خلوعها واستعادتها مراراً — جميع هذه الألفى سنة . فليس هناك — والحالة هذه — مجتمع جديد .

وإذا ما درسنا التاريخ الدينى للمجتمع المصرى ، نجد هنا أيضاً ديناً يسود بعد الفراغ ؛ وهو دين مأخوذ من الأقلية الحاكمة فى عصر الانحلال السالف . بيد أن الدين لم يَسُد من غير صراع . بل بدا بتأيين مركزه عن طريق الاتفاق مع الديانة العالمية التى استخلصتها البروليتاريا المصرية الداخلية من عقيدة أوزيريس إبان عصر الانحلال .

وفدت ديانة أوزيريس من الدلتا ، لا من مصر العليا التى حدثت فيها أحداث التاريخ السياسى للمجتمع المصرى . ويتمثل الخط الرئيسى

فى التاريخ الدينى المصرى فى المنافسة بين هذا الإله ذى الطبيعة الأرضية وما تحت الثرى — أى روح الإنبات التى يظهر فوق الأرض وتختفى تحتها على التعاقب — وبين الشمس إله السماء .

ولقد ارتبط فعلا هذا الصراع اللاهوتى ، بالنزاع السياسى والاجتماعى بين قسمين من المجتمع الذى انبعثت فيه العبادتان . بل ولم يكن هذا النزاع فى الواقع إلا تعبيرا لاهوتيا عنه . وكان كهنة هليوبوليس مسيطرين على عبادة الإله الشمس « رع » الذى كانوا يصورونه بصورة الفرعون ، على حين كانت عبادة أوزيريس ديانة شعبية . فكان النزاع الدينى — من ثم — نزاعا بين دين رسمى للدولة ، وديانة شعبية تجتذب الإنسان المؤمن .

وأهم فارق بين الديانتين فى شكلهما الأصليين ؛ هو الفارق بين المصيرين بعد الموت للذين وعدا عبادهما بعد الموت . فمن ناحية ، كان أوزيريس يحكم جماهير الموتى فى عالم الأشباح تحت الأرض . أما رع ، فكان على استعداد لأن يفتدى أتباعه من الموت ويرفعهم أحياء إلى السماء . لكن هذا البعث كان قاصراً على القادرين على دفع الثمن . وكان الثمن فى ارتفاع متصل ؛ حتى أصبح الخلود الشمسى فى الواقع احتكارا للفرعون وأولئك من أعضاء بلاطه الذين يسهم هو باختياره فى معدات خلودهم . وما الأهرامات الكبرى إلا نُصب هذا المسعى لكفالة الخلود الشخصى عن طريق الإفراط فى البناء .

وكانت ديانة أوزيريس فى هذه الأثناء تزدهر . فإنه رغما عن ضالة الخلود الذى تعد به عبادها ، إن قورن بالإقامة فى سماء رع العليا ؛ إلا أنه كان العزاء الوحيد الذى فى مكتبة الجماهير التطلع إليه ، وهم يرزحون تحت الظلم الشديد ليكفلوا لسادتهم المناعة الأبدية .

فكان المجتمع المصرى — والحالة هذه — ينقسم إلى أقلية متسلطة ، وبروليتاريا داخلية . ولقد أدرك كهنة هليوبوليس هذا الخطر ، فحاولوا

جبّ تأثير أوزيريس عن طريق أشراكه مع رع . بيد أن أوزيريس استطاع في هذه الصفقة أن يأخذ أكثر مما أعطى . فإنه عندما دخل في عقيدة فرعون الشمسية ، استحوذ لجماهير البشر على الطقوس الشمسية للخلود الإلهي . وأهم أثر لهذا التوفيق الديني بين العقيدتين ، يتمثل كتاب « الموتى » ؛ وهو مرشد كل فرد إلى الخلود الذي ساد حياة المجتمع المصري الدينية طوال مدة نهايته التي دامت ألفي سنة . ولقد سيطرت عليه فكرة أن رع ينشد العدالة أكثر من رغبته في الأهرامات ، وبدا أوزيريس كقاض في العالم السفلي يرسل الموتى إلى المصائر التي تستحقها حياتهم على الأرض .

ونلمح هنا وراء الدولة العالمية المصرية ، معالم ديانة عالمية أنشأتها بروتاريا داخلية . فإذا يقدر لهذه الدولة الأوزيرية لو لم تُستعد الدولة العالمية المصرية ؟ هل كان يقدر لها أن تصبح شرقة مجتمع جديد ؟

كان يجب أولاً أن نرى هذه الديانة تستحوذ على عقول الهكسوس ، مثلما استحوذت الديانة المسيحية على عقول البرابرة . إلا أن هذا لم يحدث لأن كراهية هذه الديانة للهكسوس دفعتها إلى الاندماج مع العقيدة الخادمة للأقلية المسيطرة^(١) في وحدة غير طبيعية ، اندماجاً أدى إلى فساد ديانة أوزيريس وتدهورها . إذ أصبح الخلود يُعرض للبيع مرة أخرى ، وإن لم يعد الثمن هراً بل اقتصر على بضعة نصوص مكتوبة على قرطاس من البردى . وقد ندرك في هذه الصفقة — كما في مثيلاتها — أن الإنتاج الضخم لسلعة رخيصة تُباع بأقل ربح ممكن ، تعود على الصانع بكسب وفير . فإن « الاستعادة » التي تمت إبان القرن السادس عشر قبل الميلاد ، كانت إذن أكثر من مجرد رد الاعتبار إلى الدولة العالمية ؛ إذ كانت عبارة عن إدماج الأنسجة الحية للعقيدة الأوزيرية ، والأنسجة الميتة للمجتمع المصري

(١) أى ديانة الشمس . (المترجم)

المحتضر ، فى كتلة واحدة هى بمثابة نوع من (الخرسانة) الاجتماعية تطلب انهيارها انقضاء ألفى سنة .

وليس أدل على انتقاء الحياة من المجتمع المصرى المستعاد ، من الإخفاق التام الذى لقيته المحاولة الوحيدة لإقامته من بين الأموات . إذ سعى هذه المرة رجل بمفرده هو الفرعون أخناتون أن يكرر دفعة واحدة ، الابتداع الدينى الذى قامت به دون جدوى الديانة الأوزيرية ؛ وهى ديانة البروليتاريا الداخلية ، طوال قرون عصر الاضطرابات الطويل السابق . فلقد ابتكر أخناتون بفضل عبقريته وحدها ، معنى جديداً للإله والإنسان والحياة والطبيعة ، وعبر عنه فى فن وشعر جديدين . إلا أن الجماعات الميتة لا تبعث إلى الحياة بهذه الكيفية . ولا شبهة فى أن إخفاق أخناتون ، هو الدليل على صدق رأينا فى اعتبار الظواهر الاجتماعية للمجتمع المصرى من القرن السادس عشر ق . م . إلى ما بعده ، خاتمة مجتمع أكثر منها تاريخ مجتمع جديد ، من المهد إلى القبر .

١٠ - المجتمع الأندى ومجتمعات يوكاتا والمكسيك والمايان :

أننتجت أميركا قبل وصول الفاتحين الأسبان ، هذه المجتمعات الأربعة . فكان المجتمع الأندى فى البيرو قد وصل إلى مرحلة الدولة العالمية - إمبراطورية الأنكا - عندما دمرها بيزارو عام ١٥٣٠ .

وكان المجتمع المكسيكى يقرب من نفس المرحلة . وكُتب لإمبراطورية الأزتيك أن تصبح الدولة العالمية . وكانت دولة تلاكسالا هى الدولة الوحيدة المستقلة ذات الأهمية وقت حملة كورتيز ، وبالتبعية أيد أهلها كورتيز .

أما مجتمع يوكاتا فى شبه جزيرة يوكاتان ، فقد ابتلعه المجتمع المكسيكى قبل ذلك بحوالى الأربعمئة سنة .

وينسب المجتمعان المكسيكى واليوكاتانى كلاهما ، إلى مجتمع سابق هو المجتمع

المايانى الذى حقق درجة من الحضارة أرقى وأكثر إنسانية مما حققه المجتمعان اللاحقان . ولقد انتهى أجله نهاية سريعة غامضة إبان القرن السابع الميلادى ، وخلف آثاراً دالة على وجوده ، هى خرائب مدنه الكبيرة فى غابات يوكاتان كثيرة الأمطار . ولقد برّز هذا المجتمع فى علم الفلك ، الذى حوّلته إلى الناحية العملية فى طريقة حساب التواريخ كانت دقيقة فى حساباتها . ويبدو أن الطقوس الدينية الخفية التى كشفها كورتيز فى المكسيك ، كانت صورة بربرية فظة لدين المايانسان القديم .

• • •

أثمرت لنا أبحاثنا تسعة عشر مجتمعاً ، كانت معظمها منتسبة ، كأصول أو فروع لمجتمع أو أكثر من المجتمعات الأخرى وهى :

الغربي - الأرثوذكسى - الإيراني - العربي (الأخيران متحدان الآن فى المجتمع الإسلامى) - الهندوكى - الشرق الأقصى - الهليني - السورى - السندى - الصينى - المينوى - السومرى - الحيثى - البابلى - المصرى - الأندى - المكسيكى - اليوكاتى - المايانى .

ولقد أعربنا عن شكنا فى وجود مجتمع بابلى منفصل عن المجتمع السومرى . كما أن بعض أزواج من المجتمعات الأخرى ، قد يمكن اعتبارها مجتمعات فردية ذات خاتمة تشبه خاتمة المجتمع المصرى . غير أننا سنحترم فرديتها ، حتى نجد مبرراً قوياً لاتخاذ موقف مخالف . والواقع أنه قد يكون من اللائق تقسيم المجتمع المسيحى الأرثوذكسى إلى مجتمع بيزنطى أرثوذكسى ومجتمع روسى أرثوذكسى ؛ وتقسيم مجتمع الشرق الأقصى إلى مجتمع صينى وآخر كورى يابانى .

وهذا من شأنه رفع عدد المجتمعات إلى واحد وعشرين . وأخرى بنا استبقاء ما عدا ذلك من تعليقاتنا ودفاعنا عن هذه الطريقة ، إلى الفصل التالى :

الفصل الثالث

مدى إمكان مقارنة المجتمعات بعضها ببعض الآخر

(١) الحضارات والمجتمعات البدائية

علينا مواجهة طائفة من الاعتراضات الأولية المحتمل إثارتها ، قبل أن نمضى قدماً في المقارنة المنتظمة لمجتمعاتنا الواحد والعشرين ، وهي غاية هذا الكتاب . ولعل أول حجة وأبسطها نقترح اتباعها ، يمكن إيجازها في العبارة الآتية وهي أن « هذه المجتمعات لا يجمعها طابع مشترك سوى أنها كلها ميادين مفهومه الصلاحية للدرس . على أن هذا الطابع من الشمول والعموض بحيث لا يمكن أن يعنى هذا القول شيئاً من الناحية العملية :

ونجيب على ذلك بأن المجتمعات التي هي « ميادين مفهومه الصلاحية للدرس » ؛ تنتمي إلى جنس تُعتبر مجتمعاتنا الواحد والعشرين أحد نوعيه : وأن مجتمعات هذا النوع ، تُدعى عادة حضارات تميزا لها عن المجتمعات البدائية التي تعتبر هي أيضاً ميادين مفهومه الصلاحية للدرس ، لكنها تكون نوعاً آخر هو في الواقع النوع الآخر من هذا الجنس : وبالتالي فإن مجتمعاتنا الواحد والعشرين ، طابعا مميزا يجمع بينها ، وهو أنها المجتمعات الوحيدة التي تمر في أطوار التحضر .

وثمة اختلاف آخر بين الحضارات والمجتمعات البدائية ، مداره قلة عدد الحضارات المعروفة في حين يجاوز عدد المجتمعات البدائية المعلومة ذلك كثيراً . ولقد شرع ثلاثة من علماء الأجناس عام ١٩١٥ في دراسة مقارنة للمجتمعات البدائية ، واقتصروا على تلك المجتمعات التي تيسر جمع معلومات كافية عنها ، فأمكنهم تسجيل ٦٥٠ مجتمعا ما يزال معظمها قائماً حتى الآن . على أنه من المستحيل تكوين أى رأى عن عدد المجتمعات

البداية التي لا بد أن تكون قد ظهرت في الوجود فعلاً ثم عفى الزمن عليها منذ أن استقام الإنسان بشراً سوياً ، ربما منذ ثلاثمائة ألف سنة خلت . إلا أنه من الجلى ، أن عدد المجتمعات البدائية أكثر بكثير من عدد الحضارات .

بيد أن الحضارات تفوق المجتمعات البدائية بنفس المقدار تقريباً من حيث اتساع كل منها . فإن المجتمعات البدائية - في حشودها - قصيرة الأجل إلى حد ما . وتنحصر في مناطق جغرافية ضيقة النطاق نوعاً ما ، وتضم عدداً من البشر صغيراً نسبياً . ولو استطعنا إجراء تعداد لأفراد الحضارات الخمس التي لا تزال حية إلى وقتنا هذا ، خلال العدد القليل من القرون التي عاشتها حتى الآن ؛ لكان من المحتمل أن نجد كل مجتمع من مجتمعاتنا الهائلة ، يضم وحده عدداً من البشر أعظم مما ضمته المجتمعات البدائية كلها معاً ، منذ انبعاث الجنس البشرى .

وأياً ما تكون الحال ، فإننا ندرس الآن المجتمعات لا الأفراد . والحقيقة التي تههم ما نحن بصددده ، هي أن المجتمعات التي تمضى قدماً في طريق الحضارة والمعلومة الوجود ، ضئيلة جداً .

(٢) خطأ فكرة « وحدة الحضارة »

تنهض ضد إمكان مقارنة حضارتنا الواحدة والعشرين ، حجة ثانية هي عكس الحجة الأولى ، ومبناها أنه لا يوجد واحد وعشرون نموذجاً حضارياً مميزاً ؛ ولكن حضارة واحدة فحسب هي الحضارة الغربية .

وما نظرية وحدة الحضارة هذه إلا رأى خاطئ ، تردى فيه المؤرخون الغربيون المحدثون تحت تأثير محيطهم الاجتماعى ؛ وأوحى به مظهر الحضارة الغربية الخداع . إذ استطاعت في العصور الحديثة أن تلقى شبكة نظامها الاقتصادية على جميع أنحاء العالم . وتلا توحيد العالم اقتصادياً على أساس غربى ،

توحيده سياسيا إلى نفس المدى تقريبا وعلى نفس الأساس الغربى . وذلك لأن فتوحات الجيوش والحكومات الغربية لم تكن من الشمول أو الحسم كفتوحات رجال الصناعة والفنيين الغربيين . على أن ثمة حقيقة مبناها أن جميع دول العالم المعاصر تكون جزءاً من نظام سياسى واحد ينبعث من أصل غربى .

ولأنه وإن كانت هذه حقائق ملفتة للنظر ، إلا أن اتخاذها دليلاً على وحدة الحضارة ، رأى سطحي . لأنه وإن اصطبغت المصورات الاقتصادية والسياسية بالصبغة الغربية ، إلا أن المصور الثقافى ما يزال فى جوهره على حاله ؛ منذ أن اتخذ المجتمع الغربى سبيله إلى الغزو الاقتصادى والسياسى . وفى وسع كل ذى عينين يبصر بهما ، أن يشاهد تقاطيع الحضارات الأربع القائمة — ما خلا الغربية — ما تزال واضحة المعالم فى المستوى الثقافى . بيد أن كثيرين ما تزال عيونهم مختوماً عليها . وتظهر طريقة تفكيرهم هذه من استخدام الكلمة الإنجليزية « وطنين » أو ما يعادلها من الألفاظ فى اللغات الغربية الأخرى .

وإذ ندعو — نحن الغربيين — الناس « وطنين » ، فإننا نغضى الطرف بذلك عن طابع ثقافتهم ، وكأننا نحسبهم حيوانات برية ابتلى بها البلد الذى نلتقى بهم فيه ، ونعتبرهم جزءاً من الحيوانات أو النباتات المحلية ، لا كأناس لهم شعور وإحساس مثل ما لنا . وطالما نرى فيهم « وطنين » ، فإننا قد نبئدهم أو بالأحرى — كما يحدث غالباً فى الوقت الحاضر — نجعل منهم خدماً ؛ معتقدين — وربما كان اعتقادنا غير مخطئ تماماً — أننا بذلك إنما نحسن السلالة . وحقيقة الأمر أننا ما نزال بعيدين عن فهمهم .

على أننا مع التجاوز عن الأوهام التى ترتبت على نجاح الحضارة الغربية مادياً على نطاق عالمى ، نجاح قاد إلى الفكرة الخاطئة القائلة « بوحدة الحضارة » بما تتضمنه من افتراض نهر واحد للحضارة ليس إلا ، وهو الغرب ، وأن

جميع ما عداه إما روافد له ، أو ضائع في رمال الصحراء ؛ فإن لهذه الفكرة ثلاثة جذور :

الأول : وهم حب الذات .

الثاني : وهم الشرق الراكد .

الثالث : وهم التقدم كحركة تلزم خطأ مستقيا .

بالنسبة لوهم حب الذات : فهو أمر طبيعي إلى حد ما . وجماع ما يجب قوله هنا ، أن الغربيين ليسوا ضحايا الوحيدين . إذ عانى اليهود كثيرا من وهم أنهم ليسوا شعبا مختارا فحسب ، لكنهم الشعب المختار الأوحى بين الشعوب . ومصدقا لذلك فإن الذين ندعوهم بالوطنيين ، يُطلق اليهود عليهم لفظ « الأميين »^(١) . وكان اليونان أيضا يطلقون على من عداهم من الشعوب لفظ « البرابرة » .

ولعل خير مثال لوهم حب الذات ، ما ورد في رسالة قدامها لإمبراطور الصين الفيلسوف تشين لونج عام ١٧٩٣ ميلادية إلى المبعوث البريطاني ليسلمها إلى سيده الملك جورج الثالث :

« إنك أيها الملك تعيش وراء حدود بحار كثيرة ، إلا أنك مدفوعا برغبتك المتواضعة في الاستفادة بشمرات مدينتنا ، قد أوفدت بعثة تحمل مذكرتك بكل احترام . . . لقد تصفحت مذكرتك التي تُسفر العبارات التي صيغت فيها عن تواضع مليء بالاحترام من جانبكم خليق بالإطراء الكثير : ؟ ؟

« أما بالنسبة لانتماصك إيفاد أحد رعاياك ليعتمد في بلاطى السماوى ، وليشرف على تجارة بلادك مع الصين . . فإن هذا الطلب يخالف العرف المتبع في أسرتى المالكة ولا يتيسر النظر فيه . : فإذا ثبت أن توقيعك لعائلتنا

المالكة السواوية يُفعمك برغبة اكتساب حضارتنا ، فإن مراسمتنا وقوانيننا تختلف اختلافاً تاماً عن مراسمك وقوانينك إلى حد أنه حتى إن استطاع مبعوثك اكتساب المبادئ الأولية من مدينتنا ، فليس من الممكن أن يتمكن من غرس عاداتنا وأساليبنا في أرضكم الأجنبية . وعلى ذلك فهما فعل مبعوثك في سبيل اتباعنا ، لا يمكن تحقيق أى كسب من وراء ذلك .

« ولما كانت أسوس العالم الواسع ، فإننى لا أرنو إلا إلى هدف واحد هو كفالة الحكم الكامل والوفاء بواجبات الدولة . ولا تعينى التحف والأشياء الغريبة الغالية . وإذ كنت قد أمرت بقبول الهدايا التى بعثت بها أيها الملك دليلاً على ولائك ، فلن يكون ذلك إلا تقديرًا للروح التى حفزتكم إلى إرسالها من مكان قصى . إن فضائل أسرتنا المالكة قد كفدت إلى كل بلد تحت السماء . وإن ملوك جميع الأمم يعطون الجزية القيمة برأى وبحراً . . . وكما يستطيع سفيرك أن يشاهد بنفسه ، فإننا نملك كل شيء . . . ولا قيمة عندى للأشياء الغريبة أو المبتكرة ، ولا يوجد لدى مكان لاستعمال مصنوعات بلدك » (١) .

وحدث فى غضون القرن الذى تلا تحرير هذه الرسالة ، أن أصيب كبرياء مواطنى تشين لوانج بسلسلة من الكوارث . وذلك هو مصير الكبرياء المحتوم . . .

أما عن الوهم الخاص بالشرق الراكد : فإنه يتسم بانتشاره بشكل واضح وبعدم قيامه على أساس من الدراسة الجدية ، بحيث أن بحث أسبابه ليس بذى منفعة أو أهمية ذات بال ؛ ولعل ذلك يرجع إلى أن « الشرق » الذى يعنى هنا أى بلد واقع بين مصر والصين ، كان وقتاً ما متقدماً عن الغرب كثيراً ، ويبدو الآن متخلفاً عنه بمراحل . ومن ثمت فبينما كنا نتحرك ، كان الشرق راكداً . وعلينا أن نذكر بصفة خاصة أن أقاصيص

التوراه ما برحت - بالنسبة للغربي العادى - هى وحدها الفصل المألوف عن تاريخ الشرق القديم . وعندما يلاحظ المسافرون الغربيون المحدثون بمزيج من الدهشة والابتهاج ، أن الحياة القائمة حالياً فى منطقة الأردن المتاخمة للصخراء العربية ، تتواءم من كل مواضعها مع وصف حياة أنبياء بنى إسرائيل فى سفر التكوين ، يبدو لهم أن جمود الشرق أمر لا مشاحة فيه . على أن ما يواجه هؤلاء المسافرين ليس هو الشرق الراكد ، بل السهب (١) العربى الثابت . إذ تفرض البيئة الطبيعية لهذا السهب قوتها العارمة على بنى البشر بحيث تنحصر طاقتهم على تكيف أنفسهم معها ، فى حدود ضيقة للغاية . لأنها تعيّن للمخلوقات البشرية فى جميع الأزمنة - الذين شاء سوء حظهم أن يسكنوها - طريقاً للحياة صارماً لا يريم .

وبالأحرى ، فإن إيراد مثل هذا القول للدلالة على «الشرق الغير المتغير» تافه . لأنه توجد فى العالم الغربى - مثلاً - وديان فى جبال الألب لم يمسهما الغزو السياحى . وما يزال أهلوها يعيشون بلا ريب كما كان يعيش أسلافهم فى أيام إبراهيم . فإن اتبعنا القياس السالف الذكر ، لاستخلصنا نتيجة لا تقل فى غرابة منطقتها هى « الغرب غير المتغير » .

أما عن وهم التقدم كشيء يتحرك فى خط مستقيم : فإنما هو أنموذج لذلك الميل إلى المغالاة فى التبسيط الذى يُظهره العقل البشرى فى كافة أوجه نشاطه . فإن مؤرخينا فى تقسيمهم أطوار التاريخ إلى دورات ، ينضّدون دوراته فى سلسلة واحدة بحيث تتفق نهاية كل دورة مع بداية الدورة التى تليها . مثلها مثل عقل الغاب الهندى تعترض بين المفصل والمفصل ، أو مثل أجزاء العصا المتصلة بعضها ببعض والتي يركّب فيها العامل الحديث المكنسة المستعملة فى تنظيف المداخن . إذ كان مقبض المكنسة الذى ورثه المؤرخون العصريون يحتوى أصلاً على مفصّلين فحسب « قديم وحديث »

(١) السهب : السهل الفسيح . (المترجم)

تطابقان بالتقريب ، لا تماماً ، العهد القديم والعهد الجديد . كما تطابق
فترتا حساب التاريخ المتصلتين : « قبل الميلاد وبعد الميلاد » . وما ثنائية
التاريخ الزمنى ؛ إلا من مخلفات نظرة البروليتارية الداخلية للمجتمع الهليني ،
التي كانت تعبّر عن شعورها بالانفصال عن الأغلبية المسيطرة الهلينية بوساطة
معارضة الناموس الهليني القديم بناموس الكنيسة المسيحية . وبذلك وقعت
هذه البروليتارية في وهم حب الذات ، باعتبارها الانتقال من مجتمع إلى آخر
من مجتمعاتنا الواحد والعشرين ، نقطة تحوّل في التاريخ البشرى بأسره
وهم في ذلك لهم عذرهم أكثر منا لأن معلوماتهم محدودة^(١) .

ووجد المؤرخون مع مرور الأيام ، أنه من المناسب زيادة طول مقبض
مكانسهم المتصلة الأجزاء ، وذلك بإضافة وصلة ثالثة أطلقوا عليها « العصور
الوسطى » ، لأنهم أدرجوها بين الاثنتين الآخرين . بيد أنه في حين أن
التقسيم بين « القديم » و « الحديث » ، يمثل الانقسام بين التاريخ الهليني
والتاريخ الغربي ، فإن التقسيم بين العصور « الوسطى » و « الحديثة » لا يمثل
إلا الانتقال من فصل من فصول التاريخ الغربي إلى فصل آخر منه . وبالأحرى
فإن القانون « قديم + وسيط + حديث » قانون خاطئ ، ويجب أن يكون
« هليني + غربي (وسيط + حديث) . وحتى بهذا الشكل ، فهو خاطئ
أيضاً . لأننا إذا كرّمنا فصلاً معيناً من التاريخ الغربي واعتبرناه « فترة »
متمفصلة ، فلم نرفض إضفاء نفس التكريم على الفصول الأخرى ؟

ليس هناك ما يبرر تعليق أهمية على التقسيم بين ما قبل عام ١٤٧٥
وما بعده ، أعظم مما نعلقه على تقسيم مداره حوالى ١٥٧٥ . بل وثمة سبب

(١) وبنفس الطريقة تخيل مؤسس الجمهورية الثورية الفرنسية أنهم يبدأون مرحلة
جديدة من التاريخ وأن كل ما سبقهم يخص المرحلة السابقة . فبدأوا سنة جديدة رقم ١ في ٢١
سبتمبر سنة ١٧٩٢ . ولقد قام نابليون بما كان يمتاز به من منطق وعقلية محافظة بإلغاء المشروع
بعد اثنتي عشرة سنة من وجوده . ولم يبق من هذه السنوات سوى ما يضايق الباحث من أسماء
شهورها مثل Thermidors و Fructidors . (المؤلف)

وجيه يحملنا على افتراض أن التاريخ الغربي انتقل حديثاً إلى فصل جديد
قد تقع بدايته حوالى ١٨٧٥ .

وعلى ذلك يصبح لدينا :

غربي أول (العصور المظلمة) ٦٧٥ — ١٠٧٥ ميلادية :

غربي ثان (العصور الوسطى) ١٠٧٥ — ١٤٧٥ ميلادية :

غربي ثالث (العصور الحديثة) ١٤٧٥ — ١٨٧٥ ميلادية :

غربي رابع (العصور ما بعد الحديثة) ١٨٧٥ — ؟ ميلادية .

وبهذا التقسيم نكون قد حددنا عن الفكرة التي تلزم معادلة : هلىنى +
غربي ، فى نطاق التاريخ العام (قديم وحديث إن أردت) نظراً لزميتها
وابتدالها . فإن مثل هذا التقسيم ، مثل جغرافى يُخرج كتاباً تحت عنوان
« جغرافية العالم » ، ثم يتبين بفحصه أنه جميعه عن حوض البحر الأبيض
المتوسط وأوروبا .

وثمة فكرة أخرى عن وحدة التاريخ مختلفة تمام الاختلاف ، وتنطق مع
الأوهام الشائعة والتقليدية التي ناقشناها فيما سلف وبيننا أنها تناقض نظرية هذا
الكتاب . فإننا هنا لا نواجه آراء الجماهير الشعبية ، ولكن حصيلة نظرية جديدة
مستنبطة من التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية . تلك هى نظرية استطرارة
الحضارة التي بسطها اليوت سميث فى مؤلفه « قدماء المصريين وأصول
الحضارة^(١) » ، وكذلك ، ه — برى فى كتابه « أبناء الشمس — دراسة
المراحل الأولى لتاريخ الحضارة^(٢) » . إذ يؤمن هذان الكاتبان بوحدة
الحضارة ، على أساس معنى خاص ، لا باعتبارها حقيقة الأمس أو الغد التي
حدثت عن طريق الاستطرارة العالمية الواسعة النطاق لحضارة مفردة هى

The Ancient Egyptians and the Orgens of Civilization. (١)

W.H. Perry's : The Children of the Sun : A study of the Early
History of Civilization. (٢)

الحضارة الغربية وحدها ، ولكن باعتبارها حقيقة تمت منذ آلاف السنين بواسطة استطارة الحضارة المصرية التي سبق أن رأينا أنها من الحضارات الميته التي لم تُنجب أية حضارة أخرى على الإطلاق .

ويعتقد الكاتبان أن المجتمع المصرى هو المجتمع الفرد والأنموذج الوحيد للذى انبعث منه هذا الشئ المسمى حضارة من غير معاونة من الخارج ، وأن جميع مظاهر الحضارة الأخرى مستمدة من مصر بما فى ذلك حضارات الأمريكتين التي لا بد أن التأثيرات المصرية قد بلغت عن طريق هاواى وجزيرة الايستر .

وإننا نسلّم الآن بأن استطارة الحضارة هى بلا ريب وسيلة انتقلت بفضلها كثير من الأساليب والمؤهلات والنظم والآراء من مجتمع إلى آخر : من الحروف الهجائية إلى ماكينات سنجر للحياكة . وإلى استطارة الحضارة يُعزى شيوع شرب شاي الشرق الأقصى فى كل مكان ، كذلك القهوة العربية وكاكاو أميركا الوسطى ، واستخدام المطاط الأمازونى وعادة تدخين تبغ أميركا الوسطى ، وطريقة الحساب الاثنا عشرية السومرية الأصل المتمثلة فى الشلن الانجليزى ، وما يسمى الأرقام العربية التي ربما وفدت أصلا من الهندستان . . . وهكذا .

بيد أن القول بأن البندقية قد شاعت فى كل مكان عن طريق استطارتها من مركز واحد اخترعت يوما فيه هو وحده : لا ينهض دليلا على شيوع القوس والسهم فى كل مكان بنفس الطريقة . كما لا يجوز أن نستخلص انتشار استخدام المغزل الآلى فى جميع أنحاء العالم من مانشستر . وبالمثل فإن الأسلوب الفنى فى صناعة التعدين يجب أن يردّ هو أيضاً إلى أصل واحد ، إذ أن الأدلة فى هذه الحالة تُثبت عكس ذلك .

بيد أنه مهما يكن من الأمر ، فإن الحضارات - رغما عن الآراء الفاسدة للمادية الحديثة - لم تُشيد بمثل هذه الأحجار ولا تدخل فى بنائها

ماكينات الحياكة والتبغ والبنادق ، بل ولا حتى الحروف الهجائية والأعداد .
 فإن أيسر شيء في عالم التبادل التجاري ، تصدير أسلوب فني غربي جديد :
 وأنه لأصعب صعوبة لانهائية ، على الشاعر أو القديس الغربي ، أن يشعل في
 نفس غير غربية ، الشعلة الروحية المتقدمة في نفسه هو . فمع إعطاء الاستطارة
 حقها ، من الضروري إبراز الدور الذي قام به الإبداع الأصلي في التاريخ
 البشري ، ويجدر أن نذكر أنفسنا بأن شرارة - أو نقطة - الابتداء
 الأصلي ، قد تنفجر إلى لهب أو تتفتح إلى زهرة في أي مظهر من مظاهر
 الحياة وفقاً لمبدأ « ثبات الطبيعة على نمط واحد » . وقد يمكننا أن نذهب على
 الأقل إلى حد وضع عبء الإثبات على كاهل أصحاب نظرية استطارة
 الحضارة في الأحوال التي لم يُهتد فيها بعد إلى جواب على هذا السؤال وهو
 هل يجوز أن يُنسب للاستطارة فخر أنها كانت السبب في مأثرة من مآثر
 الجنس البشري .

كتب فريمان عام ١٨٧٣ :

« ليس هناك أدنى شك في أن كثيراً من أهم المخترعات الأساسية
 للحياة المتمدينة ، قد اخترع مرة وأخرى في عصور في بلاد بعيدة عن
 بعضها . وذلك لأن أما مختلفة كانت قد وصلت إلى مراحل خاصة من
 التقدم الاجتماعي التي تدعو الحاجة فيها لأول مرة إلى هذه المخترعات .
 ومصدقا لذلك اخترعت الطباعة على حدة في كل مكان في الصين وأوروبا
 القرون الوسطى . كما أنه من المعروف جيداً أن عملية مشابهة في جوهرها
 للطباعة كانت تستخدم لأغراض مختلفة في روما القديمة ، وإن لم يخط أحد
 الخطوة الكبيرة التي تؤدي إلى تطبيق هذه العملية على طباعة الكتب ،
 مع أنها جارية الاستعمال في أغراض أقل أهمية . وما حدث بالنسبة للطباعة ،
 في مكنتنا اعتقاد حدوثه في الكتابة . وأمامنا مثال آخر من فن يختلف كلية
 عن هذا النوع . فلا يوجد أدنى شك - بمقارنة آثار الأبنية الأولى في

مصر واليونان وإيطاليا والجزائر البريطانية والمدن المحرقة في أميركا الوسطى ، أن الابتكارين العظيمين وهما العقود والقبة ، قد ظهرا في تاريخ الفن البشرى أكثر من مرة . . . كما لا نشك في أن كثيراً من الفنون الشديدة البساطة والعظيمة النفع للحياة المتمدينة - كاستخدام حجر الرحي واستعمال القوس واستئناس الحصان وتجويف الزورق - قد استكشفت في أماكن وأوقات بعيدة المرة بعد الأخرى . . . والمثل يقال كذلك عن النظم السياسية . إذ تتجلى على الدوام نفس النظم - وإن بعد بعضها عن البعض الآخر بعداً شاسعاً - بسبب بسيط هو أن الظروف التي استدعت وجودها ، قد نشأت في أوقات وأماكن متباعدة بعداً تاماً (١) .

وعبر عالم حديث من علماء الأجناس البشرية عن نفس الفكرة إذ قال (٢) :

« إن المشابهات في أفكار الإنسان وعاداته ، تردّ بصفة خاصة إلى التشابه في تكوين المخ البشرى في كل مكان ، وإلى ما يترتب على ذلك من طبيعة عقله . ولما كان تركيب هذا العضو الطبيعي واحداً في جميع مراحل تاريخ الإنسان المعروفة ، في مزاجه وفي عملياته العصبية ، فإن للعقل كذلك طائفة عامة من الخواص والقوى وأساليب العمل . . . وبشاهد تشابه عمل المخ في عقل اثنين من علماء القرن التاسع عشر وهما داروين وراسل والاس . إذ قد اهتمت في وقت واحد أثناء عملهما في ميدان واحد ، إلى نظرية التطور (٣) . كما أنه يعلل تعدد المطالبات في نفس العصر بالأسبقية في التوصل إلى نفس اختراع أو استكشاف . وتفسر عمليات مشابهة للعقل العادي للجنس - وهي أكثر تفتتاً وتشتتاً في وقائعها وأعظم بدائية في قواها ،

(١) Freeman, E.A. Comparative Politics P.P. 31—32

(٢) Murphy, I: Primitive man, His Essential quest P.P. 8—9

(٣) أشار ابن خلدون إلى تلك النظرية في مقدمته . (المترجم)

وأشد غموضاً في نتائجها - ظهور معتقدات ونظم مثل الطوطمية ، زواج الأبعاد ، وكثير من شعائر الطهارة بين شعوب وفي أماكن على الأرض ، يبعد بعضها عن الآخر بعداً شاسعاً » .

(٣) إمكان مقارنة الحضارة

عاجلنا حتى الآن اعتراضين متناقضين لطريقتنا عن الدراسة المقارنة وهما :
الأول : انتفاء السمة المشتركة بين مجتمعاتنا الواحد والعشرين ، عدا كونها ميادين دراسة تاريخية قابلة للفهم .
الثاني : هبوط وحدة الحضارة بالتعدد الظاهر في الحضارات ، إلى حضارة واحدة .

على أنه حتى لو قبل نقادنا إيجاباتنا على هذين الاعتراضين ، يحتمل مع ذلك أن يقفوا عند هذه النقطة وينكروا قابلية حضاراتنا الواحد والعشرين للمقارنة ، بحجة أنها غير معاصرة لبعضها . إذ أن سبعا منها فقط ما تزال قائمة في الوقت الحاضر ، بينما اندرس منها أربع عشرة من بينها ثلاث على الأقل - المصرية والسورية والمينوية - ترجع إلى « فجر التاريخ » . وهذه الحضارات الثلاث - وربما غيرها - تنفصل زمنياً عن الحضارات القائمة الآن ، بمقدار مدة الزمن التاريخي كلها .

وإجابتنا : أن الزمن شيء نسبي ، وأن برهة تقل عن ستة آلاف سنة تصل الفترة بين ظهور أقدم حضارة معروفة وبين عصرنا الحاضر ، أخرى بأن تقاس - لأغراض دراستنا - بالمقياس الزمني المناسب ، أى بالنسبة للفترة الزمنية التي عاشتها الحضارات نفسها . وعليه يتبين من استعراض العلاقات بين الحضارات خلال الزمن ، أن العدد الأقصى للأجيال المتعاقبة التي مرت بنا ، هو ثلاثة في كل حالة ، وأن فترة الحضارات الثلاث في كل

حالة ، تمتد أكثر من الستة آلاف سنة ، ما دام الحد الأخير في كل مجموعة ، هو حضارة لا تزال قائمة .

وإذا كنا لم نجد خلال استعراضنا للحضارات عددا من الأجيال المتعاقبة ينيف على ثلاث فقط في أية حالة ، فإن معنى ذلك أن هذا النوع حديث العهد ، إن قيس بمقياس الزمن . كما أن عمره المطلق حتى الآن قصير الأمد جدا ، إن قورن بالنوع الشقيق ، نوع المجتمعات البدائية الذي يعادل عمره عمر الإنسان نفسه ، والذي تقدر حياته بثلاثمائة ألف سنة حسب التقدير المتوسط .

ومن نافلة القول أن بعض الحضارات ترجع إلى « فجر التاريخ » . ذلك لأن ما ندعوه تاريخا ، إن هو إلا تاريخ الإنسان في « مجتمع متمدين » . فإذا كنا نغنى بالتاريخ ، الحقبة الكاملة لحياة الإنسان على الأرض ، كان لا بد أن نجد أن الفترة التي أنتجت الحضارات - وهي أبعد من أن تعادل حقبة التاريخ البشرى - لا تغطي سوى اثنين في المائة من تلك الحقبة ، أو جزء واحد من خمسين جزءا تكون حياة الجنس البشرى . ومن ثم - لأغراض دراستنا - نستطيع اعتبار حضارتنا معاصرة بعضها بعضا .

بيد أن نقادنا - بافترض تنازلهم عن حججهم القائمة على المقياس الزمني - قد ينكرون قابلية الحضارات للمقارنة بحجة اختلافاتها في قيمتها . أليس معظم ما وصف بأنه حضارات لا قيمة له تقريبا ، ولا يمت في الواقع إلى الحضارة بأية صلة ، بحيث أن مقارنة تجاربها بتجارب الحضارات الحقيقية - مثل الحضارة الغربية بالطبع - مجرد مضیعة للطاقة الذهنية ؟

وهنا يجدر بالقارئ - كما ننوئ أن نطلب إليه - تأجيل حكمه في هذه النقطة ، إلى أن يرى نتيجة تلك الجهود الذهنية . وإلى أن يتم ذلك ، عليه أن يتذكر ، أن القيمة كالزمن ، مسألة نسبية . وأن مجتمعاتنا الواحد والعشرين جميعها - لو قيست بالمجتمعات البدائية ، لوجد أنها قد حققت كثيرا من

التقدم ، وأنها جميعها ، إن قيست بأى مقياس مثالى ، لوجد أنها جميعاً لم تُصَبَّ
الهدف حتى الآن ، مما يجعل كل منها فى مركز لا يمكنه من « إلقاء الأحجار
على الآخرين » .

وفى الواقع ، أننا نصرّ على أنه يجب - افتراضياً - اعتبار مجتمعاتنا
الواحد والعشرين متساوية جميعها من الناحية النظرية ، وأنها من الناحية
النظرية كذلك معاصرة بعضها لبعض .

وأخيراً ، فإن النقّاد - حتى مع افتراضنا تمثيلهم معنا إلى هذا الحد ،
يحوز أن يقولوا مع ذلك ، بأن تواريخ الحضارات إن هى الا تسلسل الوقائع
التاريخية ، وأن كل واقعة تاريخية فريدة فى جوهرها ، وأن التاريخ
لا يعيد نفسه .

ومناطق أجابتنا ، أنه بينما الواقعة كالفرد فى ذاتها ، وهى بالتالى لاتقبل
المقارنة من بعض النواحي ، الا أنها فى بعض النواحي الأخرى قد تكون
عضواً فى صنف ؛ ويمكن بالتالى المقارنة بينها وبين الآخرين فى ذلك الصنف
بالقدر الذى يشملها التصنيف . والواقع أنه لا يوجد اثنان من الكائنات الحية -
حيوانات أو نباتات - متماثلين تماماً ، لكن هذا لا يسلب من قيمة علوم :
وظائف الأعضاء ، الأحياء ، النبات ، الحيوان ، وأصول الأجناس^(١) .
وكذلك فإن العقول البشرية أعظم من ذلك اختلافاً بعضها عن البعض الآخر .
الا أننا نسلّم بحق علم النفس فى الوجود وفى ممارسة عمله ، مهما يكن من
أمر اختلافنا فى قيمة النتائج التى وصل إليها حتى الآن . كما نسلّم كذلك
بالدراسة المقارنة للمجتمعات البدائية تحت عنوان « علم الأنثروبولوجى^(٢) » .

Physiology, biology, botany, Zoology, Ethnology (١)

Anthrology (٢)

وهذا يدعونا إلى المطالبة بتطبيق الوسائل المتبعة في تحقيق النوع البدائي من الأجناس البشرية ، لتحقيق النوع المتمدين .
 بيد أن موقفنا سيزداد وضوحاً في القسم الأخير من هذا الفصل .

(٤) التاريخ والعلم والمصنفات الخيالية

ثمة ثلاث وسائل مختلفة لمعاينة موضوعات تفكيرنا - ومنها الظواهر الحياة البشرية - وعرضها :

الأولى - تحقيق الوقائع وتسجيلها :

الثانية - استخلاص قوانين عامة عن طريق دراسة مقارنة للوقائع المحققة .

الثالثة - إعادة تصوير الوقائع بطريقة فنية ، في مصنف خيالي .

ومن المسلم به - بصفة عامة - أن تحقيق الوقائع وتسجيلها ، هو الأسلوب الفني للتاريخ ؛ وأن الظواهر في مجال هذا الأسلوب ، هي الظواهر الاجتماعية للحضارات ، وأن استخلاص قوانين عامة وصياغتها هو الأسلوب الفني للعلم ؛ وأن في ميدان دراسة الحياة البشرية ، العلم هو علم الأنثروبولوجي ، وأن الظواهر في مجال الأسلوب العلمي هي الظواهر الاجتماعية للمجتمعات البدائية . وأخيراً أن المصنف الخيالي هو الأسلوب الفني للدراما والقصة ، وأن العلاقات الشخصية بين أفراد من البشر ، هي الظواهر في مجال هذا الأسلوب الفني .

نجد هذا كله - في جوهرياته - في مؤلفات أرسطو .

بيد أن توزيع الأساليب الفنية الثلاثة على ميادين الدراسة الثالثة ليس - مع ذلك - محكماً واضح الحدود ، كما قد يفترض : فإن التاريخ لا يشغل نفسه مثلاً بتسجيل جميع حقائق الحياة البشرية . إذ يدع جانباً حقائق الحياة الاجتماعية في المجتمعات البدائية ؛ وهي الحقائق التي يُستخلص منها علم

الأنثروبولوجى قوانينه . ويعهد إلى علم السيرة^(١) بتسجيل وقائع حياة الأفراد . وإن كانت قد انقضت الحيات الفردية التى بلغت من الطرافة والأهمية حداً يجعلها تبدو جديرة بالتسجيل . انقضت ، لافى المجتمعات البدائية ، ولكن فى مجتمع أو آخر من تلك المجتمعات التى تسير فى طريق الحضارة ، والتى انعقد الإجماع على اعتبارها داخل دائرة اختصاص التاريخ .

فالتاريخ يُعنى إذن ببعض حقائق الحياة البشرية ، لاجميعها : ومن ناحية أخرى ، يستنجد التاريخ بالمصنفات الخيالية ويستخدم القوانين ، إلى جانب تسجيله الحقائق .

والتاريخ — مثله مثل الدراما والقصة — نشأ عن الأسطورة . وهى شكل بدائى للفهم والإدراك ، لا يرسم فيها الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال ، كما هو حادث فى الأقاصيص الخرافية التى يستمع إليها الأطفال أو فى الأحلام التى يتصورها الواعون من البالغين . فلقد قيل عن الإلياذة مثلاً ، إن أى إنسان يشرع فى قراءتها كتاريخ يجدها حافلة بالخيال ، فإذا شرع فى قراءتها كقصة خيالية يجدها بنفس المقدار حافلة بالتاريخ . وتشبه جميع التواريخ الإلياذة من هذا القبيل ، بمعنى أنها لا تستطيع الاستغناء عن عنصر الخيال استغناء تاماً . وما اختيار الحقائق وترتيبها وعرضها ، إلا عملية فنية تدخل فى دائرة الخيال .

والرأى الشائع على حق إذ يصرّ على أن المؤرخ لا يكون عظيماً إذا لم يكن أيضاً فناناً كبيراً . ومصدّقاً لذلك فإن المؤرخين من أمثال جيبونز وماكولى ومؤرخين أعظم من المؤرخين المزمتمين Dryasdusts (هو اسم اخترعه السير والتر سكوت ، وهو نفسه مؤرخ أعظم فى بعض رواياته منه فى بعض تواريجنه) الذين تجنبوا ما وقع فيه زملاؤهم الأكثر إلهاماً من أخطاء

متصلة بالوقائع . وعلى أية حال ، قد تتعذر كتابة سطرين متتاليين في سرد تاريخي ، من غير إضفاء شخصية وهمية على أشياء مثل « إنجلترا » ، « فرنسا » و « الحزب المحافظ » و « الكنيسة » و « الرأي العام » . ولقد أضفى توكيديس^(١) عنصر الدراما على الشخصيات التاريخية بتأليف خطب ومحاورات مختلفة على لسانهم . على أنه وإن كانت خطته المباشرة أكثر حيوية ، إلا أنها لا تقل خيالاً عن الأحاديث غير المباشرة التي يعرض فيها المحدثون صورهم المركبة من الرأي العام .

كذلك جعل التاريخ في خدمته عدداً من العلوم الفرعية التي تتولى استخلاص القوانين العامة بالنسبة للحضارات ، لا بالنسبة للمجتمعات البدائية . ومن قبيل المثال : الاقتصاد ، العلوم السياسية ، الاجتماع .

وإذا كانت مناقشاتنا لم تتطلب ذلك ، إلا أننا نستطيع أن نثبت أنه إذا لم يكن التاريخ بريثاً من استخدام الأساليب الفنية المتصلة بالعلم والمصنفات الخيالية ، فإن العلم والمصنف الخيالي لا يلتزمان كذلك بأية حال من الأحوال حدود ما يفترض فيه أنه طرائقهما الفنية . وتتم جميع العلوم بمرحلة يكون فيها التثبت من الحقائق وتسجيلها هو الباب الوحيد المتاح لها الممارسة نشاطها . ولم يخرج علم الأنثروبولوجي عن هذه المرحلة إلا حديثاً جداً . وأخيراً فإن الدراما والقصة لا تعرضان الأساطير — أي الأساطير الكاملة ولا شيء سواها — فيما يتعلق بالصلوات الشخصية . فإن فعلنا ، لكنت الحصيلة أوهاماً لا تطاق ولا معنى لها ، عوضاً عن استحقاقها أثناء أرسطو على كونها « أصدق من التاريخ وأكثر منه فلسفة » .

ولا نغني إذ نصف قطعة من الأدب بأنها من أعمال الخيال ، أكثر

(١) يعتبر توكيديس يدرس بصفة عامة ، طليعة كبار المؤرخين العارفين في الخيال ومن أعظمهم على أن F.M. Corford يبدى في كتابه *Thuydides Mythistoricus* أن جميع عرضه لموضوعه محكوم بالعرف الذي جرت عليه التراجيديات اليونانية المعاصرة له . (المؤلف)

من أنه لا يتأتى التعرف على شخصياتها في أى شخص عاش فعلاً ؛ ولا مطابقة حوادثها لأية وقائع معينة حدثت فعلاً . فإننا نعنى في الواقع ، أن للعمل مظهراً خيالياً فردياً . وإذا كنا لا نذكر أن قوام الأساس هو وقائع اجتماعية أصيلة ، فلئن ذلك يبدو تحصيل حاصل بحيث نأخذه قضية مسلم بها فعلاً ؛ فإننا نسلّم بأن أعلى درجات الثناء التي يمكن أن نزيهاها إلى عمل تصورى حسن ، هى أن نصفه بأنه صورة من الحياة ، وبأن المؤلف أبدى إدراكاً عميقاً للطبيعة البشرية . وبعبارة أدق ؛ إذا كانت الرواية تعالج موضوع عائلة تصورية من أصحاب مصانع الصوف في بوركشير ، فإننا نُثنى على المؤلف بقولنا إنه يعرف أحوال المدن الصناعية في وست ريدنج حملة وتفصيلاً .

وبالرغم من ذلك ، تظل تفرقة أرسطو بين الأساليب الفنية للتاريخ والعلم والتصور ؛ صحيحة بوجه الإجمال . وربما ندرك سبب ذلك إذا ما فحصنا هذه الأساليب الفنية مرة أخرى . إذ سنجد بعضها يختلف عن البعض الآخر من ناحية مناسبتها لمعالجة « المعلومات المختلفة الكم » . فإن تحقيق وقائع معينة وتسجيلها ، هو كل ما نستطيعه في ميدان دراسي يتسم بقلّة معلوماته . وحينما تكون المعلومات من الكثرة بحيث لا يستطيع تبويبها في جداول دون أن تبلغ الحد الذى تستعصى معه مراقبتها ؛ يصبح استخلاص القوانين وصياغتها ، أمراً ضرورياً ومتاحاً .

فإذا فاقت المعلومات الحصر ، يصبح أسلوب الابتداع والتعبير الفنيين — المسمى بالتصور — هو الطريقة الفنية الوحيدة التي يتأتى استخدامها أو يجدر استعمالها . ولدينا هنا اختلاف جوهري من حيث الكم ، مثلما هو حاصل بين الأساليب الفنية الثلاثة ؛ هذا وتختلف الأساليب الفنية في جدواها لبحث مقادير مختلفة من المعلومات .

فهل نستطيع أن نميز اختلافاً مماثلاً في كميات المعلومات التي تعرض نفسها فعلاً في الميادين الخاصة بدراساتنا الثلاث ؟

إن بدأنا بدراسة العلاقات الشخصية — التي هي مجال عمل التصور — استطعنا أن نلمح على الفور أفراداً قليلين تكون علاقاتهم الشخصية من الطرافة والأهمية بحيث تجعلهم موضوعات صالحة لهذا التسجيل الذى يتناول الحقائق الشخصية ؛ والذى نطلق عليه « السيرة » . ومع هذه الاستثناءات النادرة ، تجابه دراسة الحياة البشرية — فى ناحية العلاقات الشخصية — أمثلة لا حصر لها لتجارب شائعة وعادية فى العالم . وإن مجرد فكرة بذل الجهد لتسجيلها ، سخافة . كما تبدو أية صياغة لقوانينها ، تافهة تافهة لا تحتمل أو فجة لا تطاق . ولا يمكن التعبير عن المعلومات فى مثل هذه الظروف تعبيراً ذا دلالة اللهم ؛ إلا إن استخدمنا طريقة إفصاح تتيح لنا إدراك غير محدود فى عبارات محدودة .

مثل هذه الطريقة هي التصور .

والآن وقد وجدنا فى عبارات كمية ، تعليلاً جزئياً — على الأقل — لاستخدام أسلوب التصور بشكل عام فى دراسة العلاقات الشخصية ، فهل نستطيع الاهتداء إلى تفسيرات مشابهة عن استخدام أسلوب استخلاص القوانين فى دراسة المجتمعات البدائية ، واستخدام أسلوب تحقيق الوقائع فى دراسة الحضارات .

أول ما يلاحظ ؛ أن هاتين الدراستين الأخريين كلتيهما ، متصلتان بالعلاقات البشرية ، لكنه اتصال ليس من ذلك النوع الشخصى الشائع الذى يمارسه كل رجل وامرأة وطفل ، ممارسة مباشرة . فإن علاقات البشر الاجتماعية ، تمتد — إلى أبعد حد مستطاع — وراء الاتصالات الشخصية . ويحتفظ بهذه العلاقات غير الشخصية عن طريق أجهزة اجتماعية تدعى نُظُمًا ، ولا يقدّر للمجتمعات البقاء من غير نظم . والواقع ، ما المجتمعات نفسها إلا نظم من أسى نوع ، وما دراسة المجتمعات ، ودراسة العلاقات المتصلة بالنظم إلا شئ واحد .

ونستطيع أن نرى للوهلة الأولى ، أن مقدار المعلومات التي تجابه دارسى العلاقات المتصلة بالنظم والقائمة بين الناس ، أقل كثيراً جداً من الكمية التي تجابه دارسى علاقات الناس الشخصية . وفى مكننا أن نشاهد أكثر من ذلك ، أن مقدار ما تم تسجيله من العلاقات المتصلة بالنظم والتي تتعلق بدراسة المجتمعات البدائية ، أعظم كثيراً من مقدار ما يقصّل منها بالمجتمعات « المتمدينة » . ذلك لأن عدد المجتمعات البدائية المعروفة يفوق السّمائة والخمسين ، فى حين أن استعراضنا للمجتمعات التي تسير فى طريق الحضارة ، أتاحت لنا تحقيق ذاتية عدد من المجتمعات لا يجاوز على أكثر تقدير ، الواحد والعشرين : فها هنا سّمائة ونحسون مثالا ، وإن كانت أقل من أن تتطلب استخدام الخيال ، إلا أنها تكاد تكفى تماماً لتكون بداية تسمح للدارس باستخلاص القوانين . ومن ناحية أخرى ، فإن دارسى ظاهرة لا يُعرف منها سوى « حفنة أمثلة » أو « حفتين » ؛ لا يملكون إزاءها أكثر من محاولة تبويب حقائقها . وهذه — كما رأينا — هى المرحلة التي ما يزال التاريخ باقياً فيها حتى الآن :

وقد يبدو للوهلة الأولى ، أن ثمة تناقضاً فى التأكيد بأن كمية المعلومات التي تحت تصرف دارسى الحضارات ، من القلة بحيث لا تكفى أساساً للدراسة العلمية . فى حين يشكو مؤرخونا المحدثون من فيض المواد الذي يغمرهم : فالواقع ، أنه لا يزال صحيحاً أن الحقائق ذات المرتبة العليا « وهى ميادين الدراسة القابلة للفهم » ووحدات التاريخ القابلة « للمقارنة » . من الضلالة المزعجة بحيث لا تتيح تطبيق الأساليب العلمية واستخلاص القوانين وصياغتها . ومهما يكن من أمر ، فإننا نعزم المحازفة بالمحاولة على مسئوليتنا . وستتضمن بقية هذا الكتاب نتائج محاولتنا .

الباب الثاني

مبادئ الحضارات

الفصل الرابع

المشكلة وكيف لا يجب حلها

(١) عرض المشكلة

ندرك بمجرد تعرّضنا لمشكلة لم وكيف وفدت إلى الوجود المجتمعات التي تسير في طريق الحضارة ؛ إن قائمة المجتمعات الواحد والعشرين التي من هذا النوع ، تنقسم فيما يتعلق بهذه المشكلة إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : تشمل خمسة عشر مجتمعا تنسب إلى مجتمعات سالفة من نفس النوع ؛ ويتصل عدد قليل منها بسابقتها اتصالا وثيقا ، بحيث تصبح المناقشة في مسألة توافر شخصية منفصلة لها ، موضع نظر .

وتتضمن المجموعة في الطرف الآخر منها ؛ بعض مجتمعات ، اتصالتها بسابقتها ضعيف إلى حد أن القول بانتسابها إليها ، يحمل بين طياته الكثير من المغالاة .

المجموعة الثانية : وتشمل ستة مجتمعات .

وإن الخمسة عشر مجتمعا المنسوبة إلى سابقتها انتسابا قل أو كثير ، هي من مجموعة تختلف عن المجتمعات الستة التي — إلى المدى الذي نستطيع تمييزه — قد انبثقت من الحياة البدائية مباشرة .

وننوي الآن توجيه التفاتنا إلى بحث مبدأ هذه المجتمعات الستة وهي : المصرية — السومرية — المينوية — الصينية — الماينية — الانديانية .

ويقودنا هذا إلى بحث الفارق الأساسي بين المجتمعات البدائية والمجتمعات العليا المتقدمة عليها .

ليس مدار الفارق وجود النظم أو عدم وجودها ؛ فما النظم إلا ناقلات

العلاقات غير الشخصية بين الأفراد وهى التى تعيش فيها جميع المجتمعات : ذلك لأن المجتمعات البدائية — حتى أصغرها — تقوم على أساس أوسع من الحلقة الضيقة التى تضم الصلات المباشرة لفرد ما . والنظم هى صفات جنس المجتمعات كافة . والأخرى فإنها خواص مشتركة لنوعى هذا الجنس (أى المجتمعات البدائية والحضارات) كليهما .

وللمجتمعات البدائية نظمها :

عقيدة الدورة الزراعية السنوية — الطوطمية^(١) — زواج الأبعاد^(٢) — المحظورات الدينية أو العرفية (الطابو) — شعائر الالتحاق بالجماعات وطبقات السن — فصل الذكور عن الإناث فى بعض أدوار العمر فى منازل منفصلة ؛ وبقيناً أن بعض هذه النظم من دقة إحكام الصنعة والحذق ، حتى لتبلغ مبلغ النظم التى تختص بها الحضارات .

ولا تتميز الحضارات عن المجتمعات البدائية كذلك بتقسيم العمل . فإن فى مكنتنا أن نعين — على الأقل — مبادئ تقسيم العمل فى حياة المجتمعات البدائية أيضاً . فإن الملوك والسحرة والحدادين والمغنيين ، كلهم أهل اختصاص . وإن كان يلاحظ أن هفايستوس Hephaestus حداد الأسطورة الهلينية أعرج ، وهو ميروس الشاعر الأسطورى الهليني أعمى ؛ مما يوحي بأن التخصص فى المجتمعات البدائية أمر غير طبعى ، وينزع إلى الاقتصار على أولئك الذين يفتقرون إلى القُدرة ليصبحوا رجالاً كاملين ، فى قدرتهم احترام كل المهن .

وثمة اختلاف جوهري بين الحضارات والمجتمعات البدائية كما نعرفها (وسنرى أن لهذا التحفظ أهمية) ؛ مداره الاتجاه الذى يتخذه التقليد أو

(١) الطوطم ، جمعها طواطم وهى عند البدائيين أى شئ من أشياء الطبيعة يظن أن له علاقة دم بمائلة من المائلات وبخاصة حيوان أو نبات . (المترجم)

(٢) زواج الأبعاد Exogamy عادة تنتشر بين بعض القبائل تحرم على الرجل الزواج من نساء قبيلته . (المترجم)

المحاكاة . والتقليد ، هو تلك الظاهرة النوعية للحياة الاجتماعية جميعها . ويمكن ملاحظة أثر المحاكاة والتقليد في المجتمعات البدائية والحضارات على السواء ؛ في كل نشاط اجتماعي ، ابتداء من محاكاة نجوم السيلما بمعرفة أخواتهن الممثلات الثانويات ، فصاعداً .

وعلى أية حال ، يعمل التقليد في اتجاهات مختلفة في نوعي المجتمعات (١) ؛ ويوجه التقليد في المجتمعات البدائية - كما نعرفها - نحو الجيل الأقدم وإلى الأسلاف الموقى الذين ينتصبون غير مشاهدين ، ولكن مع بقاء تأثيرهم خلف الكبار الأحياء يعززون نفوذهم . ففي مجتمع يوجه التقليد فيه إلى الوراء ، نحو الماضي ؛ تسود هذه الطريقة العادات والعرف ، ويظل المجتمع ثابتاً لا يتطور . في حين يوجه التقليد في المجتمعات التي تسير في طريق الحضارة ، تجاه ذوي الشخصيات المبدعة الذين يلزمون الناس باتباعهم ؛ لأنهم من الطلائع . ومن ثم تنقطع « قرصة العرف » كما يدعوها والتر باجوت في كتابه Physics & Politics : ويصبح المجتمع في حركة دافعة في طريق التغير والسمو .

لكن إن ساءلنا أنفسنا عما إذا كان هذا الاختلاف بين المجتمعات البدائية والمجتمعات الأكثر تقدماً ، دائماً وأساسياً ؛ يجب أن تكون إجابتنا بالنفي . وذلك لأننا إذا كنا لانعرف المجتمعات البدائية إلا وهي في حالة ثابتة ، فهذا يرجع إلى معرفتنا لها فقط عن طريق ملاحظة المراحل الأخيرة من تواريخها ، ملاحظة مباشرة . فإذا كانت الملاحظة المباشرة تخدعنا ، إلا أن هناك رتلا من الاستدلالات يُنبئنا بأنه لا بد أن تكون ثمة مراحل أسبق في تواريخ المجتمعات البدائية ، كانت هذه المجتمعات تتحرك خلالها حركة دافعة تفوق كل حركة قام بها أي مجتمع « منمدين » حتى الآن .

(١) أي الحضارات والمجتمعات البدائية . (المترجم)

قلنا إن المجتمعات البدائية قديمة قدم الجنس البشرى ، وكان أخرى أن نقول إنها أقدم منه . إذ أن نوعا من الحياة الاجتماعية والنظامية بين بعض الثدييات العليا — غير الإنسان . ومن الواضح أن الإنسان ما كان ليصبح بشراً سوياً ، إلا في بيئة اجتماعية . وكان تطور شبيه الإنسان إلى الإنسان — الذى تم في ظروف ليس لدينا عنها أى تسجيل ، في عهد المجتمعات البدائية ؛ تطوراً عميق المدى ، يعتبر خطوة أعظم في طريق النمو من أية خطوة خطاها الإنسان في كنف الحضارة حتى الآن .

ويمكن تشبيه المجتمعات البدائية — كما نعرفها من الملاحظة المباشرة — بأناس راقدين خاملين على سلسلة صخور عند طنفس على جانب جبل ، تحتم هوة وفوقهم أخرى . وتشبيه الحضارات برفقاء لهؤلاء الهاجرين استيقظوا في التو ، ثم نهضوا واقفين وشرعوا في تسلق الجبل فوقهم . بينما نشبه أنفسنا بمشاهدين يقتصر مجال رؤياهم على سلسلة الصخور والانحدارات السفلى من الهوة العليا ، ووفدوا إلى المشهد في الوقت الذى تصادف فيه وجود أعضاء الجماعتين (النائمة والمتحركة) كل على وضعه وموقفه . ولقد نميل عند النظرة الأولى إلى وضع حد فاصل مطلق بين الجماعتين ، فنهال للمتسلقين باعتبارهم أبطالاً ، ونلفظ الهاجرين لأنهم مشلولون . بيد أنه عند إعادة التفكير ، سوف نجد أن أرجاء إصدار حكمتنا أكثر حكمة وسداداً في الرأى .

وعلى كل ، لا يمكن أن تكون الشخصيات الهاجرة مشلولة فعلاً . ولا يعقل أن تكون قد ولدت على سلسلة الصخور . كما لا يعقل أن تكون عضلات أخرى غير عضلاتهم هى التى رفعتهم إلى مكان وقوفهم هذا على فوهة الهاوية تحتهم . ومن ناحية أخرى ، فإن رفاقهم الصاعدين في هذه اللحظة ، لم يغادروا تلك الصخور نفسها إلا في التو ؛ شارعين في تسلق الصخور العليا . ولما كانت رؤية سلسلة الصخور التالية متعذرة ، لا نعلم مدى

ارتفاع المنحدر التالى ووعورته . وكل ما نعلمه ؛ استحالة التوقف والاستراحة ، قبل بلوغ الصخور التالية ؛ أينما كانت . . وعلى ذلك ؛ فإنه حتى إن استطعنا حالياً تقدير قوة كل متسلق ومهارته واحتماله ، نعجز على الحكم عن مدى استطاعة أى منهم الوصول إلى الصخور العليا ؛ وهى هدف جهودهم الحالية . على أن فى ممكننا التأكد من أن بعضهم لن يبلغوها أبداً . وفى وسعنا أن نلاحظ أن مقابل كل فرد يحاول أن يتسلق الآن فى عزم ، ثمة ضعف هذا العدد (أى حضارتنا البائدة) قد سقط مرتداً منهزماً إلى الصخور الأولى .

لقد فشلنا فى العثور على هدف بحثنا المباشر ، وهو الاهتمام إلى نقطة اختلاف جوهرية دائمة : بين المجتمعات البدائية ، والحضارات . على أننا ألقينا — عرضاً — قبساً من الضوء على الهدف النهائى لاستقصائنا الحالى ، ألا وهو : طبيعة بدء الحضارات . فإذا بدأنا بتحويل المجتمعات البدائية إلى الحضارات ، وجدنا أنه تحول من الركود إلى الحركة الدافعة . وسنجد أن هذا القانون نفسه ؛ يسرى بالنسبة لانبعث الحضارات بوساطة : انفصال البروليتاريا الداخلية ، عن الأقليات المسيطرة التى تنتمى إلى الحضارات السابقة الوجود ، والى فقدت قدرتها الابتداعية . وتعتبر مثل هذه الأقليات المسيطرة جامدة ، حسب تعريفها نفسه . لأن القول بتحليل الأقلية المبدعة لحضارة آخذة فى النماء — أو ضمورها إلى أقلية مسيطرة لحضارة فى حالة تفكك — إن هو إلا طريقة أخرى للقول بانتقال المجتمع محل البحث ، من الحركة الدافعة إلى حالة الركود . وعلى الضد من حالة الركود هذه ؛ يعتبر انفصال البروليتاريا ، رد فعل يتسم بالحركة والقوة الدافعة .

وعلى هدى هذا الضوء — أى انفصال البروليتاريا عن الأقلية المسيطرة — تنبعث حضارة جديدة بفعل إنتقال مجتمع من حالة الركود إلى الحركة الدافعة ، مثله مثل التحول الذى ينتج حضارة من مجتمع بدائى . ولعل تكوين جميع

الحضارات - ما كان منها أصيلاً أو ما كان منتسباً لغيره سواء بسواء -
يمكن وصفه في عبارة الجنرال سمطس « عاد الجنس البشرى للحركة
مرة أخرى » .

وهذا التردد المتعاقب من الركود والحركة الدافعة ، والتوقف والمسير ؛
قد اعتبره كثير من المراقبين - في كثير من العصور المختلفة - شيئاً جوهرياً
في طبيعة الكون .

ولقد أطلق حكماء المجتمع الصيني بخيالهم الحصيب على هذا التناوب
اصطلاحاً « لين واليانج » . لين هو الركود ، واليانج هو الحركة الدافعة
ويبدو أن نواة الحرف الصيني الذي يعتبر عن لين ، تمثل سحياً قائمة ملتفة
تحمج الشمس . في حين أن نواة الحرف الذي يعتبر عن اليانج ، تمثل قرص
الشمس خالياً من السحب وناشراً أشعته . وفي العبارة الصينية ؛ يُذكر
لين قبل اليانج على الدوام .

وكذلك نستطيع في نطاق مجال روينا ، أن نرى السلالة البشرية قد بلغت
صخور الطبيعة البشرية البدائية منذ ثلاثمائة ألف سنة ، ثم استراحت هنا لمدة
تعاادل ٩٨ ٪ من هذه الفترة ، قبل دخول مرحلة نشاط اليانج الحضارية .

وعلينا الآن أن نبحث عن العامل الإيجابي - أيما ما يكون - الذي قاد
الحياة البشرية إلى الحركة مرة أخرى ، بفضل قوته الدافعة . وسنرتاد أول
الأمر طريقين سيتضح فيما بعد أنهما مسدودان لا ينتهيان إلى شيء .

(٢) الجنس

يبدو واضحاً ، أن العامل الذي أخرج حائناً من البشرية
- خلال السنوات الستة آلاف الماضية - من حالة لين الخاصة بالمجتمعات
البدائية « على طنف الصخور الأولى » ، إلى حالة اليانج للحضارة « على
المنحدر » ، هذا العامل يجب البحث عنه : إما في صفة خاصة في الجنس

البشرى هى التى أتاحت عملية الانتقال ؛ وإما فى مظهر خاص يتعلّق بالبيئة التى حدث فيها الانتقال ؛ أو فى نوع من التفاعل بين العاملين ؛ وسننظر أولا فى احتمال قيام أى من هذه العوامل بمفرده بهدايتنا إلى ما نبحث عنه ؛

فهل نستطيع أن ننسب بدء الحضارات إلى مزايا جنس أو أجناس خاصة بذاتها ؟

والجنس اصطلاح يستخدم للتعبير عن توفر بعض صفات مميزة وموروثة فى جماعات معينة من البشرية . والصفات الافتراضية للجنس التى نبحث عنها هنا ، إنما هى السجاياء النفسية أو الصفات الروحية التى يُفترض وجودها بالقطرة فى بعض المجتمعات : بيد أن علم النفس - وبصفة خاصة علم النفس الاجتماعى - دراسة ما تزال فى المهد . وتتوقف من ثم جميع المناقشات المتصلة بالجنس - حتى الآن - وعندما يدرس الجنس كعامل منتج للحضارة ، على الفرض بأن ثمة علاقة بين الصفات النفسية المفيدة ، وبين طائفة من المظاهر الطبيعية الواضحة للعيان ؛

ويُعتبر اللون ، الصفة البدنية التى يعول عليها أكثر من غيرها فى غالبية الأحوال ، المدافعون عن نظريات الأجناس من الغربيين . وقد يفهم بدهة أن التفوق الروحى والذهنى - إلى حد ما - مرتبط نوعا ما بالنقص النسبى فى صباغة البشرة أو على اتصال وثيق به ، أو يتبادل معها (وإن كان يبدو أن ذلك غير محتمل من الناحية البيولوجية) ؛

ومعها يكن من الأمر ، فإن أكثر نظريات الحضارة العنصرية شيوعا ، هى تلك النظرية التى تضع على منصة الشرف ، السلالة ذات البشرة البيضاء والشعر الأصفر والعيون الشهباء والرأس الطويل^(١) التى يدعوها البعض

(١) عبر عنها المؤلف مقتبسا من هوراثيوس Anthotrichous Glaucoptic, dolichocerhalic Variety of homo-leucodermaticus.

بالإنسان النوردى ، ويدعوها نيتشه بالوحش الأشقر . وحرى بنا أن نبحث عن أوراق اعتماد هذا الوثن معبود أوساط التيوتونيين .

وضع الإنسان النوردى على منصة الشرف لأول مرة ، نبيل فرنسى هو الكونت دى جوبينو *Compte de Gobineau* فى مستهل القرن التاسع عشر . وكان ارتقاؤه بـ « الوحش الأصفر » إلى مستوى الأوثان حدثا عارضا ، قام فى غمار المحادلات التى انبعثت عن الثورة . فبينما كانت الأرستقراطية الفرنسية تُصادر أموالها أو تُنقى أو تطيح المقصلة برؤوسها ، كان متحذلقة الحزب الثورى الذين كانوا لا يقرون بالسعادة الكاملة إلا إن استطاعوا عرض أحداث يومهم فى أسلوب كلاسيكى ؛ يقولون بأن الغالين^(١) يدفعون الآن — بعد أربعة عشر قرنا من الخضوع — غزاتهم من الفرنجة^(٢) إلى الظلمة الخارجية وراء نهر الرين من حيث أتوا إبان فترة هجرات الشعوب ، وأنهم (أى الثوريين) يواصلون وضع يدهم على أراضى جنس الغالين التى ما انفكت أراضيهم هم رغما عن اغتصاب البرابرة الطويل لها .

ولقد رد الكونت جوبينو على هذا الهراء بهراء أسخف منه ، إذ أجاب :

« إلى أقبل تشخيصكم . فليتنق جدلا على انحدار الدهماء الفرنسيين من الغالين ، وانحدار الأرستقراطية من الفرنجة ، وإن كلا الجنسين من ذرية صافية ، وأن ثمة ارتباطا واضحا ودائما بين صفاتهما والسمات البدنية والنفسية . فهل تتصورون حقيقة أن الغالين يمثلون الحضارة والفرنجة البربرية ؟ من أين وفدت تلك الحضارة التى اكتسبتموها أيها الغاليون ؟ أمن روما ؟ ومن الذى أقام عظمة روما ؟ يرجع ذلك إلى صباية بدائية

(١) كانت غالة ولاية رومانية وتشمل الآن جزءا من فرنسا الحالية . (المترجم)

(٢) قبائل جرمانية . (المترجم)

من ذلك الدم النوردي الذى يجرى فى عروق الفرنجية . فإن الرومانين الأوائل كاليونانيين الأوائل - وهم الآخيون الذين ذكرهم هوميروس - كانوا فاتحين شقر الشعور ، انحدروا من الشمال المنعش ، وأقاموا سيطرتهم على الوطنيين الأضعف منهم ، من سكان البحر الأبيض المتوسط الواهين . بيد أن دمهم قد اختلط على طول المدى ، بدم هؤلاء ، فضعف جنسهم وتضعضت قواهم ومجدهم . ثم حان الوقت لتنحدر من الشمال نجدة أخرى من الفاتحين الشقر لتدفع كرة أخرى نبض الحضارة إلى الحركة ، وكان الفرنجة ضمن هؤلاء .

ذلك هو تفسير جويينو المسلى لطائفة من الوقائع التى بحثناها بشكل مغاير تماماً ، فى تصورنا لأصول الحضارة الهلينية أولاً ثم الحضارة الغربية من بعدها . وبما جعل هذا التلاعب الفكرى السياسى أقرب إلى التصديق ، كشف معاصر ، سارع جويينو إلى الإفادة منه . إذ كان قد كشف وقتئذ أن جميع اللغات الأوروبية الموجودة - على وجه التقريب - فضلاً عن اليونانية واللاتينية ولغات فارس وشمال الهند الحية ، بالإضافة إلى الإيرانية القديمة والسكسكريتية القديمة ، تنتسب جميعها بعضها إلى بعض أعضاء فى عائلة لغوية واحدة واسعة المدى . ولقد استنتج من ذلك بحق ، أنه لا بد أن تكون هناك لغة أصلية آرية أو هندية أوروبية اشتق منها لسان كل أفراد العائلة . بيد أنه قد استخلص منه خطأ أن الشعوب التى شاعت فيها تلك اللغات ذوات القربى ، تنتسب هى أيضاً بعضها إلى بعض انتساباً طبيعياً بنفس درجة انتساب اللغات إلى بعضها ، وإن تلك الشعوب تنحدر جميعها من جنس أصلى أرى أو هندى أوروبى يرجع إلى العصور الأولى ، وانتشرت من موطنها الأصلى غازية أو مغزوة فى الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وتمضى تلك الفكرة قائلة بأن ذلك العنصر قد أنتج العبقرية الدينية

لترادشت وبوذا ، وعبقرية اليونان الفنية ، وعبقرية روما السياسية . وفي الختام نحن النبلاء^(١) . لأنه إلى هذا الجنس ، يرجع تقريباً فضل جميع ما حققته الحضارة البشرية من أعمال وتقدم .

اعتنق فقهاء اللغة الألمان الثقلاء ، تلك الفكرة الخفيفة الوثابة التي ابتكرها الفرنسي الرشيق ، وهذبوا كلمة « الهندي أوربي » ، فأصبحت « الهندي / جرمانى » . وجعلوا أملاك ملك بروسيا الموطن الأصلي لذلك العنصر الوهمي . وكتب هوستون ستوارت تشامبرلين وهو انجليزى كان قد وقع فى حب ألمانيا ، كتاباً قبيل نشوب الحرب العالمية عنوانه « أسس القرن التاسع عشر^(٢) » أضاف فيه السيد المسيح ودانتى إلى قائمة الهنود الجرمانيين . وللأمريكيين كذلك اقتناع بالإنسان النوردى . فقد أزعجت الهجرة العارمة للأوروبيين الجنوبيين إبان ربع القرن السابق لعام ١٩١٤ كتاباً مثل ماديسون جرانت ولوثروب ستودارد . فطالبوا بتقييد الهجرة ، باعتبار ذلك هو الإجراء الوحيد للمحافظة — لا على المستويات الاجتماعية الأمريكية — ولكن على نقاوة الفرع الأمريكى من الجنس النوردى .

وما المذهب الذى تروج له طائفة من اليهود البريطانيين ، إلا نظرية من نفس الطراز ، لكن مع استخدام اصطلاحات مختلفة ، والسعى لتعزيز تاريخ وهمى بآراء دينية غريبة معقدة .

وما يدعو إلى العجب ، أن نلاحظ أنه بينما يصر دعاة العنصرية فى الحضارة الغربية على اعتبار البشرة البيضاء دليلاً على التفوق الروحى ، جاعلين الأوروبيين أعلا من الأجناس الأخرى مقاماً ، والجنس النوردى فوق غيره من الأوروبيين ؛ يستخدم اليابانيون علامة بدنية مختلفة . فن قبيل المصادقة

(١) يتهم المؤلف هنا على فكرة السيادة العنصرية والتفوق الجنسى التى يمارسها أحد

المعارضة . (المترجم)

أن أجسام اليابانيين تخلو من الشعر بشكل ملحوظ ، بينما يجاورهم في جزيرتهم الشمالية جماعة بدائية من طراز مختلف تماماً ، طراز بدني لا يفترق كثيراً عن الأوربي العادي ، وتسمى هذه الجماعة عند اليابانيين « الإينو المشعرين »^(١) . فكان من الطبيعي جداً - والحال كذلك - أن يقرن اليابانيون الأمرد بالتفوق الروحي . وأنه وإن كانت دعواهم لا أساس لها ، مثلها مثل حجتنا عن تفوق البشرة البيضاء ، إلا أنها - من الناحية السطحية - أكثر منها قبولاً لدى العقل . ذلك لأن الرجل الأمرد ، هو بالتأكيد بسبب خلوه من الشعر ، أبعد منزلة نوعاً ما عن ابن عمه القرد .

وإذا قسم علماء أصول السلالات البشرية^(٢) الرجال البيض حسب صفاتهم البدنية : الرؤوس المستطيلة والرؤوس المستديرة ، البشرة البيضاء والبشرة القاتمة وما إلى ذلك من الأنواع . . . خرجوا من ذلك بثلاث « أجناس » بيضاء أسموها : الجنس النوردي والجنس الألبى ، وجنس البحر الأبيض المتوسط .

ومهما تكن قيمة هذا التقسيم ، سنسرد عدد الحضارات التي أمهم فيها كل جنس من هذه الأجناس مساهمة فعلية :

ساهم النورديون في أربع وربما في خمس : الهندية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية الروسية ، وربما الحيثية .

وأسهم الألبيون في سبع وربما في تسع : السومرية ، الحيثية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية الأصلية والفرع الروسي منها ، والإيرانية ، وربما المصرية والمينووية .

(١) قدم الآينو Aino الجزائر اليابانية من جبال القوقاز عبر سيبيريا وكوريا وسكنوها قبل المغول الذين وفدوا إليها في وقت متأخر والذين سادوا الجزائر اليابانية . ومنهم العائلة المالكة . (المترجم)

وأسمهم سكان البحر الأبيض في عشر : المصرية ، السومرية ، المينوية ، السورية ، الهلينية ، الغربية ، المسيحية الأرثوذكسية (الأصلية) ، الإيرانية ، العربية ، البابلية .

أما بالنسبة لتقسيمات الجنس البشرى الأخرى : أسمهم الجنس الأسمر (ونعني به الشعوب الدرافيدية في الهند والملاويين في أندونيسيا) في اثنتين : السندی والهندوكى .

وأسمهم الجنس الأصفر في ثلاث : الصينية ، وفي حضارتي الشرق الأقصى كليهما وهما الحضارة الأصلية في الصين والفرع الياباني منها .

أما الجنس الأحمر في أمريكا فقد ساهم وحده في الحضارات الأمريكية الأربع .

أما العناصر السوداء ، فهي وحدها التي لم تسهم — حتى الآن — مساهمة فعلية إيجابية ، في أية حضارة .

ويتبين مما تقدم أن للعناصر البيضاء القدر المعلن ، بيد أنه يجب أن لا يعزب عن البال أن ثمة كثيراً من الشعوب البيضاء بريثة من تقديم أية مساهمة لأية حضارة ، مثلها في ذلك مثل السود أنفسهم سواء بسواء .

فإن كان ثمة شيء يبدو من وراء هذا التبويب ، فإن مداره أن نصف حضاراتنا قائم على مساهمات من أكثر من جنس واحد . فإن لكل من الحضارتين الغربية والهلينية — مثلاً — ثلاثة مساهمين . ولوقسمت الأجناس : الأصفر ، الأسمر ، الأحمر ، إلى عناصر فرعية مثل أقسام الجنس الأبيض (النوردي ، الألبى ، وجنس حوض البحر الأبيض المتوسط) لكان من المحتمل أن نحصل على تعدد من المساهمين في جميع حضاراتنا . أما ماهية هذه التقسيمات الفرعية ، وهل كانت في أى وقت من الأوقات قد مثلت — من الناحيتين التاريخية والاجتماعية — شعباً قائمة بذاتها ، فإن هذا شيء آخر . والواقع أن الموضوع برمته غامض غاية الغموض .

بيد أنه قد قيل ما فيه الكفاية لتسويق رفضنا النظرية القائلة بأن جنساً أعلى هو الذى كان سبب الانتقال وصانعه من حالة إلين إلى حالة اليانج ؛ من الثبات إلى الحركة الدافعة ، فى جزء بعد الآخر من أجزاء العالم ، منذ زمن يرجع إلى ستة آلاف سنة مضت .

(٣) البيئة

أوحى اتساع نطاق المجتمع الغربى فى أنحاء العالم فى غضون القرون الأربعة الأخيرة ، إلى العقول الغربية الحديثة ، بالمغالاة فى توكيد تأثير العامل العنصرى فى التاريخ . ولقد جعل هذا الاتساع الشعوب الغربية على اتصال - وغالباً على اتصال غير ودى - بشعوب تختلف عنها ، لا فى الثقافة فقط ، ولكن من الناحية البدنية أيضاً . ومن ثم كان نشوء فكرة وجود أنواع بيولوجية عليا وأنواع دُنيا ، هى النتيجة الطبيعية التى يتوقعها المرء من جراء هذه الاتصالات ، سيما فى القرن التاسع عشر ، عندما أصبحت العقول الغربية نتيجة لأعمال تشارلس داروين وغيره من الباحثين العلميين ، تدرك وجود شيء اسمه بيولوجيا .

وانتشر اليونانيون القدماء قبل ذلك فى العالم المحيط بهم ، عن طريق التجارة والاستيطان . بيد أن عالمهم كان أضيق كثيراً من العالم الغربى ، وكانت تتعدد فيه الثقافات المختلفة دون أن تختلف فيه الأنواع البدنية كثيراً . فكان المصرى والأسقوذى^(١) مثلاً ، يختلف كل منهما عن الآخر كثيراً كما يبعدان كلاهما عن مراقبهما اليونانى (هيرودوتس مثلاً) ، فى طرائق الحياة ، إلا أنهما لم يختلفا عنه فى الناحية البدنية ، ذلك الاختلاف الكبير الظاهر بين زنجى أفريقيا الغربية والرجل الأحمر فى أميركا ، وبين الأوربى .

(١) Scythian نسبة إلى Scythia [الإقليم الواقع شمال البحر الأسود وبحر قزوين وبحر أورال (جزء من الاتحاد السوفيتى حالياً) . (المترجم)

فكان طبيعياً أن يحدد اليونانيون عاملاً آخر غير الوراثة البيولوجية للسمات البدنية — أى العنصر — لتفسير الاختلافات الثقافية التى لاحظوها حولهم : فوجد المراقبون اليونانيون التفسير فى الموقع الجغرافى والتربة والمناخ^(١) :

وتبسط رسالة عنوانها « تأثيرات الجو والماء والموقع » ، الآراء اليونانية عن هذا الموضوع . وترجع الرسالة إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وحفظت ضمن مجموعة أعمال مدرسة هيوقراط الطبية . ففيها نقرأ مثلاً « يمكن تقسيم الأشكال البشرية إلى النوع الجبلى الغزير المياه والنوع ذى التربة الضعيفة عديمة المياه ونوع المراعى ذات المستنقعات ونوع السهول المستصلحة جيدة الصرف . . . وتميل أبدان سكان البلد الجبلى الصخرى والغزير المياه والموجود على ارتفاع كبير حيث يكون مجال التقلبات الجوية الموسمية واسعاً ، إلى ضخامة البنية التى تتفق مع ما يلزمهم من شجاعة وقدرة على الاحتمال . . . أما سكان الأراضى المنخفضة الحارة الرطبة التى تغطيها المروج المائية والتى هى أكثر تعرضاً فى العادة للرياح الحارة منها إلى الباردة ، والذين يشربون ماءً فاتراً ، فإنهم على العكس ليسوا أقوياء البنية ، كما أنهم ليسوا نحفاً ، ولكنهم ضخام مترهلون ذوو شعور سوداء ، ولون الوجه أقرب إلى السواد منه إلى البياض ، وهم أميل إلى الغضب منهم إلى البرود ، وليست الشجاعة والاحتمال من الصفات الأصلية فى طبائعهم ، لكن يتأق بها فيهم بفضل تطبيق النظم الفعالة . . . أما سكان البلد غير المستوى وذى الرياح الجارفة والمياه الغزيرة والموجود على ارتفاع كبير ، فهم أقوياء البنية ويمقتون الزعة الفردية ، وفى طبائعهم نوع من

(١) الكاتب برنارد شوفى وصف اليونانيين من هذه الناحية . إذ سذكر قراء مقدمة جزيرة جون بول الأخرى John Bull other Island أنه استبعد مزدرياً فكرة العنصر الكلى وعزا جميع الاختلافات بين الإنجليز والإيرلنديين إلى الاختلاف فى مناخى جزيرتهما . (المؤلف)

الجن وسهولة الانقياد . . . وسنجد في غالبية الأحوال أن الجسم والخلق
البشريين يتغيران وفقاً لطبيعة البلد^(١) .

على أن قوام التفسيرات الأثرية لدى الهلنيين عن نظرية البيئة ، كانت
مستمدة من الاختلاف بين تأثير الحياة في وادي النيل الأدنى على طبيعة
المصريين وخلقهم ونظمهم ، وبين أثر الحياة في السهل الأوراسي على
طبيعة الأسقوذيين وخلقهم ونظمهم .

تحاول نظريتا الجنس والبيئة كلتاهما ، تحليل التباين الملحوظ في التصرف
والسلوك النفسى (الفكرى والروحى) لأقسام مختلفة من البشر ، وذلك
بافتراض علاقة سببية ثابتة ودائمة ، كالعلاقة بين العيلة والمعلول ، بين هذا
التباين النفسى وطائفة من عناصر التباين الذى لوحظ في محيط الطبيعة غير
الروحى . وتجد نظرية الجنس علة التنوع في اختلاف الصفات البدنية
البشرية ، وتجد نظرية البيئة في اختلاف الأحوال المناخية والجغرافية التى
تعيش فيها المجتمعات المختلفة . وجوهر النظريتين كليهما ، هو الصلة بين
مجموعتين من التغيرات :

هى في الحالة الأولى ، الطبع والصفات البدنية .

وفى الحالة الثانية ، الطبع والبيئة .

ويجب التدليل على ثبات هذه العلاقة ودوامها ، إن أريد إثبات صحة
النظريتين القائمتين عليها .

ولقد شاهدنا تداعى نظرية العنصر عند اختبارها بهذا المعيار . ويتضح
لنا الآن ، أن نظرية البيئة ، وإن كانت أقل مجافاة للعقل ، إلا أن نصيبها
من الصحة ليس بأكثر من نصيب نظرية العنصر . وما علينا إلا أن نفحص
النظرية الهلينية على أساس مثالها الأثيرين : السهل الأوراسي ووادي النيل .
ولا بد أننا سنجد مناطق أخرى على سطح الأرض تتشابه من الناحيتين

(١) القسلا ١٢ و ١٤ . ترجمه إلى الإنجليزية ا . ج . توينيسى بمتران :

Hippocrates : Influences of Atmosphere Weather and situation ; Greek
Historical . Thought from Homer to the Age of Heraclins p.p. 167—8.

الجغرافية والمناخية مع كل من هاتين المنطقتين . فإذا أسفرت جميعها عن السكان في طباعهم ونظمهم مع الأسقوذيين في حالة ، ومع المصريين في الأخرى ، ثبتت نظرية البيئة ، وإلا نُقضت .

فلنتناول أولاً ، السهب الأوراسي ، الذي لم يعلم اليونانيون عنه سوى ركنه الجنوبي الغربي ، وفي مكنتنا أن نضع إلى جانبه السهب الأفراسي^(١) الممتد من بلاد العرب عبر شمال إفريقيا . فهل يعنى التشابه بين أنحاء السهبين تشابهاً مماثلاً بين المجتمعات البشرية التي انتشرت في كلتا هاتين المنطقتين ؟ الرد بالإيجاب .

فإن كلا السهبين قد أنتجا النوع البدوي من المجتمع . وأظهرت هذه البداوة في السهبين نفس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف ، اختلاف في نوع الحيوانات المستأنسة مثلاً ، التي كان يجب أن نتوقع وجودها نظراً لأوجه الشبه وأوجه الاختلاف القائمة بين المنطقتين .

يبد أن العلاقة تتهاوى بإجراء مزيد من الاختبارات . إذ نجد أن الأجزاء الأخرى من العالم التي تتوفر فيها البيئة اللازمة للمجتمعات البدوية — مراعى أميركا الشمالية مثل منطقة اللانوس في فنزويلا والنباس في الأرجنتين ومراعى أستراليا — لم تُنتج نوعاً خاصاً بها من المجتمعات البدوية . هذا وليس الإمكانات الكامنة في تلك المناطق ، موضع سؤال . لأن مشروعات المجتمع الغربي قد أدركتها في عصرنا الحديث وغدت تستثمرها ، بفضل الرواد من أصحاب الماشية من الغربيين — مثل رعاة البقر في أميركا الشمالية ، والجوشو^(٢) في أميركا الجنوبية ، ورعاة الماشية في أستراليا — الذين استحوذوا على هذه الأحرار التي لا مالك لها ونجحوا في الاحتفاظ بها إبان بضعة أجيال ، مناضلين تقدم المحراث والمصنع ، قد سلبت روعة مغامراتهم بخيلة البشرية كالأسقوذيين والثر والعرب سواء بسواء . ولو كانت

(٢) نعى بالأوراسي ، الأوربي الآسيوي وبالأفراسي ، الإفريقي الآسيوي .

(المترجم)

(٢) الجوشو هم رعاة البقر في أميركا اللاتينية . (المترجم)

لدى السهب الأمريكية والاسترالية ، القوة التى تمكّتها من إحالة رواد مجتمع ليست له تقاليد بدوية وعاش على الزراعة والصناعة منذ نشأته أول مرة ، إلى بدو ولو لفترة جيل واحد ؛ لو كانت لديها هذه القوة ، لكانت طاقاتها الكامنة كبيرة جداً حقاً . فضلاً عن ذلك ، يُلفت النظر أن الشعوب التى وجدها الرواد الغربيون الأوائل تشغل فى هذه المراعى ، لم تدفعها يبيتها إلى الحياة البدوية . إذ لم تجد تلك الشعوب فى هذه المناطق التى تصلح للحياة البدوية ، أى وجه لاستعمالها ، أفضل من تخصيصها للصيد .

فإن اخترنا بعد ذلك نظرية البيئة فى المناطق المشابهة لوادى النيل الأدنى ، لأسفرت تجربتنا عن نفس النتيجة :

فإن وادى النيل منطقة شاذة نوعاً ما فى السهب الأفراسى ، إن صح هذا القول . لأن مصر ، بالرغم من أن مناخها هو نفس المناخ الجاف السائد فى المنطقة الشاسعة التى تحيط بها ، قد مُنحت موهبة استثنائية قوامها مدد منتظم من المياه والطمى ، يزودها به النهر العظيم الذى ينبع من وراء حدود السهب من منطقة غزيرة الأمطار . ولقد استخدم منشؤ الحضارة المصرية هذه الموهبة ، لتهيئة مجتمع يختلف اختلافاً ظاهراً عن الحياة البدوية التى تحيط بهم من الجانبين .

فهل تعتبر البيئة الخاصة التى أتاحها النيل لمصر ، ميزة إيجابية ؛ إليها يعزى بدء الحضارة المصرية ؟

للتدليل على صحة هذا رأى ، علينا أن نبرهن على أنه فى كل منطقة منعزلة أخرى ، تنهياً فيها بيئة من الطراز النيلى ، انبعثت حضارة مماثلة ؛ لهذا السبب دون غيره .

تصمد النظرية للاختبار فى منطقة مجاورة تتوافر فيها الشروط المطلوبة ، تلك هى المنطقة الدُنيا من وادى الدجلة والفرات . هنا نجد ظروفًا طبيعية مماثلة ومجتمعاً مماثلاً هو المجتمع السومرى . لكن النظرية تنهار فى واد أصغر

وإن كان مشابها هو وادى الأردن ، الذى لم يكن يوما ما مركزاً لأية حضارة . ولعلها تنهار كذلك فى وادى السند — إن كنا على صواب فى افتراضنا أن الثقافة السندية قد استجلبها المستوطنون السومريون ، إلى هناك جاهزة كما هى . ويجوز استبعاد الوادى الأدنى للجناح من هذه المقارنة لشدة رطوبته وموقعه المدارى ، ويستبعد كذلك وادى اليانجتسى الأدنى والميسيسى ، لشدة رطوبتهما وموقعهما فى المنطقة المعتدلة فى المناخ .

بيد أن أصعب النقاد تشدداً ، لا يستطيع أن يُنكر أن أحوال البيئة التى تتيحها مصر والعراق يتيحا كذلك وادى نهري ريو جراندى وكلورادو فى الولايات المتحدة . ولقد أنجز هذان النهران الأمريكيان ، بفضل أيدى المستوطن الأوربي الحديث مستخدماً موارد جلبها معه من الجانب الآخر من المحيط الأطلسي ، نفس المعجزات التى قيّضها النيل والفرات للمهندسين المصريين والسومريين . بيد أن نهر كلورادو أو ريو جراندى لم يُسير بهذا السحر إلى شعوب لم تكن من مريديه ، وإن كانت قد تعلمته فى مكان آخر .

ومتى ثبت ذلك ، لا يمكن اعتبار البيئة العامل الإيجابي الذى جلب الحضارات النهرية إلى الوجود . وسنستوثق من هذه النتيجة ، إذا ألقينا نظرة على بعض البيئات الأخرى التى أنتجت حضارات فى منطقة ، ولم توح بها فى أخرى .

إذ برزت الحضارة الأنديانية إلى الوجود على هضبة مرتفعة ، ويختلف ما حققته اختلافاً حاداً عن الهمجية الوحشية التى تأويها غابات الأمازون الواقعة تحتها . فهل كانت الهضبة هى سبب تقدم الحضارة الأنديانية على جيرانها المتوحشين ؟

أحرى بنا قبل أن نقبل هذه الفكرة ، أن نلقى نظرة على نفس خطوط العرض الاستوائية فى إفريقيا حيث تلتف مرتفعات إفريقيا الشرقية بولايات غابات حوض الكونغو . وسنجد أن الهضبة فى إفريقيا لم يقيّض لها إنتاج أى مجتمع متحضر ، مثلها مثل الغابات المدارية فى وادى النهر الكبير .

ونلاحظ بالمثل أن الحضارة المينوية قد انبعثت في عنقود من الجزر الواقعة في بحر داخلي يتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط . بيد أن بيئة مماثلة فشلت في ابتعاث حضارة أخرى من النوع الجزيري حول بحر اليابان الداخلي : إذ لم تُنجب اليابان حضارة مستقلة ؛ لكن شغلها حضارة متفرعة عن حضارة مركزها القارة ، ظهرت في داخلية الصين :

وتُذكر الحضارة الصينية في بعض الأحيان على أنها سليلة النهر الأصفر ، لأنه اتفق نشوؤها في وادي النهر الأصفر . بيد أن حوض نهر الدانوب مع مشابهته العظيمة لذلك الوادي في أحوال المناخ والتربة والسهل والجبل ، قد أخفق في إنجاب حضارة كالحضارة الصينية .

ولقد انبعثت الحضارة المايانية وسط الأمطار والأحراش المدارية في جواتيمالا وهندوراس البريطانية . لكن مثل هذه الحضارات ، لم تبرز من خلال نفس الظروف الوحشية في الأمازون والكنغو . حقاً يقع فعلا حوضا هذين النهرين على جانبي خط الاستواء ، في حين يقع موطن الحضارة المايانية شمال الخط بخمس عشرة درجة . لكن إن تتبعنا سير خط العرض ١٥ درجة من الجهة الأخرى من العالم ، فإننا نعرّض مصادفة على الخرائب الهائلة لأنجوروات^(١) ، وسط الأمطار والأحراش المدارية في كمبوديا . ولا شك أنه تمكن فعلا مقارنة هذه الخرائب بخرائب كوبان وايكسوكون المدينتين المايانيتين ؛ لكن الدليل الذي أسفرت عنه الحفريات ، يُظهر أن الحضارة التي تمثلها أنجوروات في كمبوديا ، ليست حضارة كمبودية الأصل ولكنها فرع من حضارة هندوكية ظهرت في الهند .

(١) أنجور وات Angkor Wat : يطلق لفظ أنجكور Angkor على مجموعة من الخرائب التاريخية في كمبوديا . وهي بقايا حضارة مزدهرة طفت عليها الغابات . وأهم هذه الخرائب ما يكون بقايا معبد أنجور ثوم وأنجور وات ويقعان على الضفة اليمنى لنهر سنم ريب Siem Peap وقد أقيم معبد أنجوروات لعبادة براهما الرب الهندي على أرجح الأقوال ، على أن العلماء الفرنسيين من رأيهم أنه أقيم لعبادة بودا . (المترجم)

نستطيع الإسهاب في هذا الموضوع أكثر من ذلك ، لكن لعلنا قد ذكرنا ما فيه الكفاية لإقناع القارئ بأنه : لا الجنس ، ولا البيئة — إن أخذ كل بمفرده — يمثل العامل الإيجابي الذي أيقظ الجنس البشرى في غضون ستة آلاف السنة الماضية من حالة الركود في مستوى مجتمع بدائى ، ودفعه إلى طريق مخوف بالمخاطر سعياً وراء الحضارة .

وعلى أية حال ، فإنه لا الجنس ولا البيئة كما تصورناهما حتى الآن ، قد قدماً أو يمكن — كما هو ظاهر — أن يقدمأ أى دليل عن سبب حدوث هذا التحول العظيم في التاريخ البشرى ، لا في أماكن معينة فحسب ، بل أيضاً في تواريخ معينة .

الفصل الخامس

التحدى والاستجابة

(١) الدليل المستمد من الأساطير

استخدمنا حتى الآن في بحثنا عن العامل الإيجابي في بدء الحضارات ، خطط المدرسية الكلاسيكية في الطبيعة الحديثة . واستعملنا لبسط أفكارنا اصطلاحات مجردة . وأجرينا بعض التجارب بشأن أثر قوتين جامدتين هما الجنس والبيئة . فالآن وقد أسفرت هذه المحاولات عن لاشئ ، فأحرى بنا أن نقف برهة لننظر فيما إذا كان مرد عجزنا شيئاً من الخطأ في أسلوب البحث . إذ ربما نكون قد وقعنا تحت سيطرة خداعة لروح عصر مضى ، فأصبحنا ضحايا لما سندعوه بـ « خطأ الحكم على أساس السفسطة البليدة » .

ولقد حذر راسكين قراءه من « خطأ الحكم بالعاطفة » الذى يتمثل في إضفاء الحياة بوساطة الخيال على الأشياء الجامدة . بيد أنه من الضروري بما لا يقل عما تقدم ، أن نحترس من ارتكاب خطأ هو نقيض الخطأ السابق . ومداره تطبيق طريقة علمية معبرة لدراسة الطبيعة الجامدة ، على دراسة الفكرة التاريخية وقوامها دراسة المخلوقات الحية . فعلى أن نهتدى بهدى أفلاطون في محاولتنا الأخيرة لحل اللغز ، فنسلك الطريق الآخر ، مطبقين أعيننا هنيئة عن القوانين العلمية ، لنفتح آذاننا لحديث الأساطير .

واضح أن بدء الحضارات لم يكن نتيجة العوامل البيولوجية أو البيئة الجغرافية ، كل تعمل بمفردها . فلا ريب أنه نتيجة نوع ما من التفاعل بينها جميعاً . وبعبارة أخرى ، ليس العامل الذى نسعى للتعرف عليه ، شيئاً مفرداً لكنه متعدد ، هو ليس وحدة ، لكنه علاقة . وعلى أن نختار بين تصور هذه العلاقة بين قوتين غير بشريتين ، أو كالتقاء بين شخصيتين

فوق مستوى البشر . فلنحاول ترويض أذهاننا على ثانی هذين المعنيين ،
لعله يقودنا إلى النور .

أن الالتقاء بين شخصيتين فوق مستوى البشر ، هو مدار طائفة من
المأسى العظمى التى تصورتها الخيلة البشرية . فالالتقاء بين ياهوى^(١)
والحية ، هو موضوع قصة سقوط الإنسان فى سفر التكوين . وثمة التقاء
ثان بين نفس الشخصيتين بعد أن هذبتهما النفوس السورية المتوقدة ،
أصبحت موضوع العهد الجديد الذى يروى قصة الفداء^(٢) .

كذلك الالتقاء بين الرب والشيطان هو موضوع سفرأيوب ، والالتقاء
بين الرب ومفيستوفيليس^(٣) هو موضوع قصة فاوست ، والالتقاء بين
الأرباب والشياطين هو حكمة الملحة الاسكندنافية فولوسبا Volusha ،
والالتقاء بين آرتيميس^(٤) وأفروديت^(٥) موضوع هيبوليتيس^(٦)
لاوربيديس^(٧) .

ولنفس الموضوع رواية أخرى نجدها فى الأسطورة التى تتكرر دائماً

(١) يا هوى Yahweh أو Leovah أقدس الأسماء التى يطلقها العهد القديم (التوراة)
على الرب . ويمتد اليهود أنه إلههم وحدهم . (المترجم)

(٢) أى افتداء السيد المسيح عليه السلام للبشر . (المترجم)

(٣) شيطان جوته الأديب الألمانى فى رواية فاوست . (المترجم)

(٤) ربة القمر والصيد فى الأساطير اليونانية ويدعوها الرومانيون ديانا ، وهى ابنة
زيوس وشقيقة أبولو . (المترجم)

(٥) ربة الحب والجمال عند اليونانيين وتعادل فينوس عند الرومانيين ، كما أنها ربة
الخصب وحامية الزواج . (المترجم)

(٦) هيبوليتيس فى الأساطير اليونانية هو ابن الرب اليونانى تيموس من اتيلوب .
راودته زوجة أبيه من نفسه فامتنع عليها فاتهمته لدى أبيه بإغوائها ، فات غرقا لكنه بعث
إلى الحياة . (المترجم)

(٧) آخر كتاب التراجم اليونانية المشهورين (٤٨٠ - ٣٠٦ ق . م)
(المترجم)

وتظهر في كل مكان^(١) . ويتكرر المنهاج وتتجلى البشارة .

وقد أعيد التعبير عن هذه الأسطورة في أيامنا هذه في الغرب باعتبارها الكلمة الفاصلة لعلماثنا الفلكيين عن تكوين النظام الكوكبي مصداقا لنص العقيدة التالي .

« أننا نؤمن ... أنه منذ حوالي الألف مليون سنة ... حدث أن أصبح نجم ثان ، يهيم في أنحاء الفضاء على غير هدى ، على مدى الصوت من الشمس . وكما أن الشمس والقمر يرفعان المد على سطح الأرض : كذلك لا بد وأن هذا النجم الثاني قد رفع المد على سطح الشمس . بيد أن هذا المد يختلف عن المد الضئيل الذي تحدثه كتلة القمر الصغيرة في محيطاتنا . إذ لا بد وأن موجة ضخمة من المد قد اجتاحت سطح الشمس ، شكلت في النهاية طودا جسيما كبير الارتفاع ، أخذ في الارتفاع الهائل أعلى وأعلى كلما أخذ سبب الاضطراب في الاقتراب . وقبل أن يبدأ النجم الثاني في الارتداد ، كانت الجذبة المدية قد بلغت حدا من القوة بحيث فتت هذا الطود إلى قطع ، ونثرت شظايا صغيرة من الشمس ، مثلما يحدث أن تطرح قبة الموجة الرذاذ ... وما برحت هذه الشظايا الصغيرة تدور منذ ذلك الحين حول أمها الشمس ... وهي الكواكب - الكبيرة منها والصغيرة - التي أرضنا أحداها .

وهكذا تخرج من فاه الفلكي الرياضي - بعد الانتهاء من عملياته الحسابية - أسطورة الالتقاء بين الشمس كآلهة وبين مغتصبها ، وهي قصة شائعة بين أبناء الطبيعة غير المثقفين :

ولقد أصبح أحد علماء الآثار الغربيين المعاصرين يتقبل وجود هذه

(١) وهنا يلحق المؤلف ثبوتا بأسماء قصة اللقاء المزعوم بين ما أسماه العذراء وما يطلق عليه الأب ومن ضمن هذه الأسماء : داناي والنيث الذهبي ، أوروبا والثور ، سيميل الأرض المصابة وزيروس السماء الذي يدفع الصاعقة ، كوسا وأبولو في قصة إيون لأوربيديس ، وبسيسكي وكيريبيد ، وجرتشين وفاوست . (المترجم)

الثنائية ويسلم بتأثيرها ، فى إحداث الحضارات التى ندرس بدتها هنا ، وهو يستهل دراساته بتركيز اهتمامه على البيئة ، وينتهى إلى إدراك سر الحياة :

« ليست البيئة هى السبب الكلى فى التشكيل الثقافى . . . وإن كانت بلا ريب أعظم العوامل تأثيراً . . . فإنه ما يزال هناك عامل لا يمكن تحديدته وتجدر الإشارة إليه بالحرف « س » الكم المجهول ، وهو على ما يظهر سيكولوجى فى طبيعته . . . وإن لم يكن « س » أعظم عامل تأثيراً فى المسألة ، فإنه بالتأكيد أعظمها أهمية . . . وأكثرها ارتباطاً بالقدر (١) » .

وفى دراستنا الحالية للتاريخ ، أثبتت هذه النظرية وجودها ، وهى القائلة بحدوث التقاء فوق مستوى البشر . إذ لا حظنا فى أحد الفصول الأولى « أن كل مجتمع . . . يجابه فى مجرى حياته مشكلات متعاقبة ، وأن إبراز كل مشكلة هو تحد باجتياز تجربة » :

فلنحاول تحليل موضوع هذه القصة أو المأساة التى تكرر نفسها فى ظروف مختلفة وفى أشكال متعددة :

ونستطيع البدء بخاصيتين عامتين :

الأولى : تصوّر اللقاء حدثاً نادراً ، وفريداً فى بعض الأحيان .

الثانية : أن له نتائج واسعة بنسبة ضخامة الثغرة التى أحدثها فى سير الطبيعة العادى .

نلاحظ أنه حتى فى عالم الأساطير اليونانية ، حيث تسير الحياة منطلقة فى يسر حيث الآلهة تتطلع إلى بنات البشر وترى أنهن حسناوات « فتتخذ سبيلها مع كثير منهن (٢) » إلى حد أمكن معه استعراض ضحاياها ووضع مجموعات

(١) صفحة ٢٥ - ٦ Means, P.A. Ancient Civilizations of the Andes

(٢) هذه العبارة مقتبسة من التوراة (سفر التكوين ٦ - ١) ولكنها محرفة نوعاً ما لتطبق على الأساطير اليونانية . (المترجم)

شعرية عنهن ؛ ما فتئت هذه الوقائع موضوعات مثيرة تخلف عنها كلها بدون استثناء إنجاب الأبطال . ونجد في مختلف روايات هذه القصة - حيث فريقا اللقاء كلاهما من الشخصيات التي تعلو عن مستوى البشر - أن ندرة الحدث وخطورته ، تبرز بروزاً متزايداً .

فسفر أيوب يصور بكل جلاء ، اليوم الذى قال عنه « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم » ، كأنه حدث غير عادى . وكذلك اللقاء بين الإله ومفيستوفيليس في « مقدمة في الفردوس » (وهى مستوحاة بالطبع من سفر أيوب) التى استهل بها جوته موضوع روايته « فاوست » .

وفى كلتا المأساتين ، نرى أن النتائج التى غدت على الأرض لهذا اللقاء فى السماء ، من الضخامة بمكان . أو بلغة الخيال الحدسية ؛ تمثل التجارب الشخصية التى مر بها كل من أيوب وفاوست ، تجارب البشر المتعددة تعدداً لانهايا . كما أن نفس النتائج واسعة المدى ممثلة بلغة اللاهوت ، سببها اللقاءان العلويان اللذان يصدرهما سفر التكوين والعهد الجديد . إذ أن طرد آدم وحواء من جنة عدن عقب اللقاء بين ياهوه والحية ، ليس إلا « سقوط الإنسان » . كما أن آلام المسيح فى العهد الجديد ليست إلا « افتداء الإنسان » . بل أن مولد نظامنا الكوكبى من التقاء شمسين كما صورته عالمتنا الفلكية الحديث ، ما هو فى رأى هذا العالم نفسه ، إلا حدثاً نادراً ندرة لا يمكن تصورهما .

وتبدأ القصة فى كل حالة ، بوضع كامل لحالة « البين » :

فإن فاوست كامل المعرفة ، أيوب كامل فى رخائه وطيبته ، آدم وحواء كاملان فى براءتهما وهنأتهما ، والعذارى (سواء الجزئيتين أو الردانى أو غيرهن) كاملات فى طهارتهن وجمالهن . وحتى فى العالم الذى يصوره الفلكى : الشمس فلك كامل يجرى فى مساره سليماً كاملاً .

وهكذا ، عند ما يكتمل الين على هذا النحو ، يغدو مهيباً للانتقال إلى حالة اليانج .

لكن ما هو الدافع إلى هذا الانتقال ؟

السبب حالة تعتبر - حسب تعريفها - كاملة في نوعها ، لا تتغير إلا بفضل دافع أو باعث يفد عليها من الخارج . فإذا رأينا أن الحالة حالة توازن طبيعي ، علينا أن ندخل في الموضوع فلنكأ آخر لإحداث التغيير . وإذا صورتها كحالة سعادة روحية أو نيرفانا^(١)، يجب إدخال ممثل آخر على المسرح : أى ناقد يدفع العقل إلى التفكير مرة أخرى بوساطة إثارة الشكوك ، أو خصم يدفع القلب إلى الشعور مرة أخرى بوساطة بث اليأس أو عدم الرضاء أو الخوف أو النفور في النفس . وهذا هودور الحية في سفر التكوين ، والشيطان في سفر أيوب ، ومفيسstofيليس في قصة فاوست ، ولوكي في الأساطير السكندنافية ، والعشاق الأرباب في أساطير العذارى .

إلا أننا نستطيع القول بلغة العلم أن وظيفة العامل الدخيل ، هي أن يهيئ الشيء الذي أدخل عليه حافزاً من النوع الذي يكفل تماماً استثارة أقوى التغييرات المبدعة . أما بلغة الأساطير واللاهوت ، فإن الدافع أو الحافز الذي يؤدي إلى تحويل حالة الين التامة إلى نشاط اليانج الجديد ، إنما يصدر عن تدخل إبليس في عالم الله . وهذه الصور الأسطورية هي خير ما يسمح بوصف هذا الحدث ، لأنها لا تربك الذهن بالتناقض الناشئ عن تحويل هذا القول إلى لغة المنطق . إذ يقرر المنطق أنه إذا كان عالم الإله كاملاً ، لما وجد إبليس خارجه . بينما أنه إذا كان لإبليس وجود فلا بد أن يكون الكمال الذي يتدخل لإفساده ناقصاً بسبب مجرد وجوده هو ، أى إبليس . وهكذا أصبح هذا التناقض المنطقي الذي لا يتأتى حله منطقياً ؛ من الأمور

(١) النيرفانا حالة الرضاء التام بفضل خلاص الروح من قيود البدن التي يفرضها تناسخ الأرواح في الديانتين البوذية والهندوكية . (المترجم)

التي يتغاضى عنها بالحدس ، مخيلة كل من الشاعر والنبي . إذ يمجدان إلهاً قادراً على كل شيء^(١) .

وفي رواية أخرى لهذه القصة نجد أن المعركة التي تتبع القبول الإجباري للتحدي لا تأخذ شكل تبادل إطلاق النار ، يطلق فيها إبليس الطلقة الأولى ولا يخطئ في قتل ضحيته ، بل تأخذ هذه المعركة شكل مراهنه كتب عليه فيها الخسران . ويعتبر سفر أيوب وقصة فاوست لجوته من الأعمال التقليدية التي يتجلى فيها موضوع المراهنة هذا .

وتبدو هذه النقطة في أوضح صورها في مأساة جوته . فإنه بعد ما قبل الرب مراهنة مفistos فيليس في السماء ، وضعت شروطها على الأرض بين مفistos فيليس وفاوست ، حسب الحوار التالي :

(١) يرى المؤلف أن القدرة الإلهية وفقاً للمنطق المستمد من دراسات الأساطير اليونانية مقيدة بقيدين :

القيد الأول : مداره أنه نظراً لكمال الخلق فإن هذه القدرة لا تستطيع أن تجد مناسبة لخلق شيء آخر . فإذا سلمنا بهذه القدرة ، تصبح الأعمال التي خلقها والتي لا تزال تخلقها مجيدة ، لكن لا يتأتى تغييرها من مجد إلى مجد .

القيد الثاني : أنه عندما تواتبها مناسبة لخلق جديد جديد من الخارج لا يسمعها إلا القبول . فعندما تتحدى ، لا تستطيع أن ترفض قبول التحدي . بل هي ملزمة بالاستجابة له ، لأنها لا تستطيع الامتناع إلا على حساب إنكار طبيعتها الإلهية وانتهاء إلهيتها .

ويدلل المؤلف على رأيه بأنه في هيبوليتيس لأوريديس حيث تؤدي آرتميس دور الإله وتقوم أفروديت بدور إبليس ، لا تعجز آرتميس فحسب عن تجذب المعركة ، ولكن مقدر لها الانتصار . ولما كانت العلاقات بين آلهة الأوليمب فوضوية ، لذلك لا يستطيع آرتميس في خاتمة التمثيلية أن تعزى نفسها إلا بالتفكير بأنها ستؤدي هي نفسها وقتاً ما دور إبليس على حساب أفروديت . والنتيجة ليست خلقاً ، بل دماراً . في الرواية الإسكندنافية - كما يقرر المؤلف - الدمار هو أيضاً ما تؤدي إليه قصة راجناروك (وهي أسطورة إسكندنافية تذكر أن «الفادور» (أب الجميع) يخلق سماء وأرضاً جديدتين لا يعرف فيها التعب والألم والشقاء والخطيئة) عندما تذبح الإلهة والأبالسة وتذبح . وإن كانت العبقرية الفذة لمؤلف فولوسبا Voluspa تجعل رؤية سيبيل Sibyl قارئة المستقبل تحترق الظلام لتلمح وراءها ضوء فجر جديد . (المترجم)

فاوست : الراحة والصفاء — لا لا ليس شيء من هذا إنى لا أطلب من هذا لنفسى شيئاً — إنى لا أبحث عنهما . لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة ، ولئن أصبحت بفضل مكرك وخداعك ، وبحيلك وألاعيبك ، أتوهم أنى فى رغد من العيش ، أو خيّل لى أنى غدوت من السعداء ، فليكن ذلك اليوم آخر أيام عمرى . وهذى مراهنه بينى وبينك .

إيليس : إذن اتفقنا .

فاوست : وأزديك فوق ما قلته : أنى لو مرت بى اللحظة من الزمن وكانت من المحسن بحيث قلت لها « لا تبرحى فما أحلاك » . . فهناك فلتهى لى سلاسلك وأغلالك . . هنالك أرحب بالموت ، هنالك فلتعذبى النوادب ، وهنالك تنتهى خدماتكم لى . . وعندها فلتقف ساعة عمرى وليخب سراج حياى .

ويمكن استخلاص أثر هذا العهد الأسطورى على مشكلتنا الخاصة بيد الحضارات ، بواسطة تشبيه فاوست — فى اللحظة التى يعقد فيها رهانه — بأحد أولئك الراقيدين الذين استيقظوا ونهضوا من على الطنف الذى كانوا مستقلين عليه فى حالة ثبات ، وشرعوا فى تسلق المنحدر الصخرى . وفى لغة هذا الشبيه ، يقول فاوست « لقد عزمت على ترك هذا الطنف وتسلق هذا المنحدر وراء الطنف الذى فوقها ، وفى محاولتى هذه أدرك أننى أخلف السلامة ورائى ؛ لكننى فى سبيل إمكان إنجاز عمل فذ سأعرض نفسى لخطر السقوط والدمار . أما فى القصة كما رواها جوته فإن المتسلق الباسل يوفى فى النهاية إلى تسلق المنحدر الصخرى منتصراً بعد أن يمر بتجربة تتضمن أخطاراً قاتلة ، ويعانى عدة نكسات يائسة .

ويعطى العهد الجديد فى النهاية نفسها — عن طريق الوعد بقاء ثان بين نفس الخصمين فى المعركة بين ياهوى والحية تلك المعركة التى انتهت فى روايتها .

الأصلية الواردة في سفر التكوين — على نمط أقرب إلى نهاية المعركة بين آرتميس وافروديت في تمثيلية هيبوليتيس :

ويوحى كل من سفر أيوب وفاوست والعهد الجديد على السواء ، بل ويعلن في صراحة أنه لا يمكن أن يكسب الشيطان الرهان ، وأنه إذ يتدخل في عمل الإله فإنه — أى الشيطان — لا يستطيع أن يضرّ فإن الإله دائماً سيد الموقف في جميع الأوقات وأنه يترك لإبليس الحبل على الغارب ليشتق نفسه . وقد يكون منط التفسير أن المراهنة التي عرضها إبليس والتي قبلها الإله تناول — وبالتالي تعرّض فعلاً للخطر — جانباً من خليقة الإله — لا الخليقة كلها — لمجازفة حقيقية . وبصبح هذا الجانب في الواقع هو موضوع الرهان . ورغمما عن أن الكل ليس كذلك ، فإن الاحتمالات أو التغيرات التي يتعرض لها ذلك الجانب لن تترك بداهة الكل دون تأثير . وبلغت الأساطير ، عندما يُغري إبليس أحد مخلوقات الله ، تصبح الفرصة متاحة لإعادة خلق العالم . لأن تدخل إبليس سواء نجح أو فشل في عملية الإغراء ، قد أجرى التحوّل من حالة الين إلى حالة اليانج (أى من السكون إلى الحركة الدافعة) :

أما عن دور البطل البشرى في القصة — وهو الإنسان ، فالألم هو محور هذا الدور في كل عرض للمأساة . سواء أكان القائم بالدور يسوع أو أيوب أو فاوست أو آدم أو حواء .

فإن صورة آدم وحواء في جنة عدن ، ما هي إلا ترديد لحالة الين التي بلغها الإنسان البدائي في المرحلة الاقتصادية القائمة على التقاط الطعام ، بعدما وطّد الإنسان سيادته على ما عدهاه على الأرض من حيوان ونبات . ويرمز « السقوط » نتيجة للإغراء بالأكل من شجرة معرفة الخير والشر ، إلى قبول تحدّي يهدف إلى ترك هذا التكامل التام والشروع في عملية تفاضل جديدة قد تُسفر أو لا تُسفر ، عن تكامل جديد . كما أن الطرد من الجنة إلى عالم غير صديق ، يفرض فيه على المرأة أن تلد في الحزن ، وعلى الرجل

أن يأكل خبزه بعرق جبينه ، إنما هو تجربة ترتبت على قبول تحدى الحياة .
وما المعاشرة الجنسية بين آدم وحواء التى تلت ذلك ، إلا فعل الخلق
الاجتماعى ، أثمرت ثمرتها فى إنجاب ابنين يمثلان مولد حضارتين : هابيل
راعى الغنم وقايل زارع الأرض .

وفى جيلنا الحاضر يقصّ عالم من أعظم علماء البيئة الطبيعية للحياة
البشرية وأكثرهم طرافة فى التفكير ، نفس القصة على طريقته إذ يقول :

« تحركت منذ عصور مضت عصابة من المتوحشين العراة الذين لا دار لهم
ولا نار ، من موطنهم الدافئ فى المنطقة الحارة ، واندفعت مُدماً إلى الشمال
عند بداية الربيع حتى نهاية الصيف . ولم يفطنوا قط أنهم قد خلقوا وراءهم
أرض الدفء الدائم . حتى حل شهر سبتمبر فبدأوا يشعرون ببرد غير
مستحب فى الليل . وطفقت الحال تسوء يوماً بعد يوم . ولما كانوا لم
يدركوا علة هذا التغير ، أخذوا يرتحلون فى هذا الطريق أو ذاك هرباً
من البرد فيم بعضهم شطر الجنوب ، ولكن حفنة فقط منهم هى التى عادت
إلى موطنها السابق ، حيث واصلت حياتها القديمة وما تزال ذرياتها جهلة على
حالتهم الوحشية إلى يومنا هذا . أما الذين هاموا فى الاتجاهات الأخرى
فجميعهم هلكوا إلا جماعة صغيرة منهم رأى أفرادها أن لاسبيل إلى الهرب
من الهواء القارس ، فاستعانوا بأسمى الملكات البشرية جميعاً ، وهى قوة
الابتداع الواعى . وحاول بعضهم أن يجد ملاذاً بحفر الأرض ، وجمع آخرون
أغصاناً وأوراق شجر لإقامة أكواخ وفرش دافئة . واكتسى آخرون بجلود
الحيوانات التى كانوا يذبحونها ، وما لبث هؤلاء المتوحشون أن نجحوا فى
اجتياز بضعة خطوات تعتبر من أكبر الخطوات فى سبيل الحضارة . إذ انبنى
عليها كسوة من كانوا عراة وتوفير المأوى لمن كانوا لا مأوى لهم . وتعلم غير
المتبصرين تجفيف اللحم وتخزينه مع الجوز للشتاء - واستكشف - على الأقل -
فن إعداد النار كوسيلة للتدفئة . وهكذا نالوا البقاء حيث كانوا فى البداية يظنون

أنهم هالكون . وفي غضون عملية تكييف أنفسهم للبيئة القاسية ؛ تقدموا إلى الأمام في خطوات هائلة مخلفين وراءهم بعيداً ، الجانب المдарى من الإنسانية^(١) .

كما يعبر عالم كلاسيكى عن القصة نفسها باللغة العلمية لعصرنا إذ يقول :

« تنطوى عملية الارتقاء على تناقض مبناه ، أنه إذا كانت الحاجة أم الاختراع ، فإن أباه هو العناد ، أى أن تصميم على الاستمرار فى العيش فى ظل ظروف معاكسة وتفضلها على تحديد خسائرك والتوجه حيث سبل الحياة أسهل . ولم يكن من المصادفة إذن أن تبدأ المدينة كما نعرفها فى هذا النخضم من المد والجزر فى المناخ والنبات والحيوان ، الذى يتميز به عصر الجليد الرابعى . وإن أفراد الطلائع هؤلاء الذين ظهروا فى الوقت الذى ذبلت فيه البساتين الشجرية ، قد احتفظوا بأولويتهم بين أتباع القانون الطبيعى ، إلا أنهم كفوا عن غزو الطبيعة . أما الآخرون الذين وقفوا على الأرض عندما لم تكن هناك أشجار للجلوس عليها وأكلوا اللحوم وقت عدم نضج الفاكهة وأشعلوا النيران وصنعوا الملابس عوضاً عن الاعتماد على أشعة الشمس وحصنوا جحورهم ودرّبوا صغارهم وأثبتوا أن للدنيا منطقاً بينما كانت تبدو لا منطق لها ؛ هؤلاء انتصروا وأصبحوا رجالاً^(٢) .

فالمرحلة الأولى من تجربة البطل البشرى من بين بطلى المأساة هى إذن الانتقال من حالة البلى إلى حالة اليانج بوساطة فعل ذى قوة دافعة ، يقوم به مخلوق الله تحت تأثير تجربة من جانب الخصم ، ويعاون الإله نفسه على استئناف نشاطه الخلاق . لكن يجب دفع ثمن هذا الارتقاء . وهذا الثمن لن يدفعه الله ، بل يؤديه عبده ، أى الزارع البشرى . وأخيراً وبعد كثير من المتاعب يصبح المحارب المنتصر هو الرائد . ولا يقتصر دور البطل البشرى فى المأساة الإلهية

(١) Huxington, Ellawerth : Civilization and Climate ٤٠٥ - ٤٠٦ ص

(٢) Myres, J. L. Who were the Greeks ?

على تنفيذ الإرادة الإلهية فحسب ، لكنه يخدم كذلك زملاءه الرجال عن طريق رسمه معالم الطريق الذى يتعين عليهم اتباعه .

(٢) تطبيق الأسطورة على المشكلة

١ - العامل الذى لا يتأتى التكهن به :

حصلنا فى ضوء الأسطورة على قسط من المعرفة بشأن طبيعة التحديات والاستجابات ، ووفقنا إلى إدراك أن الخلق وليد لقاء ، وإن بدء الحضارة هو حصيلة تفاعل !.

ولنعد الآن إلى موضوعنا المباشر . أى البحث عن العامل الإيجابي الذى هز جانباً من البشرية وأخرجه من « تكامل العادة » ليدخله فى « تفاضل المدنية » فى غضون ستة آلاف السنة الماضية ؛ متأملين بدء حضارتنا الواحدة والعشرين ، رانين إلى التحقق — باستخدام طريقة فحص تقليدية — من صدق القول بأن فكرة التحدى والاستجابة ، أوفر حظاً فى الاتفاق مع العامل الذى نبحث عنه ، من نظرتى الجنس والبيئة اللتين سبقت موازنتهما قبلئذ ، ووجدنا ناقصتين ؟

وسنظل فى هذه الدراسة الجديدة مهتمين أيضاً بالجنس والبيئة ، ولكن مع فارق أننا سننظر إليهما فى ضوء جديد . ولن نحاول البحث عن سبب مبسّط لبدء الحضارات ، يتيح إقامة الدليل على أنه ينتج نفس الأثر فى كل زمان ومكان . ولن ندهش بعد الآن إذا انضح أثناء انبعاث الحضارات ، أن نفس الجنس أو البيئة مثمرة فى حالة ، عقيمة فى حالة أخرى .

وفى الواقع لن نعتبر بعد الآن الافتراض العلمى القائل « باطراد الطبيعة » — كما اعتبرناه باللغة العلمية طوال تفكيرنا فى مشكلتنا — حصيلة تفاعل قوى لاهياة فيها . وسنوطن أنفسنا على التسليم بأنه حتى

إن كنا على علم دقيق بجميع المعلومات المتصلة بالجنس والبيئة وغيرها مما تتاح صياغته علمياً . فإننا لن نقدر على التكهن بنتيجة التفاعل بين القوى التي تمثلها هذه المعلومات ، أكثر مما يقدر عليه خبير عسكري من التنبؤ بنتيجة معركة أو حملة ، مستعينا بمجرد معرفته الخاصة بطبائع هيئة أركان الحرب ومواردها في كلا الفريقين . أو ما يستطيع معرفته خبير في لعبة البريدج ، عن نتيجة أخذ الأدوار بمجرد علمه بجميع الأوراق الموجودة في يد كل من اللاعبين .

ولا تعتبر المعرفة الباطنية في قياس التمثيل هذين كليهما ، كافية لتمكين حائزها من التكهن بنتائج ذات شيء من الدقة أو التأكيد ؛ لأن هذه المعرفة لا تبلغ مبلغ المعرفة الكاملة . وثمة أمر واحد لا مناص من أن يظل كمّاً مجهولاً حتى لأحسن المشاهدين اطلاعاً . لأن ذلك الأمر خارج عن إدراك المقاتلين أو اللاعبين أنفسهم . مع أن لهذا الحد من حدسي المعادلة التي يجب على الحاسب الذكي أن يحلها ، أهمية قصوى . فإن هذا « الكم » غير المعروف هو رد فعل الممثلين للتجربة عند حدوثها فعلاً . وهذه القوى السيكولوجية الدافعة التي يستحيل تطبيقها ووزنها وقياسها وبالأحرى تقديرها تقديرًا علمياً مقدماً ؛ هي نفس القوى التي تعين في الواقع عاقبة اللقاء عندما يأخذ سبيله . وهنا يتضح لنا سبب تسليم أعظم العسكريين عبقرية في انتصاراتهم بعامل يعجزون عن تقديره ، فإن كانوا متدينين عزوا انتصاراتهم إلى الله — مثل كرومويل — وإن كانوا أميل إلى تصديق الخرافات — مثل نابليون — عزوها إلى حسن طالعهم :

٣ — بدء الحصار المصرية :

افترضنا عند بحث البيئة في الفصل السابق — كما افترض طبعاً واضعوا نظرية البيئة الهلينيون — أن البيئة عامل ثابت . وبصفة خاصة أن الأحوال

الطبيعية في السهب الأفراسى ووادى النيل ، قد ظلت دائماً كذلك خلال الزمن « التاريخى » كله كما هى اليوم وكما كانت منذ أربعة وعشرين قرناً ، عندما نسج اليونانيون نظرياتهم الخاصة بها .

بيد أننا نعلم فى الواقع أن الأمر لم يكن كذلك :

« بينما كان الثلج يغطى أوروبا الشمالية حتى جبال الهارز^(١) وكانت الثلوج تتوج جبال الألب والبرانس ، عمل الضغط العالى للقطب الشمالى على إمالة الزوايا المطرية تجاه الجنوب . وكانت الأعاصير التى تخترق أوروبا الوسطى ، تمر فى ذلك الوقت ، فوق حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال الصحراء الكبرى وتستمر فى طريقها دون أن تعترضها جبال لبنان ، مارة عبر العراق وبلاد العرب إلى فارس والهند . فكانت الصحراء الجذباء تنعم فى ذلك العهد بهطول الأمطار بانتظام بينما كانت الأمطار فى المنطقة الأبعد من ذلك شرقاً أعظم غزارة عما هى عليه الآن ، بل وموزعة على مدار السنة كلها ولا يقتصر سقوطها على فترة الشتاء كما هو الحال فى الوقت الحاضر . . .

« وتبعاً لذلك كان يجب أن نتوقع ازدهار الحدائق والأحراش فى شمال إفريقيا وبلاد العرب وفارس ووادى السند : على غرار ازدهارها اليوم فى شمال البحر الأبيض المتوسط . وبينما كان الماموث^(٢) والخرتيت المشعر والرنة ترعى هنا وهناك فى فرنسا وجنوب إنجلترا كانت تعيش فى شمال إفريقيا حيوانات توجد اليوم فى منطقة الزمبىزى بروديسيا . . .

« وكان من الطبيعى أن تكون المراعى البهيجة فى شمال إفريقيا وجنوب آسيا كثيفة السكان مثل سهول أوروبا الحالية . وبدهى أن نقدر أن الإنسان

(١) أقصى سلاسل جبال ألمانيا الشمالية . وتمتد بين نهري ويزر والألب وتبلغ مساحتها حوالى ٧٨٤ ميلاً مربعاً . ولقد أوحى جمالها الطبيعى انكسب إلى الألمان بوضع عدد ضخم من الأساطير التى أصبحت جزءاً ثميناً من الأدب الألماني وخلدها الشاعر العظيم جوته فى قصته « فاوست » . (المترجم)

(٢) الماموث حيوان منقرض من فصيلة الفيل وجدت بعض وحدات منه متحجرة .

(المترجم)

فى ظل هذه البيئة المواتية الحافزة قد أحرز تقدماً أعظم مما أحرزه فى الشمال المحصور بين الثلوج .

بيد أن المنطقة الأفراسية أخذت عقب نهاية عصر الجليد تكابد تغيراً فى أحوالها الطبيعية مبناه اتجاهها نحو الجفاف . وانبعثت حضارتان أو أكثر فى وقت واحد فى منطقة كانت تشغلها قبلئذ مجتمعات بدائية تنسب إلى النوع الحجري المبكر ، مثلها مثل بقية العالم المعمور حينئذ . ويشجعنا علماء الآثار المعاصرون على اعتبار جفاف أفراسيا تحدياً ، كانت الاستجابة له هى بدء هاتين الحضارتين .

« نحن الآن على شفا الانقلاب الكبير . وسنواجه قريباً رجالاً يسيطرون على موارد غذائهم بفضل امتلاكهم حيوانات مستأنسة وزراعتهم الغلال . ويبدو أن لا مناص من ربط هذا الانقلاب بالأزمة التى أحدثها ذوبان الجبال الثلجية الشمالية وما تلاه من انكماش الضغط القطبي العالى على أوروبا . وتحويل عواصف الأمطار الأطلسية من منطقة جنوب البحر الأبيض المتوسط إلى مجراها الحالى عبر أوروبا الوسطى . »

« وسيكون هذا الحادث — بكل تأكيد — امتحاناً شديداً إلى أقصى حد للملكة الاختراع لدى سكان المنطقة التى كانت تنمو فيها المراعى والأعشاب فيما مضى . »

« وإزاء الجفاف التدريجى الذى ترتب على عودة حلقة الإعصار الأطلسى إلى التحول نحو الشمال كلما تقلصت جبال أوروبا الثلجية ، أصبح على السكان الصيادين الذين تأثروا بهذا التغير أن يختاروا أحد أمور ثلاثة وهى : التحرك نحو الشمال أو الجنوب مع صيدهم متبعين المنطقة المناخية التى ألفوها ، أو البقاء فى موضعهم والحياة حياة تعسة مكتفين بما يصيدونه من الحيوانات التى قد تقاوم الجفاف . أو يستطيعون من غير أن يهجروا مواطنهم الجديدة

تحرير أنفسهم من الاعتماد على احتمالات بيئتهم باستئناس الحيوانات وفلاحة الأرض» (١).

ففي حالة أولئك الذين عزفوا عن تغيير مواطنهم وتبديل طريقة معيشتهم كان الانقراض جزاء فشلهم في الاستجابة لتحدى الجفاف .

وأما الذين تفادوا تغيير مواطنهم بتعديل طريقة معيشتهم وبتحويل أنفسهم من صيادين إلى رعاة ؛ قد أصبحوا بدو السهب الأفراسي . وستستلقت أعمالهم ومصيرهم انتباهنا في موضع آخر من هذا الكتاب .

أما أولئك الذين آثروا تغيير مواطنهم على تعديل طريقة معيشتهم ، أى تلك الجماعات التى تجنبت الجذب باتباع منطقة الأعاصير فى تحولها شمالا ، معرضين أنفسهم — عن غير قصد — إلى تحد جديد ، لتحدى البرد الموسمي الشمالى الذى لم تستسلم له تلك الجماعات ، فقد أثارت فيهم بيئتهم الجديدة ، استجابة خلاقة جديدة .

بينما وقعت الجماعات التى تجنبت الجذب ، بالارتداد جنوبا إلى منطقة الرياح الموسمية تحت التأثير المنوم للمناخ المدارى الذى يسير على نمط رتيب لا يتغير .

ونرى خامسا وأخيراً ، أن ثمة جماعات استجابت لتحدى الجفاف ، بتغيير مواطنها وطريقة معيشتها معاً وكان رد الفعل هذا المضاعف النادر ؛ هو العمل ذا القوة الدافقة الذى خلق الحضارتين المصرية والسومرية من بين ظهراني المجتمعات البدائية التى كانت تعيش فى المراعى الأفراسية السائرة فى طريق الزوال .

ولقد تمثل التغيير فى طريقة معيشة هذه الجماعات الخلاقة فى تحولها تحولاً شاملاً من جامعى طعام وصيادين إلى زراع . وكان التغيير فى مواطنهم قليلاً

من حيث المسافة ، لكنه واسع إن قيس بالاختلافات من حيث الطبيعة بين المراعى التى هجروها أو بين البيئة الطبيعية الجديدة التى استقروا فيها . وعندما استحالت المراعى المشرفة على وادى النيل الأولى إلى الصحراء الليبية ، والمراعى المشرفة على وادى الفرات والدجلة إلى صحراء الربع الخالى ودشت لوط ، نحاض هؤلاء الرواد الأبطال - بوحي الجرأة أو اليأس - مستنقعات الأدغال الموجودة فى قرارة الوادى والتى لم يسبق لبشر التوغل فيها . وأحاطها عملهم ذو القوة الدافعة إلى أرض مصر وأرض شينعار^(١) .

ولامشاحة فى أن مغامرتهم قد بدت لجيرانهم الذين سلكوا الطرق الأخرى سالفه الذكر أملا ضائعا . ذلك لأنه وقما كانت المنطقة التى أخذت تتحول إلى السهب الافراسى - جنة الله فى الأرض - كانت مستنقعات أدغال النيل وما بين النهرين تبدو برية ، تمتنع على الإنسان وغير مطروقة . ونجحت المغامرة ، كما اتضح فيما بعد ، نجاحا يسمو على أعظم الآمال الفعلية التى راودت الرواد . فقد استطاعت أعمال الإنسان أن تخضع لإرادته الطبيعة الفضفاضة ، فاخفتت مستنقعات الأدغال وحلت محلها مجموعة من القنوات والمدرجات والحقول .

وهكذا استصلحت أراضى مصر وشينعار من الفلاة ، وشرع المجتمعان المصرى والسومرى فى مغامراتهما الكبرى .

ولم يكن وادى النيل الأدنى الذى نزل إليه روادنا يختلف كثيراً جداً عن الوادى الذى نشاهده فى الوقت الحاضر ، بعد أن تركت ستة الآلاف سنة من العمل الحاذق ، طابعها عليه . بل يكاد لا يقل اختلافاً فى الغالب عما يصبح عليه لو ترك إلى الطبيعة ، أمر إعادة تشكيله . بل إنه فى زمن العصور المتأخرة نسبياً ، وفى عهد الدولتين القديمة والوسطى - أى بعد

(١) أرض شينعار : هى بلاد سومر ، أى العراق الحال . (المترجم)

انقضاء عدة الآف من السنين على أيام الرواد — كانت رؤية فرس النهر والتمساح وأنواع عديدة من الطيور البرية ، من الأشياء المألوفة في الوادى الأدنى كما يستدل على ذلك من النقوش والرسوم التى تخلفت عن هذا العصر . بينما لا يلاحظ من ذلك شئ فى الوقت الحاضر تحت الشلال الأول . وما يصدق على الطيور والحيوانات يصدق كذلك على النبات . فإنه رغمًا عن استقرار الجفاف ، كان المطر لا يزال يسقط على مصر . وكانت الدلتا مستنقعا يفيض بالمياه . ويحتمل أن النيل الأدنى فى جزئه الواقع فوق الدلتا ، كان يشابه فى تلك الأيام بلاد النيل الأعلى عند بحر الجبل فى المديرية الاستوائية بالسودان ، وأن الدلتا نفسها كانت تشابه المنطقة التى حول بحيرة نو ، حيث تبرز مياه بحر الجبل بمياه بحر الغزال .
وفما يلى وصف معاصر لهذه البلاد الموحشة :

« إن مشهد بحر الجبل فى كل مكان من مجراه على طول منطقة السد المليئة بالغاب رتيب نوعا ما . إذ ليست هناك شواطئ البتة اللهم إلا عند قليل من النقاط المنعزلة . ولا توجد شبهة ضفة على حد المياه . وتنتشر مستنقعات البوص فى كلا الجانبين إلى عدة كيلو مترات ، ولا يقطع انفساحها سوى بضعة بحيرات ضحلة من المياه المكشوفة تقع على أبعاد منفصلة . ولا تعلو سطوحها عن سطح الماء فى النهر فى أوطأ حالاته إلا بمقدار بضعة سنتيمترات . فإذا قاض النهر وارتفعت مياهه بمقدار نصف متر ، غمرت هذه البحيرات إلى مسافات هائلة . وتغطى هذه المستنقعات مقادير هائلة من البوص المائى تنمو فيها وتمتد فى كل اتجاه إلى الأفق . ويندر جداً مشاهدة أى علامة تدل على الحياة البشرية فى جميع أنحاء هذه المنطقة وبخاصة بين بور وبحيرة نو . وتسم المنطقة جميعها بمظهر الخراب الذى تعجز الكلمات عن وصفه ، ولا يمكن إدراك حقيقتها إلا برويتها عن كذب (١)

والمنطقة غير مأهولة ، لأن الشعوب التي تعيش في تخومها لا يواجهها من حين لآخر ذلك الاختبار القاسى الذى واجه آباء الحضارة المصرية من قبل وقتما جلسوا القرفصاء على حدود وادى النيل الأدنى منذ ستة آلاف سنة : أى بين اختيار الإقامة فى منطقة السدود الموحشة ، أو التثبيت بأرض الأجداد خلال تحولها من جنة أرضية إلى صحراء جدد لا تسكن .

وإن صدق حدس علمائنا ، كانت أسلاف هذه الشعوب التي تعيش الآن على حدود منطقة السدود السودانى ، تحيا فى المنطقة التي تعرف الآن بالصحراء الليبية متلازمة مع مؤسسى الحضارة المصرية حينما استجاب هؤلاء إلى تحدى الجفاف باختيارهم الخطير . ولقد يبدو أن أسلاف الدنكا والشيلوك الحاليين ، قد افترقوا وقتذاك عن جيرانهم الأبطال . فاتبعوا أقل السبل وعورة ، بانسحابهم فى اتجاه الجنوب إلى بلد يستطيعون فيها مواصلة معيشتهم المألوفة من غير إحداث تغيير فى طريقة معيشتهم ، فى محيط بنائى نوعا ما من الناحية الطبيعية مع المحيط الذى اعتادوه من قبل . وهكذا استقروا فى السودان المدارى فى نطاق منطقة الأمطار الاستوائية . وما تزال سلالاتهم تعيش هناك إلى وقتنا هذا نفس معيشة أسلافهم الأبعدين . وهكذا وجد المهاجرون الكسالى غير الصالحين ما همت إليه نفوسهم .

« وتعيش على ضفاف أعالي النيل اليوم شعوب تتصل بالمصريين القدماء من حيث المظهر والقدر ونسب الجمجمة واللغة والملبس . ويحكم هذه الشعوب سحرة صانعو أمطار أو ملوك مؤهلون كانوا حتى وقت قريب يُتدبجون فى شعائر دينية . وتنظم القبائل فى عشائر طوطمية . . . وفى الحق ، يبدو كما لو كان التطور الاجتماعى بين هذه القبائل المقيمة على ضفاف أعالي النيل ، قد توقف عند المرحلة التي عبرها المصريون قبل أن يبدأ تاريخهم . فهناك نجد متحفاً حياً ، تتم معروضاته حالات ما قبل التاريخ فى مجموعاتنا وتبعث فيها الحياة » (١) .

ويدعو التماثل بين الأحوال التي كانت سائدة في جانب من حوض النيل في وقت مضي والأحوال الحاضرة في جانب آخر منه ، إلى بعض الافتراضات :

فعلى فرض عدم حدوث تحدى الجفاف قطعاً لسكان حوض النيل في هذه الجوانب منه الخارجة في الظروف الحاضرة عن منطقة الأمطار الاستوائية ؛ هل كانت دلتا النيل وواديه الأدنى يظلان في هذه الحالة على حالتهما الطبيعية الأولى ؟

وهل كانت الحضارة المصرية لتظهر على الإطلاق ؟ وهل كان يقبض لتلك الشعوب أن تظل جالسة القرفصاء على حدود وادي نيل أدنى لم يُذلل ، كما يجلس الشيلوك والدنكا اليوم القرفصاء على ضفة بحر الجبل ؟

وئمة اتجاه آخر للافتراض لا يتصل بالماضى ، بل بالمستقبل . فلقد نذكر أنفسنا بأنه حسب مقاييس الزمن في حياة الكون ، أو حياة كوكبنا ، أو الحياة عامة ، أو حتى حياة الجنس البشرى فقط ؛ تبدو فترة ستة آلاف سنة مجرد برهة من الزمن لا يُعتدّ بها . فعلى فرض أن تحدياً آخر يماثل في ضخامته ذلك الذى واجه بالأمس سكان وادي النيل الأدنى في نهاية عصر الجليد ، يواجه غداً سكان حوض النيل الأعلى ؛ فهل يوجد أى سبب للاعتقاد بعدم قدرتهم على الاستجابة له باصطناع دافع مساو نوعاً ما في قوته الدافعة ، للعمل الذى قام به أهل النيل الأدنى وتكون له أيضاً آثار خلاقة مساوية ؟

ولسنا في حاجة إلى المطالبة بأن يكون هذا التحدى الافتراضى الذى يواجه الشيلوك والدنكا ، من نفس النوع الذى واجه آباء الحضارة المصرية ؛ فلتتصور أن التحدى لا يفد من المحيط المادى ، ولكن من المحيط البشرى ؛ أو لا يكون سببه تغيراً في المناخ ولكن مداخلة غريبة عنهم ؟ أليس هذا التحدى نفسه يواجه تحت أبصارنا سكان إفريقيا المدارية البدائيين في صورة

مواجهة الحضارة الغربية لهم ، وهى واسطة بشرية تؤدى فى جيلنا الدور الأسطورى الذى قام به ميستوفيليس^(١) ، تجاه كل حضارة قائمة ، وتجاه كل مجتمع بدائى لا يزال موجوداً على وجه الأرض ؟

إن التحدى لا يزال حديثاً إلى درجة لا يتيسر لنا معها التنبؤ بالاستجابة النهائية التى ستصدر عن أى من المجتمعات التى تواجه هذا التحدى . ويمكننا القول فحسب أن فشل الآباء فى الاستجابة لتحدى واحد ، لا يقضى بالضرورة بالفشل على الأبناء فى مواجهة تحدى آخر ، عندما تحين ساعتهم .

٣ - بدء الحضارة السومرية :

فى استطاعتنا تناول هذه المسألة باختصار ، لأن لدينا هنا تحدياً يماثل ذلك الذى واجه آباء الحضارة المصرية ، واستجابة من نفس نوع استجابتهم إليه :

فإن جفاف أفراسيا^(٢) قد ألزم كذلك آباء الحضارة السومرية بالدخول فى صراع مع مستنقعات غابات الوادى الأدنى للدجلة والفرات وتحويلها إلى أرض شناعار^(٣) .

وتكاد المظاهر المادية لبدء كل من هاتين الحضارتين تتفق تماماً مع مظاهر بدء الأخرى . أما بالنسبة للسمات الروحية للحضارتين اللتين انبعثتا عنهما ودينهما وفهما بل وكذلك حياتهما الاجتماعية ، فإن التماثل بينهما أقل بكثير . وتلك دلالة أخرى على أن تماثل الأسباب - فى نطاق دراستنا - لا يؤدى بالضرورة إلى تماثل النتائج .

ولقد خلّدت الأساطير السومرية ، التجربة التى مر بها آباء الحضارة

(١) إبلس فاوست للشاعر الألمانى جوته . (المترجم)

(٢) أى إفريقية وآسيا . (المترجم)

(٣) سفر التكوين : ١٠ - ١٠ . (المترجم)

السومرية ، إذ يرمز قيام الرب ماردوك بذبح التنين تيامات وخلق الرب العالم من بقايا التنين الفانية ، إلى السيطرة على الفقر البدائي وخلق أرض شنعار بوساطة تنظيم المياه في قنوات ، وصرف المياه من التربة . وتسجل قصة الطوفان ثورة الطبيعة على القيود التي فرضتها عليها جرأة الإنسان . والطوفان الذي ورد وصفه في الآداب الدينية اليهودية نقلا عما تعلمه اليهود في مياه بابل ، أصبح — كما جاءت قصته في التوراة — كلمة مألوقة في المجتمع الغربي ، إلى أن أتى علماء الآثار المعاصرون وكشفوا عن أصل الواقعة واستخلصوا أيضاً الدليل المباشر على حدوث فيضان معين عنيف إلى درجة غير عادية ، من وجود طبقة طمي سميكة خلفها الفيضان بين الطبقات الأولى والطبقات الأخيرة التي رسبت نتيجة لسكنى الإنسان في مواقع طائفة من مراكز الثقافة السومرية .

ويهيئ حوض الدجلة والفرات أسوة بحوض النيل ؛ متحفاً لبحثنا ، يمكن استخدامه في دراسة الناحية العادية للطبيعة غير الحية ؛ وذلك في القلعة التي حولها الإنسان إبان الحياة التي عاشها الرواد السومريون الأوائل في هذه القلعة . على أننا لن نهتدى إلى المتحف في الدجلة والفرات خلافاً لما حدث في حوض النيل — بواسطة السير في النهرين من منبعهما إلى مصبهما . لكننا نجد في الدلتا الحديثة التكوين الواقعة في رأس الخليج العربي ، تلك الدلتا التي كوَّنها ملتقى النهرين الشقيقتين في أزمان لاحقة ، ليس فقط لبدء الحضارة السومرية ، بل أيضاً لزوالها هي والحضارة البابلية التي خلفتها .

وما تزال المستنقعات التي جاءت تدريجياً إلى الوجود خلال السنوات الألفين أو الثلاثة آلاف الماضية على حالتها الأولى حتى يومنا هذا ، لا لسبب إلا لأنه لم يظهر على المسرح مجتمع بشري تتوافر فيه إرادة السيطرة عليها . ولقد تعلم — أهل المستنقعات — أولئك الذين يتخذونها موطناً — أن يكيفوا أنفسهم تبعاً لهذه البيئة وفقاً لطريقة سلبية مصداقاً لما يبدو من كنيثهم

بعبارة « ذوى الأقدام الغشائية » التى أطلقها عليهم الجنود البريطانيون الذين صادفهم خلال حرب « ١٩١٤ - ١٩١٨ » . لكن هؤلاء السكان لم يشمروا إطلاقاً عن سواعدهم للعمل فى سبيل تحويل المستنقعات إلى شبكة من القنوات والحقول . مثلما فعل آباء الحضارة السومرية منذ حوالى خمسة أو ستة آلاف سنة مضت ، فى بلد تشابه بيئته وبيئتهم .

٤ - بدء الحضارة الصينية :

إذا تأملنا بعد ذلك فى بدء الحضارة الصينية فى الوادى الأدنى للنهر الأصفر ، ألفينا استجابة من جانب الإنسان لتحديات من الأحوال الطبيعية ، ربما كانت أشد عنفاً من كل من تحدى النهرين^(١) وتحدى النيل . إذ قامت فى الفلاة التى أحاطها الإنسان وقتاً ما إلى مهد الحضارة الصينية ، تجربة جو تتغير فيه الحرارة موسمياً من نهاية قصوى للحرارة فى الصيف إلى نهاية قصوى للبرودة فى الشتاء ، مكملة لتجربة المستنقع والأدغال والفيضان . ولا يبدو أن آباء الحضارة الصينية يختلفون فى الجنس عن الشعوب التى تشغل المنطقة الواسعة إلى الجنوب والجنوب الغربى ، الممتدة من النهر الأصفر إلى نهر البراهما بوترا ، ومن هضبة التبت إلى بحر الصين .

فإذا كانت طائفة من أعضاء هذا الجنس الواسع الانتشار قد خلقت حضارة ؛ فى حين أصاب الباقي العقم من الناحية الثقافية ؛ فإن تفسير توافر ملكة إبداع دقيقة فيهم جميعاً ، إلا أنها قد استُثِرت فى الأعضاء الأولين بالذات وفيهم وحدهم عن طريق مجابتهم تحدياً لم يتفق للباقي مجابته . ومن المحال تحديد طبيعة ذلك التحدى تحديداً دقيقاً على أساس معلوماتنا الحاضرة . على أن ثمة شيئاً مؤكداً نستطيع قوله هو أن آباء الحضارة الصينية

(١) الدجلة والفرات . (المترجم)

لم يستمتعوا في موطنهم على ضفاف النهر الأصفر كما قيل خطأ - بميزة تتمثل في بيئة أيسر من بيئة جيرانهم ، وفي الحق لم يقيّض لأى شعب من الشعوب ذات القربى من شعب النهر الأصفر ، والمستوطنة بعيداً نحو الجنوب ، في وادى نهر البانجوتسى مثلاً - حيث لم تنبعث هذه الحضارة - أن يكافح في سبيل حياته مثلما كافح هذا الشعب .

٥ - بدء الحضارتين المايانية والأنديانية :

كانت غزارة الغابة المدارية ، هي التحدى الذى كانت الحضارة المايانية استجابة له :

« تيسّر قيام الثقافة المايانية بفضل الغزو الزراعى للسهول المنخفضة الغنية حيث لا تتأتى السيطرة على فيض الطبيعة إلا بالعمل المنظم ، ومن السهل نسبياً إعداد المصببات المرتفعة للزراعة ، بسبب قلة الإنبات الطبيعى ، وبفضل الضبط الثابت للرى . في حين أن زراعة السهول المنخفضة تتطلب قطع الأشجار الضخمة وبذل جهود مضمّنة للحيلولة دون تكاثف الأدغال السريعة النمو . لكنه عندما تروّض الطبيعة فعلاً ، تجزى الزارع الجسور على جهده أضعافاً مضاعفة : وفضلاً عن ذلك فإن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن إزالة الغطاء الغابى من مساحات كبيرة ، يؤثر تأثيراً حسناً في أحوال المعيشة التى هى صعبة فعلاً تحت مظلة من أوراق الشجر (١) .

لم يلق هذا التحدى الذى أبرز الحضارة المايانية إلى الوجود في شمال برزخ بناما ، أية استجابة في الجانب الآخر من البرزخ . لأن الحضارات التى برزت في أمريكا الجنوبية قد استجابت لتحديين مختلفين عنه تمام الاختلاف وفدا من هضبة الأنديس ، ومن ساحل المحيط الهادى المتناخم .

فعلى الهضبة ، تحدى المناخ القارص والتربة الشحيحة ، آباء الحضارة الأنديانية . أما على ساحل المحيط ، فقد تحدثهم حرارة وجفاف صحراء استوائية لا يزيد مستواها على مستوى مياه البحر ، ويكاد لا يهطل فيها المطر ولا يمكن أن تزدهر كالوردة ، إلا بفضل أعمال الإنسان . واستطاع طلائع الحضارة انتزاع واحاتهم من الصحراء ، بفضل حسن تدبير المياه القليلة التي كانت تسقط من السفح الغربي من الهضبة ، وإضفاء الحياة على السهول بفضل الري . وأحال رواد تلك الهضبة جوانب جبلهم إلى حقول ، بفضل حسن استخدام التربة القليلة وإنشاء مدرجات أمكنت المحافظة عليها بفضل نظام شامل من الحواجز المبنية أقيمت بمجهود كبير لحفظ التربة والمياه .

٦ - بدء الحضارة المينوية :

فسرنا حتى الآن بدء خمس من ست من حضاراتنا الأصيلة نتيجةً للاستجابة إلى تحديات صادرة من البيئة الطبيعية . أما السادسة فكانت استجابة لتحد طبيعي من نوع لم يواجهنا بعد في هذا البحث وهو تحدى البحر . من أين وفد رواد « دولة مينوس ^(١) البحرية » هؤلاء ؟ هل وفدوا من أوروبا ، أو من آسيا أو إفريقيا ؟

قد توحى نظرة عابرة إلى الخريطة بمجيئهم من أوروبا أو من آسيا ، لأن جزائر بحر إيجه أقرب إلى هاتين القارتين الأخيرتين منها إلى شمال إفريقيا ، وهي في الحقيقة رؤوس سلاسل جبال مغمورة بمياه البحر . ولولا الهبوط الذى حدث في عصور ما قبل التاريخ واندفاع المياه لسد الفراغ الناتج عنه ، لتواصل سير الجبال من الأناضول إلى اليونان دون انقطاع .

بيد أنه يجابهنا دليل يبلبل الفكر يسوقه علماء الآثار ، وإن كان غير

(١) نشأت دولة مينوس في جزيرة كريت . وقد أقامت سلطانها على جزائر بحر إيجه وازدهرت حضاراتها ازدهارا تنبى عنه بقايا القصور الملكية في كريت . (المترجم)

قابل للشك : مبناه أن أقدم آثار التوطن البشرى توجد في كريت ، وهى جزيرة أبعد نسبيا من كلا اليونان والأناضول ، وإن كانت أقرب إلى كل منهما منها إلى إفريقيا . ويؤيد علماء الأجناس البشرية الرأى الذى كشف عنه علماء الآثار . لأنه يبدو من الثابت أنه من بين أوائل السكان المعروفين فى الأراضى القارية المواجهة لبحر إيجه ، كانت ثمة طائفة من الاختلافات الظاهرة بجلاء من حيث الطراز البدنى . فكان أقدم سكان الأناضول واليونان المعروفين ، من ذوى الرؤوس العريضة . بينما كان أقدم سكان المراعى الأفراسية المعروفين ، من ذوى الرؤوس الطويلة . وبُدى تحليل أقدم بقايا الأجسام البشرية فى كريت ، أن الجزيرة قد سكنها أولا - جميعها أو جانباً كبيراً منها - أصحاب الرؤوس الطويلة ، بينما لم يُمثل أصحاب الرؤوس العريضة قطعياً فى طوائف سكان الجزيرة أو كانوا فيها أقلية فقط ، وإن كانوا قد أصبحوا بعدئذ الغالبية العظمى فيها .

ونستخلص من هذا الدليل المستمد من علم الأجناس ، أن أول مخلوقات بشرية مكنت لنفسها فى أى جزء من أرخبيل إيجه ، كانت من مهاجرى المراعى الأفراسية ، الفارين من الحفاف :

ومن ثم ، عاينا أن نضيف استجابة سادسة إلى استجابات الحفاف الخمسة التى ذكرناها أى إلى : هؤلاء الذين ظلوا حيث هم فهلكوا ، وأولئك الذين ظلوا حيث هم وأصبحوا بدوا ، أولئك الذين يمموا شطر الجنوب واحتفظوا بطريقة معيشتهم القديمة مثل الدنكا والشيلوك ، وأولئك الذين قصدوا شمالا فأصبحوا زراع العصر الحجري الأخير فى القارة الأوربية ، وأولئك الذين خاضوا مستنقعات الأدغال وأقاموا الحضارتين المصرية والسومرية ؛ يجب أن نضيف أولئك الذين اتجهوا شمالا وشقوا طريقهم لابين الممرت السهلة نسبياً التى أتاحها البرازخ القائمة وقتئذ أو البواغيز الموجودة حتى الآن ، ولكن الفراغ الرهيب المتمثل فى عرض البحر الأبيض

المتوسط . فهم قد قبلوا هذا التحدى الإضافى ، فعبروا البحر الواسع ، وأقاموا الحضارة المينوية .

فإذا ثبتت صحة هذا التحليل ، فإنه يبيّ دليلًا جديدًا على الحقيقة القائلة بأن التفاعل بين التحديات والاستجابات ، هو العامل الذى يعتدّ به قبل كل شيء آخر فى بدء الحضارات ، وهو يسمو فى هذه الحالة على عامل قرب المسافة . فإن فرض وكان قرب المسافة هو العامل الحاسم فى احتلال الأرخييل ، لكان سكان القارتين القريبتين - أوروبا وآسيا - هم أول من احتل جزائر بحر إيجه ، فإن كثيرًا من هذه الجزائر على مرمى حجر من القارتين ، بينما تبعد كريت مائتى ميل عن أقرب نقطة فى إفريقيا .

بيد أن أقرب الجزائر إلى أوروبا وآسيا لم تحتل إلا فى زمن متأخر نسبيًا على ما يبدو بعد احتلال كريت . وانضح أن محتليها كانوا من أصحاب الرؤوس الطويلة وأصحاب الرؤوس العريضة معًا . الأمر الذى يُوحى بأنه بعد أن وضع الأفراسيون أسس الحضارة المينوية ، اشترك آخرون معهم فى العمل ؛ سواء عن طريق المحاكاة البحتة للرواد ، أو بسبب حدوث ضغط أو تحد لا يمكننا تعيين ذاتيته بالضبط ؛ قد دفعهم كذلك فى زمنهم إلى الاستجابة لهذا التحدى ، بنفس الطريقة التى سبق أن لجأ إليها فعلا السكان الأفراسيون الأصليون لكريت فى ظل ظروف أشد رهبة .

٧ - بدء الحضارات المنتسبة :

بانتقالنا من الحضارات الأصلية التى انبعثت من حالة الين التى كان فيها المجتمع البدائى ، إلى تلك الحضارات التالية التى كانت تنتسب بطرق ودرجات متفاوتة ، إلى الحضارات الأصلية ، يتضح أن التحدى الأساسى والجوهرى فى حالتها هو تحد بشرى نشأ عن صلتها بالمجتمع الذى تنتسب هى إليه ، وإن كان لا يُشكر وجود درجة ما من التحدى الطبيعى ساهمت هى أيضاً فى

حفزها . وهذا التحدى البشرى موجود ضمنا فى الصلة نفسها التى تبدأ بالتفارق وتبلغ ذروتها بالانفصال . ويتم التفارق داخل جسم الحضارة السابقة ، عندما تبدأ هذه الأخيرة فى فقد طاقتها الخلاقة التى كانت - فى فترة نمو هذه الحضارة - تحمل الشعوب الموجودة داخل أو خارج حدودها إلى الولاء لها بمحض إرادتها .

وعند حدوث ذلك ، تدفع الحضارة المعتلة جزاء عجز حيويتها بتحليلها إلى :

أولا : أقلية مهيمنة تحكم حكماً استبدادياً يستفحل طغيانه باطراد، ولكنها تعجز عن القيادة .

ثانياً : بروليتاريا (داخلية وخارجية) تستجيب لهذا التحدى بوساطة إدراكها . بأن لها نفساً خاصة بها وتعقد العزم على خلاص نفسها حية . وتثير نزعة استبداد الأقلية الحاكمة ، فى البروليتاريا ، الرغبة فى الانفصال . ويتصل الصراع بين هاتين المشيئتين ، بينما تقترب الحضارة الآفة صوب السقوط ، إلى أن تشرف على الموت . وعندئذ تتخلص البرولتارية فى النهاية مما كان قبلئذ موطنها الروحي ثم أصبح سجنها الروحي واستحال أخيراً إلى « مدينة هلاك » .

ونستطيع أن نميز فى هذا النزاع بين البرولتارية والأقلية الحاكمة - وهو يتطور من البداية إلى النهاية - أحد تلك اللقاءات الروحية المصطنعة التى تستعيد فعل الخلق بإخراج حياة العالم من ركود الخريف عبر آلام الشتاء إلى طاقة الربيع الخلاقة . ويعتبر انفصال البرولتارية ، هو الفعل ذا القوة الدافعة الذى يتم - استجابة للتحدى - والذى يترتب عليه التحول من حالة البن إلى حالة اليانج .

وفى غمار هذا التفارق الدافع ، تتولد الحضارة المشتقة من الأولى .

فهل في قدرتنا كذلك ، تميز تحد^ط طبيعي بالمثل في بدء حضارتنا المنتسبة ؟
 لقد رأينا في الفصل الثاني أن الحضارات المنتسبة تنتسب بدرجات مختلفة
 إلى سابقها من حيث موقعها الجغرافي . ففي أحد طرفي السلم ، أتمت الحضارة
 البابلية نموها كله في نطاق موطن المجتمع السومري الذي تنتسب إليه .
 وهنا يكاد يكون من المستحيل أن يتدخل تحد^ط طبيعي بأية حال من
 الأحوال في بدء الحضارة ، اللهم إلا في غضون فترة الفراغ بين الحضارتين .
 إذ قد يرتد مهدهما المشترك — بعض الشيء — إلى حالته الطبيعية الأولى ،
 مما يهيئ لآباء الحضارة التالية تحديا بإعادة تحقيق ما حققه أسلافهم في البداية ،
 مساويا مقداره لهذا الارتداد .

بيد أنه عندما تقتحم الحضارة المنتسبة أرضاً جديدة وتقيم لها موطناً يقع
 كله أو بعضه خارج منطقة الحضارة السابقة ؛ يُصبح هناك تحد^ط صادر من
 البيئة الطبيعية الجديدة التي لم يسيطر عليها أحد بعد . ومصادفاً لذلك :
 تعرضت الحضارة الغربية عند بدئها إلى تحد^ط صادر من غابات أوروبا
 ما وراء الألب ويتمثل في أمطارها وصقيعها ؛ وهذا ما لم تجابه الحضارة
 الهلينية السابقة .

وتعرضت الحضارة السندية عند بدايتها إلى تحد^ط الغابات المدارية الرطبة
 الواقعة في وادي الخانج . وهو تحد^ط لم يجابه سابقها ؛ أي الجزء القصي من
 الحضارة السومرية ، أو القطاع المقابل له في وادي السند^(١) .
 وتعرضت الحضارة الحثية في بدايتها لتحد^ط صادر من هضبة الأناضول .
 لم يواجه سابقها الحضارة السومرية .

وكان التحدي الذي تعرضت له الحضارة الهلينية في بدايتها — تحدي

(١) أغفل المستر سومرفيل^١ الذي قام بتلخيص كتاب المستر توينبى المناقشة التي أوردها
 هذا الأخير حول موضوع ما إذا كانت ثقافة وادي السند حضارة منفصلة أو مجرد فرع
 من الحضارة السومرية . ولم يبت توينبى في هذه النقطة برأى قاطع . لكنه يعالج في الفصل
 الثاني ثقافة وادي السند كجزء من المجتمع السومري .

البحر - هو بالضبط نفس التحدى الذى واجه سابقتها الحضارة المينوية .
على أن هذا التحدى كان برمته جديداً تماماً على البرولتاريا الخارجية ، فيما وراء
الحد البرى للدولة البحرية المينوية فى القارة الأوربية .

وعندما نزل أولئك البرابرة من الآخيين وأمثالهم إلى البحر فى القارة بعد
الهجرة المينوية ، أصبحوا يواجهون محنة واجتازوا تجربة تماثل فى قوتها
التجربة التى جابهها - فى عصرهم - طلائع الحضارة المينوية أنفسهم ،
وتغلبوا عليها مثلما تغلب عليها هؤلاء .

وفى أمريكا تعرضت الحضارة اليوكاتية فى بدايتها لتحدى انتفاء الماء
والأشجار وعدم وجود تربة تقريباً فى الهضبة التى قوامها الحجر الجيرى فى
شبه الجزيرة اليوكاتية . وتعرضت الحضارة المكسيكية لتحدى الهضبة
المكسيكية . بينما لم تواجه سابقتها - الحضارة المايانية - أياً من
هذين التحديين .

يتبقى بعد ذلك الحضارة الهندية وحضارة الشرق الأقصى والحضارة
المسيحية الأرثوذكسية والحضارة العربية والحضارة الإيرانية . ولا يبدو
أنها جميعاً تعرضت لأى تحد طبيعى واضح المعالم . ذلك لأن مواطنها - عكس
مواطن الحضارة البابلية - وإن اختلفت عن مواطن الحضارات السابقة ،
إلا أنها سبق أن أخضعت لهذه الحضارات أو لغيرها من الحضارات .
على أننا قد وجدنا مبرراً لتقسيم الحضارة المسيحية الأرثوذكسية وحضارة
الشرق الأقصى تقسيمياً فرعياً . وأما فرع الحضارة المسيحية الأرثوذكسية
فى روسيا فقد تعرض إلى تحد من الغابات والأمطار والجليد ، أعظم كثيراً
مما كان على الحضارة الغربية مواجهته .

وتعرض فرع حضارة الشرق الأقصى فى كوريا واليابان ، إلى تحد من
البحر يختلف كلية عن أى تحد واجهه رواد الحضارة الصينية .

الآن وقد أظهرنا أن حضارتنا المنتسبة ، وإن تعرضت كلها -

بالضرورة - لتحد بشرى يعتبر سمة تلازم تفكك الحضارات السابقة التى تنتسب إليها . فإنها قد تعرضت فى بعض الحالات كذلك - دون حالات أخرى - لتحد انتابها من البيئة الطبيعية ، يشابه التحديات التى جابهتها الحضارات الأصلية :

وأخرى بنا - استكمالاً لهذه المرحلة من استقصائنا - أن نتساءل عما إذا كانت المجتمعات الأصلية - بالإضافة إلى تحدياتها الطبيعية - قد تعرضت لتحديات بشرية صادرة عن تفارقها عن تلك المجتمعات البدائية : وكل ما نستطيع قوله فى هذا الصدد هو أن الدليل التاريخى غير متوافر فى حال من الأحوال - وهذا ما يتوقعه المرء . ومن المحتمل جداً أن حضارتنا الست الأصلية قد جابهت إبان ذلك الماضى السابق للتاريخ الذى يكتنف بدءها ، تحديات بشرية جديدة بالمقارنة - من حيث النوع - بالتحديات التى عرضت للمجتمعات المنتسبة ، نتيجة طغيان الأقليات المسيطرة فى الحضارات التى سبقها .

بيد أن التوسع فى هذا الموضوع أكثر من ذلك يعنى التأمل فى فراغ .

الفصل السادس

فضائل الشدائد^(١)

(١) اختيار أشد دقة

انتهى بنا المطاف إلى نبذ الافتراض الشائع بأن الحضارات تظهر وقما
تهى البيئات ظروفًا للحياة فيها ، سهولة غير مألوفة . وسقنا الدليل على
صحة الرأي المخالف لذلك تمام المخالفة .

وينبعث الرأي الشائع من حقيقة مدارها تسليم باحث حديث في الحضارة
المصرية - ويعتبر اليونانيون القدماء في هذا السياق حديثين مثلنا تماما - بأن
الأرض هي كما صنعها الإنسان ويفترض أنها كانت كذلك عندما وضع
الرواد أيديهم عليها لأول مرة . ولقد حاولنا أن نظهر ما كانت عليه حالة
وادي النيل الأولى الحقيقية وقما وضع الرواد أيديهم عليه لأول مرة ،
بوساطة تصوير حالة طائفة من أجزاء وادي النيل الأعلى كما هي عليه
في الوقت الحاضر . بيد أن هذا الاختلاف في الموقع الجغرافي ربما يكون
قد حال دون جعل تصويرنا مقنعا تماما .

وننوي في الفصل الحالى إثبات صحة رأينا عن طريق ذكر حالات
نجد فيها الحضارة في بادية الأمر ، ثم فشلت بعد ذلك في نفس الموقع .
وارتد البلد - عكس مصر - إلى حالته الأولى .

(٢) أميركا الوسطى

ثمة مثال يلفت النظر ، هو الحالة الراهنة في مهد الحضارة المايانية . نجد

(١) وضع المستر توينبى لهذا الفصل عنوانا باللغة اليونانية القديمة يعنى « الجبل
عبر » أو « جودة الصنع تتطلب عملا شاقا » .

هنا خرائب المباني العامة ذات النقوش الفخمة الضخمة ، التي تنتصب الآن قائمة في غور الغابة المدارية بعيدة جداً عن أية مساكن بشرية . فإن الغابة مثل حية البوا القابضة قد ابتلعت تلك الدور فعلاً وتقوم الآن بهضمها على مهل ، تفتح الأحجار الجيدة الصقل المرصوفة رصاً متلاصقاً ، مستعينة في ذلك بجذورها الملتوية وخيوطها المتسلقة .

إن التناقض بين حالة البلاد الحالية وصورتها التي لا بد وأنها كانت عليها وقتها كانت الحضارة المايانية على قيد الحياة ، من الشدة بحيث أنه يكاد يفوق الخيال ، ولأنه لا بد أن يكون قد أتى زمن كانت فيه هذه الأبنية العامة الفسيحة قائمة في قلب مدن كبيرة تعجّ بالسكان ، وكانت هذه المدن تقع وسط مساحات واسعة من الأرض المزروعة . إن ثمة عبرة أئمة على فناء العمل البشرى وبطلان الرغبات البشرية تتمثل في عودة الغابة ، طاوية الحقول أولاً ثم البيوت وأخيراً القصور والمعابد نفسها . على أن تلك العبرة ليست الأعظم دلالة من بين العبر التي تستخلص من الحالة الراهنة في كوبان^(١) أو تيكال^(٢) أو بالينك^(٣) . وتحدث الخرائب بأفصح لسان عن قسوة الصراع مع البيئة الطبيعية التي لا بد وأن صانعي الحضارة المايانية قد واجهوها في أيامهم . وتشهد الطبيعة المدارية في أخذها بثأرها نفسه الذي يُزيح الستار عنها بكل قوتها البشعة ، بما كان عليه من الشجاعة والصلابة ، الرجال الذين قد نجحوا في وقت ما - ولو إلى حين - في إلزامها على الفرار وعلى البقاء بعيدة عنهم .

(١) Copan قرية في دولة هندوراس في أميركا الوسطى كانت قديماً مدينة عظيمة تتألف خرائبها من معبد وبضعة أهرامات صغيرة . (المترجم)

(٢) Tikal : مدينة مايانية قديمة في شمال جواتيمالا . (المترجم)

(٣) Palenque قرية بالمكسيك تشهد خرائب قصورها بما كانت عليه من عز وسوء . (المترجم)

(٣) سيلان

في سيلان تُسجّل السدود المشدوخة والخزانات التي يُغطي العشب قاعها والتي أُقيمت وقتاً ما على الجانب الممطر من أرض البلاد الجبلية ، على نطاق ضخم بمعرفة أهالي سيلان الذين اعتنقوا فلسفة الهينايانا السندية ؛ تسجّل عملاً مساوياً في مشقته لما سبق أن ذكرناه ، تمثل في إعداد السهول اللافحة للزراعة :

« كى يدرك المرء كيف ظهرت هذه الخزانات إلى الوجود ، عليه أن يعرف شيئاً عن تاريخ لانكا^(١) ، كانت الفكرة الكامنة وراء هذه الخزانات بسيطة لكنها عظيمة جداً . إذ رنا الملوك بناء الخزانات إلى الحيلولة دون وصول ماء الأمطار الذى يسقط على الجبال بهذه الوفرة إلى البحر قبل أن يستفيد الإنسان منه .

« فإذا كانت توجد في وسط النصف الجنوبي من سيلان منطقة جبلية شاسعة إلا أنه في الشرق والشمال ، تُغطي السهول الجذباء آلاف من الأميال المربعة ، وهي الآن قليلة السكان جداً . وثمة خط رسمته الطبيعة تعجز الأمطار عن عبوره خلال ذروة الرياح الموسمية عندما تتدافع كتائب السحب المحملة بالعواصف يوماً بعد يوم لتجربة قوتها ضد الجبال . وهناك مواضع يضيق عندها الخط الفاصل بين المنطقتين - الممطرة والجافة - حتى يُخجل المرء أنه في مسافة ميل واحد ينتقل إلى بلد جديد . وينثنى الخط من بحر إلى بحر ويبدو كما لو كان ثابتاً لم تؤثر فيه الأعمال التي أنجزها الإنسان مثل قطع أشجار الغابات »^(٢) .

(١) Lanka : منطقة في شمال شرق جزيرة سيلان كانت وقتاً ما موطناً لحضارة

مزدعر . ثم أطلق الاسم على الجزيرة كلها . (المترجم)

(٢) ص ٧٤ - ٧٥ : Still, John : The Jungle Tide

على أن مبشرى الحضارة السندية في سيلان ، قد أنجزوا ذات يوم عملاً فريداً ، تجلى في حملهم الهضاب التى ترزح تحت الرياح الموسمية ، على بذل الماء والحياة والثروة للسهول التى قضت الطبيعة عليها بأن تظل محرقة قفرة .

« نظمت السيول الجبلية وسُيّر ماؤها إلى خزانات هائلة مقامة فى أسفل تلك الجبال وبلغت مساحة بعضها أربعة آلاف فدان . وتنساب من هذه الخزانات قنوات تتجه إلى خزانات أكبر من الأولى وأبعد من الجبال ، ومن هذه الأخيرة إلى خزانات ثالثة أبعد منها . وكانت توجد تحت كل خزان كبير وكل جدول كبير ، مئات من الخزانات الصغيرة كل منها نواة قرية . وتتغذى هذه الخزانات جميعها فى نهاية الأمر من منطقة الأمطار الجبلية .

« وبهذه الطريقة سيطر أهل سيلان القدماء على جميع السهول — أو جميعها تقريباً — التى هى الآن خالية من البشر » (١) .

ويُستدل على مشقة العمل الذى استلزمه الاستيلاء على هذه السهول القاحلة بطبيعتها فى سبيل حضارة من صنع الإنسان ، بمظهرين بارزين فى مشهد سيلان الطبيعى فى الوقت الحاضر وهما :

الأول : انتكاس هذه البقعة التى كانت وقتاً ما مروية وكثيفة السكان ، ونحوها إلى جديها البدائى .

الثانى : تركيز زراع الشاى والبن والمطاط الحاليين فى نصف الجزيرة الآخر حيث تهطل الأمطار .

(٤) الصحراء العربية الشمالية

ثمة دليل مشهور إلى حد الابتذال على صحة نظريتنا ، ألا وهو الحالة الحاضرة لمدينتى البتراء وتدمر : مشهد أوحى بسلسلة كاملة من الأبحاث فى

فلسفة التاريخ ابتداء من كتاب « الاطلاع »^(١) تأليف فولني (٢) (١٧٩١) فصاعدا . ونجد اليوم أن هاتين المدينتين اللتين كانتا فيما مضى موطنين للحضارة السورية السالفة ، قد أصبحتا في نفس الحال الذي أصبحت عليه المواطن السالفة للحضارة المايانية ، وإن كانت البيئة المعادية التي ثارت منها هي السبب الأفراسي عوضاً عن الغابة المدارية .

وتحدثنا هذه الأطلال بأن هذه المعابد والأروقة والمدافن المحكمة الصنع — وقتما كانت سليمة البنيان — لا بد وأنها كانت معدة لتجميل مدن كبيرة . وإذا كان الدليل المستمد من الحفريات هو وسيلتنا الوحيدة لرسم صورة عن الحضارة المايانية ، إلا أن هذا الدليل تعززه هنا النصوص المكتوبة الواردة في السجلات التاريخية . إذ أننا نعلم أن رواد الحضارة السورية الذين انتزعوا هاتين المدينتين من الصحراء ، إنما كانوا واقفين على أسرار السحر المشهور به موسى في الروايات السورية .

فكان هؤلاء السحرة يعلمون طريقة استجلاب الماء من الصخر الصلب ، وكيفية الاهتداء إلى طريقهم عبر الفلاة غير المطروقة . وكانت البتراء وتدمر في ريعان ازدهارهما ، تقعان وسط بساتين مروية مثل تلك التي ما تزال تحيط بدمشق . بيدان البتراء وتدمر لم تكونا تعتمدان — كما لا تعتمد دمشق في الوقت الحاضر — في غذائهما اعتماداً كلياً أو حتى جوهرياً على الفواكه التي تغلها واحاتهما ذات الحدود الضيقة ، ولم يكن أغنياؤها من زراع الفواكه والخضر ، لكنهم كانوا تجارا حافظوا على اتصال الواحة

Volney : Les Ruines (١)

هذه هي إحدى الحضارات التي توقفت نموها والتي ستناقش فيما بعد .

(٢) فولني Volney . عالم فرنسي ومصور . ولد عام ١٧٥٧ وتوفي عام ١٨٢٠ . وأهم ما يؤثر عنه رحلته إلى مصر وسوريا وإقامته هناك حوالي الثمانية شهور ، دون خلالها طائفة قيمة من الملاحظات سجلها في مؤلف عنوانه « رحلة إلى مصر وسوريا » ولقد كان هذا المؤلف في طليعة المراجع التي منها استمدت حملة نابليون الكثير من المعلومات التي انتفعت بها . (المترجم)

بالقارة ، بفضل حركة قوافل نشطة تنتقل من نقطة إلى أخرى عبر
ممرات تتناوب طريقها السهب والصحراء . وتكشف حالتها الحاضرة ،
لا عن فوز الصحراء النهائي على الإنسان فحسب ، ولكنها تكشف كذلك
عن مقدار الانتصار الذى أحرزه فيما مضى الإنسان على الصحراء .

(٥) جزيرة إيستر

يمكن أن نستخلص نتيجة مشابهة بشأن بدء الحضارة البولينية^(١) من
حالة جزيرة إيستر فى الوقت الحاضر . فقد كانت هذه الجزيرة النائية الواقعة
جنوب شرق المحيط الهادى وقت كشفها حديثاً ، مسكونة بعنصرين :
عنصر من لحم ودم ، وعنصر من حجر . أى سكانها الأصليون ذوو الشكل
البولينيزى الظاهر بجلاء ، وسكان من التماثيل متقنة الصنع . ولقد كان سكان
الجزيرة الأحياء إبان الجيل الذى كشفت فيه الجزيرة ، يجهلون فن نحت
تماثيل مثل هذه ، ولا علم لهم بالملاحة حتى يعبروا مسافة ألف ميل فى عرض
البحار التى تفصل جزيرة إيستر عن أقرب أخت لها من جزائر الأرخيل
البولينيزى . ولقد ظلت الجزيرة قبل كشف البحارة الأوربيين لها منزلة
عن بقية العالم فترة من الزمن غير معلومة . إلا أن سكانها من النوعين من
اللحم والحجر يشهدون بنفس الوضوح الذى تشهد به أطلال تدمر أو كوبان ،
بماض زال وانقضى ، لا بد وأنه كان يختلف عن الحاضر اختلافاً تاماً .

لا بد وأن هؤلاء البشر قد أنجبوا ، وأن هذه التماثيل قد نحتت بمعرفة
ملاحين بولينيزيين شقوا طريقهم فى زمن ما عبر المحيط الهادى فى زوارق
مفتوحة واهية ، دون الاستعانة بخريطة أو بوصلة . ويكاد يكون من المستحيل
أن تكون هذه الرحلة مغامرة مفردة جلبت حمولة قارب واحد من الرواد
إلى جزيرة إيستر بفضل ضربة حظ لم تتكرر . فإن السكان من التماثيل من

(١) هذه هى إحدى الحضارات التى توقفت نموها والتى ستناقش فيما بعد .

الكثرة بحيث لا بد وأن إنتاجها قد اقتضى أجيالا عدة . وبدل كل شيء على انقضاء وقت كانت الملاحه تتم فيه بانتظام عبر تلك الأميال الألف في عرض البحر ، طوال فترة طويلة من الزمن .

وأخيراً أطبق البحر الذى عبره الإنسان بنجاح وقتنا ما ، على جزيرة إيستر على غرار ما أطبقت الصحراء على مدينة تدمر ، والغابة على مدينة كوبان . أما عن الرجال من الحجر مثل التمثال الوارد ذكره في قصيدة هوسمان^(١) فقد سلكت مسلك الحجر . أما الناس اللحم والدم ، فقد أخذوا - الجيل تلو الجيل - ينجبون نسلا أكثر فظاظة وأشد قسوراً .

لا ريب أن دلالة جزيرة إيستر تناقض على طول الخط ، النظرة الغربية الشائعة عن جزائر البحر الجنوبي باعتبارها جنة أرضية وسكانها أطفال الطبيعة ، في الحالة التى كان عليها آدم وحواء قبل سقوطهما . ونشأت تلك الفكرة الخاطئة نتيجة لافتراض أن قسما من البيئة البوليزية هو المجموعة كلها . وتتكون البيئة الطبيعية في الواقع من المياه والأرض كليهما :

فالياه تمثل تحديا جسيما لأية كائنات بشرية تسعى إلى عبورها من غير أن تستحوز على أية وسيلة خير من تلك التى كانت في متناول البوليزيين ، وإذا كان الرواد قد فازوا بوضع أقدامهم على بقاع الأرض الجافة المتناثرة على إلتيه المائى الواسع في المحيط الهادى ، تناثراً يكاد يشبه تناثر النجوم في الفضاء ، إنما كان ذلك بفضل استجابتهم الجريئة الناجحة لتحدى البحر المالح المغرق ، محققين بذلك عملا فريداً يتمثل في حركة ملاحه بحرية منتظمة بين الجزيرة والجزيرة .

(١) هوسمان ، لورانس : شاعر إنجليزى ولد عام ١٨٦٥ . ومن رواياته : النمر الأزرق ، جون جنتالو . كما ألف عدة مسرحيات أشهرها وفاة أورفيوس ، وأخرج ديوانا من الشعر عام ١٩٣٨ . (المترجم)

(٦) إنجلترا الجديدة

قبل اختتام هذا العرض للانتكاسات إلى حالة الطبيعة ، يستطيع الكاتب أن يسمح لنفسه بأن يستشهد بمثالين : يخرج أولهما عن الموضوع ، ويتسم الآخر بالوضوح الشديد . وتصادف وقوع كليهما تحت ملاحظته الشخصية :

ففي ذات يوم كنت أنجول في ناحية ريفية من ولاية كونيكنتكت في إنجلترا الجديدة^(١) عندما أشرفتُ على قرية مهجورة - وهو منظر ليس بغريب في هذه الأنحاء كما قيل لي - إلا أنه مع ذلك منظر يثير العجب والحيرة في الأوربي . فإلى مدة قرنين تقريباً ، ربما كانت تاون هيل ، - وهذا اسم القرية - تنتصب هي وكنيستها ذات الطراز الجورجي المبنية بالألواح الخشبية وسط ساحة القرية الخضراء وأكواخها وبساتينها وحقول قمحها . وما تزال الكنيسة منتصبة قائمة محافظ عليها كأثر تاريخي ، لكن المنازل قد زالت واستحالت أشجار الفاكهة إلى أشجار برية ، واختفت حقول القمح .

ففي غضون المائة سنة الأخيرة ، قام سكان إنجلترا الجديدة هؤلاء بدور لا يتفق مع عددهم لانتزاع القارة الأمريكية بأجمعها - من الأطلسي إلى الهادى - من الطبيعة البرية . بيد أنهم سمحوا للطبيعة - في نفس الوقت - باسترداد هذه القرية الواقعة في قلب موطنهم ، حيث عاش أجدادهم حوالى مائتى سنة . وتبدى بكل جلاء السرعة والشمول والسهولة التي استطاعت بها الطبيعة استعادة سلطانها على تاون هيل بمجرد أن خفت قبضة الإنسان عنها ، مدى الجهود التي بذلها الإنسان فيما مضى لترويض هذه الأرض القاحلة .

(١) في الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي الواقع ما كان يكفي لتحقيق « الفوز بالغرب » إلا همة لا تقل في شدتها عن تلك الهمة التي استلزمها السيطرة على تاون هيل . وإن منظر المدينة القفر لدليل يذكرنا على أن قيام المدن الفطرية مثل : أوهيو ، وإيلينوى ، وكولورادو ، وكاليفورنيا ، كان في ذاته شيئاً خارقاً للعادة .

(٧) السهل الرومانى^(١)

إن الأثر الذى أحدثته في نفسى تاون هيل قد أحدثته في نفس ليفى^(٢) ما يعرف بالسهل الرومانى . إذ أخذه العجب من أن عشيرة لا تُحصى من المزارعين المحاربين كانت تعيش وقتاً ما في منطقة أصبحت في عهده كما هي في عهدنا^(٣) فلاة موحشة قاحلة ومستنقع أخضر يجلب الحمى .

وتمثل هذه الحالة المتأخرة الحالة الأولى للمشهد الطبيعى الخفيف الذى استحال في وقت ما بفضل الرواد اللاتين والبوليسيين^(٤) إلى ريف عامر بالسكان والحقول المزروعة . وكانت الهمة التي استنفدتها عملية السيطرة على هذه المساحة الضيقة من الأرض الإيطالية القاسية ، هي نفس الهمة التي غزت العالم فيما بعد من مصر إلى بريطانيا .

(١) The Roman Campagna منطقة إيطالية كانت إلى عهد قريب موحشة تمتد على طول البحر التيرانى . (المترجم)

(٢) هو المؤرخ الرومانى Titus Livius (٥٩ ق م . - ١٧ ب م) والكتاب عن تاريخ روما منذ نشأتها الأسطورية حتى زمن دروسوس عام ٩ ق . ويقع الكتاب في ١٤٢ جزءاً لم يتبق منه سوى ٣٥ جزء . (المترجم)

(٣) يذكر المستر سومرفيل الذى قام بتلخيص كتاب المؤلف أن المنطقة لم تمد كما وصفها هنا المستر توينبى ، إذ أمكن حكومة موسولينى استصلاح هذه المنطقة للإنسان .

(٤) Volsci شعب إيطالى قديم كان يعيش على جانبى ليريس . وكان في حرب مع أهالى روما التي أخضعتهم لها فأصبحوا مواطنين رومانين منذ عام ٣٠٤ ق م . (المترجم)

(٨) كابوا الغادرة^(١)

أما وقد درسنا طابع طائفة من البيئات التي كانت فعلا مشاهد لبدء الحضارات أو غيرها من آيات المآثر الإنسانية ، ووجدنا أن الملاحظات التي هيأتها للإنسان لم تكن سهلة ، بل كانت بالأحرى على عكس ذلك . فلننتقل إلى دراسة تكميلية ، ولنفحص طائفة من البيئات الأخرى التي كانت فيها الأحوال المتاحة يسيرة . وندرس أثر مثل هذه البيئات على الحياة البشرية . وفي محاولتنا القيام بهذه الدراسة ، يجب أن نفرق بين حالتين :

الأولى : حالة يتعرض فيها الناس لبيئة سهلة بعد مقامهم في بيئة صعبة .

الثانية : حالة أناس في بيئة سهلة ولم يسبق لهم — إلى مدى علم المرء — التعرض قط لأية بيئة أخرى منذ أن تحول الذين كانوا أجدادهم قبل البشرية ، إلى بشر .

وبعبارة أخرى ، علينا أن نميز بين تأثير بيئة سهلة في إنسان في حالة تطور نحو الحضارة وفي إنسان بدائي .

ففي إيطاليا القديمة وجدت روما نقيضها في كابوا . إذ كان سهل كابوا بالإنسان رحيا ، بقدر ما كان سهل روما قاسيا . وبينما خرج الرومان من أرضهم الخيفة يغزون الجار بعد الجار ، ظل أهل كابوا في موطنهم ساحجين بأن يغزوهم الجار بعد الجار . وأنقذت كابوا من آخر غزاتها — السمينيين^(٢) —

(١) *Perfida Capua* كابوا مدينة إيطالية على بعد ١٧ ميلا من نابلي . وتمتاز الأراضي التي حولها بالخصوبة وإنتاجها من الفاكهة . وقد استولى عليها هانيبال عام ٢١٦ ق . م . ثم استعادها الرومان بعد ذلك بأربع سنوات . وتعتبر أطاها من أقدم مثيلاتها في إيطاليا . (المترجم)

(٢) *Samnites* سكان مقاطعة *Samnium* في إيطاليا القديمة . وفي سنة ٢٩٠ ق . م . غزتها روما ثم استعادت استقلالها ، وظلت الحرب سجالا بينها وبين روما حتى اجتاحتها الأخيرة عام ٨٢ ق . م . (المترجم)

بفضل تدخل روما نفسها بناء على رجائها هي . بيد أن كابوا جازت روما على صنعها جزاء سنار ، إذ جاءت في أخرج لحظة لأخرج حرب في التاريخ الروماني ، غداة موقعة كاناي^(١) وفتحت أبوابها لهانيبال . وكانت روما وهانيبال متفقين في الرأي القائل بأن انتقال كابوا من صف إلى صف ، أعظم نتائج المعركة أهمية ، وربما الحدث الحاسم في الحرب . ولقد ذهب هانيبال إلى كابوا ، واتخذها مقراً خلال الشتاء . وحينذاك حدث شيء خلف جميع الظنون ، إذ كان قضاء شتاء واحد في كابوا كافياً لهدم الروح المعنوية في جيش هانيبال ، إلى درجة لم يعد قط نفس أداة النصر مرة أخرى .

(٩) نصيحة أرتيمبيرس

أورد هيرودوتس قصة تتفق إلى حد كبير جداً مع وجهة النظر الواردة في هذا البحث فقد أتى شخص يدعى أرتيمبيرس وأصداقاه إلى قورش وقدموا إليه الاقتراح التالي :

« الآن وقد خلع زيوس استياجس^(٢) من على عرشه ومنح السلطان للفارسيين كآمة ولك أنت يا مولاي كفرد . فلم لا نهاجر من هذه الأرض الصخرية الضيقة التي نملكها في الوقت الحاضر ونحتل أخرى خيراً منها ؟ إن هنالك أراضى كثيرة قريبة وفي متناول اليد ، وأكثر منها على مسافة منها ، وما علينا إلا تحديد اختيارنا لكي نؤثر في العالم تأثيراً أعظم مما نفعله بوضعنا الحاضر . هذه سياسة خليقة بشعب إمبراطورى ، ولن تقيض لنا

(١) كاناي Cannae مدينة في جنوب إيطاليا كانت مسرحاً لأعظم معركة حربية في التاريخ الروماني والتي سحق فيها هانيبال الجيش الروماني عام ٢١٦ ق . م . (المترجم)
(٢) استياجس Astyages هو جد قورش . وكانا يعيشان في وئام ، إل أن رأى الجد في المنام أن حفيده يسمى إلى القضاء عليه . فعمل على الإطاحة به ، لكن الحفيد خلع جده عن الحكم وتولاه هو عوضاً عنه . (المترجم)

مناسبة لتحقيقها خيراً من الآن . بعد أن بسطنا سلطاننا على عدد هائل من السكان وعلى قارة آسيا بأسرها .

واستمع قورش لهذا الحديث دون أن يؤثر فيه ، ثم قال للملتصقين أن يفعلوا ما يشاءون ، لكنه أكل نصيحته بقوله في نفس واحدة ، أن يوطنوا أنفسهم على أن يضعوا أنفسهم في مراكز رعاياهم وأخبرهم أن البلاد اللينة تنجب حتماً رجالاً لينين^(١) .

(١٠) الأوديسية والخروج^(٢)

إذا ولينا وجهنا شطر مآثر الأدب القديم وهي أكثر شهرة من تاريخ هيرودوتس ، ألفينا أن السيكلويس^(٣) وغيره من الكائنات العدوانية الضارية ، كانت أقل خطراً على أوديسوس^(٤) من الساحرات الفاتئات اللاتي دعينه إلى حياة سهلة مثل سيرس^(٥) التي كان كرم ضيافتها يقوده إلى حظيرة الخنازير ، وآكلي اللوتس^(٦) الذين كان الوقت دائماً في بلادهم « بعد الظهر » والخوريات السيريديات^(٧) اللاتي أدى الخوف من أصواتهن الجذابة بعوليس إلى سد آذان

(١) هيرودوتس : الكتاب التاسع صفحة ١٢٢ .

(٢) أي خروج بني إسرائيل من مصر .

(٣) سيكلويس Cyclops جبار خرافي بعين واحدة يقال إنه كان يعيش في ليبيا .

(المترجم)

(٤) أوديسوس Odysseus أو عوايس Ulysses هو بطل الأوديسية ملحمة هومر الخالدة . وقد أضى عليه الشاعر صفات الجرأة وصفاء الذهن والقدرة على حل المشكلات .

(المترجم)

(٥) سيرس Circe هي الساحرة التي يحلو لها إغراء الرجال فإذا استجابوا لها سحرتهم خنازير .

(المترجم)

(٦) ذكر هومر في الأوديسية أن آكلي اللوتس قوم يعيشون على فاكهة تلك الشجرة فلا يملكون أو يرهقون أنفسهم في سبيل العيش . ولقد أصبح هذا التعبير علماً على الكسل والبلادة .

(المترجم)

(٧) سيرين Sirens حوريات بحريات في الأساطير اليونانية نصفهن آدمى والنصف الآخر سمك ؛ وكن يستلمن البحارة بالغناء العذب . فيتبع البحارة الغناء فتحطم المراكب على الصخور .

(المترجم)

بجارته بالشمع ورجاهم بأن يقيدوه في صارى المركب ؛ وكاليسو^(١) ذات
الجمال الإلهي التي كانت أفن من بنلوب^(٢) ولكنها لقسوتها أقل منها جدارة
لتكون شريكة حياة الإنسان الفاني .

أما بالنسبة للإسرائيليين الوارد ذكرهم في سفر الخروج ، فإن كتاب
الأسفار الخمسة الصارمين لم يُشيروا إلى أمثال السيرينيات أو سيرس
يضلونهم . لكننا نقرأ أنهم كانوا يشتمون باستمرار قدور اللحم في مصر .
فلو كانوا قد اتبعوا هوى أنفسهم ، لما قُبِضَ لهم لإنتاج التاريخ الذي سجله العهد
القديم^(٣) . ولكن كان موسى لحسن الحظ ينتمى إلى نفس مدرسة
قورش الفكرية .

(١١) أمة افعل ما تشاء^(٤)

قد يدعى ناقد بأن الأمثلة التي سقناها ليست مقنعة تماما . وسيقول
بكل تأكيد إن أناسا يتحولون من أحوال معيشية شاقة إلى أخرى هينة ،
مقدر لهم الفساد مثل رجل يتصور جوعا ، يحشو بطنه بوجبة كاملة . أما
أولئك الذين ألفوا التمتع بالأحوال السهلة طوال الوقت ، فمن المتوقع أن
يستفيدوا من هذه الأحوال على أحسن وجه . وللدرد على هذا الاعتراض
علينا أن ننقل إلى الحالة الثانية من الحالتين اللتين ميزناهما فيما سلف ،
حالة أناس في بيئة سهلة ولم يسبق — إلى مدى علم المرء — وجودهم في
بيئة أخرى . ففي هذا الظرف يُستبعد العامل المحل وهو الانتقال . ويصبح
في مقدورنا دراسة أثر الأحوال السهلة في حالتها المطلقة .

(١) كاليسو Calypso هي أخت أطلس التي يذكر «ومر عنها أنه عندما تحطمت
سفينة عوليس على جزيرتها استضافته ووعده بأن تمنحه الخلود إن تزوجها . واحتجزته سبع
سنوات وأنجبت منه ولدين . لكن الشوق إلى عائلته دفعه إلى هجرها فهانت حزناً وكداً .
(المترجم)

(٢) بنلوب هي زوجة عوليس . (المترجم)

(٣) أي التوراة .

(٤) وردت في الأصل الإنجليزي The Dasyoulikes كلمة تجمع عبارات
Do As You Like أي أمة تخلو من القيود والنظم . (المترجم)

وفيا إلى صورة أصيلة لها من نياسالاند كما شاهدها مراقب غربي من نصف قرن مضى :

« تختفي قرى الوطنيين الصغيرة بعيدا في هذه الغابات اللانهائية مثل أعشاش الطيور في الدغل ، ترهب إحداها الأخرى وتحشى عدوها المشترك تاجر الرقيق . ويسكن هنا الإنسان البدائي في ظل هذه البساطة العذرية ، من غير ملابس ، ولا حضارة ولا تعليم ، ولا دين . إنه طفل الطبيعة الحقيقي ، لا فكر لديه ولا هم ، لكنه راض ، وتبدو سعادته كاملة . ليست لديه أية احتياجات تقريبا . كثيراً ما يلام الإفريقي على نزوعه إلى الكسل ، إلا أن في ذلك سوء استخدام للألفاظ . فإنه لا يحتاج إلى العمل ، ومن ثم فإن تراخيه كما يقال هو جزء من شخصيته فعلا مثل أنفه المفرطحة ، ولا يستحق عليه أى لوم . . مثله مثل البطء في السلحفاه^(١) » .

ولقد كتب تشاربلس كنجزلى هذا الرجل الفيكتوري المنتصر للحياة الشاقة والذي أثر الريح الشمالية الشرقية على الريح الجنوبية الغربية ، قصة صغيرة تدعى « تاريخ أمة افعل ما تشاء العظيمة المشهورة » تلك الأمة التي وفدت من بلد « العمل الشاق » لأن أفرادها رغبوا في العزف على العود طوال اليوم ، فكان جزاؤهم مسخهم قردة .

ومن الطريف أن نلاحظ الموقفين المختلفين اللذين اتخذهما تجاه آكلي اللوتس كل من الشاعر الهليني والواعظ الغربي الحديث . فأكلوا اللوتس وأرضهم التي تنتج اللوتس ، شيء جذاب إلى أبعد الحدود ، عند الشاعر الهليني . فهو شرك نصبه إبليس في طريق اليوناني ناشر الحضارة . في حين أن كنجزلى يتخذ الموقف البريطاني الحديث تجاه أمة « افعل ما تحب » إذ ينظر إليها باستنكار كله ازدراء يدل على أنه محصن ضد مغرياتهما ، وهو يؤمن بأن ضم تلك الأمة إلى الإمبراطورية البريطانية واجب حتمى ،

(١) ص ٥٥ - ٥٦ ، Drummond, H. Tropical Africa.

لا لفائدتنا^(١) طبعاً ولكن لمنفعتهم هم . على أن يزودوا بالسراويل ونسخ
من التوراة !!

ليست مهمتنا هي الموافقة أو عدم الموافقة ولكنها الفهم . فإن المغزى
موجود في فصول سفر التكوين الأولى ، وهي أن ذرية آدم وحواء لم
تشرع في اختراع الزراعة والتعدين والآلات الموسيقية إلا بعد طردهما من
أرض اللوتس في جنة عدن :

(١) أى فائدة البريطانيين . (المترجم)

الفصل السابع

تحدى البيئة

(١) الحافز فى البلاد الصعبة

١ - خطوط الاستقصاء :

عسانا نكون الآن قد أثبتنا صحة القول بأن السهولة عدو الحضارة ؛ فهل فى مكنتنا أن نخطو خطوة أبعد ؟ هل نستطيع القول بأن الحافز نحو الحضارة تزداد قوته فعلا كلما ازدادت البيئة صعوبة ؟

فلنفحص الدليل الذى يؤيد هذه النظرية . ثم نلوه بالحجة ضدها ، ونتطلع إلى النتيجة التى تستخلص من كل ذلك .

لا يصعب العثور على دليل يبين أن الصعوبة والحافز فى بيئة معينة يزعمان إلى الازدياد بدرجة مماثلة^(١) بل يُحتمل على الأرجح أن تربطنا غزارة الشواهد التى تطفرف إلى الذهن . وتأتى معظم هذه الأدلة فى شكل مقارنات .

فلنبداً بتقسيم أدلتنا إلى مجموعتين تنسب نقاط المقارنة فىهما إلى البيئة الطبيعية والبيئة البشرية ، على التوالى . ولنتأمل قبل كل شىء فى المجموعة الطبيعية . إنها تنقسم إلى فئتين :

أولاً : مقارنات بين النتائج المنبهة لكل بيئة من البيئات الطبيعية التى تمثل درجات مختلفة من المشقة .

ثانياً : مقارنات بين النتائج المنبهة لكل من الأرض القديمة والأرض الجديدة . بصرف النظر عن الطبيعة الجوهرية للمنطقة فى حد ذاتها .

٢ - النهر الأصفر واليانجتسى :

لنتأمل - كمثال أول - فى الدرجات المختلفة للمشقة التى يقدمها الوديان
الأدنيان لنهرى الصين العظيمين :

يبدو أنه عندما سيطر الإنسان للمرة الأولى على الفوضى المائية للوادى
الأدنى للنهر الأصفر (هوانج هو) ، لم يكن النهر صالحاً للملاحة فى أى
فصل . إذ كان خلال الشتاء متجمداً أو غاصاً بالثلج العائم . وكان ذوبان
الثلوج فى الربيع يحدث فيضانات مدمرة تُغيّر باستمرار خط سير
النهر عن طريق نحت مسالك جديدة له ، بينما تستحيل المسالك القديمة إلى
مستنقعات تغطيها الأدغال . بل إنه اليوم - بعد انقضاء ثلاثة أو أربعة
آلاف سنة من الجهد البشرى لتصريف المستنقعات وحصر النهر فى نطاق
جسور ؛ لم يتأت بعد التخلص من فعل الفيضانات المدمرة . وإلى وقت
حديث فى عام ١٨٥٢ ، حدث أن غير « الهوانج هو » طريقه كلية فانتقل
مصبه فى البحر من الناحية الجنوبية إلى الناحية الشمالية لشبه جزيرة شانتونج ،
أى مسافة تربى على المائة ميل .

أما اليانجتسى من الجهة الأخرى ، فلا بد وإنه كان صالحاً للملاحة
فى جميع الفصول ، وفيضاناته أقل تكراراً من فيضانات النهر الأصفر ،
وإن اتخذت الفينة بعد الأخرى طابعاً مدمراً . كما أن فصول الشتاء فى وادى
اليانجتسى أقل عنفاً .

ورغماً عن ذلك ، انبعثت الحضارة الصينية على النهر الأصفر ،
لأعلى اليانجتسى .

٣- آتيكا وبويثيا^(١) :

إن أى مسافر يدخل اليونان أو يغادرها - لا بطريق البحر ولكن عبر الممر البرى الشمالى المتصل بالقارة الأوروبية - لابد وأن تلفت نظره حقيقة ميناها أن موطن الحضارة الهيلينية صخرى و « بادية العظام » و « شاق » أكثر مما هى عليه الأراضي الشمالية التى لم تُنجب قط حضارة خاصة بها . كما تُمكن ملاحظة اختلافات مماثلة فى نطاق منطقة بحر إيجه نفسها .

فإذا سافر إنسان - مثلاً - بالقطار من أثينا على طول السكة الحديدية التى تقوده فى النهاية إلى أوروبا الوسطى عبر سالونيك ؛ مر فى المرحلة الأولى من رحلته بريف منبسط يتكشف للمسافر الآتى من غرب أوروبا أو وسطها ، لوحة سابقة للمنظر العام الذى اعتاده فى بلاده . وبعد أن يمضى القطار بضعة ساعات وهو يتسلق ببطء ، يلتف حول المنحدرات الشرقية لجبل بارنيس عبر منظر طبيعى يمثل طراز بحر إيجه أصدق تمثيل . ففيه الأشجار الصنوبرية التى توقفت عن النمو ، والأحجار الجيرية المدببة البارزة ؛ عندئذ تستولى الدهشة على المسافر إذ يجد نفسه بعد ذلك مدفوعاً فى السير إلى أسفل ، نحو بلد أراضيه سهول زراعية واطئة عميقة التربة وذات تموج لطيف . وفى الحق يُعتبر هذا المنظر الطبيعى « شذوذاً » . إذ لن يجد مرة أخرى له نظيراً إلى أن يغادر مدينة نيش وينحدر على طول نهر مورافا إلى الدانوب الأوسط .

فما هو الاسم الذى أطلق على هذه القطعة الاستثنائية من الأراضي خلال قيام الحضارة الهيلينية ؟

إنها كانت تدعى بويثيا . وكان لصفة « بويثى » مدلول مميز خاص فى

(١) آتيكا Attica هى إحدى المقاطعات اليونانية القديمة وعاصمتها أثينا . وتحد شمالاً بويثيا وغرباً بميجارس وجنوباً ببحر إيجه . أما بويثيا Boeotia فكانت كذلك ولاية يونانية قديمة محصورة بين الجبال وتمتد من لأكريس وقوسيس شمالاً وآتيكا جنوباً وعاصمتها مدينة طيبة . واشتهر سكانها بالخشونة والفظاظة حتى أصبح اسم المقاطعة علماً على الجهل والغباء الأصيل . (المترجم)

الأذهان وأصبحت تمثل عقلية فظة فديمة عديمة الإحساس والخيال ، وحشية بعيدة عن التجانس مع عبقرية الثقافة الهلينية السائدة . وثمة أمر أبرز هذا التباين وهو أن آتيكا « أو » يونان اليونان ^(١) — أى البلد الذى كانت عقليته هى خلاصة الهلينية — تقع توأ إلى الخلف من سلسلة جبال سيثيرون ^(٢) وحول ركن جبل البارنيس مباشرة حيث يلتف اليوم خط السكة الحديدية . ويقع خدأ على خد مع البلد الذى أثرت فطرته فى الأحاسيس الهلينية العادية مثل تأثير نعمة نشاز فى لحن جميل . ولقد لخص التباين فى عبارتين لاذعتين « خنزير بويثى » و « ملح آتيكى » .

إن النقطة المهمة فى دراستنا الحاضرة مدارها أن هذا التباين الثقافى ذاته الذى أثر تأثيراً على هذا الجانب من العمق على الوعى الهائى ، قد طابق جغرافياً ، تبايناً مقابلاً له ومثيراً للعجب ؛ هو بالمثل فى البيئة الطبيعية . فإن آتيكا لم تكن « يونان اليونان » فى القيم الروحية فسحب ، ولكن فى شكلها الطبيعى أيضاً . فوضعها بالمقارنة لبلاد بحر إيجه الأخرى ، مثل وضع تلك البلاد بالنسبة إلى المناطق الواقعة خلفها . فإذا اقتربت من ناحية الغرب ودخلتها عن طريق خليج كورنثيوس ، فإنك لتطرى نفسك إذ ترى أنك قد اعتدت على المنظر الطبيعى اليونانى الجميل وعلى وحشته فى الوقت نفسه ، قبل أن تخفيه الضفاف الشبيهة بالصخور لقناة كورينث العميقة . بيد أنه عندما تدخل سفينتك خليج سارونيك ، قد تصدمك من جديد صرامة المنظر الطبيعى ، لأن المشهد فى الجانب الآخر من البرزخ لم يعد منك « إعداداً كافياً » لتوقعه . وتصل هذه الصرامة ذروتها عندما تدور حول ركن سلاميس وترى آتيكا تمتد أمام ناظريك . وفى آتيكا — بسبب تربتها الصخرية والخفيفة خفة غير عادية — فإن العملية المسماة بالتعرية التى نزع لحى الجبال عن عظامها وألقت به فى البحر — وهو ما سلمت منه بويثيا حتى يومنا هذا — كانت

Hellas of Hellas (١)

(٢) سلسلة جبال تقع فى آتيكا باليونان وأعلى نقطة فيها جبل الآتيا . (المترجم)

قد انتهت فعلا في زمن أفلاطون كما يُثبب ذلك وصفه الدقيق الذي أورده بشأنها في مؤلفه المسمى كريتياس .

ما الذي فعله الآثينيون ببلادهم الفقيرة ؟

نعلم أنهم قاموا بالأعمال التي جعلت أثينا « معلمة هيلاس » . فإنه عندما أحلت مراعى آتيكا وبارت مزارعها ، تحول شعبها من تربية الماشية وزراعة الحبوب - المهنتان الأساسيتان في اليونان في ذلك الوقت - إلى أعمال مبتكرة غدت علما عليهم وهي : زراعة الزيتون واستغلال باطن الأرض . ولم تقتصر شجرة أثينا المباركة على البقاء على قيد الحياة ، لكنها ترعرعت على الصخرة الجرداء . لكن الإنسان لا يستطيع العيش على زيت الزيتون وحده . فاقضى الحال أن يقايض الأثيني محصوله من زيت آتيكا بالقمح الأسقوذى^(١) . ليستطيع كسب عيشه من بساتين الزيتون . وتطلب عرض زيتيه في السوق الأسقوذى وضعه في جرار وشحنه عبر البحار . وتلك ضروب من النشاط أبرزت إلى الوجود فخار آتيكا ، وبحريتها التجارية .

ولما كانت التجارة تتطلب النقود استغلت مناجم الفضة فيها أيضاً .

ولم تكن هذه الثروات سوى الأساس الاقتصادي للثقافة السياسية والفنية والفكرية التي جعلت أثينا « معلمة هيلاس » كما جعلت « ماح آتيكا » نقيض الحيوانية البويثية . وترتب على ذلك : في المستوى السياسي ، الإمبراطورية الأثينية ؛ وفي المستوى الفني ، هيأ رواج صناعة الفخار ، لرسام الزهرية الآتيكي فرصة ابتداء نمط جديد من الجمال فن بعد انقضاء ألفى سنة الشاعر الإنجليزى كيتس : بينما أدى انقراض غابات آتيكا بالمهندسين الأثينيين إلى أن يستخدموها في أعمالهم الحجر عوضاً عن الخشب ، فقاد هذا إلى تشييد البارثينون .

(١) نسبة إل اسقوثيا وهي جنوب روسيا حالياً . (المترجم)

٤ - بيزنطة وكالشيدون^(١) :

يعرض اتساع نطاق العالم الهليني الذى ذكرنا سببه فى الفصل الأول ؛ مثلاً هليسيا آخر لنظريتنا ألا وهو التباين بين المستعمرتين اليونانيتين : كالشيدون وبيزنطة اللتين أنشئتا عند مدخل البسفور من بحر مرمرة . الأولى على الساحل الآسيوى ، والثانية على الساحل الأوروبى .

ويحدثنا هيرودوتس - بعد مضى قرن أو نحوه من إنشاء المدينتين - أن الحاكم الفارسى مجابازوس « ابتدع عبارة مأثورة واثته شهرة خالدة عند يونانى الدردنيل . فقد سمع وهو فى بيزنطة أن أهالى كالشيدون قد شيدوا مدينتهم قبل أن ينشئ البيزنطيون مدينتهم بسبعة عشر عاماً ، فعلق حين بلغه ذلك بقوله : (إذا لا بد وأن الكالشيدونيين كانوا عمياناً طوال ذلك الوقت) ويعنى أنهم لا بد قد كانوا عمياناً إذ اختاروا الموقع السيئ بينما كان الموقع الأفضل فى متناولهم^(٢) » .

بيد أنه من اليسير أن يكون المرء حكيمًا بعد وقوع الواقعة . ففى عصر مجابازوس (وقت الغزوات الفارسية لليونان) ؛ كان مصير كل من المدينتين قد تكشف . فكانت كالشيدون لا تزال وقتئذ مستعمرة زراعية عادية كما أرادت دائماً أن تكون . ومن الناحية الزراعية كان موقعها ولا يزال أفضل بكثير جداً من موقع بيزنطة . ولقد وفد البيزنطيون مؤخراً فحصلوا على الفضلات ، وقد فشلوا كجماعة زراعية ، ولعل فشلهم يرجع إلى إغارات برابرة تراقيا المستعمرة عليهم . لكن البيزنطيين قد وقعوا مصادفة على منجم ذهبى يتمثل فى مينايمهم « القرن الذهبى » . إذ ثبتت موافقة التيار الذى يأتى من البسفور لأية سفينة تقصد القرن الذهبى من أى الناحيتين .

(١) Calchedon تدمى الآن كاديكوى . مدينة قديمة تواجه بيزنطة على البسفور . وبيزنطة هى أستامبول الحالية . (المترجم)
 (٢) هيرودوتس : الكتاب الرابع فصل ١٤٤ .

ولقد أوضح بوليبيس ذلك فيما كتبه في القرن الثاني ق. م. أى بعد حوالى خمسمائة سنة من تشييد المستعمرة اليونانية ، وقبل خمسمائة سنة تقريباً من رفعها — بعد تسميتها القسطنطينية — إلى مستوى عاصمة إمبراطورية ، إذ يقول :

« تشغل بيزنطة موقعاً يفوق كثيراً من ناحيتي السلامة والرخاء كليهما ، كافة مواقع العالم الهليني المواجهة للبحر . كما لا يتفوق عليه بحال ، أى موقع آخر من المواقع المواجهة للبر . فن ناحية البحر ، تتحكم بيزنطة في مدخل البحر الأسود تحكماً مطلقاً بحيث أنه يستحيل على أية سفينة أن تعبره سواء كانت داخلة أو خارجة ، ضد إرادة البزنطيين » (١) .

على أن مجابازوس قد كفل بعبارته المأثورة لنفسه شهرة بالفطنة يكاد لا يستحق منها شيئاً . إذ لا توجد شبهة شك في أنه لو كان المستعمرون الذين احتلوا بيزنطة قد وصلوا قبل ذلك بعشرين سنة لاختساروا موقع كالشيدون الخالى وقتئذ . ولو كانت غارات التراقيين أقل عرقلة لجهودهم الزراعية ، لربما كانوا أقل ميلاً إلى تنمية إمكانيات موقعهم التجارية .

هـ — الإسرائيليون والفينيقيون والفلسطينيون :

إذا انتقلنا الآن من التاريخ الهليني إلى التاريخ السورى ، سنجد عناصر السكان المختلفة التى وفدت إلى سوريا أو استطاعت مقاومة الغزو فى العصر الذى تلا الزوح المينوى ، قد ميزت نفسها بعد ذلك إلى درجة تتناسب تناسباً وثيقاً مع المشقة النسبية للبيئة الطبيعية فى مختلف المناطق التى تصادف واتخذوها موطناً .

ولم يكن آراميو^(٢) نهري آبان^(٣) Abana وفاربار Pharpar نهري

(١) بوليبيس : الكتاب الرابع الفصل ٣٨ .

(٢) نسبة إلى آراميا Aramaea وهى كلمة معناها اللغوى الأرض العالية ، ويقصد بها اصطلاحاً البلاد الواقعة شمال شرق فلسطين . وقد ضمت داخل حدودها : سوريا وبابل وما بين النهرين وكانت لغتها الآرامية وهى فرع من اللغات السامية . (المترجم)

(٣) آتانا أو آبانأ نهر بدشق ورد ذكره فى التوراة ويدعى الآن بردى . (المترجم)

دمشق ، هم الذين أخذوا زمام القيادة في النهوض بالمدينة السورية ؛
ولا أولئك الآرميون الآخرون الذين استقروا على نهر العاصي حيث أنشئت
الأسرة السلوقية^(١) Sellucidae الملكية الإغريقية بعد ذلك بوقت بعيد
عاصمة لها في أنطاكية ؛ ولاتلك القبائل الإسرائيلية التي توقفت شرق الأردن
لتسعين العجول التي نهبوا من أرض باشان^(٢) في مراعي جلعاد الرقيقة^(٣) .
كما أنه جدير بالملاحظة فوق هذا كله ، أن صدارة العالم السورى لم تكن
لأولئك المهاجرين من بحر إيجه الذين وفدوا إلى سوريا ، لا كبرابرة ، ولكن
باعتبارهم ورثة الحضارة المينوية : فاستولوا على الموانئ والسهول الواقعة
جنوب الكرمل ، وهم الذين يدعون بالفلسطينيين . ولقد اكتسب اسم هذا
الشعب^(٤) مدلولاً لقي من الأزدراء مثلما لقي اسم شعب بويثيا بين الإغريق .
وحى إن سلمنا بأن البويثيين والفلسطينيين قد لا يكونون بهذه الصورة الحالية
التي رُسمت لهم ، وإنما إنما ندين بجميع معلوماتنا تقريباً عن كلا الشعبين إلى
خصومهما ؛ فإن ذلك يعنى على الأقل أن خصومهما قد تفوقوا عليهما وظفروا
على حسابهما بتجليل الأجيال التالية ؟

وتنسب للحضارة السورية ثلاثة أعمال فذة :

الأول : اختراع الحروف الهجائية .

الثاني : كشف المحيط الأطلسي .

(١) Sellucidae اسم يطلق على ملوك سوريا ابتداء من سلوقوس الأول الذى حكم من
٣١٢ = ٢٨٠ ق . م وهو ابن أنتيوخوس الذى أطلق اسمه على مدينة أنطاكية (المترجم)
(٢) باشان Bashan كانت ملكة يسيطر عليها الملوك الأموريون ومركزهم عشتاروت
ولقد هزمهم القبائل الإسرائيلية في موقعة اذرعى Edrei عام ١٩٤٥ ق . م وقضوا على سكان
تلك المملكة من بكرة أبيهم ونهبوا ماثيتهم واستلكوا أراضيهم غصباً وقهراً (سفر التثنية
الإصحاح الثالث .) (المترجم)

(٣) جلعاد Gilead بقعة جبلية تقع شرق الأردن وجنوب نهر اليرموك . (المترجم)
(٤) استخدمت كلمة Philistine في بداية القرن السابع عشر تعبيراً عن الاحتقار
والأزدراء . ثم استخدمت بعد ذلك تعبيراً عن ضالة المكافة الاجتماعية والثقافية وذلك تحت
تأثير حالة سكان فلسطين أيام التوراة وقبل أن يسكنها العرب . (المترجم)

الثالث : التوصل إلى فكرة خاصة عن الله مشتركة بين اليهودية والزرادشتية والمسيحية والإسلام ؛ لكنها فكرة غريبة عن كل من الفكرة الدينية المصرية والسومرية والسندية والهلينية .

فما هي من بين هذه الجماعات السورية التي قدمت هذه المآثر ؟

فبالنسبة للحروف الهجائية ، لا علم لنا في الواقع بمن ابتدعها ، وإن كان المتعارف عليه تقليدياً نسبتها إلى الفينيقيين . وقد يكون الفلسطينيون قد نقلوها في صورة بدائية من العالم المينوى . ومن ثم فإنه بالنظر لحالة معلوماتنا الراهنة ، يجب أن يُترك مهد اختراع الحروف الهجائية بلا تعيين . ولننتقل إلى الاثنتين الأخريين .

من هم أولئك البحارة السوريون الذين غمروا عباب البحر الأبيض المتوسط بطوله كله حتى أعمدة هرقل^(١) ، واجتازوها إلى ما بعدها ؟

لم يكونوا الفلسطينين رغماً عن دماهم المينوية ، فإنهم قد أولوا البحر ظهورهم وحاربوا في معركة خاسرة للاستحواذ على سهل يزرعيل^(٢) والشفلا^(٣) ضد مقاتلين أشد منهم مراساً ، هم إسرائيليو تلال أفرام ويهوذا . إن كاشفى المحيط الأطلسي هم فينيقيو صور وصيدا .

وهؤلاء الفينيقيون هم بقايا الكنعانيين ، الشعوب التي سكنت المنطقة قبل وصول الفلسطينيين ولعبرانيين ، وهي حقيقة عبّرت عنها سلسلة النسب الواردة في أحد الإصحاحات الأولى من سفر التكوين حيث نقرأ أن كنعان (ابن حام بن نوح) « ولد صيلون بكره »^(٤) . ولقد استطاع الفينيقيون

(١) جبل طارق .

(٢) سهل أسدرلون Esdreion باليونانية أو سهل يزرعيل Jekréel بالعبرية (انظر سفر القضاة ٧ - ٢٣) ويدعى الآن مدرج بنى عامر . (المترجم)

(٣) Shephelah أو التلال الواطئة : السهل الساحل لفلسطين من غزة إلى يافا (انظر سفر أخبار الأيام ص ٢٨ - ٢٨) (المترجم)

(٤) سفر التكوين (١٠ - ١٥) .

البقاء على قيد الحياة لأن بلادهم على طول القسم الأوسط من الساحل السوري لم تكن مغرية إلى الحد الذى يكفى لاجتذاب الغزاة إليها . وتعتبر فينيقيا التى نحاها الفلسطينيون جانباً ، نقيضاً واضحاً للشفلة حيث استقر الفلسطينيون . ولا يوجد فى هذا القسم من الساحل ، سهل خصيب . وترتفع سلسلة جبال لبنان ارتفاعاً رأسياً من البحر ، إلى درجة لا تدع مكاناً لطريق أو لسكة حديدية . ولم تكن المدن الفينيقية تستطيع الاتصال بسهولة حتى بين بعضها البعض إلا بواسطة البحر ، وتجم صور ، أعظمها شهرة — مثل عث السنورس — على جزيرة صخرية .

وهكذا بينما كان الفلسطينيون يرعون كأنهم أغنام فى حقل برسيم ، شرع الفينيقيون الذين انحصر أبقهم البحرى حتى ذلك الوقت فى الملاحة الساحلية قصيرة المدى بين بيبלו^(١) ومصر . فى الاقتداء بالمينويين فى النزوع إلى عرض البحر الواسع . فأنشأوا وطناً ثانياً يعبر عن منحاهم الخاص فى الحضارة السورية ؛ على السواحل الإفريقية والإسبانية فى غرب البحر الأبيض المتوسط . فكانت قرطاجنة ، المدينة العالمية لهذا الوطن الفينيقى عبر البحار ، تتفوق على الفلسطينيين حتى فى ميدانهم المفضل : الحرب البرية . إذ كان جالوت من جت^(٢) ، وهو أشهر بطل حربى عند الفلسطينيين ، صورة ضئيلة إلى جانب الفينيقى هانيبال^(٣) .

بيد أن الكشف المادى للمحيط كعمل من أعمال البطولة البشرية الفذة لا يرتقى إلى مقام الكشف الروحانى للوحدانية ، الذى كان من أعمال جماعة سورية تركت وحدها فى محنتها فى فترة النزوح وسط بيئة طبيعية أقل إغراء حتى من الساحل الفينيقى . تلك هى أرض أفرايم ويهوذا الجبلية . ولقد ظلت

(١) بيبלו^١ مدينة فينيقية قديمة كانت مركز عبادة أدونيس وتدعى الآن جبيل .
(المترجم)

(٢) سفر صموئيل الأول (١٧ - ٤) . (المترجم)

(٣) هانيبال : أى هنى بمل . (المترجم)

هذه الرقعة من الأرض الحبلية ذات الطبقة الرقيقة من التربة ، والتي تغطيها الغابات ؛ خالية إلى أن سكنتها طليعة البدو العبرانيين الذين قدموا من سهب شمال بلاد العرب وحطوا رحالهم في أطراف سوريا أثناء القرن الرابع عشر قبل الميلاد وبعده ، إبان فترة الفراغ التي تلت انهيار الدولة الحديثة في مصر . وهنا حولوا أنفسهم من بدو يربون الغنم ، إلى زراع يزرعون أرضاً حجرية ، وعاشوا مغمورين إلى أن جاوزت الحضارة السورية أوجها . بل وحتى في تاريخ متأخر كالقرن الخامس ق . م أى بعد ما أدى الأنبياء الكبار رسالتهم فعلا ؛ كان اسم إسرائيل نفسه غير معروف عند هيرودوتس وكانت أرض إسرائيل - في الصورة العامة التي رسمها هيرودوتس عن العالم السورى - ما تزال تحجبها أرض الفلسطينيين . وهو يتحدث فيما كتب عن أرض الفلسطينيين ، وقد ظل اسمها حتى اليوم « فلسطين » أو « بلاستين » .

وتحدثنا رواية سورية كيف أن إله الإسرائيليين قد امتحن مرة أحد ملوك بني إسرائيل بأعظم تجربة يسبر بها الله غور الإنسان :

ترأى الرب لسليمان في حلم ليلا . وقال الله : أسأل ماذا أعطيك . . فقال سليمان : فاعط عبدك قلباً فهِمّاً . . فحسن الكلام في عيني الرب لأن سليمان سأل هذا الأمر فقال له الله من أجل أنك قد سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك أياماً كثيرة ولا سألت لنفسك غنى . . ولا سألت أنفس أعدائك ، بل سألت لنفسك تمييزاً لتفهم الحكم ، هو ذا قد فعلت حسب كلامك ، هو ذا أعطيك قلباً حكيماً مميّزاً ، حتى إنه لم يكن لمثلك قبلك ولا يقوم بعذك نظيرك وقد أعطيتك أيضاً ما لم تسأله : غنى وكرامة حتى إنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك^(١) .

إن أسطورة اختيار سليمان ، تمثل تاريخ الشعب المختار ، لأن العبرانيين بفضل قوة فهمهم الروحاني (قديماً) ، قد فاقوا ما قام به الفلسطينيون من

(١) سفر الملوك - الأول (٣ - ٥ إلى ١٢) ؛ الترجمة العربية . (المترجم)

مهارة حربية وما أتى به الفينيقيون من أعمال بحرية بارزة . إن سليمان لم يطلب تلك الأشياء التي تشدها البلاد الأخرى ، لكنه طلب أولا ملكوت الله وهذه كلها حققها الله له ، أما عن أعدائه فقد أعانه الله عليهم^(١) .

٦ - براندبورج وأرض الراين :

قد تبدوا المسافة بين آتيكا وإسرائيل إلى براندبورج طويلة بعيدة وعلى انحدار كبير وعمر ، لكن براندبورج تعرض - في مستواها الخاص - مثالا لنفس القانون .

إذ قد يحيل إليك وأنت تسافر عبر ذلك البلد غير الأليف الذي كوّن فيما مضى الأملاك الأصلية لفردريك الأكبر وهي : براندبورج وبوميرانيا وبروسيا الشرقية بغابات صنوبرها الهزيلة وحقولها الرملية ، إنك تعبر ناحية قصية من المهب الأوراسي . وفي أي اتجاه تتجه إليه خارج هذه المنطقة سواء نحو المراعي وغابات الزان في الدانمارك أو الأرض السوداء في ليتوانيا ، أو كروم أرض الراين ، تجد بلدا أكثر يسرا وأحلى منظرآ .

بيد أن أحفاد المستعمرين الذين استوطنوا هذه الأرض الرديئة - في القرون الوسطى - قد لعبوا دورا فذا في تاريخ مجتمعتنا الغربي . وهذا لا يرجع فقط إلى أنهم حكموا ألمانيا في القرن التاسع عشر وقادوا الألمان في القرن العشرين في محاولة مضنية لتزويد مجتمعتنا^(٢) بدولته العالمية . لكن البروسي قد لقن جبر أنه كذلك كيف يجعلون الرمل ينتج غلالا عن طريق زيادة خصوبته بالأسمدة الكيميائية ، وكيف يرفعون مستوى جميع سكان البلد إلى درجة من الكفاية الاجتماعية لم يسبق لها مثيل ، باستخدام نظام

(١) يذكرنا المؤلف هنا أن اليهود استطاعوا بفضل أساليبهم الحلول محل صور وقرطاجنة في القيام بصفقات تجارية على نطاق يفوق أحلام الفتيقيين وفي قارات أبعد من دائرة معرفتهم ، ثم يقرر بأن الشعب اليهودي لا يزال على قيد الحياة رغم غرابة أطواره وبرعما عن التقلبات التي مرت بها جميع الأمم . (المترجم)

(٢) أي المجتمع الغربي . (المترجم)

تعليم إجبارى . وإلى درجة من الضمان الاجتماعى لم يسبق لها مثيل : باستخدام نظام تأمين إجبارى ضد المرض والبطالة .

إننا قد لانحج الروسى ، ولكننا لانستطيع أن ننكر أننا قد تلقينا منه دروساً كبيرة الأهمية والقيمة .

٧ - اسكتلندا وانجلترا :

لأحاجة بنا إلى مناقشة مسألة كون أرض اسكتلندا أصعب من أرض انجلترا ، ولن نحتاج إلى بيان الاختلاف المعروف بين مزاجى الاسكتلندى والإنجليزى التقليديين .

فالاسكتلندى التقليدى : رصين ومقتدر ودقيق ومواظب وحذر وذو ضمير حى ومثقف . فى حين أن الإنجليزى التقليدى : طائش ومسرف وغامض ومتقلب ومهمل وطلیق وسطحى فى قراءاته .

وقد يعتبر الإنجليز هذه المقارنة التقليدية نوعاً من الدعابة ، والإنجليز يعتبرون معظم الأمور نوعاً من الدعابة ، لكن الاسكتلنديين لا يعتبرونها كذلك . ولقد دأب جونسون^(١) على إغاطة بوسويل^(٢) Bosswell بدعابة يبدو أنه كثيراً ما كان يرددها ، ومدارها أن خير منظر يتطلع إليه الاسكتلندى فى حياته هو الطريق إلى انجلترا . وقبل أن يولد جونسون قال أحد الظرفاء فى عصر الملكة آن ، إنه لو كان قابيل اسكتلندياً لتغير عقاب الرب له . فعوضاً عن حكمه عليه بأن يكون تائهاً فى الأرض لقضى عليه بالبقاء فى موطنه ، أى اسكتلندا . وإن الصورة الذهنية الشائعة وهى أن الاسكتلنديين قد قاموا فى إنشاء الإمبراطورية البريطانية وفى

(١) صموئيل جونسون : ناقد وكاتب إنجليزى (١٧٠٩ - ١٧٨٤) .

(المترجم)

(٢) رفيق جونسون (١٧٤٠ - ١٧٩٥) من أصل اسكتلندى وترجم لجونسون

ترجمة شهيرة . (المترجم)

شغل المناصب الكبرى في كل من الكنيسة والدولة بدور لا يتناسب مع عددهم ، لها ما يبررها بلاريب . فإن النزاع البرلماني التقليدي في عصر الملكة فيكتوريا كان بين اسكتلندي قح ويهودي قح^(١) ، وتبلغ حتى الآن نسبة الاسكتلنديين خلفاء جلادستون في رئاسة وزارة المملكة المتحدة ، النصف تقريبا^(٢) .

٨ - الكفاح في سبيل أميركا الشمالية :

إن الدليل التقليدي على صحة نظريتنا ، نجده في مجتمعنا الغربي نفسه : ويتصل بنتيجة التنافس بين حفنة من جماعات المستعمرين المختلفة في سبيل السيطرة على أميركا الشمالية ، ففيه خرج مستعمرو إنجلترا الحديدية من هذا النضال ظافرين .

وقد سبق لنا أن بينا في الفصل السابق الصعوبة غير الاعتيادية للبيئة المحلية التي كانت من نصيب من سادوا القارة في النهاية . فلنقارن الآن بيئة نيو انجلند هذه ، التي يعتبر موقع تاون هيل فيها أنموذجاً صحيحاً لها ، بالبيئات الأمريكية الأولى التي كانت من نصيب مستعمري المنافسين الفاشلين نيو انجلند، وهم : الهولنديون والفرنسيون والأسبان ، بالإضافة إلى المستعمرين الإنجليز الآخرين الذين استقروا على طول القسم الجنوبي من شاطئ المحيط الأطلسي في فرجينيا وحوها .

وربما كان يسيراً في منتصف القرن السابع عشر ، التنبؤ بالصراع وقتما تجحت هذه الجماعات في وضع قدمها للمرة الأولى على مشارف القارة الأمريكية في سبيل الاستحواذ على القارة من الداخل . بيد أنه لم يكن

(١) أي بين جلادستون ودزرائيل . (المترجم)

(٢) دوزيرجى وبالقور وكامبل بانرمان ومكدونلد . ويمكن إضافة بوتارلو وهو من عائلة اسكتلندية إيرلندية ولد في كندا . لكنه ولد من أم اسكتلندية أصيلة واستوطن جلاسجو وهذا يجعل العدد خمسة وكان عدد رؤساء الوزارات غير الاسكتلنديين سبعة . (المؤلف)

لينتظر أن يصدق النبوة أبعد المراقبين نظراً من الأحياء وقتئذ ، إن طلب إليه عام ١٦٥٠ التنبؤ باسم الفائز : ولقد يباغ من الفطنة بحيث يستبعد الإسبانين رغمًا عن ميزتهما الواضحتين : امتلاكهم المكسيك - المنطقة الوحيدة في أمريكا الشمالية التي تمدين بفضل حضارة سابقة ، والشهرة التي كانت ما تزال أسبانيا تحظى بها وقتئذ - وإن كانت لم تعد تستحقها - بين الدول الأوروبية . إذ أنه قد يسقط المكسيك من حسابه لبعد موقعها ، كما يسقط نفوذ أسبانيا من حسابه بسبب انكساراتها في الحرب الأوروبية (حرب الثلاثين سنة) التي كانت قد انتهت فعلا قبل ذلك مباشرة . ولقد يقول : إن فرنسا ستخلف أسبانيا في سيادتها الحربية في أوروبا كما ستخلفها هولندا وإنجلترا ؛ في تفوقها البحري والتجاري في البحار .

ومن ثم تنحصر المنافسة على أمريكا الشمالية بين هولندا وفرنسا وإنجلترا . ويبدو لل نظرة القصيرة أن حظ هولندا أعظم من غيرها ، إذ تتفوق في البحر على كل من إنجلترا وفرنسا ، وتستحوذ في أميركا على مدخل مائي باهر إلى داخل القارة يتمثل في وادي الهدسون .

بيد أن إمعان النظر يوحى إلى الذهن بأن فرنسا هي التي يقدر لها الفوز . إذ تستحوذ على مدخل مائي خير من السابق هو نهر سانت لورانس ، كما أنها تستطيع إنهابك الهولنديين وشل حركتهم عن طريق استخدام قواتها العسكرية الساحقة في أوروبا ضد هولندا نفسها . وقد يضيف بالنسبة لكلتي الجماعتين البريطانيتين قوله : يمكنني استبعادهما عن ثقة ، إذ يحتمل أن يعيش المستعمرون الإنجليز في الجنوب بفضل تربة منطقتهم ومناخها الطيبين نسبياً ، محصورين ومنقطععين عن الداخل بفعل ؛ إما الفرنسيين أو الهولنديين ، أيهما يفوز بوادي المسيسيبي . على أن ثمة شيئاً مؤكداً وهو أن مجموعة المستعمرات الصغيرة الواقعة في نيو إنجلاند القاحلة الباهتة ، مكتوب عليها الفناء . لأن وجود الهولنديين على ضفاف الهدسون يحول بينهم وبين الاتصال بأبناء جلدتهم ، بينما يضغط الفرنسيون عليهم من سان لورنس .

ولنفترض أن مراقبنا الخيالي على قيد الحياة ليُشاهد نهاية القرن . ففي عام ١٧٠١ نجده يُهنئ نفسه لأنه قدّر احتمال فوز الفرنسيين دون الهولنديين ؛ إذ كان هؤلاء قد تنازلوا عن الهدسون عن طواعية لمنافسيهم الإنجليز عام ١٦٦٤ . واندفع الفرنسيون في هذه الأثناء صاعدين مجرى السان لورنس إلى البحيرات العظمى ، ومجتازين جزءه غير الصالح للملاحة إلى حوض المسيسيبي . كما تتبع « لاسال » النهر إلى أسفله حتى مصبه ، وهناك أنشئت مستعمرة فرنسية جديدة ، لوزيانا وميناهها نيو أورليانز الذى كان يبدو مجلاء أنه سيكون له مستقبل باهر .

أما بالنسبة للمقارنة بين فرنسا وإنجلترا ، فلم يكن مراقبنا ليجد ثمة داعيا لتعديل تنبؤة . فإن سكان نيو انجلترا بما قد أنقذهم من الفناء ، استيلاؤهم على نيويورك ؛ ولكن لشاركوا فقط أقرباءهم الجنوبيين نفس المصير المتواضع . وبالأحرى بدأ كما لو أن مستقبل القارة قد تقرر فعلا وأن الفوز من نصيب الفرنسيين .

هل نخلع على مراقبنا حياة أطول من حياة البشر ، ليتأتى له استعراض الموقف مرة أخرى في عام ١٨٠٣ ؟ .

سيضطر إن أتيح له البقاء على قيد الحياة إلى ذلك التاريخ ، إلى الاعتراف بأن حدة فطنته لا تعادل طول أجله . لأنه ما إن حل آخر عام ١٨٠٣ ، حتى اختفى العلم الفرنسى من الخريطة السياسية لأمريكا الشمالية كلية . إذ كانت كندا قد أصبحت ملكا للتاج البريطانى قبل ذلك بأربعين سنة ، بينما أن لوزيانا ، بعد أن تنازلت عنها فرنسا لأسبانيا ، أعيدت إليها ثانية لبيعها نابليون إلى الولايات المتحدة قبل ذلك التاريخ مباشرة . وهى الدولة الكبرى الجديدة التى انبثقت من المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة .

وهكذا أصبحت القارة في سنة ١٨٠٣ هذه ، فى حوزة الولايات المتحدة ، وتقلص مجال النبوءة . ولم يبق سوى التنبؤ عن أى قسم من الولايات المتحدة يقدر له الاستحواذ على النصيب الأوفى من هذا الملك الفسيح :

وبالتأكيد يبدو أنه لا يمكن وقوع خطأ في هذه المرة . فإن الولايات الجنوبية هي سيدة الاتحاد الظاهرة . فانظر : ألم تكن في المقدمة في الجولة الأخيرة من صراع التسابق بين الأمريكيين للظفر بالغرب ؟ كما أن رجال غابات فرجينيا البعيدة ؛ هم الذين انشأوا كنتكى ، أول ولاية جديدة تُنشأ غرب سلاسل الجبال التي تأمرت مع الفرنسيين للحيلولة بين المستوطنين الإنجليز والنفوذ إلى الداخل . وتقع كنتكى على طول ضفاف شهر أوهيو الذى يقود إلى المسيسيبي . وفي غمار ذلك ، كانت مصانع القطن الجديدة في لانكاشير تهبط لهؤلاء الجنوبيين سوقا تتسع باستمرار لتصريف محصولهم القطنى الذى تساعدهم أرضهم ومناخهم على زراعته .

ولقد يلاحظ الأمريكي الجنوبي عام ١٨٠٧ « أن ابن عمنا الشمالى Yankee قد اخترع أخيراً مركباً بخارياً يستطيع الملاحة في مجرى نهرنا المسيسيبي نحو منبعه ، وآلة لتمشيط قطننا وتنظيفه ، إن أفكار الأمريكيين الشماليين تحقق لنا ربما أعظم مما تحققه للمخترعين الأصليين » .

ولو سلم متنبئنا المعمّر السيئ الحظ بمصائر الجنوبيين وفقاً لما كانوا يقدرونه لأنفسهم في ذلك الوقت وإلى زمن متأخر عن ذلك التاريخ ، لتبين بلا ريب أنه يخرف . ذلك لأن الجنوبي قدّر له في هذه الجولة النهائية من الصراع ، أن يواجه هزيمة سريعة وساحقة مثل تلك التى حلت بالهولنديين والفرنسيين من قبل .

ففي سنة ١٨٦٥ ، تغير الموقف تغيراً لم يكن متوقفاً على الإطلاق ، عما كان متواضعاً عليه عام ١٨٠٧ . إذ استطاع الشمال أن يبرز خصمه المزارع الجنوبي ويهزمه ، في معركة الفوز بالغرب . لأنه بعد أن كاذ الجنوبي يوفق إلى شق طريقه إلى البحيرات الكبرى عبر انديانا وحصل على الجزء الأكبر من الميسورى عام ١٨٢١ ، هزم هزيمة حاسمة في كانساس (١٨٥٤ - ١٨٦٠) ، ولم يصل قط إلى المحيط الهادى . وكان سكان

نيوإنجلند قد أصبحوا في ذلك الوقت سادة ساحل المحيط الهادى كله من سياتل Seattle حتى لوس انجلوس . ولقد اعتمد الجنوبي على مراكبه البخارية في المسيجي لاجتذاب جميع الغرب إلى نظام للعلاقات السياسية ، والاقتصادية من وضع الجنوب . لكن « أفكار الأمريكيين الشماليين » لم تتوقف . فإن قاطرة السكة الحديدية قد جاءت بعد المركب البخارى وسلبت الجنوبي أكثر مما منحتة إياه السفينة البخارية . لأن الأهمية الكامنة في وادى الهدسون ونيويورك — باعتبارهما المدخل من الأطلسى إلى الغرب — أصبحت أخيراً حقيقة واقعة في عصر السكك الحديدية . لأن حركة السكك الحديدية من شيكاغو إلى نيويورك ، تفوق الحركة النهرية من سان لويس إلى نيوأورليانز . فكان أن حولت خطوط المواصلات داخل القارة من الاتجاه الرأسى إلى الأفقى . ومن ثم انتزع الشمال الغربى من الجنوب ولحم بالشمال الشرقى ، مصلحة وعاطفة .

حقاً أن الأمريكى الشرقى^(١) الذى أهدى إلى الأمريكى الجنوبي^(٢) ذات مرة السفينة النهرية البخارية وآلة حلج القطن ، قد فاز الآن بقلب الأمريكى الشمالى الغربى بعطية مزدوجة : إذ جاءه بالقاطرة البخارية في يد ، وبآلة الحصاد والجمع في الأخرى . أى أنه قد زوده بحلول لمشكلتيه كليهما : المواصلات واليد العاملة . وبفضل هاتين الفكرتين من أفكار الأمريكى الشمالى ، تقرر ولاء الشمال الغربى . وخسر الجنوبى — من ثم — الحرب الداخلية قبل أن تُنشب . وإذ حمل الجنوب السلاح آملاً في استعادة خسائره الاقتصادية بضربة عسكرية مضادة ؛ إنما كان يتم فعلاً انكساراً ، كان لا مناص من وقوعه .

ونستطيع أن نذكر أن جميع جماعات المستعمرين المختلفة في أمريكا

(١) يقصد المستوطن في الجانِب الشرقى من الولايات المتحدة . (المترجم)

(٢) يقصد المستوطن في الجزء الجنوبى من الولايات المتحدة . (المترجم)

الشمالية كان عليها مجابهة تحديات شديدة صادرة من بيئاتها . فكان على الفرنسيين أن يواجهوا في كندا فصول شتاء تكاد تكون قطبية ، وأن يواجهوا في لويزيانا تقلبات نهر يكاد يقارب في غدره وتدميره ، النهر الأصفر في الصين الذى بحثنا أمره أثناء المقارنات الأولى من هذه السلسلة . ومن العسير إنكار أن الوطن الأصلي الذى احتله سكان نيوزيلند في البداية ، كان أشق البلاد كلها .

وصفوة القول ، يُثبت تاريخ أميركا الشمالية صحة النظرية القائلة ؛ بأنه كلما عظمت المشقة ، كبر الحافز .

(٢) حافز الاستيطان في أرض جديدة

يكفى هذا القدر من المقارنات بين الآثار الحافزة لكل من البيئات الطبيعية التى تختلف درجات المشقة فيها . فلنواجه الآن نفس الموضوع من زاوية مختلفة ، بمقارنة الآثار الحافزة لكل من الأرض القديمة والأرض الجديدة ، مع صرف النظر عن طبيعة الأرض في حد ذاتها .

هل يترتب على كشف أرض جديدة في حد ذاته أى أثر حافز ؟

جاء الرد على هذا السؤال بالإيجاب في أسطورة الطرد من جنة عدن وفي أسطورة الخروج من مصر . فإن آدم وحواء بخروجهما من الجنة الساحرة إلى دنيا العمل اليومي ؛ قد جاوزا اقتصاد الإنسان البدائي القائم على جمع الطعام ، وأنجبا مؤسسى حضارة زراعية وأخرى رعوية^(١) . وإن بنى إسرائيل بخروجهم من مصر قد أنجبوا جيلا عاون في إرساء قواعد الحضارة السورية .

فلإذا تحولنا من الأساطير إلى تاريخ الأديان ، ألفينا ما يؤكد هذه

(١) تمثل الزراعية في قابيل والرعوية في هابيل ، وفقاً لآراء المؤلف السابق ذكرها .
(الترجم)

التخمينات ، إذ نجد مثلاً - وهذا ما يذهل السائلين - « أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ^(١) ؟ » أن مسيح اليهودية قد انطلق فعلاً من هذه القرية المتواضعة في « جليل الأمم ^(٢) ». وهي قطعة نائية من الأرض الجديدة ، ضمها المكابيون لليهودية قبل تاريخ ولادة يسوع بأقل من قرن . ولما استفحل نمو « حبة الخردل ^(٣) » الجليلية هذه التي لا تقهر ؛ وانقلب ذحول اليهودية إلى عداوة صريحة فعالة - وذلك ليس في أرض يهوذا فحسب بل أيضاً بين المستعمرات اليهودية في العالم - تحول ناشرو العقيدة الجديدة إلى الأمم ، شارعين عن عمد في غزو أمم جديدة للمسيحية ، في أرض أبعد كثيراً من أقصى حدود مملكة المكابيين .

ونفس القصة نجدها في تاريخ البوذية . إذ لم تنل تلك العقيدة السندية انتصاراتها الحاسمة على أرض العالم السندي القديمة . فإن بوذية هيناينا وجدت في البداية الطريق أمامها مفتوحاً في سيلان ، التي كانت مستعمرة ملحقمة بالحضارة السندية . وشرعت بوذية مهايانا في رحلتها الطويلة غير المباشرة نحو مقرها المقبل في الشرق الأقصى ؛ بفضل الاستيلاء على ولاية البنجاب السندية المتأثرة بالثقافتين السورية والهلينية .

وقد آتت أسمى التعبيرات لكل من العبقرتين الدينيتين السورية والهندية ثمارها في الأرض الجديدة التي تنتمي إلى هذه البلاد الغربية ، كشاهد صدق على صحة القول بأن لا كرامة لنبي في وطنه ولا في بيته .

وثمة اختبار تجريبي مناسب لهذا القانون الاجتماعي ، تقدمه لنا تلك الحضارات من الطبقة « المنتسية » التي نشأ بعضها على أرض كانت تشغلها فعلاً الحضارة السابقة المتصلة بها ، ونشأ البعض الآخر على أرض استولت عليها

(١) إنجيل يوحنا (١ - ٤٦) . (المترجم)

(٢) « جليل الأمم » إنجيل متى (٤ - ١٥) (المترجم)

« جليل » باللغة العبرية يعنى مركز أو مقر . (المترجم)

(٣) إنجيل متى (١٣ - ٣١) . (المترجم)

الحضارة المنتسبة لحسابها الخاص . فإن في مكتبتنا دراسة الآثار الحافزة لكل من الأرض القديمة والجديدة — كل منهما فيما يخصها — بوساطة معاينة مجريات تاريخ أية واحدة من هذه الحضارات « المنتسبة » مع ملاحظة النقطة أو النقط الواقعة في نطاق مقرها ؛ والتي عندها تكون قد تميزت مآثرها في أى ميدان . ثم التحقق مما إذا كانت الأرض التي فيها مثل هذه النقطة ، قديمة أو جديدة .

فإن أخذنا الحضارة الهندية أولاً ، علينا أن نميز المصادر المحلية لعوامل الإبداع الجديدة في الحياة الهندية ، سيما ما كان متعلقاً منها بالدين ؛ الذى ما برح دائماً في المجتمع الهندى ، محور النشاط وأسمى ميادينه .

تطالعنا هذه المصادر من الجنوب ، وفيه اتخذت كافة مظاهر الهندوسية الميزة طابعها الخاص : عبادة الآلهة التي تمثلها أجسام أو صور منظورة تقيم في معابد ، والصلة الشخصية العاطفية بين العابد والمعبود الذى كرس العابد نفسه لعبادته ، والتسامى الروحى بعبادة الصور الانفعالية وتحويلهما إلى لاهوت يقسم بالتعقيد الفكرى^(١) .

فهل كان جنوب الهند أرضاً قديمة أو جديدة ؟

كانت أرضاً جديدة فلإنها لم تكن قد ألحقت بمنطقة نفوذ المجتمع السندى المبكر عنها ، إلا في المرحلة الأخيرة لوجود ذلك المجتمع في عهد الإمبراطورية الموريانية التي كانت « الدولة العالمية » لذلك المجتمع (جوالى ٣٢٣ - ١٨٥ ق م) .

أنجب المجتمع السورى مجتمعين ربيين : العربى والإيراني . وقد أثبت ثانيهما — كما سبق أن ذكرنا — أنه أكثر توفيقاً ، إذ ابتلع شقيقه في النهاية^(٢) .

(١) مؤسس اللاهوت الهندى هو سافكرا Sankara الذى ولد حوالى عام ٧٨٨ ميلادية في مالابار . (المؤلف)

(٢) يقصد الأستاذ توينبى بكلمة « الابتلاع » استيلاء الدولة للعثمانية على البلاد العربية في القرن السادس عشر ولكن هذا الابتلاع لم يمتد لتنفيذ السياسى ، إذ بقى المجتمع العربى محفوظاً بمقوماته الثقافية إلى أن نهض خلال القرن التاسع عشر وسار في طريقه نحو التحرر . (المترجم)

ففى أى من المناطق ازدهرت الحضارة الإيرانية بشكل ظاهر ؟

لقد تمت كافة أعمالها العظيمة تقريباً سواء فى الحرب أو السياسة أو الهندسة المعمارية أو الآداب فى طرفى المجتمع الإيراني القصيين : هندستان والأناضول . إذ بلغت هذه الحضارة ذروتها فى إمبراطورية المغول فى الهند ، والإمبراطورية العثمانية فى الأناضول . وتم ذلك فى أرض جديدة ، خارج نطاق الحضارة السورية السابقة . وهى أرض انتزعت من المجتمع الهندى فى الحالة الأولى ، ومن المجتمع المسيحى الأرثوذكسى فى الحالة الثانية . فبالنسبة لتلك الأعمال الفذة ؛ كان تاريخ الحضارة الإيرانية فى المناطق المركزية لهذه الحضارة — فى إيران نفسها مثلاً — وهى الأرض القديمة التى اقتطعتها لنفسها من الحضارة السورية ، خلوا من أى شىء يستحق الذكر .

وفى أى المناطق أظهرت الحضارة المسيحية الأرثوذكسية غاية عنفوانها ؟
تبدى اللمحة العابرة على تاريخها أن مركز ثقلها الاجتماعى وقع فى مناطق تختلف حسب اختلاف الزمن . فإبان المرحلة الأولى عقب انبعاث تلك الحضارة من فترة الفراغ التى تلت الدولة الهلينية ، كانت حياة المسيحية الأرثوذكسية فى أعنف قوتها فى الأجزاء الوسطى والشمالية الشرقية من هضبة الأناضول . ثم كان أن تحول مركز الثقل — منذ منتصف القرن التاسع وما بعده — من الجانب الأوروبى من المضيقين . وأما الجزع الأصلى للمجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، فقد ظل فى شبه جزيرة البلقان منذ ذلك الحين . أما عن فرع المسيحية الأرثوذكسية القوى فى روسيا ، فإنه فى الأزمنة الحديثة قد فاق إلى أبعد حد من الناحية التاريخية — الجزع الأصلى لذلك المجتمع .

هل تعتبر هذه المناطق الثلاث أرضاً قديمة أو جديدة ؟

أما من جهة روسيا ، فإن السؤال يكاد لا يحتاج إلى رد .

أما عن المنطقة الوسطى والشمالية الشرقية من الأناضول ، فلا ريب أنها كانت أرضاً حديثة بالنسبة للمجتمع المسيحي الأرثوذكسى ، وإن كانت قبل ذلك بألفى سنة مضت ، موطن الحضارة الحثيية . وقد تأخر تحول هذه المنطقة إلى الهلينية وظل دائماً متعثراً ناقصاً ، وتمت أول مساهمة لها فى الثقافة الهلينية — ولعلها الوحيدة — إبان المرحلة الأخيرة من فترة حياة المجتمع الهليني بواسطة آباء الكنيسة الكبادوقيين^(١) خلال القرن الرابع من العصر المسيحي .

أما عن مركز الثقل الباقى للمجتمع المسيحي الأرثوذكسى — أى داخل شبه جزيرة البلقان — فقد كان كذلك أرضاً جديدة . لأن طلاء الحضارة الهلينية المُذاب فى محلول لاتيني والذى طُليت به هذه المنطقة طلاء خفيفاً فى غضون حياة الإمبراطورية الرومانية ، قد أزيل خلال فترة الفراغ التى تلت انهيار هذه الإمبراطورية من غير أن تترك أثراً . وكان التدمير هنا ، أكثر شمولاً منه فى أية مقاطعة غربية فى الإمبراطورية ، عدا بريطانيا .

ولم يقتصر الأمر على غزو البرابرة الوثنيين للأقاليم المسيحية الرومانية ، بل إنهم أفنوها فناء تاماً . واقتلعوا جميع أسباب الثقافة المحلية اقتلاعاً بلغ من قوته ، أن ذريتهم عندما رغبت فى إظهار الندم عن خطيئة آبائهم ؛ اضطرت بعد انقضاء ثلاثة قرون ، إلى أن تحصل على بذور جديدة من الخارج لاستنباتها من جديد . وبذا ظلت الأرض بوراً ؛ لمدة تبلغ ضعف المدة التى ظلت خلالها أرض بريطانيا بوراً قبل بعثة أغسطينوس^(٢) إليها . أى أن المنطقة التى أقامت فيها الحضارة المسيحية الأرثوذكسية مركز ثقلها الثانى ، كانت أرضاً أعيد استصلاحها من القلا فى وقت حديث جداً .

وصفوة القول كانت جميع المناطق الثلاث التى برز فيها المجتمع المسيحي

(١) Cappodocia كبادوقية مقاطعة فى آسيا الصغرى . (المترجم)

(٢) أوفد البابا جريجورى الكبير القديس أغسطين للتبشير بالنصرانية فى بريطانيا وإلى

هذا القديس ينسب كرمى كاتدربرى . (المترجم)

الأرثوذكسى بصفة خاصة ، أرضاً جديدة . ويجدر بالذكر أن اليونان نفسها - وهى بؤرة إشعاع الحضارة السالفة - قد قامت على وجه الإجمال فى تاريخ المجتمع المسيحى الأرثوذكسى ، بدور لا يُعتدّ به . إلى أن أصبحت فى القرن الثانى عشر من العصر المسيحى ، المدخل الذى تدفق منه النفوذ الغربى إلى العالم المسيحى الأرثوذكسى .

فإذا ولينا وجهنا شطر التاريخ الهلنى لتساءل نفس السؤال بالنسبة للمنطقتين اللتين حظيتا على التوالى بزمام القيادة خلال تاريخ المجتمع الهلنى المبكر وهما : الساحل الأسوى من بحر إيجه وشبه جزيرة اليونان الأوربية ؛ فهل كانت الأرض التى ازدهرتا عليها من ناحية الحضارة المينوية السالفة ، أرضاً جديدة أم قديمة ؟

كانت الأرض هنا أرضاً جديدة كذلك . إذ لم تحتفظ الحضارة المينوية ، فى شبه جزيرة اليونان الأوربية - حتى عندما بلغت رُفعتها أقصى اتساعها - إلا بسلسلة من المواقع المحصنة على ساحلها الجنوبى والشرقى . أما على الساحل الأناضولى ، فإن فشل علمائنا الأثريين المُحدثين فى العثور على آثار تكشف عن وجود الحضارة المينوية أو حتى مجرد التأثير بها ؛ له دلالة تصعب نسبتها إلى مجرد الصدفة . بل يبدو أن ذلك يدل ؛ على أنه لسبب ما ، خرج هذا الشاطئ عن نطاق الحضارة المينوية . وعلى العكس قامت جزائر « سيكليدس »^(١) التى كانت أحد مراكز الثقافة المينوية ، بدور ثانوى فى التاريخ الهلنى ؛ لم يزد عن تأديتها دور الخدم الأذلاء لسادة البحر المتعاقبين ؛ بل إن الدور الذى أدته كريت نفسها فى التاريخ الهلنى - وكانت كريت أقدم مراكز الحضارة المينوية وأعظمها دائماً - أكثر فى قصورها إثارة للعجب .

ولقد كان يتوقع أن تحافظ كريت على أهميتها لا لأسباب تاريخية فحسب — باعتبارها المكان الذى بلغت فيه الثقافة المينوية ذروتها — ولكن لعوامل جغرافية كذلك . فقد كانت كريت ، بين جزر الأرخيل الإيجي ، أضخمها بمراحل . وتعرض طريقين من أهم الطرق البحرية فى العالم الهليني . إذ كان على كل سفينة تبحر من بيريه إلى صقلية ، أن تمر بين طرف كريت الغربى ولا كونيا ، وعلى كل سفينة تبحر من بيريه إلى مصر ، أن تمر بين طرف كريت الشرقى ورودس . ومع ذلك بينما قامت كل من لا كونيا ورودس بدور رئيسى فى التاريخ الهليني ، ظلت كريت بمعزل عنه ، مغمورة بحفها الظلام من أوله إلى آخره . وبينما كانت هيلاس بأجمعها تُتنجب السياسيين والفنانين والفلاسفة ، لم تُتنجب كريت شيئاً ذا صيت سوى مشعوذين وجنود مرتزقة وقرصان . وأصبح لصفة كريت فى الأيام الأخيرة فى اللغة الهلينية ، معنى مماثل لمعنى صفة بوئى . وفى الواقع فإن الشاعر الكريتى قد حكم عن نفسه عندما ألف بيت الشعر السداسى الوزن الذى أشير إليه فى كتاب المسحيين المقدس فى العبارة الآتية :

قال واحد منهم ، وهو نبى لهم خاص ، الكريتيون دائماً كذابون . وحوش رديئة ، بطون بطالة^(١) .

وأخيراً ، لنطبق نفس الاختبار على مجتمع الشرق الشرق الأقصى الذى ينتسب إليه المجتمع الصينى .

فى أى مواضع نطاقة أظهر مجتمع الشرق الأقصى ، أشد قوته ؟

لا شبهة فى أن اليابانيين والكانتونيين^(٢) يعتبرون اليوم أقوى ممثلى ذلك المجتمع . وكلا الشعبين قد ظهرا فى أرض جديدة — بالنسبة لتاريخ الشرق

(١) رسالة بولس الرسول إلى تيطس (١ - ١٢) ويقال إن الشاعر المشار إليه هو ابيمونيدس Epimondides . (المترجم)

(٢) سكان كانتون بجنوب الصين . (المترجم)

الأقصى . إذ لم يندمج شاطئ الصين الجنوبي الشرقى فى نطاق المجتمع الصينى الأصل ، إلا فى طور متأخر من التاريخ الصينى . بل ولم يدمج وقتئذ إلا على المستوى السياسى السطحى ، وباعتباره ولاية على حدود إمبراطورية هان ؛ وبقي سكانه همجا . أما عن الأرخبيل اليابانى فإن فرع حضارة الشرق الأقصى الذى ازدرع^(١) فيه عن طريق كوريا إبان القرنين السادس والسابع من العصر المسيحى ، قد انتشر فيه ، فى أرض لم يوجد فيها أثر لآية ثقافة سابقة . وتمكن مقارنة النمو القوى لهذا الفرع من حضارة الشرق الأقصى على تربة اليابان البكر ، ينمو فرع الحضارة المسيحية الأرثوذكسية ، الذى نقل من الهضبة الأناضولية ، إلى تربة روسيا البكر .

فإن صح كما يبدو من أدلتنا أن الأرض الجديدة تهيئ حافزاً أعظم للعمل مما تهيؤه الأرض القديمة ؛ يتوقع المرء أن يعثر على مثل هذا الحافز بارزاً بصفة خاصة ، فى الحالات التى تنفصل فيها الأرض الجديدة عن القديمة برحلة بحرية .

ويبدو هذا الحافز الخاص — الناشئ عن الاستعمار عبر البحار — بجلاء فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الأول من الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد (١٠٠٠ — ٥٠٠ ق . م) ؛ وقتما تنافس على استعمار حوضه الغربى ، الرواد البحريون لثلاث حضارات مختلفة من حضارات الشرق الأدنى . إذ يتضح هذا الحافز — مثلاً — من الدرجة التى فاقت بها كل من قرطاجنة السورية وسيراكوز الهلينية (وهما أعظم قاعدتين من هذه القواعد الاستعمارية) ، أمتهما ؛ أى مدينتى صور وكورنث على التوالى . وكذلك ، فإنه بينما أصبحت المستعمرات الآخية فى اليونان الكبرى *Magna Grecia* (جنوب إيطاليا وصقلية) أسواقاً رائجة للتجارة ومراكز لامعة للفكر ؛ ظلت المجتمعات الآخية الأصلية على طول الساحل الشمالى للبلوونيز راكدة ،

(١) ازدرع أى نقل نباتاً من مكان لآخر . (المترجم)

إلى ما بعد تجاوز الحضارة الهلينية ذروتها ، وبدئها في الأفول . وبالمثل فاق اللوكريون^(١) الذين استوطنوا إبيزيفير Epizephyr بإيطاليا ، اللوكريين الذين لبثوا في اليونان بمراحل .

وأعظم الأمثلة التي تواجهنا ، هو مثل الأتروريين^(٢) . وهم الفريق الثالث الذي نافس الفينيقيين واليونانيين في استعمار غرب البحر الأبيض المتوسط . وعلى خلاف اليونانيين والفينيقيين ، لم يكتف الأتروريون الذين يمموا غربا ، بالبقاء بالقرب من البحر الذي قدموا عن طريقه ، بل اندفعوا إلى الداخل من ساحل إيطاليا الغربي عبر جبال الابنين ونهر البوحتى سفح جبال الألب . على أن الأتروريين الذين لبثوا في ديارهم ، ظلوا في ظلام دامس لا نظير له . فلم يرد لهم في التاريخ ذكر ، بل ولم يُخلَقُوا أى أثر يعين موطنهم تعيينا دقيقا . وإن ذكرت السجلات المصرية ؛ أن الأتروريين الأصليين قد اشتركوا مع الآخيين إبان الهجرات التي أعقبت انهيار الحضارة المينوية . واتخذوا قاعدة لعملياتهم مكانا ما على الساحل الأسوى للشرق الأدنى .

ولعل الحافز الناشئ عن عبور البحر ، أعظم العوامل جميعها التي تلتج هجرة بحرية في سياق فترة هجرات . بيد أنه يبدو أن مثل هذه الأحداث غير شائعة ، فإن الأمثلة الوحيدة التي يستطيع كاتب هذه الدراسة تذكرها هي هجرات ست لا أكثر :

(١) اللوكريون Locri قبيلتان في اليونان القديمة نزلت إحداهما إلى إيطاليا وكونت مستعمرة Epizephyr (المترجم)

(٢) سكان مقاطعة Eturia الواقعة جنوب نهر التيبر بإيطاليا . وكانت تضم وادي نهر البو . وقد تكون في المقاطعة اتحاد ضم اثنتي عشرة مدينة . وبدأ تاريخهم عام ١٠٤٤ ق . م فهم والحالة هذه أقدم من الرومانيين . وللاأتروريين حضارتهم الخاصة التي ما برحت رموزها تستعصى على العلماء . وكانت أتروريا إمبراطورية وقتا كانت روما مجرد مدينة لا يؤبه لها . (المترجم)

١ - هجرة التيوكرين Teucrians^(١) والايولين Aeolians والايونيين Ionians والدورين Dorians ؛ عبر بحر إيجه إلى ساحل الأناضول الغربي .

٢ - هجرة التيوكرين والفلسطينيين إلى ساحل سوريا . وقد تمت هاتان الهجرتان خلال فترة الهجرات التي تلت سقوط الحضارة المينوية .

٣ - هجرة الإنجليز والجنود إلى بريطانيا خلال فترة الهجرات التي تلت سقوط الحضارة الهلينية .

٤ - هجرة البريطانيين اللاحقة عبر بحر المانش إلى المنطقة التي أصبحت تعرف بعد ذلك بولاية بريتانى^(٢) .

٥ - هجرة الإيرلنديين الاسكتلنديين إلى أرجيل المعاصرة لهجرة البريطانيين السالفة الذكر .

٦ - هجرة الفايكنج الاسكندنافيين خلال فترة الهجرات التي تلت محاولة الكارولنجيين^(٣) الفاشلة في سبيل بعث الإمبراطورية الرومانية من جديد . ولقد أثبتت الهجرة الفلسطينية من بين تلك الهجرات الست ، عقمها نسيا ، في ظل ظروف سبق بيانها .

(١) التيوكريون : نسبة إلى Teutria الاسم الذى أطلقه الشعراء القدماء على مدينة طرواده اشتقاقاً من اسم Teucer : أحد ملوك طروادة القدماء . (المترجم)

الايولينون : نسبة إلى Aeolis : ، قطر في الشمال الغربي من آسيا الصغرى .
الايونيونون : نسبة إلى مقاطعة إيونيا Ionie على الشاطئ الغربي من آسيا الصغرى . وقد استمدت اسمها من شعب يوناني قديم يدعى الأيونيين هاجر من اليونان إلى آسيا الصغرى .
حوالى ١٠٠٠ قبل الميلاد . (المترجم)

الدورينون : نسبة إلى Dore وهو منطقة صغيرة في الجزء الأوسط من شبه جزيرة اليونان القديمة وهي مهد الشعب الهلنى القديم الذى غزا اليونان خلال القرن الثانى عشر ق . م (المترجم)

(٢) ولاية بشمال فرنسا . (المترجم)

(٣) أسرة ملكية فرنسية دعيت باسم أعظم ملوكها شارلمان الذى خلف أباه شارل مارنل عام ٧٦٨ ميلادية . (المترجم)

كما جاء تاريخ البريطانيين خلواً من أى شيء يتميز به . أما الهجرات البحرية الأربع الآخر فإنها تتضمن طائفة من الظواهر التي تستلفت النظر ولا يوجد لها مثيل في حالات الهجرة البرية الكثيرة العدد .

وتجمع هذه الهجرات البحرية حقيقة مفردة مجردة ، مدارها ضرورة حمل الأنظمة الاجتماعية للمهاجرين وأجهزتهم ، فوق ظهر السفينة قبل مغادرة شواطئ البلد القديم ، ثم تفرغ من جديد في نهاية الرحلة . وتخضع لهذا القانون جميع أنواع الأجهزة والأنظمة من أشخاص ومتاع وأساليب فنية ونظم وأفكار ، ويترك الشيء الذي يعجز عن احتمال رحلة البحر . وكل الأشياء - وليست كلها أشياء مادية - التي يأخذها المهاجرون معهم ، يجب فكها قطعاً قطعاً . وقد لا يعاد تركيبها مرة أخرى في صورتها الأصلية . وعندما يخرجونها من أغلفتها قد يجدون أنها عانت تغيراً أحدثه البحر ، وتحولت إلى شيء غريب (١) .

وإذا حدثت هذه الهجرة البحرية خلال فترة هجرات ؛ كان التحدى أكثر هولاً والحافز أكثر شدة . ويرد ذلك إلى أن المجتمع الذي يستجيب إلى التحدى ، ليس مجتمعا تقديمياً من الناحية الاجتماعية (مثل المستعمرين اليونانيين والفينيقيين الذين عرضنا لهم آنفاً) ؛ ولكنه مجتمع ما يزال مبردياً في تلك الحالة الراكدة التي هي الطور الأخير للإنسان البدائي . وللانتقال الذي يحدث أثناء فترة هجرات ، من هذه السلبية إلى الشدة المفاجئة العاتية ، أثر دافع في حياة أية جماعة . إلا أن هذا الأثر يكون طبعاً أشد إن استخدم المهاجرون في رحلتهم سفينة ؛ مما لو سافروا برا على أرض صلبة ، حاملين معهم الكثير من جهازهم الاجتماعي ، الذي لا مناص للمسافر بالبحر من طرحه جانباً .

(١) هذه العبارة مأخوذة عن شكسبير في تمثيلية العاصفة The Tempest الفصل الأول ، المشهد الثاني . (المترجم)

« إن هذا التغير في وجهة النظر (بعد الرحلة بحراً) قد قاد إلى ظهور فكرة جديدة عن الآلهة والبشر . فقامت مقام الآلهة المحليين الذين لا يتعدى سلطانهم حدود إقليم عبادهم ، هيئة متحدة من الآلهة تسيطر على العالم . ورفع المكان المقدس - مع داره الملوثة - الذي كان يشغل مركز الساحة الوسطى^(١) ، رفع إلى موقع مرتفع وأصبح قصراً للآلهة . ومن الأساطير التي لها قداسة القدم والتي كانت تروى ما أثر آلهة مستقلة عن بعضها البعض ، نسجت ميثولوجيا شعرية ، أو ما يدعى الساجة الإلهية^(٢) متبعين في ذلك نفس الخطوط التي اتبعها جنس آخر من الفايكنج ظهر قبلهم وهم الإغريق الهومريون . ولقد بعث دين الفايكنج إلى الوجود إلهاً جديداً هو أودين Odin قائد البشر وسيد ميادين القتال^(٣) .

ومهدت هجرة الكلت الاسكتلنديين البحرية من إيرلندا إلى شمال بريطانيا ، السبيل بطريقة مشابهة تقريباً لدخول دين جديد . ولم يكن من قبيل المصادفة أن أصبحت دالريادا Dalriade^(٤) فيها وراء البحار ، مركز حركة القديس كولومب التبشيرية التي كانت إيونا Iona^(٥) نقطتها المركزية . وللهجرة البحرية ظاهرة مميزة تتمثل في امتزاج أصول عنصرية مختلفة . فإن أول شيء يجب تركه من الجهاز الاجتماعي ، هو الجماعة القائمة على القرابة . لأن السفينة لن تحمل أكثر من حولتها . ويحتمل أن تكون السفن التي تبحر معاً تحميلاً للأمان وتجتمع في الوطن الجديد آتية من جهات مختلفة ، عكس

(١) الساحة الوسطى Midgard في الأساطير السكندنافية ، هي الأرض .

(المترجم)

(٢) قصه الساجة Saga قصة قديمة تروى أعمال البطولة والمخاطرات . (المترجم)

(٣) الجزء الثاني ص ٣٠٦ ، Gronbch V : The Culture of the Teutons ،

(٤) الاسم القديم لمقاطعة في شمال إيرلندا ، وينتسب سكانها إلى ريادا زعيم الاسكتلنديين

الغاليين . (المترجم)

(٥) إحدى جزائر هيريس بجوار شاطئ في اسكتلندا وبها قبر القديس كولومب .

(المترجم)

عملية الهجرة البرية المعتادة التي تستطيع فيها جماعة من الأقارب بأجمعها ؛ أن تجمع نساءها وأطفالها وأدواتها المنزلية في عربات تجرها ، وتتحرك جمعاً واحداً ببطء شديد على أرض ثابتة . « حركة الجماعة المنكبة »

وظاهرة مميزة أخرى للهجرة البحرية ، تتجلى في ضمور نظام أصيل في الجماعة قبل الهجرة هو نظام « الجن ودورته » . ولعله التعبير الأعلى عن حياة اجتماعية ليس لها طابع خاص . وذلك قبل أن ينعكس هذا النظام على المستويات المختلفة للاقتصاد والسياسة والدين والفن ، بفضل إدراك اجتماعي يزداد وضوحاً .

وإذا رغبتنا في رؤية هذه الشعائر في العالم السكندنافي على بهائها ، فأحرى بنا أن ندرس نشوئها بين الاسكندنافيين الذين لبثوا في ديارهم . فإنه على العكس : « يبدو أن صيد يوم أول مايو والزواج الطقسي ومناظر الغزل ، لم تعش كثيراً في أيسلندا بعد استقرار المستعمرين فيها ، وذلك لأسباب ، يُعزى بعضها بلا ريب إلى أن المستوطنين أغلبهم من الطبقة الجوالمة المستنيرة ؛ ويرد البعض الآخر إلى ارتباط هذه الشعائر الريفية بالزراعة التي لم تكن فرعاً هاماً للنشاط في أيسلندا » (١) .

ولما كانت تتوافر زراعة من نوع ما حتى في بلد كإيسلندا ، وجب اعتبار السبب الأول من السببين السالفي الذكر أكثرهما أهمية .

ترى نظرية المؤلف الذي اقتبسنا منه ما تقدم ، أن القصائد الشعرية التي سُجلت كتابة في الديوان الأيسلندي المدعو « الأداة الكبرى » (٢) ؛ قد استمدت من الكلمات الشفوية للدراما البدائية السكندنافية المتصلة بالخصوبة . وهي العنصر الوحيد من الشعائر الذي أمكن المهاجرون انتزاعه من جذوره المحلية العميقة المطمورة ، وحمله معهم على ظهر سفينتهم .

(١) Philipotts, B.S. : The Elder Edda and Ancient Scand- ٢٠٤ ص
avian drama.

(٢) Elder Edda كتاب في أساطير أهل اسكندنافيه ولغتهم وأشعارهم . (المترجم)

ولقد توقف تطور الشعائر البدائية إلى دراما بين هؤلاء السكان السكندنافيين الذين هاجروا بحراً وفقاً لهذه النظرية التي يمكن تأييدها بالقياس على ما حدث في التاريخ الهليني . فإن ثمة حقيقة لا تمارى مؤداها أنه رغباً عن أن الحضارة الهلينية قد أُنعت في البداية عبر البحار في أيونيا Ionia ، انبثقت الدراما الهلينية وهي قائمة على الشعائر البدائية من تربة الجزء القارى من شبه جزيرة اليونان . ففى هيلاس ، كان مسرح ديونيسوس في أثينا يقابل معبد إيسالا . ومن ناحية أخرى ، أنتج المهاجرون البحريون الهلينيون والسكندنافيون والأنجلوسكسونيون الملاحم الشعرية لهومير وتلك الواردة في « الأدة » Edda والبيولف Beowulf^(١) في أيونا وإيسلندا وبريطانيا .

ونشأت الساجة Saga^(٢) والشعر القصصى الحماسى ، استجابة لحاجة عقلية جديدة مدارها إدراك جديد بوجود شخصيات فردية قوية وأحداث عامة ذات شأن .

ومصادقاً لما يقرره هومير « يغالى الرجال في تمجيد هذه القصيدة كلما بدت جديدة لأسماعهم » . بيد أن ثمة شيئاً في الملحمة الشعرية تربى قيمته كثيراً على أحداثها ، ألا وهو أهمية القصة في حد ذاتها من الناحية الإنسانية . إذ يكون الاهتمام بالحاضر مسيطراً على الأذهان طوال فترة استمرار العاصفة والشدة في عصر البطولة ، بيد أنه لما كانت الشدة الاجتماعية شيئاً عابراً ، يبدأ محبو الملحمة والساجة — بعد هدوء العاصفة — في إدراك أن الحياة في عصرهم أصبحت يسيرة نسبياً . وعندئذ يصدفون عن إثارة القصائد الشعرية الجديدة على

(١) ملحمة شعرية إنجليزية تروى قصة ابن أحد الملوك الجرمانيين الذى رحل مع أربعة عشر من أبنائه إلى الدنمارك ليعاود شقيقه الملك هناك الذى تغلب على مملكته جبار ذو شكل آدمى . وجرت مباركة بينهما أسفرت في نهاية الأمر على تغلب على الجبار واستعادة المملكة للملك الشرعى . (المترجم)

(٢) الساجة قصة شاعت في القرون الوسطى من بطل إيسلندى . (المترجم)

القديمة ؛ ويستجيب الراوى الحديث للتغير فى ذوق سامعيه ، فيأخذ فى إعادة رواية أقاصيص الجبل الأقدم وتنميقها . وقد بلغ فن الملحمة الشعرية والساجة فى هذا العصر الأخير ذروته الأدبية . إلا أن هذه المصنفات القوية لم تكن لتظهر إلى الوجود أبداً لولا الحافز الذى ترتب فى الأصل عن محنة الهجرة البحرية . وهنا نصل إلى القانون الآتى وهو « تنشأ الدراما فى الوطن الأصلى ، والملحمة بين الشعوب المهاجرة »^(١) .

أما الأثر الإيجابى الآخر الذى ينبعث من محنة الهجرة البحرية إبان فترة الهجرات ، فهو ليس أدبياً ولكنه سياسى . ويقوم هذا النوع الجديد من النظام السياسى على عقد بُرم لاصلة له بالقرابة .

ولعل أشهر الأمثلة التى تظالنا ؛ المدن التى أقامها جوايو البحار من مهاجرى اليونان على ساحل الأناضول ، فى المقاطعات التى عرفت بعد ذلك بأسماء أبوليس Aeolis وأيونيا Ionia ودوريس Doris . إذ يبدو من السجلات القليلة الخاصة بالتاريخ الدستورى الهلينى ، أن مبدأ التنظيم وفقاً للقانون والمكان لا وفقاً للعرف والقرابة ، قد استقر فى البداية فى هذه المستعمرات اليونانية عبر البحار ، ثم اقتبسته عنها اليونان الأوربية . فلم تكن العشائر هى خلايا النظام الجديد فى المدن التى تألفت عبر البحار ، بل كانت جماعات السفن هى خلايا ذلك النظام . فلما كانوا قد تعاونوا جميعاً فى البحر - كما يتعاون الرجال عندما يكونون فى نفس المركب بين أخطار اليم - فإنهم عندما يوفقون بعد جهد كبير إلى الاستحواز على قطعة من الساحل ، يحتفظون على البر بنفس الشعور ويتصرفون بنفس الطريقة فى مواجهة التهديد الآتى من الداخل .

وتظل الزمالة على البر تسمو على القرابة كما كانت فى البحر ؛ ونجبة دوافع العرف ، أوامر الزعيم الثقة المختار . وفى الواقع لا بد وأن تتحول

تلقائياً جماعات السفن التي تضم قواتها في سبيل غزو موطن جديد لها عبر البحار ، إلى مدينة تنقسم إلى قبائل محلية ويحكمها حاكم منتخب .

فإذا ما ولينا وجوهنا شطر الهجرات السكندنافية ، نستطيع أن ندرك العناصر الأولية لتطور سياسى مشابه . فلو كان قد قيّض للحضارة السكندنافية التي لم تكتب لها الحياة ؛ الظهور إلى الوجود بدلا من أن تبتلعها الحضارة الغربية ، لقدّر للدول الخمس في أوستمن Ostmen على الساحل الإيرلندى ، أو للمدن الخمس (لينكولن وستامفورد وليستر ودربي وتوتنجهام) التي أقامها الدانماركيون لحراسة خط حدود فتوحاتهم في مرسيا من ناحية البر ؛ لقدّر لها أن تؤدى نفس الدور الذي قامت به في وقت ما مدينتا إيبوليس وإيونيا .

بيد أن أسمى ازدهار التنظيم السياسى الاسكندنافى عبر البحار ، قد تجلى في جمهورية ايسلندا التي قامت على أرض جزيرة قطبية تبدو أنها لا تبشر بخير ، وتبعد خمسمائة ميل عن أقرب قاعدة اسكندنافية في جزائر فارو .

أما عن النتائج السياسية لهجرات الإنجليز والحث (١) البحرية إلى بريطانيا ؛ فإن ثمة شىء أكثر من المصادفة مداره أن جزيرة كان يشغلها في مطلع التاريخ الغربى مهاجرون كانوا قد تخلّصوا أثناء عبورهم البحر من أصفاد العشيرة الأصلية ، قد أصبحت فيما بعد بلداً حقق فيه المجتمع الغربى طائفة من أهم خطى الارتقاء في تقدمه السياسى . ولقد مر الغزاة الدانمركيون والنورمانديون الذين أعقبوا الإنجليز مباشرة والذين كان لهم فخر المساهمة في المآثر السياسية الإنجليزية التالية ، بنفس التجربة التحررية .

ولقد أتاح مثل هذا المزيج من الشعوب ، تربة موافقة بشكل غير عادى للتطور السياسى . ولا غرابة في أن المجتمع الغربى قد نجح في إقامة « السلم الملكية » في إنجلترا

(١) الحث من القبائل الجرمانية الدنيا في جوتلاند . وقد استقر بعضها في إنجلترا في

ثم الحكومة البرلمانية بعد ذلك ، بينما تأخر في القارة تطور المجتمع الغربي السياسي ، بسبب بقاء روابط القرابة بين الفرنجة واللومباردين الذين لم تهيء لهم رحلة بحرية تحررية ، مناسبة للتخلص من هذا العبء الاجتماعي منذ البداية .

(٣) الحافز الناتج عن الضربات

أما وقد بحثنا البيئات الطبيعية كعامل حافز ، حرى بنا استكمال هذا الجانب من دراستنا باستعراض ميدان البيئات البشرية من هذه الناحية نفسها . ونستطيع أن نفرق أولاً بين تلك البيئات البشرية التي هي جغرافياً خارج نطاق المجتمعات التي تعمل فيها ، وتلك التي تختلط معها جغرافياً .

وتشمل الفئة الأولى : تأثير المجتمعات أو الدول في جيرانها عندما يكون الفريقان في البداية مستحوزين دون سواهما على بعض المناطق . وبالنسبة للمنظمات التي تؤدي الدور السلبي في مثل هذه العلاقة الاجتماعية ، تكون البيئة البشرية التي تجابهها ؛ إما : « خارجية » أو « أجنبية » .

أما ثاني الفئتين ، فإنها تشمل تأثير « طبقة » اجتماعية في أخرى عندما تشترك الطبقتان في استملاك نفس المنطقة . ونحن نستخدم هنا اصطلاح « الطبقة » بأوسع معانيه ؛ والصلة في هذه الحالة « داخلية » أو « عائلية » ؛ فإذا تركنا بحث هذه البيئة البشرية الداخلية إلى حين ، نستطيع أن نبدأ بإجراء تقسيم آخر : بين الصدام الخارجي عند ما يتخذ شكل صدمة مفاجئة ، وبين مداه إذ يتخذ شكل ضغط متصل .

ومن ثم يصبح لدينا ثلاثة موضوعات للبحث : صدمات خارجية ، وضغوط خارجية ، واقتصاص داخلي .

ما هو أثر الضربات المفاجئة ؟ هل يسرى عليها المبدأ الذي وضعناه والقائل بأنه كلما عظم التحدى ، عظم العامل الحافز ؟

طبعي أن تكون أولى الحالات التي تعرض للفكر تأييداً لهذا المبدأ ،

هى الحالات التى تكون فيها قوة عسكرية قد حفزت فى البداية على أثر التحامات متعاقبة مع جيرانها ، ثم أخضعها فجأة خصم لها لم يسبق لها قط أن سبرت غور قوته .

فما الذى يحدث عادة عندما ينهزم على هذا النحو الدرايمى بناء الإمبراطوريات المبتدئون فى منتصف عملهم ؟ هل يلبثون هاجعين حيث سقطوا مثل سيسيرا ؟ أو هل ينهضون مرة أخرى بقوة مضاعفة من فوق أهمهم الأرض مثل انتيوس الجبار^(١) فى الأسطورة الهلينيسية .

تدل الأمثلة التاريخية على أن السبيل الأخير هو السبيل المعتاد .

فمثلاً ماذا كان تأثير انتصار البرابرة على مقادير روما ؟ لقد دهمتها المصيبة بعد انقضاء خمس سنوات فحسب من انتصارها فى صراعها الطويل مع مدينة فيي Veii الأترورية^(٢) ، ذلك الانتصار الذى هبأ لها أخيراً موضعاً يسمح لها بفرض زعامتها على بلاد اللاتين^(٣) ، وكان ينتظر بعد هزيمة الجيش الرومانى فى موقعة الليا واحتلال البرابرة روما نفسها من أولها لآخرها ، أن يزول بضربة واحدة ما كانت روما قد أحرزته أخيراً من نفوذ وسلطان . أفاقت روما عوضاً عن ذلك من النكبة الغالية سريعاً^(٤) حتى أمكنها بعد ذلك بأقل من نصف قرن أن تشبك بنجاح تام فى التحامات أطول مدى وأعظم مشقة مع جيرانها الإيطاليين ، مما قاد إلى بسط سلطانها على إيطاليا بأجمعها .

(١) Antaeos جبار ليبي الأصل تذكر الأساطير اليونانية عنه أنه لا يقار عليه أحد . ثم تغلب عليه هرقل . (المترجم)

(٢) Etruscan Veii مدينة تبعد عشرة أميال عن شمال غرب روما . وقد كانت منافساً هائلاً لروما قبل أن يدمرها القائد الرومانى كاميلوس تدميراً تاماً بعد حصار دام عشر سنوات . (المترجم)

(٣) Latium فى الأصل أحد أقسام إيطاليا القديمة . وكانت تمتد على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوباً بشرق نهر التير . (المترجم)

(٤) نسبة إلى بلاد الغال = فرنسا الحالية . (المترجم)

كذلك ماذا كان تأثير أسر تيمور لنك لبايزيد بالديريم (السلطان بايزيد)
في موقعة أنقرة على مقادير العثمانيين ؟

داهمت هذه النكبة العثمانيين ، في نفس الوقت الذي كانوا فيه على وشك
استكمال غزوهم مقر المسيحية الأرثوذكسية الرئيسي ، في شبه جزيرة البلقان .
فكان أن طرحتهم أرضاً على الشاطئ الأسوي من البوغازيين في هذه الآونة
الخرجة ، صاعقة أنهم من بلاد ما وراء النهر . وكل ما كان ينتظر ، هو
انهيار صرح إمبراطوريتهم غير المكتمل انهياراً عاماً . إلا أن هذا لم يحدث
في الواقع . إذ لم يمض نصف قرن بعد ذلك ، حتى أمكن محمد الفاتح أن
يضع الحجر الأخير في بناء بايزيد باستيلائه على القسطنطينية .

وتبين تواريخ منافسي روما الفاشلين ، كيف يترتب على هزيمة ساحقة ،
اشتداد عزيمة جماعة حتى يصبح لنشاطهم هدف أعظم ؛ حتى وإن أحبطت
غايته هزيمة أخرى ، بعد مقاومة أشد مراساً من مقاومتهم السابقة . فإن
هزيمة قرطاجنة - مثلاً - في حربها الأولى مع روما ، قد حفزت هاميلكار
باركا إلى الاستيلاء لحساب بلده على إمبراطورية في اسبانيا ، فاقت الإمبراطورية
التي فقدتها في صقلية فعلاً . بل أدهش القرطاجنيون العالم مرتين حتى بعد
هزيمة هانيبال (في الحرب البونية الثانية) ، إبان نصف القرن الذي انقضى
قبل دمارهم النهائي :

الأولى ، بسرعتهم في تسديد تعويضات الحرب واستعادة رواج تجارتهم .
والثانية ، بالبطولة التي أظهروها رجالاً ونساء وأطفالاً في القتال والموت
في الصراع النهائي .

كذلك فإن فيليب الخامس المقدوني بعد هزيمته الساحقة في موقعة
سينوسيفالي Cynoscephalae - وكان حتى هذا الوقت ملكاً أقرب إلى
التفاهة - كرس نفسه لمهمة تحويل بلاده إلى دولة بلغت من القوة الفعلية
قдрاً أناح لابنه برسوس Perseus تحدى روما بمفرده . وكان قريباً من

التغلب عليها ، قبل أن تنهار مقاومته العنيفة نهائياً في موقعة بيدنا Pydna :
ويطالعنا مثال آخر من نفس النوع ، وإن اختلف في نتيجته ؛ هو تدخل
النمسا خمس مرات في حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون . إذ جلب
لها تدخلها في المرات الثلاث الأولى الحزى فضلاً عن الهزائم . لكنها أخذت
بعد موقعة استرليتز تشمر عن ساعدها . فإن كان لاسترليتز في النمسا تأثير
موقعة سينوسيفالى في مقدونيا ، فإن موقعة واجرام^(١) تماثل بالنسبة لها
موقعة بيدنا . بيد أن النمسا كانت أوفر حظاً من مقدونيا إذ أمكنها التدخل
مرة أخرى والانتصار عام ١٨١٣ .

وأكثر من ذلك إثارة للعجب ، تصرف بروسيا في دورة الحروب
نفسها .^١ ففي غضون الأربع عشرة سنة التي توجت بنكبة إيننا^(٢) ، وما تلاها
من استسلام ، اتبعت بروسيا خطة تبدو حقيرة وشائنة للوهلة الأولى ،
لكن أعقبتها حملة الشتاء الباسلة في إيلاو Eylau . ولم تؤد صرامة الشروط القاسية
التي أملت في تيلسيت Tilsit ، إلا إلى زيادة أثر العامل الحافز الذى نشأ منذ
البداية من جراء صدمة إيننا . وكانت الطاقة التى بعثها هذا العامل الحافز
في بروسيا شيئاً خارقاً . لأنه لم يقتصر على تجديد الجيش البروسى فحسب ،
بل تجاوزه إلى تجديد النظم الإدارية والتعليمية البروسية . وفي الواقع قد حوّل
الدولة البروسية إلى وعاء مختار لصون الخمر ، خمر القومية الألمانية الجديد
تحت إرشاد « ستين » و « هاردنبرج » حتى « هامبولدت » و « بيسمارك » :
أعادت هذه الدورة نفسها في عصرنا الحاضر بطريقة مؤلمة للغاية ومعروفة
إلى حد أنها لا تحتاج إلى تعليق : فإن الهزيمة الألمانية في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨

(١) واجرام Wagram قرية قريبة من فيننا بالنمسا حدث بها في يوليو عام ١٨٠٩
موقعة هزم فيها نابليون النمساويين . (المترجم)

(٢) مدينة بألمانيا كانت مسرح موقعة انتصر فيها الفرنسيون على البروسيين في ١٤
أكتوبر سنة ١٨٠٦ . (المترجم)

وزيادة وطأة هذه المزيمة بسبب احتلال الفرنسيين لحوض الروهر في ١٩٢٣ / ١٩٢٤ ، قد أدى إلى الانتقام النازي الشيطاني ، وإن كان عقيماً^(١) .

على أن المثال التقليدي عن تأثير الصدمة كعامل حافز ، يتجلى في رد فعل هيلاس بصفة عامة وأثينا بصفة خاصة على اجتياح الإمبراطورية الفارسية لها - وهي الدولة السورية العالمية - خلال سنة ٤٨٠ - ٤٧٩ ق . م . فلقد تناسبت انتفاضة أثينا ، مع شدة ما كابده من آلام . فإنه بينما أنقذت حقول بوشيا الحصبة بفضل خيانة أصحابها للقضية الهلينية وأنقذت حقول لاقديمونيا Lacedaemon بفضل بسالة الأسطول الأثيني ؛ خربت بشكل منتظم أراضي آتيكا الفقيرة خلال موسمين متعاقبين ، واحتُلَّت أثينا نفسها ، وهُدِّمت معابدها . واضطر جميع سكان آتيكا إلى الجلاء عن البلاد وعبور البحر لاجئين إلى جزر البلوبونيز . فكان أن قاتل الأسطول الأثيني في ظل هذا الموقف وريح معركة سلاميس .

ولا يستغرب أن تصبح الصدمة التي أثارت هذه الروح التي لا تقهر في الشعب الأثيني ، مقدمة مآثر فريدة في تاريخ البشرية ، لسناها وغزارتها وتعددتها . وقد أبدت أثينا في إعادة تشييد معابدها في عصر بركليس - تلك المعابد التي كانت بالنسبة للأثينيين أقرب رمز إلى قلوبهم لبعث بلادهم - حيوية أسمى كثيراً مما أظهرته فرنسا بعد عام ١٩١٨ . إذ لما استخرج الفرنسيون القنبلة المتفجرة من كاتدرائية ريمس ، قاموا على نمط ديني باستعادة كل حجر تفتت وتمثال مكسور ؛ في حين أن الاثينيين لما وجدوا معبدهم « هكاتامبدون » Hekatompedon

(١) كتب المستر توينبسي هذا الجزء من الكتاب في صيف ١٩٣١ عند ما كان الدكتور برننج مايزال مستشار ألمانيا . ولكن بعد ما حققت الحركة النازية فعلا هذه المكاسب المثيرة والمشغومة في انتخابات الريخستاخ في سبتمبر سنة ١٩٣٠ ، التي رفعت تمثيل الحزب فيه من ١٢ مقعداً من ٤٩١ مفقداً إلى ١٠٧ مقاعد من ٥٧٧ مقعداً ، كتب مايتني : بدا واضحاً فعلاً أن الضربات التي انتهت على ألمانيا منذ هدنة ١٩١٨ لها نفس التأثير الحافز الذي ترتب على الضربات التي ابتلي بها بروسيا قبل ذلك بقرن عام ١٨٠٦ - ١٨٠٧) : (ملخص الكتاب) .

قد أحرق كله حتى أساسه ، تركوا الأساس على حاله وشرعوا في بناء البارثنون Parthenon في موقع آخر^(١) .

إن أعظم دليل وضوحاً على العامل الحافز المترتب على الضربات ، هو ردود الفعل الناشئة عن النكبات الحربية . إلا أنه يمكن استقصاء الأمثلة على ذلك والعتور عليها في ميادين أخرى . فلنحصر أنفسنا في حالة مفردة علياً في الميدان الديني ، وتمثل في أعمال الرسل .

فإن هذه الأعمال التي تفيض بالحيوية التي كان مكتوباً لها أن تكتسب في النهاية العالم الهليني للمسيحية ، قد تم التفكير فيها في اللحظة التي أصبح الرسل في حالة انكسار روحي نتيجة لفقدانهم فجأة وجود معلمهم بين ظهرانيهم وقتاً قصيراً بعد أن ظهر لهم بمعجزة . كان من الجائز أن تكون هذه الخسارة الثانية أشد إيلاماً من الصلب نفسه ، إلا أن شدة الصدمة في ذاتها بعثت في نفوسهم رد فعل نفساني متناسباً معها في قوته ، تمثل رمزياً على شكل رجلين بثياب بيض ، وعلى ثورة نزول الألسن من النار في اليوم الخمسين ، وبشّر الرسل بفضل قوة الروح القدس ، بألوهية يسوع المصلوب الغائب ، لا للشعب اليهودي فحسب ولكن للسندريم^(٢) نفسه .

واستسلمت الحكومة الرومانية نفسها في غضون ثلاثة قرون إلى الكنيسة التي أنشأها الرسل في ساعة كانت فيها روحهم في أوطأ حالاتها^(٣) .

(١) كان للندن كذلك عقب الحريق الكبير عام ١٦٦٦ شجاعة التمسك بثلاثي الممارية فشيدهن Wren كاتدرائية القديس بولس عوضاً عن محاولة استعادتها على الطراز القوطي . فما الذي كان ليفعله الجيل الحاضر من اللندنيين لو أن كنيسة وستمنستر أو كاتدرائية القديس بولس هدمتا بفعل قتال الإلمان ؟ (الملخص)

[والواقع أن الإنجليز يبنون كاتدرائية كوثنبري - وقد مرت تماماً - وفق طراز العمارة السائدة لا وفق ما كانت عليه] . (المترجم)

(٢) المجمع أو السندريم : مجلس الأمة اليهودية قديماً . (المترجم)

(٣) أعظم مثال حديث يطالمننا عن الصدمات كعامل إثارة : الصدمة التي تلقاها العرب =

(٤) الضغط كحافز

علينا أن نبحث حالات تأخذ فيها الصدمة شكلاً مختلفاً هو شكل ضغط خارجي متواصل . ومن الناحية الجغرافية السياسية ؛ تقع في معظم الحالات ، الشعوب أو المدن التي تتعرض لمثل هذا الضغط ، في نطاق الفئة العامة التي تضم ولايات التخوم أو الحدود .

وتتمثل خير طريقة عملية لدراسة هذا النوع الخاص من الضغط ، في الالتجاء نوعاً ما إلى استعراض الدور الذي قامت به أقاليم الحدود في تواريخ الجماعات المألقة لها ، مع مقارنتها بالدور الذي أدته الأراضي التي تتمتع بمزيد من الوقاية ، والواقعة داخل أراضي الجماعات نفسها .

١- في العالم المصري :

وجّهت سير الأحداث فيما لا يقل عن ثلاث مناسبات كبرى في تاريخ الحضارة المصرية ، دول انبثقت من جنوب مصر العليا ؛ فإن تأسيس المملكة المتحدة حوالي ٣٢٠٠ ق . م ، وإقامة الدولة العالمية حوالي ٢٠٧٠ ق . م ، واستعادتها حوالي عام ١٥٨٠ ق . م ؛ تمت جميعها ابتداء من تلك المقاطعة الضيقة المحصورة .

وفي الواقع كانت هذه المقاطعة ، التي تعتبر في الواقع « مشتلاً » للإمبراطوريات المصرية ، الحد الجنوبي للعالم المصري الذي كان معرضاً لضغط قبائل النوبة . على أن القوة السياسية قد انكفأت إلى الدلتا خلال

= في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . إذ أصبحت نقطة التحول في تاريخ العالم العربي الحديث . إذ لم تنقُض أربع سنوات على هزيمة الحكومات العربية في فلسطين حتى اندلعت الثورة المصرية في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فقضت على الإقطاع وحققت الاستقلال الصحيح في جميع الميادين ، وتلاها استقلال السودان وإنشاء الجمهورية العربية المتحدة وثورة العراق وتأثرت إفريقيا بهذه الموجة العارمة في شواطئها . وما تزال انتصارات القومية العربية تتوالى .
(المترجم)

الجزء الأخير من التاريخ المصرى ، أى الستة عشر قرناً من الشفق بين انهيار الإمبراطورية الحديثة وفناء المجتمع المصرى نهائياً فى القرن الخامس بعد الميلاد . مثلما دأبت على الانكفاء إلى الحد الجنوبي خلال الألفى سنة السابقة . وكانت الدلتا هى المنطقة الحدية المواجهة لشمال إفريقيا وجنوب غرب آسيا كليهما .

ومن ثم تمكن قراءة التاريخ السياسى للعالم المصرى من بدئه حتى نهايته ، باعتباره توتراً بين قطبي القوة السياسية ، يقعان فى كل عصر فى منطقة الحدود الجنوبية ومنطقة الحدود الشمالية على التوالى . ولا توجد هناك أمثلة لإحداث سياسية كبرى تنبعث من نقط واقعة فى الداخل .

فهل يمكننا أن نعرض سبباً لغلبة نفوذ المنطقة الحدية الجنوبية فى النصف الأول من الفترة الزمنية للتاريخ المصرى ، ونفوذ المنطقة الحدية الشمالية فى النصف الثانى ؟

قد يبدو أن السبب مداره أنه عقب غزو النوبيين الحربى واستيعابهم الحضارة المصرية إبان عصر تحتمس الأول (حوالى ١٥٥٧ - ١٥٠٥ ق . م) ؛ خفّ الضغط على منطقة الحدود الجنوبية أو اختفى . بينما تزايد فى الوقت نفسه أو بعد ذلك بقليل ، ضغط برابرة ليبيا وممالك جنوب غرب آسيا على الدلتا ، زيادة ملحوظة جداً .

ومن ثم لا تقتصر غلبة نفوذ أقاليم الحدود فى التاريخ السياسى المصرى على نفوذ الأقاليم الوسطى ؛ بل إن إقليم الحدود المعرض للتهديد أكثر من غيره ، قد حظى فى جمع الأوقات منذ هذا الحين ، بنفوذ غلاب .

٢ - فى العالم الإيرانى :

يكشف التاريخان المتعارضان للشعبيين التركيين : العثماني والقرماني اللذان احتل كل منهما إبان القرن الرابع عشر بعد الميلاد جانباً من الأناضول

« الحصن الغربي الأمامي في العالم الإيراني) نفس النتيجة في ظروف
جد مختلفة .

إذ كانت كلتا الجماعتين التركيتين « دولتين خليفتين » للسلطنة السلجوقية
في الأناضول . وكانت تلك السلطنة دولة إسلامية تركية أقامها في الأناضول
المغامرون الأتراك السلجوقيون خلال القرن الحادي عشر قبيل بدء
الحروب الصليبية مباشرة . فحققوا لأنفسهم ، بفضل توسيعهم حدود دار
الإسلام على حساب المسيحية الأرثوذكسية ، الجزء في الدنيا والثواب
في الآخرة .

وعندما انهارت هذه السلطنة خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، بدا
كما لو أن من بين جميع ورثة السلجوقيين ، كان القرمانيون أكثر حظاً في
أن يخلفوا هذه السلطنة بينهما كان العثمانيون أقلهم حظاً . إذ ورث القرمانيون
لباب الأملاك السلجوقية مع عاصمتها قونية ، بينما ألقى العثمانيون أنفسهم
حائزين على قطعة من القشرة .

وفي الواقع حصل العثمانيون على فضلات الملك السلجوقي لكونهم آخر
الوافدين ، مع مجيئهم إبان ظروف متواضعة . فلقد كان عثمان الذي أضفى
عليهم اسمهم السلالي^(١) ، ابن شخص يدعى أرطغرل وهو زعيم جماعة
من اللاجئين لا اسم لها : شذرة لا يؤبه لها من الحطام البشري ألقها في
أقصى حدود دار الإسلام ، صدمة موجة المغول الهائلة ، وقتما تدفقت
على حدود المجتمع الإيراني الشمالية الشرقية من وسط السهب الأوراسي .
ولقد خصص آخر هؤلاء السلاجقة الأناضوليين ، شقة من الأرض على حافة
الهضبة الأناضولية الشمالية الغربية لآباء هؤلاء اللاجئين العثمانيين ؛ حيث
كانت الأراضي السلجوقية ، تناخم الأراضي التي ما فتئت الإمبراطورية
البيزنطية تحتفظ بها على شواطئ بحر مرمره الآسيوية . وهو موقع مكشوف

(١) الاسم السلالي : اسم شخص يطلق على سلالة أو أمة . (المترجم)

اصطلح على تسميته بـ «سلطان أونو» . وربما كان العثمانيون قد حسدوا حسن طالع القرمانيين ، لكن ليس للشحاذين خيار !!

وقبّل عثمان نصيبه وأخذ على نفسه توسيع حدوده على حساب جيرانه المسيحيين الأرثوذكس – جاعلا هدفه الأول مدينة بروصة البيزنطية . واستغرق الاستيلاء عليها تسعة أعوام (١٣١٧ – ١٣٢٦ ميلادية) . ومع ذلك كان العثمانيون على حق في إطلاق اسمه على أنفسهم ، إذ كان عثمان هو المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية . وأفلح العثمانيون في غضون ثلاثين عاما من سقوط بروصة ، في وضع أقدامهم على الشاطئ الأوروبي للدردنيل ، وفي أوروبا صنعوا مستقبلهم . بل إنهم قبل نهاية القرن ذاته ، غزوا بيدهم اليسرى القرمانيين وغيرهم من الجماعات التركية في الأناضول ، بينما كانوا في الوقت نفسه يخضعون بيدهم اليمنى الصرب واليونانيين والبلغاريين .

وكان ذلك نتيجة الحافز المترتب على الحد السياسي . ذلك لأن دراسة الحقبة السابقة من التاريخ تدل على أنه – على عكس بيئة القرمانيين الذين لم يُبدوا أية روح إقدام وانمحي ذكرهم عن استحقاق . فإن البيئة الجغرافية لقاعد عمليات العثمانيين في الأناضول ، لم تتوفر فيها أية صفات خاصة تساعد على تكوين الأبطال وتجعل من سلطان أونو إحدى البيئات المشار إليها في القسم الأول من هذا الفصل .

وإذا عدنا ككرة أخرى إلى العصر السابق لظهور الأتراك السلجوقيين في الربع الثالث من القرن الحادى عشر الميلادى ، وقتما كان الأناضول ما يزال داخل حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية ؛ نجد الأرض التي احتلها القرمانيون بعد ذلك تتفق على وجه التقريب مع المنطقة المخصصة من قبل لعمليات جيش الأناضول البيزنطى الذي احتل مكان الصدارة بين جيوش الإمبراطورية الرومانية الشرقية في الأزمنة الأولى من تاريخ المسيحية الأرثوذكسية . وبعبارة أخرى ؛ احتفظ خلفاء القرمانيين في مقاطعة قونية

من الرومانيين الشرقيين ، بمكان الصدارة في الأناضول الذي شغله بعد ذلك العثمانيون المقيمون بسلطان أونو . والسبب في ذلك واضح ؛ إذ كانت مقاطعة قونية في هذا التاريخ المتقدم ، مقاطعة حدود للإمبراطورية الرومانية تجاه الخلافة العربية . في حين أن المنطقة التي احتلها العثمانيون بعد ذلك ، كانت تستمتع فيما سبق ، بالحمول المريح باعتبارها مركزاً داخلياً .

٣ - في المسيحية الأرثوذكسية الروسية :

نجد هنا - كما وجدنا في مكان آخر - أن حيوية المجتمع تنزع ، إلى تركيز نفسها - على التابع في مناطق الحدود الواحدة بعد الأخرى ، كلها اختلفت شدة القوة النسبية لمختلف الضغوط الخارجية على مناطق الحدود العديدة .

كان الحوض الأعلى لنهر الدنيبر ، هو المنطقة الروسية التي استقرت فيها لأول مرة الحضارة المسيحية الأرثوذكسية في عصر ازدياعها^(١) الأصلي عبر البحر الأسود وعبر السهب الأوراسي من القسطنطينية . ثم نقلها من هناك إلى حوض القولجا الأعلى خلال القرن الثاني عشر ، سكان الحدود الذين كانوا يوسعون حدودهم في هذا الاتجاه على حساب وثنى الغابات الشمانية الغربية من الفنلنديين البدائيين . ولكن ما لبث أن تراجع مركز الحيوية إلى الدنيبر الأدنى ، ليجابه ضغطاً ساخقاً من جانب بدو السهب الأوراسي ، وكان هذا الضغط الذي فرض على الروسين فجأة نتيجة لحملة باتو الخان المغولي عام ١٢٣٧ ميلادية ، متواصلاً شديداً للغاية . ومن الطريف أن نلاحظ في هذه الحالة أسوأ بالحالات الأخرى ، أن تحديداً شديد الوطأة إلى درجة خارقة ، قد استثار استجابة إبداعية فريدة في نوعها .

ولم تقل هذه الاستجابة شأناً عن تطور أسلوب جديد للحياة وتنظيم

(١) ازديع : نقل نباتنا من مكان آخر لزراعته فيه . (المترجم)

اجتماعى جديد ، أتاح لحيث جمع مستقر ، للمرة الأولى فى التاريخ ، لا مجرد الاحتفاظ بكيانه تجاه البدو الأوراسيين ولا مجرد ردعهم بمحملات تأديبية مؤقتة فحسب ؛ بل أتاح لهم غزو أرض العدو وغزواً نهائياً وتغيير أرض البدو الطبيعى بواسطة تحويل مراعى ماشية البدو إلى حقول فلاحين ، والاستعاضة عن مخيماتهم المتنقلة بقرى مستقرة . وكان القوزاق الذين أنجزوا هذا العمل البارع المنقطع النظير ، سكان حدود المسيحية الأرثوذكسية الروسية الذين صُهرُوا فى بوتقة الحدود ضد البدو الأوراسيين (قبيلة باتوخان الذهبية) فى غضون القرنين التاليين وتشكلوا على سنداها ؛ ويدنون إلى أعدائهم باسمهم - القوزاق - الذى جعلوه أسطورياً . فما هو إلا كلمة قازاق التركية وتعنى الخارج عن القانون الذى يأبى الاعتراف بسلطان سيده الشرعى البدوى^(١) . ولقد كانت جماعات القوزاق التى انتشرت بعيداً والتي كانت - وقت إبادةها - خلال ثورة ١٩١٧ الشيوعية الروسية - تصطف عبر آسيا مباشرة من نهر الدون حتى نهر أوسورى^(٢) ، تنحدر جميعها من جماعة مفردة هى لها بمثابة الأم ، جماعة قوزاق الدينير :

وكان هؤلاء القوزاق الأصليون أخوة حربية شبه رهبانية تماثل فى بعض نقاطها أخوة الإسبارطين الهلينية ، أو عضوية هيئة الفرسان الصليبيين : ولقد أدركوا بفضل طرائق توجيه حروبهم بلاهدة ولا هوادة ضد البدو ؛ بأنه إذا كان على الحضارة أن تشن حرباً ناجحة ضد البدو ، يجب مقاتلتهم بأسلحة وموارد أخرى تختلف عن أسلحتهم ومواردهم ، ومثلما تفوق بناء الإمبراطوريات الغربيون المحدثون على خصومهم البدائيين بواسطة توجيهه

(١) يبدو فى الواقع أن المعنى التركى لكلمة « قوزاق » يطابق المعنى الإبرلندى لكلمة Tory ولكن المعنى الحرفى لكلمة قازاق هو « المازق » أى زارع الأرض الخاضع للجزية المقيم على حافة السهوب والذى قد يمارس بالطبيعة السيادة البدوية . وبعبارة أخرى فإن القازاق يمثل قابيل فى قصة قابيل وهابيل التى رويت من وجهة النظر البدوية . (المؤلف)

(٢) نهر أوسورى فى سيبيريا . وهو أحد روافد نهر آمور . (المترجم)

موارد التصنيع المتفوقة ضدهم . كذلك تفوق القوزاق على البدو ، بفضل استفادتهم من موارد الزراعة المتفوقة . وكما أعجزت القيادة الحربية الغريبة الحديثة البدو حريباً في موطنهم نفسه بالتفوق على سرعة تحركاتهم باستخدام وسائل مثل السكك الحديدية والسيارات والطائرات ؛ كذلك أعجز القوزاق البدو حريباً بوسيلتهم الخاصة التي مدارها الاستيلاء على الأنهار ، وهي العامل الطبيعي الوحيد في السهب الذي خرج عن سيطرة البدو والذي وقف ضدهم عوضاً عن أن يكون معهم . إذا كانت الأنهار عند فرسان البدو ، عقبات قاهرة لاتنفع في النقل ، بينما كان الفلاح والحطاب الروسيين خبيرين في الملاحة النهرية .

وهكذا ، بينما كان القوزاق يتعلمون منافسة أعدائهم البدو في فن الفروسية ، لم يفهم أن يصبحوا ملاحين . وكان استخدام المركب - لاصهوة الجواد - هو الذي شق لهم السيطرة على أوراسيا . فاجتازوا الدنيبر إلى الدون ومنه إلى الفولجا . وعبروا عام ١٥٨٦ المرتفعات الواقعة بين نهري الفولجا والأوب Ob . وقادهم ارتيادهم الممرات المائية في سيبيريا عام ١٦٣٨ ، إلى شواطئ المحيط الهادى على بحر أوخوتسك .

وفي نفس القرن الذى تميز باستجابة القوزاق الظافرة لضغط البدو من الجنوب الشرقى ؛ تلقى حد آخر ؛ الضغط الخارجى الأساسى ، فأصبح بذلك البؤرة الأساسية للحياة الروسية . إذ تعرضت روسيا في القرن السابع عشر الميلادى - لأول مرة في تاريخها الحديث - إلى ضغط هائل مصدره العالم الغربى ، تمثل في احتلال جيش بولونى موسكو فترة عامين (١٦١٠ - ١٦١٢) . وأمكن السويد بعد ذلك بقليل في عهد ملكها جوستافوس أدولفوس ، إبعاد روسيا عن البلطيق بفضل استيلائها على جميع ساحل هذا البحر الشرقى ؛ من فنلندا إلى حد بولندا الشمالى ، الذى كان يمتد وقتئذ حتى مقربة بضعة أميال من مدينة ريجا .

ولكن لم يكد ينصرم القرن السابع عشر ، حتى استجاب بطرس الأكبر لهذا الضغط الغربى بإنشائه مدينة بطرسبرج عام ١٧٠٣ على أرض استردها من السويد ، ونشر على بحر البلطيق على طريقة القوى البحرية الغربية علم البحرية الروسية .

٤ - فى العالم الغربى المواجه لبرابرة القارة :

أول ما يطاتلنا حينما ننتقل إلى تاريخ حضارتنا الغربية - وكان هذا أمراً طبيعياً - تعرض حداثها الشرقى - أى حدها البرى المواجه لبرابرة أوروبا الوسطى - لأعنف ضغط خارجى . ولم تقتصر النتيجة على فوز الحضارة الغربية فى الدفاع عن هذا الحد ، بل أمكنها أن تدفعه إلى الوراء باستمرار إلى أن اختفى البرابرة من المشهد . فكان أن وجدت حضارتنا الغربية نفسها عندئذ متصلة على حدودها الشرقية ، لا مع البرابرة ، ولكن مع حضارات تنافسها .

وإننا نغنى فى الوقت الحاضر بإيراد أمثلة لنتائج ضغط الخلود كعامل حافز فى الجزء الأول فقط من هذه الفترة من التاريخ .

أظهر ضغط برابرة القارة فى المرحلة الأولى للتاريخ أثره الحافز فى انبعاث كيان اجتماعى جديد على صورة إمارة الفرنجة التى كانت ما تزال نصف بربرية . إذ أولى نظام الميروفنجيين^(١) - الذى استوعب الإمارة الفرنجية فى بدء الأمر - وجهه إلى الماضى الرومانى ، بينما تطلع عهد الكارولنجيين^(٢) إلى المستقبل . فإذا كان الميروفنجيون قد حاولوا بصفة

(١) الميروفنجيون Merovingians أو الميرونجيين Merwings اسم العائلة المالكة الأولى للملوك الفرنجة فى الغال (اسم فرنسا قديماً) الذين حكموا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

(٢) الكارولنجيون Carolingians أو الكارولونجيون Carlovingians أسرة مالكة إفرنجية سميت باسم أعظم ملوكها كارلوس ماجنوس أى شارلمان . (المترجم)

عرضية استعادة الإمبراطورية الرومانية ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا استجابة لدعوة من قبيل القول المشهور :

« أيها الأموات انهضوا »^(١) أى قوموا فعاونوا الأحياء على تأدية واجبهم .
ففى أى جزء من أملاك الفرنجة تم استبدال الكارولنجيين الإيجاييين
النشطين بالميرفنجيين المنحلين الكسالى ؟

لم يتم ذلك فى الداخل ولكن على الحدود . حدث ذلك فى أستراسيا (أرض الراين) وهى أرض تقع على جانبي الحدود الرومانية القديمة ، وتعرضت لإغارات متصلة من سكسونى غابة أوروبا الشمالية ، ومن الآفارين^(٢) القادمين من السهب الأوراسى . ولم يحدث فى نوستريا (وهى تعادل شمال فرنسا بوجه التقريب) وهى أرض أخصبها الثقافة الرومانية القديمة وحماية من إغارات البرابرة . وتبدى مآثر شارلمان ، مدى تأثير الحافز المترتب على هذا الضغط الخارجى : حملاته السكسونية الثمانى عشرة ، واستئصال الآفارين ، والنهضة الكارولنجية التى تعتبر أولى مظاهر انبثاق الطاقة الثقافية والذهنية فى عالمنا الغربى .

ثم حدث انتكاس لإثر رد الفعل الأوستراسى هذا ، على الحافز الناتج عن الضغط . فكان أن خلفه رد فعل ساكسونى قفز إلى المقدمة بعد فترة تقل عن القرنين ؛ وتنجلي فى عهد أوتو الأول . فإنه وإن اعتبر إدماج أراضى البرابرة السكسونيين فى المسيحية الغربية مآثرة خالدة لشارلمان ،

(١) Debout Les Morts كلمة مأثورة عن صف ضابط فرنسى اسمه بريكار Périctat قالها فى ٨ أبريل ١٩١٥ عند ما كان الألمان يهاجمون خندقه وكان المدافعون عنه قد ماتوا أو أصيبوا بإصابات قاتلة . فصمدوا وصدوا الهجوم الألمانى . (المترجم)
(٢) الآفاريون شعب ذو نزعة حرية ينتمى بأصله إلى العنصر التترى . استوطن سبب نهر الدون ومشارف القوقاز . وقد خدموا منذ عام ٥٥٨ ميلادية فى جيش الإمبراطور جوستينيان واستطاعوا منذ عام ٥٦٦ ميلادية حتى النصف الأول من القرن السابع أن يوسعوا أملاكهم كثيرا وأن يخضعوا لسلطانهم البلغار وشعوب الدانوب السلافية . وأخيرا قضى شارلمان عليهم عام ٧٩٦ فزالوا كجنس ذى كيان خاص . (المترجم)

بيد أن هذا النجاح نفسه قد فتح طريق تحويل الحد - وتحويل العامل الحافز معه - من مقاطعته أستراسيا الظافرة إلى مقاطعة ساكسونيا التي فتحها . ففي عصر أوتو ، أثار الحافز ذاته في ساكسونيا ، نفس رد الفعل الذي أثاره في أستراسيا من قبل ، إيان عهد شارلمان . وكما هزم شارلمان الساكسونيين ، كذلك هزم أوتو الونديين^(١) . وبعد ذلك دُفعت حدود المسيحية الغربية دفعا منتظما متواصلا في اتجاه الشرق .

وتم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تحويل البقية الباقية من برابرة القارة إلى غربيين بفضل نظامين جديدين : المدن والرهبانيات العسكرية . فلم يتم ذلك إذن بفضل زعامة ملوك وراثيين انتحلوا لأنفسهم اللقب الإمبراطوري الروماني ، مثل شارلمان وأتو . وقامت مدن الهانسا والفرسان التبتون فيما بينهم بدفع حدود المسيحية الغربية من نهر الأودر إلى نهر دفيينا . وكانت تلك هي الجولة الأخيرة في هذا الصراع القديم . وتم به محور برابرة القارة من على وجه الأرض قبل ختام القرن الرابع عشر . أولئك البرابرة الذين طفقوا طوال ثلاثة آلاف سنة يغيرون على حدود ثلاث حضارات متعاقبة : المينوية والهلينية والغربية .

وهكذا أصبحت المسيحية الغربية والمسيحية الأرثوذكسية عام ١٤٠٠ ميلادية متاخمتين . بعد أن كانت تعزلهما في القارة عزلا تاما الواحدة عن الأخرى ، عصابات البرابرة التي كانت تعترض اتصالهما على طول خط يمتد عبر القارة عرضاً ، من بحر الأدرياتيك إلى المحيط القطبي (المتجمد) الشمالي .

ومن الطريف ملاحظة كيف حدث على هذا الحد المتحرك الفاصل بين حضارة تتقدم ، وبربرية ترتد . وقد حدث بعد انقلاب الضغط الذي أصبح متواصلا منذ أن تولى أوتو الأول إتمام عمل شارلمان ، أن انتقل عامل الحفز تدريجيا كلما تقدم الهجوم الغربي المضاد . فلقد عانت دوقية ساكسونيا

(١) من الشعوب السلافية في شرق ألمانيا . (المترجم)

— مثلاً — بعد انتصارات أوتو على الوندلين ، نفس الخسوف الذى تعرضت له أوستراسيا قبل ذلك بقرنين ؛ بعد انتصارات شارلمان على السكسونيين ؛ إذ فقدت ساكسونيا عام ١٠٢٤ ميلادية (أى بعد ذلك التاريخ بستين عاماً) سيطرتها ، وانشطرت قطعاً .

بيد أن الأسرة الإمبراطورية التى خَلَفَت الأسرة المالكة السكسونية ، لم تنشأ فى الجهة الشرقية من خط الحدود الزاحف ، مثلما انبعثت الأسرة المالكة السكسونية شرق حدود الكارولنجنين . بل انبعثت أسرة الفرانكونيين^(١) — وجميع الأسر المالكة التى أعقبتها والتى حملت اللقب الإمبراطورى (هوهنستوفين ولوكسمبرج وهابسبرج) — على رافد أو أكثر من روافد نهر الراين . ولم يتح خط الحدود البعيد — عندئذ — عامل الحفز إلى هذه الأسر المالكة الإمبراطورية المستخلقة . ولذلك لن يدهشنا تدهور السلطة الإمبراطورية تدهوراً متصلاً ابتداء من الجانب الأخير من القرن الحادى عشر فصاعداً . وحدث ذلك رغماً عن عظمة بعض الأباطرة الأفراد كفردريك بارباروسا .

على أن الإمبراطورية التى أعادها شارلمان قد عاشت — وإن كانت بلا شك شبحاً لشبح — « لا هى بالمقدسة ولا هى بالرومانية ولا هى إمبراطورية »^(٢) لتؤدى كرة أخرى دوراً حيوياً فى حياة المجتمع الغربى السياسية . وتدين باستعادة حيويتها إلى حقيقة مبناها أن سلسلة الأحداث وتنظيمات الأسر المالكة قد أقامت فى نهاية العصور الوسطى الأخيرة آل هابسبرج — وأصلهم من الراين — فى النمسا . ولما حملت هذه الأسرة على عاتقها

(١) نسبة إلى فرانكونيا دوقية قديمة بين ساكسونيا العليا وبوهيميا . وكانت تعتبر الوطن الأصل للفرنجة . وقد استولى عليها كلوفيس فى القرن الخامس الميلادى ثم أصبحت تحت سلطان شارلمان وأصبحت بعد معاهدة فردون عام ٨٤٣ ميلادية مركز المملكة الألمانية . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى تسمية إمبراطورية شرلمان بالإمبراطورية الرومانية الألمانية المقدسة والجملة الأخيرة قالها فونتين ساخراً . (المترجم)

تبعات خط حدود جديد تماما ، استجابت لحافز جديد هيأته تلك التبعات .
وهنا يجب أن ننتقل إلى بحث هذا الموضوع .

٥ - في العالم الغربي الموجه للإمبراطورية العثمانية :

شرع ضغط الأتراك العثمانيين على العالم الغربي يأخذ شكلاً جديداً مع حرب المائة عام بين العثمانيين والمجر . وهي حرب بلغت ذروتها في معركة وهاتش عام ١٥١٦ ؛ وترتب عليها استئصال مملكة المجر ، التي عاشت لبان القرون الوسطى . وكانت المجر التي قد انتصبت متحفزة تحت قيادة جون هانبادي وولده ماتياس كورفينوس ، أشد خصوم العثمانيين مراسا ، حتى ذلك الوقت . بيد أنه رغمًا عن تعزيز قوات المجر بفضل اتحادها مع بوهيميا منذ عام ١٤٩٠ وما بعدها ؛ فإن عدم التكافؤ بين قوى كلا الخصمين كان من العظم بحيث فاق الجهد طاقة المجر ، مما ظهر أثره في نتيجة معركة موهاش . وما كان إلا لكارثة في مثل هذه الضخامة أن تكفل إبراز تأثير نفساني قين بجمع شمل بقية المجر مع بوهيميا والنمسا في اتحاد وثيق مستديم في ظل أسرة هابسبرج التي كانت تحكم النمسا منذ عام ١٤٤٠ ميلادية . ولبت هذا الاتحاد قرابة الأربعمئة سنة ، ولم يحلّ إلا في سنة ١٩١٨ ، وهونفس العام الذي شاهد انهيار الدولة العثمانية نهائياً ، وهي التي كانت وجهت قبل ذلك بأربعة قرون ضربة موهاش الديناميكية .

حقاً ، تحددت مقادير مملكة هابسبرج الدانوبية منذ لحظة إنشائها ، وفقاً لمقادير عدوتها الدولة التي دفعها ضغطها إلى الحياة . ولقد اتفق من الناحية الزمنية عصر بطولة الملكية الدانوبية ، مع الفترة التي أحس فيها العالم الغربي باستفحال وطأة الضغط العثماني . وقد يبدأ عصر البطولة هذا مع الحصار العثماني العقيم الأول لفينا عام ١٥٢٩ الذي انتهى مع الحصار الثاني خلال سنة ١٦٨٢ - ٣ ميلادية .

ولقد أدّت العاصمة النمساوية في هاتين المحنتين الجسيمتين - في المقاومة اليائسة التي أبدتها العالم الغربي للهجوم العثماني - نفس الدور الذي قامت به مدينة فردون في المقاومة الفرنسية للهجوم الألماني في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . وكان الحصاران اللذان منيت بهما فيينا ، نقطتي تحول في التاريخ العسكري العثماني . إذ أوقف فشل الحصار الأول موجة الفتوح العثماني خلال قرن قبلها التي ظلت تمخر عباب الدانوب صوب أعاليه . وتبين الخريطة ما يصعب على الكثيرين تصديقه من غير تثبت ، وهو أن المسافة بين فيينا والقسطنطينية أطول من المسافة منها إلى مضيق دوفر . هذا ولقد انبنى على فشل الحصار الثاني ، تواصل ارتداد العثمانيين بعده - رغما عن الوقفات والتقلبات - حتى دفع الحد التركي إلى الوراء ، من جنوب شرقى ضواحي فيينا - حيث توقف من سنة ١٥٢٩ إلى سنة ١٦٨٣ - إلى شمال غربى ضواحي أدرنه^(١) .

إلا أن خسارة الإمبراطورية العثمانية لا تعنى ربما الملكية هابسبرج الدانوبية : إذ لم يظل عصر بطولة الملكية الدانوبية قائما بعد تداعى الإمبراطورية العثمانية . فإن انهيار الدولة العثمانية الذى فتح المجال فى جنوب شرق أوروبا لتشغله قوى أخرى ، قد رفع عن كاهل الملكية الدانوبية بالتبعية ، الضغط الذى كان يحفزها إلى ذلك الوقت . فكان أن أعقبت الملكية الدانوبية فى انهيارها ، الدولة التى أبرزتها ضرباتها إلى الوجود فى البداية ، ثم شاركتها الإمبراطورية العثمانية فى نهاية المطاف .

وإذا ما ألقينا نظرة على الإمبراطورية النمساوية خلال القرن التاسع عشر وقتما أصبحت الإمبراطورية العثمانية - التى كانت ذات خطر يوما ما - رجل أوروبا المريض ، نجد أنها تُعانى فى الوقت الحاضر عجزا مزدوجا : إذ لم يقتصر الحال على انتفاء صفة دولة الحدود عنها ، فقد استحال نظامها القائم على وضع عدة دول تحت لواء واحد والذى برهن على كفاية استجابته

(١) يشير المؤلف إلى موقعة أدرنه خلال الحرب العالمية الأولى . (المترجم)

للتحدى العثماني إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر ، استحال إلى حجر عثرة تقف في سبيل تحقيق المثل العليا القومية التي شاعت خلال القرن التاسع عشر .

فقد أضاعت دولة هابسبرج الملكية القرن الأخير لوجودها في محاولات ترمي إلى عرقلة تعديل خريطة أوروبا على أساس قومي ، وقدر لجميع محاولاتها الفشل . فاضطرت أن تتحايل على العيش جنباً إلى جنب مع الإمبراطورية الألمانية الجديدة والمملكة الإيطالية الجديدة بهذا ثمناً : التنازل عن السيطرة على ألمانيا وعن حيازة أرض في إيطاليا وتوفيقها في توحيد مصالحها مع المصالح القومية للمجريين والبولونيين فضلاً عن مصالح العناصر الألمانية في ممتلكاتها بفضل قبولها نظام الحل المتوسط^(١) عام ١٨٦٧ الذي وفق بين الألمان والمجر وكذلك التوفيق بين الألمان والبولنديين في جاليسيا . على أن الإمبراطورية النمساوية لم ترغب أو لم تستطع الوصول إلى اتفاق مع الرومانيين والتشييكوسلوفاكيين واليوغوسلافيين الموجودين في إقليميها ، فكان أن حققت طلاقات المسدس في ساراجيفو^(٢) نذير محوها من خريطة العالم .

ولنلق أخيراً نظرة على اتجاهي النمسا وتركيا المتعارضين في فترة ما بين الحربين العالميتين :

لقد خرجتا كلاهما من حرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ جمهوريتين ، ووجدتا من إمبراطوريتهما اللتين جعلتاها وقتاً ما جارتين وخصمين . بيد

(١) نظمت العلاقات المالية والتجارية بين النمسا والمجر بمقتضى معاهدة عقدت للمرة الأولى عام ١٨٦٧ ، وجددت في أعوام ١٨٧٨ ، ١٨٨٧ و ١٩٠٢ و ١٩٠٧ . وكانت الغاية الأساسية من عقدها تعيين المبلغ الذي تساهم به كل من المجر والنمسا في الميزانية الإمبراطورية وتقسيم الدين الأهل بينهما على أساس نسبي . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى مصرع ولي عهد النمسا بطلقات مسدس أحد الوطنيين الصربيين عام ١٩١٤ وهي الحادثة التي كانت بداية الحرب العظمى الأولى . (المترجم)

أن التشابه ينتهى هنا . إذ كان النمسيون ، من بين الشعوب الخمسة التى كانت فى الجانب الخاسر أشدهما إصابة وأكثرها خضوعا ، وتجلى ذلك فى تقبلهم الوضع الجديد فى استكانة صحبها استسلام مطلق أو أسف عميق . بينما كان الأتراك على العكس ، الشعب الوحيد من بين الشعوب الخمسة الذى شمر سلاحه فى فترة تقل عن عام من تاريخ الهدنة فى وجه الدول الظافرة وأجبرها على تعديل معاهدة الصلح التى حاول المنتصرون فرضها ، من أساسها^(١) .

وبهذا استطاع الأتراك تجديد شبابهم وتحويل مصيرهم . وهم ما عادوا الآن يقاتلون فى ظل أسرة مالكة عثمانية منهرة ، للمحافظة على هذه المقاطعة . أو تلك من إمبراطورية متداعية ، بل يشنون مرة أخرى حرب حدود بعد تخلى أسرته المالكة عنهم . ويتبعون زعيا^(٢) اختاروه من بين صفوفهم لفضائله ، على غرار اختيارهم سلطانهم الأول عثمان مستهدفين المحافظة على أراضيهم لانتوسيع نطاقها . هذا ويقع ميدان معركة إين أونو In onu التى تم فيها العمل الخاسر فى الحرب اليونانية التركية خلال أعوام ١٩١٩/١٩٢٢ ، فى ذلك التراث الأصيل الذى اقتطعه آخر السلاجقة إلى العثمانيين قبل هذا التاريخ بسمائة سنة .

ودارت بذلك العجلة دورة كاملة :

٦ - فى العالم الغربى على حدوده الغربية :

تعرض المجتمع الغربى فى عصوره الأولى لضغط تناول بالإضافة إلى حدة القارى الشرقى ، جهات ثلاث تقع فى الغرب :

الأول : ضغط ما يدعى بـ « الهذب الكلتى »^(٣) فى الجزائر البريطانية ومقاطعة بريتانى^(٤) .

(١) معاهدة سيفر . (المترجم)

(٢) يقصد المؤلف كمال أتانورك . ولقد كتب هذا الفصل قبل وفاة أتانورك عام

١٩٣٦ . (المترجم)

(٣) الهذب : غراشيب ، ويقصد الحد . (المترجم)

(٤) مقاطعة فى شمال فرنسا . (المترجم)

الثاني : ضغط الفايكنج الاسكندنافيين على الجزائر البريطانية وعلى طول الساحل الأطلسي للقارة الأوروبية .

الثالث : ضغط الحضارة السورية ممثلة في الغزاة المسلمين الأوائل في شبه جزيرة إيبيريا .

الأول : ضغط الهُذب الكلتى :

كيف حدث أن قاد صراع البقاء بين الإمارات البربرية البدائية السريعة الزوال والإمارات التي كونت ما يسمى « بالنظام السباعي »^(١) Heptarchy إلى انبثاق دولتين متطورتين ومستمرتين في الكيان السياسي الغربي .

إذا تعمنا في العملية التي أدت إلى حلول مملكتي إنجلترا واسكتلندا مكان إمارات النظام السباعي ؛ سنجد قوام العامل الحاسم في كل مرحلة ، استجابة تحدٍ هيئة ضغط خارجي . ومن هنا يتأتى إرجاع بدء مملكة اسكتلندا إلى التحدي الذي وجهه عنصر البيكت Picts والاسكوت لإمارة نورثمبريا الانجلوسكسونية Northumbria .

وقد قام بإنشاء عاصمة اسكتلندا الحالية أدوين دوق نورثمبريا - وهي لا تزال تحمل اسمه - لتكون قلعة حدود لنورثمبريا لمواجهة للبيكت فيما وراء مصب نهر فورث ومواجهة للبريطانيين في سترانكللايد Strathclyde الانجلوسكسونية .

ونشأ التحدي وقتما غزا البيكت والاسكوت أدنبره عام ٩٥٤ ميلادية وأجبروا نورثمبريا على التنازل لهم عن لوثيران بكاملها . وأثار التنازل عن تلك المقاطعة السؤال الآتي :

هل يقدر لمنطقة الحدود المسيحية الغربية تلك ، الاحتفاظ بثقافتها

(١) لقب يطلق على سبع ممالك هي : كنت ، انجلترا الشرقية ، ساسكس ، وسكس ، نورثامبريا ، مرسيا ، أسكس ، وكانت قوام إنجلترا السكسونية . وقد أصبحت وسكس في مسهل القرن التاسع أنواها فأمكنها استيعاب الممالك الأخرى . (المترجم)

المسيحية الغربية رغماً عن تغيير النظام السياسى ، أو هل يكتب لها الاستسلام
لثقافة الغرب الأقصى الدخيلة ، ثقافة الغزاة الكلت ؟

كانت لوثيان أبعد من أن تستسلم ، بل إنها استجابت للتحدى وفتنت
غزاتها مثلما فتنت اليونان المهزومة روما المنتصرة .

ولقد فتنت ثقافة الأرض المغزوة الملوك الاسكتلنديين حتى دفعتهم إلى
اتخاذ أدبهم عاصمتهم ، وباتوا يشعرون ويسلكون كما لو أن لوثيان هى
موطنهم وأن المنطقة الجبلية Highlands ما هى إلا جزء غريب قصى من
أملأهم . فكان أن استعمرت شواطئ اسكتلندا الشرقية حتى مصب نهر
موراى . ودفع مستوطنون من عنصر الإنجليز - من أصل لوثيانى - خط
حدود الأرض الجبلية إلى الوراء تحت رعاية الحكام الكلت وعلى حساب
السكان الكلت الذين تجمعهم روابط القرابة بالملوك الاسكتلنديين الأصليين .
وأصبحت اللغة المسماة بالاسكتلندية تعنى اللغة الإنجليزية التى يتحدث بها
أهل لوثيان ، عوضاً عن أن تعنى اللهجة الغالية Gaelic التى كان يتحدث بها
السكوت الأصليون - وهذا من عجائب الأسماء . ولم ترتب النتيجة النهائية
لغزو الاسكوت والبيكت للوثيان ، زحزحة الحدود الشمالية الغربية للمسيحية
الغربية إلى الوراء من نهر فورث^(١) إلى نهر تويد^(٢) ؛ بل كانت دفعها إلى
الأمام ، حتى أصبحت تشمل جزيرة بريطانيا العظمى بأكملها .

وهكذا أصبحت إمارة من إمارات النظام السباعى الإنجليزى سيطر
عليها الكلت ؛ تواة مملكة اسكتلندا الحالية . كما يلاحظ أن إمارة نورثمبريا

(١) نهر فورث ، نهر فى اسكتلندا ويبلغ طوله ١٠٧ أميال ويصب فى بحر الشمال
ويسمى مصبه هناك Firth of Forth وال Firth كلمة اسكتلندية تعنى « خور » .
(المترجم)

(٢) نهر تويد Tweed نهر فى جنوب اسكتلندا يصرف معظم مياه الجانب الشرقى من
الأراضى الاسكتلندية الواطئة . ويصب فى بحر الشمال بعد مروره بمقاطعة نورثمبرلند . ويبلغ
طول النهر ٩٧ ميلاً ويصرف مياه أرض مساحتها ١٨٧٠ ميلاً مربعاً . (المترجم)

التي أنجزت هذه المأثرة الفذة ، كانت مقاطعة حدود بين نهري تويد وفورث
لا مقاطعة داخلية بين نهر تويد وخورهمبر^(١) .

ولو زار أحد الرحالة المستنيرين نورثمبريا في القرن العاشر عشية
التنازل عن لوثيران للاسكوت والبيكيت ، لقرر بكل تأكيد أنه لا ينتظر
لأدنبره مستقبل زاهر ، وأنه إن قدر لأية مدينة في نورثمبريا أن تصبح
عاصمة دائمة لدولة متحضرة لكانت هي يورك . ولما كانت يورك تقع في
أوسع سهول شمال بريطانيا المزروعة ، فقد أصبحت فعلاً مركزاً عسكرياً
لولاية رومانية ثم موطن الكرسي الاسقفي للكنيسة ؛ فضلاً عن صيرورتها
قاعدة لمملكة دانيلو Danelaw الاسكندنافية^(٢) التي لم تدم طويلاً . لكن
هذه المملكة قد استسلمت عام ٩٢٠ إلى ملك وسكس ، فأنحدت يورك
— من ثم — إلى مستوى مدينة ريفية إنجليزية . ولا يوجد في الوقت الحاضر
شيء يُعيد إلى الذهن حقيقة المصير العظيم الذي كان مقدراً لها في وقت ما ،
عدا ضخامة حجم مقاطعة يوركشير غير العادي بين المقاطعات الإنجليزية .
وأية إمارة من إمارات النظام السباعي الواقعة جنوبي همبر عقد لها لواء
الزعامة وكونت نواة مملكة إنجلترا المستقبلية ؟

نلاحظ أن الإمارات القريبة من القارة الأوروبية لم تكن صاحبة الزعامة
من بين المتنافسين وقت حلول القرن الثامن الميلادي ، بل كانت إمارتا مرسيا
Mercia ووسكس Wessex اللتان تعرضت كلتاهما لعامل حافز انبعث
على خط الحدود عند الكلت الذين لم يتم إخضاعهم في ويلز وكورنوال .
كما نلاحظ أن مرسيا ، كانت في المقدمة في الجولة الأولى من هذا النضال .

(١) خور على الساحل الشرقي لإنجلترا يقع بين يوركشير شمالاً واينوكلنشير جنوباً .

ولهذا الخور أهمية تجارية كبيرة . ويقع على شاطئيه ميناء هل Hull وجرمبسبي Grimsby

(المترجم)

(٢) مملكة كانت تضم خمس عشرة مقاطعة إنجليزية وهي المنطقة التي أخضعها الدنمركيون

لحكمهم . (المترجم)

وكان الملك أوفافا Offa ملك مرسيا يسيطر على قوة أعظم من قوة أى ملك من ملوك وسكس في عصره . لأن ضغط ويلز على مرسيا ، كان أقوى من ضغط كورنوال على وسكس ، وإن كانت مقاومة أهالى ويلز الغربيين فى كورنوال قد خلفت صدى خالداً فى أسطورة « آرثور »^(١) إلا أنه يبدو أن السكسونيين تغلبوا على هذه المقاومة فى يسر نسبي .

ومن الناحية الأخرى يشهد اشتقاق كلمة مقاطعة الحدود March أساساً من اسم مرسيا نفسه ؛ بقسوة الضغط على مرسيا . كما تشهد به من الناحية الأثرية ؛ مخلفات السد الترابى العظيم الممتد من مصب نهر دى Dee إلى مصب نهر سفرون Severn الذى أطلق عليه اسم Offa's Dyke . ولقد بدا فى تلك المرحلة كما لو أن المستقبل يحالف مرسيا لا وسكس . لكن ظهر زيف هذه التنبؤات فى القرن التاسع وقتما تفوق تحدى اسكندنافيا الجديد تفوقاً ساحقاً ، إلى أبعد حد ؛ على التحدى الوافد من الهدب الكلتى . وفى هذه المرة ، أخفقت مرسيا فى الاستجابة للتحدى على حين استجابت له وسكس بنجاح تحت قيادة الفرد Alfréd . ومن ثم أصبحت نواة مملكة إنجلترا التاريخية :

الثانى : الضغط الاسكندنافى :

ترتب على الضغط الاسكندنافى على شواطئ المسيحية الغربية الواقعة على المحيط فضلاً عن انضمام إمارات هبتارشى فى مملكة إنجلترا تحت حكم بيت سدريك Cedric ، انضمام الإمارات المتروكة فى الجانب الغربى من امبراطورية شارلمان ، بعضها إلى بعض ، لتكوين مملكة فرنسا تحت حكم بيت كابيت Capet .

(١) آرثور ملك من ملوك البريطانيين أثناء القرن السادس الميلادى . وتغلب على سيرته الصبغة الأسطورية ، الأمر الذى يحذى بالكثيرين إلى الاعتقاد بأنه شخصية أسطورية . وتذكر الرواية أنه قاد الجيش البريطانى (عام ٥١٦ م) ضد الغزاة الساكسون . وقد انتصر جيش آرثور فى موقعة مونت بادون حوالى ٥٢٠ ميلادية . ويقال إنه قتل فى معركة كاملان (٥٣٧ م) . وتذكر الأسطورة أنه أنشأ نظام فرسان المائدة المستديرة . (المترجم)

ودفع هذا الضغط إنجلترا إلى الامتناع عن تشييد عاصمتها في وينتشستر Winchester العاصمة السابقة لوسكس على مرمى البصر من الويلز الغربيين . وشيدتها بعيدة نسبياً عن الخطر الاسكندنافي ، في لندن التي « تحملت الحرارة وثقل اليوم^(١) » والتي ربما تكون قد هيأت الوسيلة لتحوّل المعركة الطويلة تحولا حاسماً في عام ٨٩٥ ميلادية بفضل صدها محاولة ارمادا دانماركية^(٢) الوصول إلى أعلى نهر التيمس . كذلك لم تشيّد فرنسا عاصمتها في مدينة لاون Leaon التي كانت مقر آخر الكارولنجين ، ولكن في باريس التي وقفت تسد الثلمة تحت قيادة والد أول ملوك أسرة كابيت ، وأوقفت محاولة الفايكنج الوصول إلى أعلى نهر السين .

وهكذا تولدت مملكتنا إنجلترا وفرنسا الحديثتان ، عن استجابة المسيحية الغربية لتحدي اسكندنافيا البحرى . كذلك صنع الشعبان الفرنسى والإنجليزى الأداة الحربية والاجتماعية القديمة التي امتاز بها النظام الإقطاعى خلال عملية فرض سيطرتهم على هؤلاء الأعداء . ولقد عبر الإنجليز تعبيراً فنياً عن الشعور الذى أثارته فيهم هذه التجربة في مجموعة جديدة من الشعر الحماسى ، ما تزال باقية منه شذرة في « أنشودة معركة مالدون » .

وجدير بالملاحظة كذلك أن فرنسا قد أعادت في نورماندى ، ما حققه الإنجليز في لوثيان . إذ أحالت غزاة نورماندى الإسكندنافيين إلى جنود الحضارة الشعب الذى غزوه . فبعد انقضاء أكثر من قرن بمدة وجيزة من إبرام « رولان » وأصحابه مع الملك الكارولنجى « شارل الساذج » المعاهدة التي كفلت لهم موطناً دائماً على شاطئ فرنسا على المحيط الأطلسى (سنة ٩١٢ ميلادية) ؛ كانت ذرارى هؤلاء الاسكندنافيين توسّع حدود

(١) يشير المؤلف إلى عبارة في الإنجيل تعنى حدة الموقف وثقله . (المترجم)

(٢) تعنى الأرمادا الأسطول القاهر . وهو في الأصل أسطول أسباني حاول غزو إنجلترا

وقتل . (المترجم)

المسيحية الغربية في البحر الأبيض المتوسط على حساب المسيحية الأرثوذكسية والإسلام . وأخذوا ينشرون ضياء الحضارة الغربية الكامل - كما كان يسطع وقتئذ في فرنسا - في مملكتي إنجلترا واسكتلندا الجزيرتين اللتين كانتا ما تزالان حتى ذلك الوقت راقدتين في الغيب^(١) .

- قد يعتبر الغزو النورماندى لإنجلترا - من الناحية الفسيولوجية - العمل الفذ الأخير لأطباع البرابرة الفايكنج التي أصابها الإخفاق حتى ذلك الوقت . لكن هذا التفسير ينطوى من الناحية الثقافية على قسط كبير من السخف . لأن النورماندين كانوا قد نبذوا ماضيهم الاسكندنافي الوثني بقدمهم ، لا لنقص ناموس المسيحية الغربية في إنجلترا ، ولكن لاستكمالها .

ومصدقا لذلك نجد في ميدان المعركة بهاستنج ، تايفير Taillefer الراوية الحربى النورماندى ، يمتطى جواده في طليعة الفرسان النورماندين وينشد وسط المعركة ، مستخدماً اللغة الفرنسية في إنشاده لا اللغة النوردية . ولم يتغن وقتئذ بأبيات ساجه سجورد^(٢) ولكن بأنشودة رولان^(٣) .

وعندما فتنت الحضارة المسيحية الغربية الإسكندنافية الذين غزوا أملاكها ، لم يكن مستغرباً أن تنجح في تسجيل انتصارها عن طريق حلوها محل الحضارة الاسكندنافية العقيمة في اسكندنافيا ذاتها .

وسنعود إلى هذا الموضوع عندما نستجمع قائمة الحضارات العقيمة في دراسة مقارنة .

الثالث : ضغط الحضارة السورية :

تركنا إلى آخر المطاف ، ضغط الحدود الذى كان من الناحية الزمنية

(١) الغيب : خط امتزاج النور بالظلام . (المترجم)

(٢) Soga of Sigurd

(٣) Chanson ed Roland

أقدم أنواع هذا الضغط وفاق جميع ما عداه في شدته ؛ وذلك إن قيس بقدرة حضارتنا المتناهية في ضآلتها وبشكل ظاهر، إبان طفولتها . وحقاً بلغ هذا الضغط حداً - كما يُبدى جيبون^(١) - كاد يلقى بالهزيمة في مكان من قائمة الحضرارات العقيمة^(٢) . إذ كان اكتساح العرب الحضارة الغربية وهي لا تزال في المهد ، ما هو إلا حادث في رد الفعل الأخير للمجتمع السوري ضد افتتات الهيلينية طويل الأمد ، على منطقة المجتمع .

ذلك لأنه لما قام العرب بهذا الواجب والإسلام في أوج قوته ، لم يتوقفوا حتى استردوا للمجتمع السوري جميع ممتلكاته السابقة في أوسع نطاقها . ولم يقتصروا على إعادة تكوين إمبراطورية عربية من الدولة السورية العالمية التي كانت قد أدمجت في الأصل في الإمبراطورية الأخمينية الفارسية : بل إنهم واصلوا عملهم بإعادة فتح ممتلكات قرطاجنة الفينيقية القديمة في إفريقيا وإسبانيا . فبالنسبة للاتجاه الأخير لم يعبروا عام ٧١٣ ميلادية - في أعقاب هامليكار وهانيبال - مضيق جبل طارق فحسب ، ولكن جبال البرانس كذلك . ومن ثمت - فإنهم وإن لم يفعلوا ما فعل هانيبال في عبوره الرون والألب ، إلا أنهم سلكوا أرضاً لم يطأها هانيبال من قبل ، لما حملوا أسلحتهم إلى نهر اللوار .

ولا شبهة في أن الهزيمة التي لحقت بالعرب على أيدي الفرنجة بقيادة جد شارلمان في موقعة تور عام ٧٣٢ ميلادية تعتبر إحدى وقائع التاريخ

(١) ادوارد جيبون هو أوسع المؤرخين الإنجليز شهرة . ولد عام ١٧٣٧ وتوفي عام ١٧٩٤ ميلادية . وقد جعله كتابه « أفول الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ، في مقدمة المؤرخين العالميين . (المترجم)

(٢) امتد خط حدود ظافر أكثر من ألف ميل من صخرة جبل طارق إلى شواطئ نهر اللوار فلو كانت هذه المسافة قد ضوعفت لحملت العرب إلى حدود بولندا وإلى هضاب اسكتلندا ولربما كان يدرس الآن تفسير القرآن في مدارس اكسفورد ولكان وعظماؤها يشيدون بقداسة وحى محمد وصده لشبختون . انظر جيبون الفصل ٥٢ .

الحاسمة . إذ استمر رد الفعل الغربى على الضغط السورى - الذى أبان عن نفسه تلك الموقعة - فى عنفوانه ، وازدادت كمية تحركة على هذه الجهة ؛ حتى إنه بعد ذلك بسبعة أو ثمانية قرون ، حمل الدافع الذى أوجدته الطليعة البرتغالية ؛ المسيحية الغربية خارج شبه جزيرة إيبيريا ؛ ودفعها إلى الأمام عبر البحار ، حول إفريقيا إلى جاوه وملقا ومكاو . كما حمل الطليعة الكاستيلية^(١) عبر المحيط الأطلسى ، إلى المكسيك وعبر المحيط الهادى ، إلى مانىلا . لقد أسدى هؤلاء الرواد الإيبيريون خدمة لا نظير لها للمسيحية الغربية ، بتوسيعهم أفق المجتمع الذى يمثلونه - وبالتالى مجاله - حتى كاد أن يشمل كافة الأراضى المسكونة على الكرة الأرضية وبحارها القابلة للملاحة . ويرد إلى هذه الطاقة الإيبيرية أساسا ، ازدهار المسيحية الغربية حتى غدت « المجتمع العظيم » مثل حبة الخردل المضروب بها المثل فى الإنجيل . وترعرعت حتى أصبحت شجرة ، تأتى جميع الأمم إليها .

ويؤكد انبعاث طاقة المسيحية الإيبيرية بفضل عامل الضغط الحافز الذى أوجده العرب ، حقيقة مبناها انقضاء هذه الطاقة حالما توقف أثر الضغط المراكشى . وهنا فى القرن السابع عشر ، حل محل البرتغاليين والكاستيليين فى العالم الجديد الذى أبرزه إلى الوجود ؛ متطفلون هولنديون وإنجليز وفرنسيون من أجزاء المسيحية الغربية فيما وراء البرانس . واتفق تاريخ هزيمتهم وراء البحار ، مع وقت زوال عامل الحفز التاريخى فى داخلية بلادهم بسبب استئصال بقايا الموريسكو^(٢) فى شبه الجزيرة عن طريق الذبح أو الطرد أو إكراههم على التحول عن دينهم .

ويبدو إذن أن علاقة الحدود الإيبيرية بالعرب ، تشابه علاقة ملكية هابسبرج الدانوبية بالعثمانيين . إذ كان لكليهما حيوية طالما كان الضغط

(١) أى الأسبانيون .

(٢) أى ذرارى المسلمين . (المترجم)

شديداً . ولما أن تراخى الضغط أخذ كل منهم - اسبانيا والبرتغال والنمسا - يتوانى فحسر مركز القيادة بين الدول المتنافسة في عالمه الغربى نفسه .

(٥) حافز النقم

١ - الحدادون العرج والشعراء العميان :

عندما تقع نقمة على عضو حى وحده دون الأعضاء الآخرين في نفس نوعه ؛ وذلك بفقد القدرة على استخدام عضو معين في الجسم أو ملكة معينة ؛ يصبح في مكنته الاستجابة إلى هذا التحدى بالتخصص في استعمال عضو آخر أو ملكة أخرى ، حتى يبرز أقرانه في ميدان النشاط الجديد هذا ، ليعوّض قصوره في الميدان الأول . ففي مكنته العميان مثلاً ، تنمية شعور حساسية للمس لديهم أكثر مما يتفق عادة للمبصرين

وهذا ما نجده بنفس الطريقة إلى حد ما في الكيان الاجتماعى . فإن أية جماعة أو طبقة تتناولها النقمة اجتماعياً ، سواء من جراء إصابة أو بفعلها هى نفسها أو بفعل أعضاء آخرين في المجتمع الذى تعيش فيه ، تستطيع الاستجابة للتحدى المقيّد لحريتها ، أو الذى يحرمها من مزاولة طائفة من أوجه النشاط . وذلك بواسطة تركيز طاقاتها في ميادين أخرى والتفوق فيها .

ولقد يحسن بدء البحث من أبسط حالة ، مدارها : وضع نحول فيه طائفة من العوائق المادية بين بعض الأفراد وبين القيام بالوظائف العادية في المجتمع الذى هم أعضاء فيه . وحرى بنا أن نستعيد إلى أذهاننا المحنة التى يمر بها الأعمى أو الأعرج في مجتمع بربرى ، مطلوب فيه من الرجل العادى أن يكون محارباً ، إن احتاج الأمر . فإذا يكون رد فعل الأعرج المهمجى ؟ فإذا كانت قدمه لا تقوى على حمله إلى ميدان القتال ، فما تزال يده تستطيع صنع الدرع والسلاح لأقرانه ؛ يرتدونه ويستعملونه . ويكتسب في الصناعة حذقاً تدفعهم إلى الاعتماد عليه مثلاً . يستند هو عليهم ، وهنا

يصبح صورة عادية يومية من هيفيستوس Hephaestus أو فولولكان الأعرج^(١) أو من ولاند Wayland الإعرج (الحداد ولاند Wayland) المشهورين في عالم الأسطورة :

وكيف استجاب البربرى الأعمى ؟ كانت محتته أشد سوءاً ، لأنه يعجز عن استخدام يديه في الحدادة . إلا أنه ما يزال في قدرته استعمالهما في العزف على آلة الطارب^(٢) لتصاحب غناؤه . ويستطيع كذلك استخدام عقله في قرض أشعاره عن أعمال البطولة التي يعجز عن إتيانها ؛ وإن كان يعلم بها بعد حدوثها ، من أقاصيص الجندى غير الفنان عن أقرانه . وبذلك يصبح الشاعر الأعمى وسيلة الخلود التي يتوق إليها المحارب البربرى :

« جنس من الأبطال الشجعان »

« قاتلوا أمام اتريدس وماتوا »

« لم يكن هناك مثل هومير فما كانت أنشودة مقدسة »

« تخلد ما أثرهم العظيمة »

« مغمورين لا ينوح عليهم أحد ، مجهولين »

« تحنقهم سحب الليل السرمدى »

« لم يكن هناك شاعر ليمجد »

« أسماءهم بالضياء »^(٣) .

٢ - الرق :

ما برح الرق من أقسى ضروب النقمة التي لا يفرضها حدث طبيعي ؛ لكنها من تدبير الإنسان وأكثرها شمولاً ووضوحاً . نخذ مثلاً سجل حشد

(١) إله من آلهة الأساطير عند الرومان كان يختص بصناعة الحديد أو المعدن .

(المترجم)

(٢) الطارب Harp آلة موسيقية تعزف بالأصابع وحدها واختراعها المصريون القدماء .

(المترجم)

(٣) هوراثيوس - الأناشيد ص ٤ - ٩

المهاجرين الهائل الذين جلبوا إلى إيطاليا أرقاء من جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ؛ إبان هذين القرنين الرهيبيين ، بين حرب هانيبال وإقامة « سلم أغسطس » . وغالباً ما تكون العراقيل التي يبدأ في ظلها هؤلاء الأرقاء المهاجرون حياتهم الجديدة ، فوق ما يتصوره العقل . ولقد كان بعضهم وريثة تراث الحضارة الهلينية الثقافي . وهؤلاء قد شاهدوا عالمهم المادى والروحاني بأكمله ينقلب رأساً على عقب تحت سمعهم وأبصارهم ، عندما نُهبَت مدنها وسيقوا هم ومواطنوهم إلى سوق الرقيق . وكان آخرون من البروليتاريا الداخلية الشرقية للمجتمع الهليني قد فقدوا تراثهم الاجتماعى فعلاً ؛ لكنهم لم يفقدوا مقدرتهم على الشعور بالألم الذى يسببه الرق .

وهناك مثل يوناني قديم يقول « يُجرّد يوم الاسترقاق الرجل من نصف رجولته » . لقد تحقق هذا المثل إلى حد رهيب فى انحطاط شأن برولتارية روما الحضرية المنحدرة من الرقيق ، والى لم تكن تعيش على الخبز وحده بل على الخبز والاستعراضات Panem et Circenses ؛ من القرن الثانى قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادى ، عندما لم يجدوا قدور اللحم واختفى الناس من على وجه الأرض .

وكانت هذه الحياة الطويلة الشبيهة بالموت ، عقوبة الفشل فى الاستجابة لتحدى الاسترقاق . ولا ريب فى أن هذا الطريق — طريق الإبادة الواسع — قد طرقتة أغلبية تلك الكائنات الآدمية ؛ ذات الأصول المختلفة ، والأسلاف الذين استرقوا جملة خلال أشأم عصور التاريخ الهليني . على أن طائفة منهم ، قد استجابت للتحدى فعلاً « بإنجاز شئ » ؛ فى شكل أو آخر .

إذ ارتفع بعضهم فى خدمة أسيادهم حتى أصبحوا المديرين المسئولين ؛ لأملاك واسعة . ولما اتسع نطاق ضيعة قيصر نفسه وأصبحت الدولة العالمية للعالم الهليني ، استمر رجال قيصر العتقاء يحكمونها . واشترى آخرون — ممن خلع عليهم سادتهم مؤسسات تجارية صغيرة — حريتهم بفضل مدخراتهم

التي سمح لهم سادتهم بالاحتفاظ بها . وصعدوا في نهاية الأمر إلى الثروة والجاه في عالم التجارة الرومانية . وظل آخرون رقيقاً في هذا العالم ، ليصبحوا ملوكاً فلاسفة أو آباء كنيسة في عالم آخر .

وكان الروماني الأصل الملقب — الذي يزدرى بحق سلطة نارسيسوس^(١) Naracissus الشرعية أو مباهاة حديث النعمة أمثال تريمالسيو Trimalchio — يهجه تكريم الحكمة الرصينة لإبيكتتيوس^(٢) Epictetus العبد الأعرج ؛ بينما لا يسعه سوى الإعجاب بحماس جمهرة العبيد والعتقاء المغمورين الذين كان إيمانهم « يحرك الجبال عن مواضعها » .

ولما شاهدت السلطات الرومانية خلال القرون الخمسة الواقعة بين حرب هانيبال واعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية ، معجزة إيمان الرقيق هذه تجرى تحت أنظارهم وتكرر متجددة جهودهم لوقف تيارها بالقوة البدنية ؛ اضطرت هي نفسها في نهاية الأمر إلى الاستسلام لها .

فإذا كان الأرقاء المهاجرون قد فقدوا دورهم وأسرهم وأملاتهم ، إلا أنهم احتفظوا بعقيدتهم . فجلب اليونانيون عقيدة باخاناليا^(٣) Bacchanalia ويونانيو الأناضول عبادة سيبيلا Cycbele (وهي دين أهل أفييس وكانت ربة حيثة الأصل ظلت تعبد طويلاً بعد نهاية المجتمع الذي

(١) شاب في الأساطير اليونانية اشتهر بجماله ثم تحول إلى زهرة تحمل نفس الاسم .
(المترجم)

(٢) فيلسوف يوناني عاش في روما طويلاً كعبد لدى أحد بطانة الإمبراطور نيرون . وكان يلقى دروساً في روما في بدء الأمر ثم نزع عنها إلى نيكوبوليس بعد أن طرد الإمبراطور دويتيان الفلاسفة من المدينة عام ٩١ ميلادية . وجماع فلسفته استقلال العقل البشري عن الظروف الخارجية .
(المترجم)

(٣) باخاناليا مشتقة من باخوس Bacchus إله النبيذ عند اليونانيين . وكان أساس شعائره أن يلبس النساء والرجال جلود الغزلان والملابس الأسبوية ويقرعون الطبول ويتصايحون باسم باخوس . وقد دخلت تلك العقيدة روما عام ١٨٧ ق . م .
(المترجم)

ابتدعت فيه) . وجلب المصريون عبادة إيزيس ، والبابليون عبادة النجوم والإيرانيون عبادة ميترا . كما جلب السوريون المسيحية .

ولقد كتب جوفينال Jovenal في القرن الثاني المسيحي أن نهر العاصي السوري قد صب مياهه في نهر التيبر .

وأثار التقاء مياه هذين النهرين مسألة كشفت عن حدود خضوع العبد لسيده .

وقوام هذه المسألة ؛ هل يقدر لدين البرولتارية الداخلية المهاجر ، اكتساح الأديان المحلية للأقلية المسيطرة في المجتمع اليوناني ؟

إذ متى التقت المياه ، أصبح من المحال عدم امتزاجها بعضها ببعض الآخر . ومتى امتزجت لم يبق ثمة ريب كثير حول التيار الذي سيسود ؛ لم تقاوم الطبيعة باستخدام الفن ، أو القوة . ذلك لأن آلهة العالم اليوناني وحاميته ، كانت قد انسحبت فعلا من ذلك الاشتراك الوثيق المُنْعطى الحياة ؛ الذي كانت تعيش فيه مع عبّادها وقتما ما . في حين دلت آلهة البرولتارية على أنها « ملاذ عبّادها ومناط قوتهم ، وأنها معونة قائمة فعلا في وقت الاضطراب » . وترددت السلطات الرومانية طوال خمسة قرون أمام هذه الاحتمالات ، بين رأيين :

الأول : هل يتحتم عليها أن تتخذ جانب الهجوم على الأديان الأجنبية ؟

الثاني : هل تحبب على تلك الأديان وترعاها ؟

لقد كان كل رب من الأرباب الجديدة يستهوى طائفة من الفئة الرومانية الحاكمة . فكانت ميترا تجدهوى في نفوس الجنود ، وإيزيس قريبه إلى النساء ، والكائنات السماوية إلى المثقفين ، وديونيسوس إلى أصحاب النزعات الهيلينية ، وسيبيل إلى عبّاد الأصنام .

ويعتبر استقبال مجلس الشيوخ الروماني عام ٢٠٥ ق . م إبان أزمة حرب هانيبال - بمظاهر التكريم الرسمي - الحجر السحري أو الشهاب الساقط من السماء حاملاً ألوهية سييل الذي جلب إلى روما كتعويذة من مدينة بسينوس الأناضولية - يعتبر ذلك سابقة لترحيب الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون . كما يُعتبر إلغاء شعائر أتباع باخوس الهيلينيين بعد ذلك بعشرين سنة ، مقدمة لاضطهاد دقلديانوس للمسيحيين .

وإن معركة الآلهة المشبوبة الأوار ، لهى الصورة المطابقة للصراع الأرضي بين المهاجرين الأرقاء وسادتهم الرومان . . وفي هذا الصراع ، فاز العبيد وآلهتهم .

وثمة مثل آخر على الحافز الناشئ عن النعمة يتجلى في التمييز العنصري ، كما هو حاصل في النظام الطائفي للمجتمع الهندي . إذ نشاهد هنا عناصر أو طوائف تُستبعد من مهنة أو حرفة ، فتنجح في غيرها .

ومع ذلك طفق رقيق أمريكا الشمالية الزنجي المهاجر يتعرض لنقمة مزدوجة : التفرقة العنصرية والرق الشرعي . واليوم ، بعد انقضاء ثمانين عاماً على إزاحة العائق الثاني ، ما يزال الإنسان الملون المعتوق ، يزرع كما كان في الماضي تحت ثقل العائق الأول . وليس ثمة ما يقتضى التوسع هنا في سرد الإيذاء المروع الذي كان يواجهه تجار الرقيق وأصحابه في العالم الغربي - أوروبيين وأمريكيين - إلى الجنس الزنجي . ولكن ما نغني هنا بملاحظته دون تعجب وبعد دراستنا لمثيله الهليني ، هو أن الزنجي الأمريكي إذ يجد الموازين ترجح ضده دائماً وبشكل ساحق في هذه الدنيا ، ينظر إلى عالم آخر ليجد فيه العزاء .

ويبدو أن الزنجي يردّ على التحدى الغربي الهائل ، باستجابة دينية لعلها قد تُدلل في النهاية - إن أمكن وقتئذ التطلع إلى الوراء - على أنه يمكن

مقارنتها باستجابة الشرقيين لتحدى سادتهم الرومانيين . وفى الواقع لم يجلب الزنجى من إفريقيا آية ديانة من أديان أسلافه ، ليأسر قلوب رفاقه المواطنين البيض فى أمريكا . إذ كان تراثه الاجتماعى البدائى من نسيج رقيق جداً بحيث أنه تنثر فى الهواء - خلا قطع معدودة - أمام ضغط الحضارة الغربية .

وبالأحرى وفد الزنجى إلى أمريكا عارياً روحانياً ، كما وردها عارياً بدنياً . لكنه طفق يواجه تلك الحالة الطارئة بوساطة تغطية عريه ، بالملابس التى تركها له سيده . كما دأب الزنجى على تكييف نفسه مع بيئته الاجتماعية الجديدة ، باستكشافه فى المسيحية طائفة من المعانى والقيم الطريفة التى جهلتها المسيحية الغربية طويلاً . فإنه قد كشف فى الأناجيل بفضل إعماله الفكر البسيط والقابل للتأثر ؛ أن المسيح نبى جاء إلى الدنيا ليعزز مركز الأقوياء ، ولكن ليس على من شأن المتواضعين والمستضعفين .

وإذا كان الأرقاء السوريون المهاجرون الذين جلبوا المسيحية إلى إيطاليا الرومانية ذات مرة ، قد أنجزوا معجزة تشييد ديانة جديدة حية قامت مكان ديانة قديمة كانت قد ماتت فعلاً ؛ فلعل المهاجرين الزوج الأرقاء الذين قابلوا المسيحية فى أمريكا ، يُنجزون معجزة أعظم من ذلك ببعثهم الميت إلى الحياة . ولعلهم بحدسهم الروحى الشبيه بحدس الأطفال ، وعبقريتهم فى التعبير تعبيراً فنياً جميلاً عن مشاعرهم الدينية الانفعالية ، يوفقون فى إشعال النار فى رماد المسيحية الخامد الذى نقلناه إليهم نحن الغربيين ؛ إلى أن تتأجج النار المقدسة مرة أخرى فى قلوبهم . فربما أمكن بهذه الطريقة جعل المسيحية تنبض بالحياة مرة ثانية ؛ إن كان مكتوباً لها أن تكون العقيدة الحية لحضارة تختصر .

فإن قدر أن يتم ذلك على أبهى كنيسة زنجية أمريكية ؛ لاعتبر ذلك أعظم مراتب الاستجابة الديناميكية التى قام بها إنسان حتى الآن لتحدى النعمة الاجتماعية .

الثالث- الفناريون^(١) والقازنلية^(٢) وسكان الشرق الأدنى :

لا يحتاج لكثير من الأمثلة ؛ موضوع النعمة الاجتماعية التي تصاب بها الأقليات الدينية الكائنة في نطاق جماعة ، لولا وجودها لتوافر لها التجانس : إذ يعلم الكل قوة استجابة طائفة البيوريتان الإنجليزية لمثل هذا التحدى إبان القرن السابع عشر ؛ وكيف أن هؤلاء الذين ظلوا في وطنهم استطاعوا عن طريق مجلس العموم أولاً ثم جنود كروموبل ذوى البأس الشديد بعد ذلك ، قلب الدستور الإنجليزي ظهراً لبطن ، وكفلوا الفوز النهائى لتجربة نظام الحكم البرلماني . وكيف أن هؤلاء الذين عبروا البحار منهم قد أرسوا أسس الولايات المتحدة .

وأهم من ذلك دراسة بعض الحالات الأقل شهرة ، حيث تنهى - بفضل قوة قاهرة فرضتها الجماعة المسيطرة - الجماعات الممتازة والجماعات التي أصابها النعمة ، كلاهما ، إلى حضارات مختلفة ، وإن كانت جميعاً داخلة في نطاق هيئة سياسية واحدة

ففي الإمبراطورية العثمانية ، زُوِّد جسم المسيحية الأرثوذكسية الأساسى - عن طريق دخلاء ينتسبون إلى عقيدة وثقافة أجنبيين - بدولة عالمية لم يكن المجتمع المسيحى الأرثوذكسى ليستطيع السير بدونها ، وإن كان قد أثبت عجزه عن إقامتها لنفسه . فكان على المسيحيين الأرثوذكس والحالة هذه ، أن يدفعوا ثمن قصورهم الاجتماعى بزوال سيادتهم في عقر دارهم . أما الغزاة المسلمون الذين أقاموا السلام العثماني وحافظوا عليه في العالم المسيحى الأرثوذكسى ، فقد تقاضوا ثمن الخدمة السياسية التي يؤدونها لرعاياهم

(١) الفناريون Phanariats نسبة إلى فنار (أو المنار) . والفناريون هم سكان الحي اليوناني في الأستانة . ولقد أطلق هذا اللقب على اليونانيين الذين كانوا يعملون تحت سيطرة العثمانيين . (المترجم)

(٢) نسبة إلى قازان المدينة الثرية القديمة . وهى الآن عاصمة جمهورية تناريا ذات الحكم الذاتي في الاتحاد السوفييتى . (المترجم)

المسيحيين ، على صورة تفرقة دينية . وهنا كما حدث في جهات أخرى استجابت الجماعة التي تناولتها النقمة ، بتحول أفرادها إلى خبراء في تلك الأوجه التي أرغموا على قصر نشاطهم عليها .

ففي الإمبراطورية العثمانية القديمة لم يكن يُسمح إلا للعثمانيين بتولى الحكم أو حمل السلاح . بل تحول امتلاك الأرض وزراعتها في بقاع كثيرة من الإمبراطورية من الرعايا المسيحيين إلى سادتهم المسلمين . وفي ظل هذه الظروف ، وصلت الشعوب المسيحية الأرثوذكسية العديدة لأول وآخر مرة في تواريخها ، إلى تفاهم متبادل غير مصرح به ؛ وربما كان غير مقصود ولكنه كان مع ذلك فعالاً ناجعاً ، كما لو كان قد اتفق عليه فعلاً . فإذا كان لا يسعهم الآن مزاوله تسليتهم المحببة — قتال بعضهم بعضاً — أو الانخراط في المهن الحرة ؛ فإنهم تقاسموا فيما بينهم — ضمناً — الصناعات الصغيرة . واستطاعوا بالتدريج استعادة تثبيت مركزهم — على هيئة صناع — داخل أسوار العاصمة الإمبراطورية التي كان قد طردهم منها محمد الفاتح حملة وعن عمد .

وهكذا مكّن الفيلاخ من هضاب رومانيا أنفسهم في المدن بقالين ، كما أقام اليونانيون المتحدثون باليونانية من أرخبيل إيجه واليونانيون المتحدثون بالتركية من قرمان Quaraman الأناضولية المحصورة بالأرض ، تجاراً . وغدا الألبانيون بنائين ، وأبناء الجبل الأسود Montenegrins حاملين وبوابين ، بل حتى البلغار الريفيون حصلوا على معاشهم في الضواحي سائسى خيل ومنتجى فواكه وخضروات .

كان من ضمن المسيحيين الأرثوذكس الذين أعادوا استيطان القسطنطينية ، جماعة يونانية مفردة دعيت باسم الفناريين حفزهم تحدى النقمة ، إلى درجة أنهم ارتفعوا حتى أصبحوا في حكم الشركاء ؛ بل وخلفاء احتمالين للعثمانيين أنفسهم في إدارة الإمبراطورية وقيادتها . وكان الفنار الذي منه استمدت اسمها هذه العصابة من العائلات اليونانية الطموحة ، هو الركن الشمالى الغربى

من استانبول الذى تخلت عنه الحكومة العثمانية لرعاياها المسيحيين الأرثوذكس المقيمين بالعاصمة . فكان مثله مثل حى اليهود أو الغتو^(١) . وهناك أقام البطريرك الأكبر بعد تحول كنيسة سانتا صوفيا إلى مسجد . وأصبح البطريرك فى هذا الملجأ الذى لا يبشر بمستقبل ؛ نقطة تجمع ، وعدة للمسيحيين الأرثوذكس اليونانيين الذين أثروا من التجارة .

وقد أتم هؤلاء الفناريون مؤثرتين ذاتى شأن :

الأولى : فإنهم كتجار على نطاق واسع ، دخلوا فى علاقات تجارية مع العالم الغربى . فاكتسبوا علماً بالأساليب والعادات واللغات الغربية .

الثانية : وهم كمديرين لشئون البطريركية ، اكتسبوا خبرة واسعة وفهماً متيناً بالإدارة العثمانية . مادام البطريرك فى ظل النظام العثمانى القديم هو الوسيط الرسمى بين الحكومة العثمانية وكافة رعاياها المسيحيين الأرثوذكس ، من كل لسان وفى كل إقليم .

ولقد كان هذان الأمران سبب رفعة حظ الفناريين خلال صراع الإمبراطورية العثمانية القديم مع العالم الغربى ، عندما تحول التيار ضد العثمانيين نهائياً ، بعد حصار فيينا الفاشل الثانى فى ١٦٨٢ - ١٦٨٣ ميلادية . وترتب على هذا التحول فى المقادير الحربية ، إصابة شئون الدولة العثمانية بطفافة من الارتباكات الهائلة . إذ كان فى استطاعة العثمانيين قبل نكسة عام ١٦٨٣ ؛ الاستناد دائماً على القوة وحدها فى تحديد علاقاتهم مع الدول الغربية . فكان أن واجههم انهيارهم العسكرى ؛ بمشكلتين جديدتين :

الأولى : اضطرارهم إلى التفاوض فى المؤتمرات مع الدول الغربية التى أخفقوا فى هزيمتها فى الميدان .

الثانية : اضطرارهم إلى مراعاة شعور رعاياهم المسيحيين ، لعدم تأكدهم من قدرتهم على السيطرة عليهم .

(١) اسم كان يطلق على حى اليهود فى كل عاصمة أوربية . ويستخدمون فى المغرب كلمة « الملاح » للدلالة على الحى الذى يقطنه اليهود . (المترجم)

وبعبارة أخرى ، ما عادوا يستطيعون الاستغناء عن الدبلوماسيين المهرة والمديرين الحاذقين . وكانت الذخيرة الضرورية من الخبرة التي يفتقر إليها العثمانيون أنفسهم ، متوافرة في الفناريين وحدهم ومن بين رعاياهم . ونجم عن ذلك أن أصبح العثمانيون مكرهين على إغفال الأحداث السابقة والتهاون بمبادئ نظامهم نفسه ؛ بمنح الفناريين الذين جاءت كفاءتهم في وقتها ؛ احتكار أربع وظائف عليا^(١) في الدولة ؛ وكانت هي الوظائف الرئيسية في مركز الإمبراطورية العثمانية السياسي الجديد .

ومن ثم برزت باستمرار سيطرة الفناريين السياسية طوال القرن الثامن عشر الميلادي . وبدا كما لو أن الضغط الغربي ؛ يعمل على تزويد الإمبراطورية ، بطبقة حاكمة جديدة ، مستقاة من الذين كانوا خلال قرون عديدة ضحايا الاضطهاد العنصري والديني .

إلا أن الفناريين فشلوا في النهاية في تحقيق « مستقبلهم المرتجى » . لأن الضغط الغربي على الكيان الاجتماعي العثماني في أواخر القرن الثامن عشر ، بلغ حداً من العنف والشدة ، غيّر من طبيعة هذا الكيان الاجتماعي تغييراً مفاجئاً . فلما كان اليونانيون أول رعايا الإمبراطورية العثمانية الذين أقاموا علاقات وثيقة مع الغرب ، فهم أول من أصابهم جرثومة القومية الغربية الجديدة . وهذه نتيجة بعيدة لصدمة الثورة الفرنسية .

وكان اليونانيون بين اندلاع الثورة الفرنسية ونشوب حرب الاستقلال اليونانية ، تحت سحر أمنيّتين متنافرتين :

الأولى — عدم تخليهم عن طموح الفناريين في الاستيلاء على جميع ميراث العثمانيين والإبقاء على الإمبراطورية العثمانية سليمة واعتبارهم إياها « مشروعاً رائجاً » تحت الإدارة اليونانية .

(١) الوظائف هي : ترجمان الأسطول ، وترجمان الباب العالي ، وهبودار الأفلاخ ، وهبودار البقدان . (المترجم)

الثانية - تطلّعهم في نفس الوقت إلى تحقيق مطمحهم في إقامة دولة وطنية مستقلة ذات سيادة تخصّهم وحدهم : يونان يونانية ، كما كانت فرنسا فرنسية .

ولقد ظهر تعارض هذين المطمحين بطريقة قاطعة عام ١٨٢١ وقمّا حاول اليونانيون تحقيق كليهما معاً . لأنه عندما عبر الأمير الفناري هيبسيلانتي : Hypsilanti نهر بروت من قاعدته في روسيا ليقم نفسه سيداً على الإمبراطورية العثمانية ، وهبط الزعيم المانيوتي بترو بك مافروميخاليس من مكانه المنيع في جبال شبه جزيرة المورة لينشئ اليونان المستقلة ، كانت العقابة هي النتيجة المنتظرة . إذ قاد اللجؤ إلى السلاح إلى دمار المطامح الفنارية . فإن العصا الجوفاء التي طفق العثمانيون يستندون عليها أكثر من قرن ، قد وخزت يدهم . فثار غضبهم لهذه الخيانة ، ودفعهم إلى تحطيم العكاز الغادر إرباً والوقوف على أقدامهم معتمدين على أنفسهم بأى ثمن . وقابل العثمانيون فعل الأمير هيبسيلانتي الحربى ؛ بتدميرهم بضربة واحدة صرح النفوذ الذى دأب الفناريون على تشييده لأنفسهم في سلام منذ عام ١٦٨٣ . وكانت تلك هى الخطوة الأولى في سبيل استئصال كافة العناصر غير التركية من بقايا الميراث العثمانى ، وهى عملية بلغت منتهاها بإقصاء الأقلية المسيحية الأرثوذكسية من الأناضول عام ١٩٢٢ .

في الواقع فإن انطلاق القومية اليونانية الأولى ؛ قد أضرم الشرارة الأولى للقومية التركية المناظرة لها .

وهكذا فشل الفناريون في الواقع في كفالة تلك « المشاركة العليا » في الإمبراطورية العثمانية ؛ مشاركة بدت كما لو كانت مقدرة للفنارين : على أن دنوهم من تحقيق النجاح ، يدل على القوة التي استجابوا بها لتحدى النعمة ؛ والواقع يعتبر تاريخ علاقتهم بالعثمانيين مثلاً رائعاً للقانون الاجتماعى الذى يحكم التحدى والاستجابة .

وبهذا المعيار يتأتى تفسير الاختلاف بين اليونانيين والأتراك : ذلك

الاختلاف الذى أثار كثيراً من الاهتمام والعصبية ؛ اختلاف لا يقاس بالمعايير العنصرية والدينية التى استعملها كلا الفريقين فى المحادلات المعروفة . من ذلك أن الكتاب المنتصرين لليونان ، والآخرين المنتصرين للأتراك يتفقون على نسبة الاختلافات التاريخية فى المزاج بين اليونانيين المسيحيين والأتراك المسلمين ، إلى صفة أصيلة فى العنصر أو إلى سمة ثابتة فى الدين ، ولا يختلفون إلا فى قلب القيم الاجتماعية التى يخصصونها لهذه الكميات فى الحالتين . إذ نجد المنتصرين لليونان يقولون بفضيلة كامنة فى الدم اليونانى وفى المسيحية الأرثوذكسية ، ورذيلة أصيلة فى الدم التركى وفى الدين الإسلامى . أما المنتصرون للأتراك فإنهم ينقلون كلا من الفضيلة والرذيلة من جانب إلى الآخر .

وحقيقة الأمر أن ثمة حقائق واقعية لا ريب فيها تدحض الافتراض المشترك الذى يقوم عليه هذان الرأيان :

فمثلاً ، بالنسبة لموضوع العنصر الطبيعى ، لا جدال فى أن دم أتباع أرطغرل من أتراك آسيا الوسطى الذى يجرى فى عروق الأتراك المعاصرين ، لا يتعدى كونه قطرة ضئيلة . إذ تطور الشعب التركى العثمانى إلى أمة بفضل استيعاب السكان المسيحيين الأرثوذكس الذين عاش العثمانيون بينهم طوال القرون الستة الأخيرة . فأصبح لا يوجد الآن من الناحية العنصرية سوى القليل جداً للمفاضلة بين الشعبين .

وإذا كان فى هذا الكفاية لدحض التفسير غير العلمى للاختلاف بين اليونانى والتركى من أساسه ؛ فنستطيع تقويض التفسير الدينى غير العلمى بإلقاء نظرة على شعب تركى مسلم آخر يعيش وعاش زمناً طويلاً فى ظل ظروف لا تشابه ظروف الأتراك العثمانيين ، بل تشابه ظروف رعاياهم اليونانيين الأرثوذكس السابقين . فإن على نهر الفولجا توجد جماعة تركية مسلمة تدعى القازنلين^(١) ، ظلت خاضعة طوال بضعة قرون لحكومة روسيا

(١) نسبة إلى مدينة قازان وهى الآن عاصمة جمهورية تتاريا ذات الحكم الذاتى فى الاتحاد السوفيتى . (المترجم)

المسيحية الأرثوذكسية وعانت الكثير من النعمة العنصرية والدينية نفسها في ظل هذا الحكم الأجنبي الذي يماثل النظام الذي فرضه العثمانيون على المسيحيين الأرثوذكس .

فأى نوع من الناس هؤلاء القازانليون ؟ نقرأ عنهم :

« إنهم يمتازون بالأمانة والتدبير والجد . . . والتجارة هي المهنة الرئيسية للتركي القازانلي . . . وصناعاته الرئيسية : الصابون والغزل والنسيج . . . وهو يتقن صناعتي الإسكافي والحدوى . . . ولم يكن يسمح حتى نهاية القرن السادس عشر بقيام المساجد في قازان ، وكان التتر يرغبون على العيش في حى منفصل ، بيد أن عدد المسلمين ساد تدريجياً^(١) . »

ولعل هذا الوصف للأتراك الذين اضطهدهم الروس أيام القباصرة ، ينطبق في جوهره على وصف المسيحيين الأرثوذكس الذين اضطهدهم الأتراك إبان غنفوان الإمبراطورية العثمانية . وما برح الاشتراك في التعرض للنعمة بسبب الدين ، هو العامل الأساسى في ارتقاء كلتي الجماعتين . وولد فيهما على مر القرون رد فعل متماثل تجاه هذه المحنة المشتركة ؛ الأمر الذى أوجد « مشابهة عائلية » بين أحدهما والآخر . وهى مشابهة أزال تماماً التباين بين السمات الأصلية لكل من المسيحية الأرثوذكسية والإسلام .

ويشترك في هذه « المشابهة العائلية » أتباع طائفة أخرى من الجماعات الدينية التى تعرضت للاقتصاص بسبب عقيدتها الدينية والتى استجابت للاقتصاص بنفس الطريقة . أولئك هم الكاثوليك الرومانيون في الشرق الأدنى الخاضعون للإمبراطورية العثمانية . إذ كان في وسعهم — مثل الفناريين — أن يتفادوا النعمة بالارتداد عن دينهم واعتناق دين سادتهم . لكن قلائل

هم الذين عنوا باتباع هذا السبيل : فإنهم على العكس ، قد نصبوا أنفسهم — مثل الفناريين — لاستغلال المناسبات المحدودة التي تركت مفتوحة أمامهم والتي تختلف عن عجزهم الذي فرض عليهم فرضاً تعسفياً . فأسفر ذلك عن مزيج عجيب منفر ، مزيج يجمع بين خشونة الخلق وأسلوب الخنوع . ولعل ذلك المزيج هو طابع كافة الجماعات الاجتماعية التي وضعت في هذا الوضع الخاص : ولم يغير من الأمر شيئاً احتمال انحدار مسيحي الشرق الأدنى من الناحية الطبيعية من صلب شعوب المسيحية الغربية : سكان جنوا والبندقية في القرون الوسطى والفرنسيون والهولنديون والإنجليز المعاصرون ، وهي شعوب تعتبر من أشد الشعوب تعالياً وتمتاز بالزعة الحربية والروح العالية . ففى الجو الخانق السائد فى جيهم العثماني ، لا بد لهم من أحد أمرين :

الأول : إما الاستجابة لتحدى النعمة الدينية ، بنفس الطريقة التي استجاب له أمثالهم من الضحايا من مختلف الأصول :

الثاني : وإما الهلاك :

ولقد افترض العثمانيون إبان قرون سيطرتهم الأولى ، أن أوروبا الغربية تسكنها كلها « سلاسل دنيا همجية من أمثال سكان الشرق الأدنى » : وتعزى فكرتهم هذه إلى أنهم لم يعرفوا الشعوب المسيحية الغربية — الفرنجة كما كانوا يدعونهم — إلا عن طريق ممثليها من سكان الشرق الأدنى : ثم قادتهم زيادة معرفتهم بهم إلى تنقيح رأيهم . ثم خلص العثمانيون إلى تحديد فاصل قاطع يفرق بين « فرنجة الماء العذب » و « فرنجة الماء الملح » : فكان فرنجة الماء العذب أولئك الذين ولدوا وتربوا في تركيا في جو الشرق الأدنى والذين استجابوا عن طريق اكتساب خلق الشرق الأدنى . أما فرنجة الماء الملح ، فإنهم أولئك الذين ولدوا وتربوا في وطنهم في فرنجستان^(١) ، وجاءوا إلى تركيا كباراً بعد أن تشكلت طبائعهم :

(١) فرنجستان الاسم الذي كان يطلقه الأتراك خلال العصر العثماني على « أرض الفرنجة » .
(المترجم)

ولقد تحيّر الأتراك إذ كشفوا أن وجود الهوة النفسانية التي تفصلهم عن « فرنجة الماء العذب » الذين يقيمون بين ظهرائهم دائما ، لم تظهر في معاملتهم فرنجة ما وراء البحار . فكان الفرنجة المجاورون لهم جغرافيا والمشاركون لهم في الوطن ، غرباء عنهم ؛ في حين اتضح أن الفرنجة القادمين من بلد بعيد ، رجال لهم نفس انفعالاتهم .

وتفسير ذلك بسيط للغاية فعلا : فلقد كان في وسع التركي وفرنجي الماء المالح أن يفهم أحدهما الآخر ، نظرا للتشابه الواسع بين أسس كل منهما الاجتماعية . إذ تربى كل منهما في بيئة كان هو فيها سيّد داره . ووجد كلاهما - من الناحية الأخرى ، صعوبة في فهم فرنجي الماء العذب واحترامه ؛ بسبب اختلاف أساسه الاجتماعي ، عن أساس كليهما . فإنه لم يكن ابن الدار ولكن طفل الحى المنعزل « الغتو » . وأضفى عليه هذا الوجود الاقتصادي ، مزاجا ظل كل من الفرنجي الذي تربى في بلاد الفرنجة ، والتركي الذي ترعرع في تركيا ، بعيداً عن تأثيره .

٤ - اليهود :

لاحظنا نتائج التفرقة الدينية في حالة انتهاء ضحايا النعمة إلى نفس المجتمع الذي ينتمى إليه مرتكبوها ؛ من غير أن نناقش الفكرة طويلا ، ويعتبر البيوريتان الإنجليز ، أحد الأمثلة العديدة المألوفة . وناقشنا كذلك بتطويل أكثر ، أمثلة من تاريخ الإمبراطورية العثمانية في حالة انتهاء ضحايا التفرقة الدينية ، إلى حضارة تخالف حضارة مضطهديهم . وتبقى حالة يمثل فيها ضحايا التفرقة الدينية مجتمعا مندثرا يعيش كمجتمع متحجر ليس إلا . ولقد ذكرت قائمة مثل هذه المتحجرات في صفحة سالفة ؛ وهي كل واحد منها شواهد على نتائج مثل هذه النقم . بيد أن أعظمها بروزا هو بلا مرأ أحد بقايا المجتمع السورى المتحجرة : اليهود :

وقبل أن نمضى إلى تبيان علة هذه المأساة الطويلة العمر التى لم تبلغ نهايتها بعد^(١) ، نلاحظ أن بقية سورية أخرى - البارسيين - قد أدت فى نطاق المجتمع الهندى - نفس الدور الذى يؤديه اليهود فى جهات أخرى - وتبدى الكثير من نفس الخبرة فى ميدان التجارة والمال . كذلك ما برحت بقية سورية أخرى - المينوفيستيون^(٢) الأرمن الغريغوريون - يؤدون الكثير من مظاهر الدور نفسه فى عالم الإسلام .

وإذا كانت الصفات المميزة لليهود فى ظل النعمة معروفة تماماً ، إلا أن ما يعيننا استكشافه هنا ؛ هو هل تغزى تلك الصفات - كما يفترض عادة - إلى الروح التى يتميز بها اليهود سواء باعتبارهم عنصراً أو طائفة دينية : أو ما هى إلا صفات اصطفتها صدمة النعمة : ولعل النتائج المستخلصة من الأمثلة الأخرى ، تجعلنا نميل مقدماً إلى جانب الرأى الأخير ، إلا أننا سنناقش الدليل بتفكير غير متحيّز .

ويتأتى فحص الدليل بطريقتين :

الأولى : مقارنة النفسية المميزة التى يُظهرها اليهود وقت إخضاعهم للنعمة بسبب دينهم ، بتلك النفسية بعد ما تخفى حدة النعمة أو تزول كلية .

الثانية : مقارنة طابع اليهود الذين خضعوا للنعمة أو ما يزالون خاضعين لها ، بطابع الجماعات اليهودية الأخرى التى لم يوجه إليها قط حافز النعمة .

واليهود الذين يظهرون بكل جلاء فى الوقت الحاضر الصفات اليهودية المألوفة جيداً - والتى تلقب عادة بـ « اليهودية » - والتى تنطبع فى أذهان الأمم عامة ، حتى لتصبح علامة اليهودية الدامغة دائماً وفى كل مكان - هم يهود

(١) كتب المستر توينبى هذا الجزء من كتابه قبل أن يفتح اضطهاد النازى لليهود فصلاً جديداً من القصة وأشد هولاً . فلا توجد إذن أية إشارة إلى هذا الفصل فيما يحىء بعد .

(المخلص)

(٢) القائلون بالطبيعة الواحدة - أى الطبيعة الإلهية - للسيد المسيح عليه السلام .

(المترجم)

شرق أوروبا الاشكنازيين الذين ظلوا في رومانيا والأراضي المتاخمة لها التي كانت داخلة في الإمبراطورية الروسية تحت ما يسمى «الخطيرة اليهودية» : محصورين أدبياً ، إن لم يكن بحكم التشريع ، في حى خاص بهم يدعى «الغيتو» ؛ بفعل تلك الأمم المسيحية المتأخرة التي كان من نصيب اليهود أن يعيشوا بين ظهرانيها :

ونجد النفسية اليهودية بالفعل أقل وضوحاً بين يهود هولندا وبريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة المتحررين . وإذ نتأمل في قصر الفترة التي انقضت منذ تحرير اليهود قانوناً في هذه البلاد الأخيرة ، وكيف أن تحررهم الأدبي ما يزال أبعد من أن يكون كاملاً حتى في بلاد الغرب المستنيرة نسبياً ، فإننا لن نبخس مغزى تغيير النفسية الذي يبدو هنا واضحاً (١) .

ولعلنا نلاحظ أيضاً في يهود الغرب المتحررين ، أن الذين هم من أصل اشكنازي ، ووفدوا إليه من الخطيرة اليهودية ؛ ما تزال تبدو في نفسياتهم روح يهودية أشد مما يبدو في نفسية «السيفارديم» الأقل عدداً الذين يقيمون بين ظهرانينا ، والذين قدموا أصلاً من دار الإسلام .

ويتأتى تعليل هذا الاختلاف بتذكير أنفسنا بالتباين في تاريخ هاتين الجماعتين اليهوديتين :

بنجد اليهود الاشكنازيون من اليهود الذين اغتنموا فرصة فتح الرومانيين أبواب أوروبا ، فحققوا أرباحاً من ممارسة تجارة التجزئة في مقاطعات ما وراء الألب شبه الهمجية . وتضاعفت محنة هؤلاء الاشكنازيين باعتناق

(١) ويقول المستر سرفيل مختصر الكتاب : « أستطيع بصفى مدرسا بمدرسة عامة أن أبدي أنني قد لاحظت عدة مرات أن الأولاد اليهود في المدرسة العامة الذين يتفوقون رياضياً يجدون - من ثم - أمامهم الطريق مهيباً لتقدير زملائهم ، وتقل فيهم مظاهر النفسية «اليهودية» عن مظاهرها في الأولاد اليهود الأقل حظاً . والصعبى غير اليهودى العادى لا يعتبرهم من اليهود بأية حال من الأحوال أياً ما تكون سحتهم أو ألقابهم » .

الإمبراطورية الرومانية المسيحية ثم انهيارها . إذ أصبحوا يعانون من تعصب الكنيسة المسيحية ، ومن ازدراء البرابرة . إذ لا يستطيع الهمجي أن يحتل مشاهدة مقيم غريب يحيا حياة منعزلة ويحصل على ربح بفضل التبادل التجارى الذى كان الهمجي يفتقر إلى المهارة اللازمة لممارسته بنفسه . فاندفع المسيحيون الغربيون مسيرين بهذه المشاعر ، إلى اضطهاد اليهودى ، طالما لا غنى لهم عنه . ثم طردوه بمجرد ما أحسوا بقدرتهم على الاستغناء عنه .

وبالأحرى صاحب قيام المسيحية الغربية وامتدادها ، دفع الاشكنازيين شرقا من حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة فى أرض الراين ، إلى حدود المسيحية الغربية فى « الحظيرة » .

وفى داخل المسيحية الغربية الآخذة فى الانتشار ، طفق اليهود يُطردون من بلد بعد آخر ؛ كلما بلغت الشعوب الغربية المتعاقبة مستوى معين من الكفاية الاقتصادية . مثلما طردهم من انجلترا إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) . فى حين قُبل هؤلاء اليهود المنفيون من داخل القارة فى أقاليم الحدود المتقدمة ، بل إنهم دعوا للإقامة فى بلد بعد الآخر إبان المراحل الأولى لتحويلها الغربى ، باعتبارهم روادا تجاريين : لكنهم ما لبثوا أن تعرضوا للاضطهاد ثم طردوا فى النهاية مرة أخرى ، بمجرد أن أصبحوا غير ضروريين للحياة الاقتصادية فى ملجئهم الوقتى .

وفى الحظيرة ؛ توقفت هذه الرحلة الطويلة لليهود الاشكنازيين من الغرب إلى الشرق ، وبلغ اضطهادهم ذروته . وذلك لأنه هاهنا - عند نقطة التقاء المسيحية الغربية بالمسيحية الأرثوذكسية الروسية ، أمسك باليهود وطحنوا بين شقى الرحى . وعندما نشدوا فى هذه المرحلة معاودة الارتحال شرقا ، سددت « روسيا المقدسة » الطريق فى وجوههم . بيد أن أمم الغرب الرئيسية التى كانت البادئة بطرد اليهود فى القرون الوسطى ، بلغت فى هذا الوقت - لحسن طالع الاشكنازيين - مستوى من الكفاية

الاقتصادية لم تعد تخشى معه تلك الأمم تعريض نفسها للمنافسة الاقتصادية اليهودية ، مثلما حدث في إنجلترا في عصر الكومنولث وقتما أذن كرومويل (١٦٥٣ - ١٦٥٨) لليهود بالعودة إلى إنجلترا .

وجاء تحرير اليهود في الغرب في الوقت المناسب ، ليهيئ مخرجاً جديداً لاشكنازي « الحظيرة » ، عندما وصلت بهم رحلتهم القديمة نحو الشرق إلى الحائط الذي لا منفذ له والذي يكون حد « روسيا المقدسة » الغربي . ووفق مدّ الهجرة الاشكنازية يتراجع طوال القرن الماضي من الشرق إلى الغرب : من « الحظيرة » إلى إنجلترا والولايات المتحدة . ولم يكن مستغرباً أن تبدى الاشكنازية - وهذا ماضيها - التي أودعها بيتنا تراجع المد والجزر هذا ، ما يدعى بالنفسية اليهودية بشكل أكثر وضوحاً من السفاردية ، إخوانهم في الدين ، الذين وضعهم طالعهم في أماكن كانوا فيها أسعد حالاً .

ويفسّر ضعف حدة « الروح اليهودية » الذي نلاحظه بين مهاجري طائفة السفاردية من أسبانيا والبرتغال ، بحياتهم السابقة في دار الإسلام : ففي فارس وفي المقاطعات الرومانية التي استولى عليها العرب في نهاية الأمر ، وجد أصحاب التشت اليهودي أنفسهم في مركز أسعد نسبياً . بل إنه من المؤكد أن وضعهم في عهد الخلافة العباسية ؛ لم يكن أقل ملاءمة لهم من وضع اليهود في الوقت الحاضر في تلك البلاد الغربية الذين تحرر فيها اليهود في وقتنا هذا ، إن المصيبة التاريخية التي حلتّ بالسفارديم هي بانتقال شبه جزيرة أيبيريا تدريجياً من المسلمين إلى المسيحيين الغربيين ؛ وهو الانتقال الذي تم في نهاية القرن الخامس عشر ، وقتما عرض عليهم غزاتهم المسيحيون أن يختاروا بين أمور ثلاثة : الإبادة ، أو الطرد ، أو اعتناق المسيحية .

ولنلق نظرة على مآل أفراد سفاردية شبه الجزيرة الأيبيرية الذين أنقذوا حياتهم بقبولهم إحدى طريقتي الاختيار الأخيرتين : وهم الذين ما تزال

ذريتهم باقية حتى اليوم . وجد أولئك الذين آثروا المنفى ملاذا لدى أعداء أسبانيا والبرتغال الكاثوليكيين : في هولندا وتركيا وتوسكاني^(١) . أما أولئك الذين قصدوا تركيا ، فقد شجعهم حماهم من الأتراك العثمانيين على الإقامة في القسطنطينية وسالونيك وفي المراكز الحضرية الصغيرة في الروميلي ، ليسدوا الفراغ الناشئ عن زوال الطبقة اليونانية المتوسطة الحضرية السابقة أو فناءها . فاستطاع اللاجئون السفارديون في ظل هذه الظروف المواتية ، أن يتخصصوا في التجارة وأن تروج أحوالهم من غير أن يودوا الثمن ، وإظهار « نفسية اشكنازية » :

أما بالنسبة للمارانوس - يهود شبه جزيرة أيبيريا - الذين ارتضوا اعتناق الدين المسيحي منذ أربعة أو خمسة قرون مضت - فقد هبطت حدة صفاتهم اليهودية المميزة إلى حد التلاشي تقريبا . وهناك أكثر من سبب ، يحمل على الاعتقاد بوجود صبغة قوية في الوقت الحاضر من دم هؤلاء اليهود المرتدين في عروق الأيبيريين سكان أسبانيا والبرتغال ، سيما في الطبقات العليا والمتوسطة . بيد أنه يصعب على أكثر المحللين النفسانيين حذقا ، أن يستشف أصحاب الأصل اليهودي ، إن عرضت عليه عينات حية من الطبقتين العليا والوسطى الحاليين من الأسبانيين والبرتغاليين .

ولقد حاول حزب من اليهود الذين حررهم الغرب ، في العصور الحديثة استكمال تحرر جماعتهم بإقامة دولة قومية وفقاً للنسق الغربي . إذ يهدف الصهيونيون في نهاية المطاف إلى تخليص الشعب اليهودي من العقدة النفسية الشاذة التي كوَّنتها قرون النعمة . وعند هذا الهدف الأخير المرتجى ، يلتقي الصهيونيون مع المدرسة المنافسة لهم ذات الفكر اليهودي المنححر^(٢) .

(١) كان دزرائيل يعتبر نفسه منحدرًا من بعض هؤلاء الآخرين . ويحتمل أن يكون حل حق . وإن كانت روايته لتاريخ أسرته ، تتسم بالإغراق كثيرا في الخيال . (المؤلف)

(٢) ويتأتى ذلك بإدماج اليهود في كل دولة في عناصرها الأخرى . (المترجم)

إذ يتفقون مع الاندماجين^(١) في الرغبة في علاج اليهود من وضعهم كشعب شاذ . إلا أنهم يفترون عنهم في مدى تقديرهم طريقة الاندماجين التي يعتبرونها غير وافية بالغرض .

وقوام المثل الأعلى للاندماجين ، أن يصبح اليهودى في هولندا أو إنجلترا أو أمريكا مجرد مواطن هولندى أو إنجليزى أو أمريكى ، يهودى الدين . ويستندون في ذلك إلى أنه ليس ثمة ما يبرر إخفاق المواطن اليهودى في أى بلد مستنير ، في أن يصبح مواطناً مندمجاً راضياً في هذا البلد ؛ لمجرد تصادف توجهه إلى المعبد اليهودى يوم السبت ، عوضاً عن الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد .

ويرد الصهيونيون على ذلك بإجابتين :

الأولى - تشير إلى أنه بفرض قدرة « طريقة » الإدماج على إحداث النتيجة التي ينسبها لها المدافعون عنها ، فإنها قابلة للتطبيق فقط في تلك البلاد المستنيرة . وأمثال هؤلاء من اليهود يكونون قلة ضئيلة جداً من يهود العالم .

الثانية - تدعى أنه حتى في ظل أحسن الظروف موافقة ، لن يتأتى حل المشكلة اليهودية بهذه الطريقة . لأن كون المرء يهودياً ، شئ أبعد مدى من كونه يهودى الدين :

واليهودى الذى يسعى إلى تحويل نفسه إلى هولندى أو إنجليزى أو أمريكى ، يشوه - في أعين الصهيونيين - شخصيته اليهودية ، دون أن يكون لديه أى نية في اكتساب شخصية الهولندى الكاملة أو أية جنسية أخرى يقع عليها اختياره من بين جنسيات الأمم . فإذا أراد اليهود أن ينجحوا في أن يصبحوا « مثل بقية الأمم الأخرى » ، فأحرى أن تنفذ عملية الاندماج - كما يدعى الصهيونيون - على أساس قوى لا فردى . فبدلاً

من أن يحاول الأفراد اليهود عبثاً الاندماج بحيث يصبحوا أفراداً إنجليزياً أو هولنديين يجب على الشعب اليهودي نفسه أن يتحول إلى شعب يماثل الشعب الإنجليزي . وذلك بإنشاء وطن قومي يغدو فيه اليهودى كالإنجليزى فى إنجلترا ، سيداً فى بيته الخاص .

ورغمًا عن أن الحركة الصهيونية كمشروع عملى لا يتجاوز عمرها نصف قرن ، إلا أن النتائج جاءت فى هذه الفترة الوجيزة مصادقة لفلسفتها الاجتماعية فعلاً . إذ تحول أبناء الغيتو فى المستعمرات الزراعية اليهودية فى فلسطين ، خلافاً لما يتوقعه الكل ، إلى طبقة زراعية رائدة تبدى الكثير من خصائص الأسلوب غير اليهودى فى الاستيطان^(١) . ويمكن سوء طالع التجربة الأليم فى إخفاقها فى استرضاء سكان البلاد العرب الذين كانوا موجودين فى فلسطين قبلهم^(٢) .

يتبقى تسجيل كيان بعض الجماعات اليهودية المعروفة قليلاً والتي تجنبت النقمة طوال تاريخها بارتدادها إلى أمكنة منيعة نائية حيث أظهرت جميع خصائص الفلاحين الأشداء ، بل الجبلين الغلاظ ، مثل يهود اليمن فى الركن الجنوبى الغربى من شبه جزيرة العرب ، والفلاشا فى الحبشة ، ويهود القوقاز الجبلين ، ويهود القرم الكریمشاكين الذين يتكلمون التركية^(٣) .

(١) كتب الأستاذ توينبى هذا قبل الحرب العظمى الثانية ، أى قبل أن يقيم الصهيونيون الوطن القومى المزعوم بالقوة العارمة . ولقد عارضهم الأستاذ توينبى معارضة شديدة بدت فى تصريحاته وكتاباتهِ وبخاصة فى الموسوعة البريطانية . (المترجم)

(٢) يستخلص بعد استعراض هذا الفصل عن حياة اليهود ، أن يهود العالم الإسلامى هم الوحيدون من بين يهود العالم الذين خلّت حياتهم من العقد النفسى التى تمكنت فى نفوس اليهود الآخرين . وذلك بفضل ساحة الإسلام ودمائه أخلاق أهله . (المترجم)

(٣) حدث تغير كبير فى أوضاع هذه الجماعات اليهودية بعد أن كتب الأستاذ توينبى هذا الكتاب . فقد هاجر اليهود اليمنيون إلى إسرائيل مدفوعين بإغراء الصهيونية . (المترجم)

الفصل الثامن

الوسط الذهبي

(١) الإفراط والتفريط

بلغنا الآن في بحث هذا الموضوع نقطة نستطيع عندها استخلاص النتيجة :
فلقد أثبتنا أن الحضارات تتوالد في البيئات التي تتسم بالمشقة غير العادية ،
والتي لا تتسم بسهولة الحياة فيها سهولة غير مألوفة . وقادنا هذا إلى استقصاء
فيما إذا كان هذا — أو لم يكن — أنموذجاً لقانون اجتماعي يمكن التعبير عنه
في العبارة : « كلما عظم التحدى اشتد الحافز » . وقد منّا عرضاً للاستجابات
التي استثارها خمسة أنواع من الحوافز :

البلاد الشاقة ، الأرض الجديدة ، الضربات ، الضغوط ، النقم .
وُنَبِّئُ نتيجة استعراضنا في الحالات الخمس عن صحة القانون . بيد أنه
ما يزال علينا أن نبحث مدى صحة القانون صحة مطلقة .

فهل لو زدنا شدة التحدى إلى ما لا نهاية ، فهل نضمن بذلك اشتداد
الحافز إلى ما لا نهاية ، وزيادة غير متناهية في الاستجابة إن جوبه التحدى
بنجاح ؟ أو هل تبلغ نقطة تؤدي بعدها الشدة المتزايدة إلى مفعول متناقص ؟
بل وإذا تعدينا هذه النقطة فهل نصل إلى نقطة ثانية ، يصبح عندها
التحدى من الشدة بحيث يزول كل احتمال في الاستجابة إليه بنجاح ؟ وفي
هذه الحالة هل القانون هو أن « أعظم التحديات حفزاً يوجد في متوسط
بين التفريط والإفراط في الشدة » ؟ .

وهل هناك تحد زائد عن الحد ؟

إننا لما نجابه حتى الآن مثالا لهذه الحالة . وهناك عدة حالات لم نذكرها
بعد ، تتسم بتطرفها لعملية التحدى والاستجابة . فلم نذكر بعد حالة

البندقية وهى مدينة شيدت على أعمدة غُرست فى الطين على شواطئ بحيرة ضحلة ملحة ، لكنها فاقت فى القوة والثراء والمجد جميع المدن التى بُنيت على الأرض الصلبة فى وادى نهر البو الحصب . كذلك لم نذكر حالة هولندا ، وهى بلاد استُنقذت من البحر فعلا ؛ ولكنها امتازت مع ذلك فى التاريخ إلى أبعد حد ، عن أية قطعة أرض تماثلها فى المساحة فى سهل شمال أوروبا . والمثل يقال عن سويسرا المحملة بحمل من جبال لا تُبشر بالخير : ومن ثم قد يبدو أن أكثر أراضى أوروبا الغربية قسوة ، هى التى حفزت سكانها على أن يبلغوا - فى ميادين مختلفة - مستوى من الرقى الاجتماعى أرفع مما بلغته أية شعوب أخرى فى المسيحية الغربية :

بيد أنه توجد ثمة اعتبارات أخرى :

فإنه وإن بلغت حالات التحدى الثلاثة هذه غاية الشدة ، إلا أن مداها قاصر على أحد العنصرين اللذين يكونان بيئة أى مجتمع . فإنها تحديات متعلقة بالأرض الشاقة ، ولا شك . إلا أن شدة هذا الموقع الطبيعى لا تعتبر فى ذاتها تحدياً ، بل نجدة . إن أخذ فى الاعتبار الجانب البشرى من التحدى : الضربات ، الضغوط ، النقم . لأن هذا الموقع هو الذى حفظها من المِحَن البشرية التى تعرض لها جيرانها . فالبندقية بقيامها على ضفافها الطينية ، وانعزالها عن القارة بفضل بحيراتها الضحلة ، قد نجت من الاحتلال العسكرى الأجنبى طوال قرابة ألف سنة (٨١٠ - ١٧٩٧ ميلادية) : كذلك أنقذت هولندا مراكزها الرئيسية أكثر من مرة ، بقلب الجهاز الذى يحفظ وجودها وفتح السدود . فها أكبر التباين مع تاريخ جارتها لومبارديا والفلاندرز ، ميدانى الحرب المألوفين فى أوروبا .

وبالطبع يتيسر جداً إيراد أمثلة على جماعات فشلت فى الاستجابة لتحديات معينة ؛ إلا أن ذلك لا يدل على شىء . لأن الاستقصاء قد أظهر أن كل تحد من التحديات التى نالت فى النهاية استجابة ظافرة ، قد خيب

بوجه عام أمل المستجيبين إليه أو حطمهم واحداً بعد الآخر ، قبل أن يأتي في نهاية الأمر دور المستجيب المنتصر لدخول الحلبة في المرة المائة أو الألف . وهذا هو « إسراف الطبيعة » المشهور الذى يطفّر إلى الدهن منه حشد من الأمثلة :

فمثلاً خيِّب التحدى الطبيعى لغابة أوروبا الشمالية ، أمل الرجل البدائى خيبة كبيرة . ولما كان الرجل البدائى فى أوروبا الشمالية يفتقر إلى أدوات قطع أشجار الغابة ، ويجهل كيفية الاستفادة من تربتها فى الزراعة حتى لو كان قادراً على تنظيفها من الأشجار ؛ فقد اقتصر — من ثم — على اجتناب الغابة والقعود القرفصاء على الكثبان الرملية والهضبات الجيرية ، حيث نجد الآن آثاره على هيئة دولمين : ^(١) Dolmen وأحجار صوانية وما إلى ذلك . وكان يسعى وراء الأراضى التى هزأ بها خلفاؤه بعد ذلك على اعتبار أنها أراضى رديئة ، وقتما كانت الغابة تخرّج تحت وطأة فؤوسهم . وبالفعل كان تحدى الغابة المعتدلة عند الرجل البدائى ، أشدّ هولاً من تحدى السهول الجليدية . وقادته فى أمريكا الشمالية فى النهاية إلى التزام خطة تنسم بقلة مقاومة ، تنجّه صوب القطب الشمالى وراء الحد الشمالى للغابات . فكان أن تحدّد بصره بابتكار ثقافة الأسكيمو ، استجابة لتحدى الدائرة القطبية .

بيد أن تجربة الإنسان البدائى لا تدل على أن تحدى غابة أوروبا الشمالية كان زائداً عن الحد ؛ بمعنى أنه كان يستعصى على القوة البشرية الاستجابة إليه استجابة فعالة . فلقد كان فى مكنة البرابرة الذين وفدوا على أعقابهم ، البروز نوعاً ما بمساعدة الأدوات والأساليب الفنية التى ربما كانوا قد اكتسبوها من الحضارات التى اتصلوا بها ، إلى تمام الوقت الذى أتى فيه رواد الحضارة الغربية والروسية الأرثوذكسية « ورأوا وغزوا » ^(٢) .

(١) الدولمين : عبارة عن بناء يتألف من حجرين ضخمين قائمين — أو أكثر من حجرين فى بعض الأحيان — ويفطينهما حجر ضخم ثالث يكون بمثابة السقف . (المترجم)
(٢) إشارة إلى الكلمة المشهورة التى روى بها قيصر لمجلس الشيوخ فى روما ، سرعة انتصاره على فرناس (Pharnaces) ملك البونت (Pontis) . (المترجم)

وأخضع الرواد الرومانيون فى القرن الثانى قبل الميلاد ، الطبيعة الجنوبية لغابة أوروبا الشمالية فى وادى نهر البو ، بعد أن خيبت منذ وقت سحيق آمال طلائع الرومانيين . ولقد صور المؤرخ اليونانى بوليبيوس : Polybius الذى زار تلك البلاد بعد فتحها مباشرة ؛ التباين المذهل بين الحياة القاصرة وذات الفقر المتأصل لأسلاف روما الغالين - الذين كانت البقية الباقية منهم ما تزال تعيش هذه الحياة فى الأجمات المهجورة عند سفح جبال الألب - وبين الرخاء والوفرة السائدين فى الأقاليم المجاورة التى تولت روما زمامها . وكثيراً ما كانت ترسم صورة مماثلة فى مطلع القرن التاسع عشر للتعارض بين إخفاق ذوى البشرة الحمراء المزرى ، مع حيوية رواد الإنجليز المتأمرين بالقيضة بالحركة فى غابة كنتكى أو غابة أوهيو البدائيتين .

وإذا انتقلنا من البيئة الطبيعية إلى البيئة البشرية ألفينا نفس الشيء . نجد أن التحدى الذى يهزم مستجيباً ، يتضح فيما بعد بفضل انتصار استجابة منافس تال ، أنه لا يستعصى على الهزيمة .

فلنتأمل مثلاً الصلة بين المجتمع الهلنى وبرابرة شمال أوروبا .

كان الضغط هنا متبادلاً ، إذ كان كلاهما يضغط على الآخر . ولكن فلنحصر التفاتنا فى ضغط المجتمع الهلنى على البرابرة . فكلما كانت هذه الحضارة ينقد إشعاعها أعمق فأعمق فى داخلية القارة ، أخذت عندئذ طبقات من البرابرة تجابه الواحدة بعد الأخرى ، مسألة حياة أو موت : هل تستسلم لضغط هذه القوة الغربية الشديدة ، وتعانى تحلل نسيجها الاجتماعى الخاص لتغدو طعاماً يندمج فى أنسجة الكيان الاجتماعى الهلنى ؟ أو هل تقاوم الاندماج وتنخرط - بحكم مقاومتها - فى صفوف البروليتاريا الخارجية العتيدة للمجتمع الهلنى ، والتى تصبح على مر الزمن فى داخل هذا المجتمع عند موته وتتغذى على رتمته ؟ وبالاختصار هل يصبح البرابرة الجيفة أو النسر ؟

وقد واجه هذا التحدى كلا من الكلت والتيوتون على التوالى . فأما الكلت فقد انهاروا بعد صراع طويل . وأما التيتون ، فقد استجابوا إلى التحدى بعد ذلك النجاح .

وكان انكسار الكلت مثيرا ، لأنهم كانوا قد بدأوا بداية طيبة حصلوا منها على ميزة كبرى جديدة بأن تُصبح أساسا للعمل . وقد هيئت لهم الفرصة نتيجة لخطأ تكتيكى ارتكبه الأترووريون . فإن هؤلاء الحيشين الذين تحولوا إلى ثقافة منافسيهم الهلنيين الذين زاحموهم في فتح الجزء الغربى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، لم يكتفوا بتثبيت أقدامهم على ساحل إيطاليا الغربى ؛ بل اندفع روادهم بقوة برا عبر جبال الابنين ، وانتشروا طولاً وعرضاً في جميع أرجاء حوض نهر البو ، وبذلك حملوا قوتهم ما لا تطيق ؛ بينما أثاروا الكلت للقيام بتحطيمهم .

وأدى اندفاع الأترووريين إلى غضبة الكلت ، غضبة ظلت قائما حوالى القرنين وحملت الجحافل الكتلية ، لافوق جبال الابنين إلى روما فحسب (فى ٣٩٠ ق . م) ولكن إلى مقدونيا كذلك (٢٧٩ إلى ٢٧٦ ق . م) وإلى اليونان ، ثم تجاه الشرق نحو الأناضول حيث تركوا طابعهم واسمهم الغلاطين^(١) . ولقد استخدم هانيبال الغزاة الكلت خلفاء أثناء غزوه حوض البو ، إلا أن الفشل كان نصيبهم . فإن الهياج الكتلى قد حفز استجابة الروح الإمبراطورية الرومانية ، فانهى الأمر بهم إلى التحلل في مجالهم الأصيل الممتد من ريمنى : Rimini إلى نهر الراين ثم إلى نهر تاين Tyne ، بالإضافة إلى مواقعهم الشرقية على نهري الدانوب وهالى . فكان أن بتلغتهم الإمبراطورية الرومانية وهضمتهم في نهاية المطاف .

وعرض تحلل طبقة الكلت من بين طبقات البربرية الأوروبية الطبقة

(١) نسبة إلى غلاطية ، مقاطعة في آسيا الصغرى . (المترجم)

التيوتونية الواقعة خلفها مباشرة إلى نفس التحدى . فكيف كانت تبدو مصائر قبائل التيوتون لمورخ عاش في العصر الأوغسطي ، ولا يزال يذكر تدمير ماريوس للهياج التيوتوني تدميراً تاماً ، وشاهد قيصر يقذف بعنق أريوفيستوس Ariovistus^(١) التيوتوني ورجاله جملة خارج بلاد الغال Gaul ؟

إنه ليتنبأ بأن قبائل التيوتون لا بد مقتفين أثر قبائل الكلت ، وربما كان القضاء عليهم أسهل سبيلاً ، لكنه سيكون في ذلك مخطئاً . فقد بلغ الحد الروماني نهر الألب Elbe لفترة وجيزة فقط ، لينسحب فوراً إلى خط الراين / الدانوب ، ويظل هناك . والقاعدة أنه عندما يلبث حد بين الحضارة والبربرية ثابتاً ، يعمل الوقت دائماً في صالح البرابرة . فلقد كانت قبائل التيوتون - عكس الكلت - محصنة صماء ضد غارات الثقافة الهلينية سواء تم نقلها بواسطة الجنود أو التجار أو المبشرين . وكان من الواضح بمكان في القرن الخامس الميلادي - وقما كانت قبائل القوط والوندال تنهب البلوبونيز وتحفظ بروما لحين دفع ديتها ، وتحتل بلاد الغال وأسبانيا وإفريقيا - أن قبائل التيوتون قد نجحت حينما فشلت قبائل الكلت . وكان هذا دليلاً على أن ضغط الحضارة الهلينية ، لم يبلغ أولاً وأخيراً قوة المراس التي تحول دون الاستجابة إليه بنجاح .

كما يمثل اقتحام الهلينية للعالم السورى إبان حملة اسكندر الأكبر تحدياً مستديماً للمجتمع السورى . فهل يثور أولاً على الحضارة الدخيلة ويطردها خارج بلاده ؟

وأمام هذا التحدى قام المجتمع السورى بعدة محاولات للاستجابة

(١) زعيم قبيلة ألمانية في القرن الأول قبل الميلاد . هزمه الرومانيون بقيادة قيصر عندما استنجدت به قبيلتان غاليان كانتا تحاربان تلك القبيلة الألمانية . (المترجم)

له ، وكان لهذه المحاولات جميعها طابع مشترك . إذ اتخذ رد الفعل المناهض للهلينية لنفسه واسطة في كل مرة ، شكل حركة دينية . لكن ثمة اختلافاً أساسياً بين الأربعة ردود الفعل الأولى ، ورد الفعل الأخير : إذ بينما أخفقت ردود الفعل الزرادشتية واليهودية والنسطورية والمينوفيسية ، نجح رد الفعل الإسلامي .

فكان ردا الفعل الزرادشتي واليهودي ، محاولتين لمحاربة نفوذ الهلينية بمساعدة الديانات التي كانت سائدة فعلا في العالم السورى قبل المداخلة الهلينية . وفى ظل قوة الزرادشتية ، ثار الإيرانيون فى المنطقة الشرقية من الحضارة السورية ضد الهلينية وطردها فى غضون قرنين من موت الاسكندر ؛ من جميع المنطقة الواقعة شرق الفرات . على أن رد الفعل الزرادشتي قد وصل أقصى حدوده عند هذه النقطة ، وأنقذت روما الهلينية بقية فتوحات الاسكندر . كذلك لم ينجح رد الفعل اليهودى الذى تمثل فى انتفاضة داخلية قادها المكابيون ، وهى محاولة رنت إلى تحرير الجزء الغربى من موطن الحضارة السورية - على مدى الرؤية من البحر الأبيض المتوسط ، لكنها خسرت خساراً ميبئاً . فلقد ثارت روما لانتصار اليهود المؤقت على السلوقيين^(١) فطحنت الجماعة اليهودية فى فلسطين فى الحرب الرومانية اليهودية الكبرى (٦٦ - ٧٠ ميلادية) وسحقتها سحقاً . . وعاد « الرجس المحرّب »^(٢) الذى سبق للمكابيين طرحه بعيداً عن قدس الأقداس ، عاد لبقى . وذلك وقتما أرسى الإمبراطور هادريان مستعمرة آليا كابيتولينا Aelia Capitolina الرومانية فى موقع أورشليم السابق .

(١) نسبة إلى سلوقس قائد الإسكندر الأكبر الذى استقل بقراس بعد موته .

(المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى ما ورد فى سفر دانيال (الأصحاح الحادى عشر) عن التنبؤات التى أسرها الرب إلى دانيال ومؤداها استعباد اليهود وتخريب مقدساتهم . لأن الرومانيين قد سحقوا ثورة اليهود التى قادها المكابيون ، وغربوا المقدسات اليهودية .

(المترجم)

أما عن ردّ الفعل النسطورى والمينوفيسى ؛ فقد كانا محاولتين متعاقبتين
 لاستخدام سلاح طرقته لنفسها الحضارة الهلينية الدخيلة^(١) ، ويتكون السلاح
 من مزيج من معدن هلىنى ، وآخر سورى . ففى مرحلة التوفيق للمسيحية
 الأولى ، اصطبغ جوهر الروح الدينية السورية بالطابع الهلىنى إلى حد جعله
 ملائماً للنفوس الهلينية وغير ملائماً للنفوس السورية . وكان المذهبان الدينيان :
 النسطورية^(٢) والمينوفيسى^(٣) محاولتين لتجريد المسيحية من الصبغة الهلينية ،
 إلا أنهما أخفقتا كردّ فعل ضد المداخلة الهلينية : فكان أن جُرفت
 النسطورية ذليلة صوب الشرق إلى ما وراء الفرات . واحتفظت المينوفيسى
 بمركزها فى سوريا ومصر وأرمينيا ، بفوزها بقلوب فلاحين لم يسبق
 اصطبغهم بالطابع الهلىنى . لكنها لم تستطع فى أى وقت أن تحول بين أقلية
 مهيمنة تقم داخل أسوار المدينة ، وبين الأرثوذكسية والهلينية .

وقد يكون اليونانى الذى عاصر الإمبراطور هرقل وشاهد انتصار
 الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى آخر اختبار لقوتها مع الساسانيين الفرس ،
 وفوز السلطة الدينية المسيحية الأرثوذكسية فى آخر تجربة لقوتها مع الهراطقة
 النسطوريين والمونوفيسيتين ؛ قد يُزجى فى سنة ٦٣٠ ميلادية تقريباً
 الشكر لله ، لأنه وهب المناعة للثالوث الديوى : روما ، الكاثوليكية ،
 الهلينية . ومع ذلك ففى هذه اللحظة بالذات ، بات رد الفعل السورى
 الخامس ضد الهلينية وشيكاً ، وقدّر للإمبراطور هرقل نفسه أن لا يذوق

(١) أى الحضارة الهلينية ، لأنها افتحمت العالم السورى . (المترجم)

(٢) مذهب أسسه نطوريوس (مات عام ٤٥٠ ميلادية) وينكر فيه عل السيدة مريم
 لقب « أم الإله » بل يعتبرها أم المسيح الإنسان . والمذهب النسطورى مجرد إنسان
 خلقتة الكلمة الإلهية . ويحصر المذهب الآن فى طائفة الكلدان فى العراق . (المترجم)

(٣) قام المذهب المينوفيسى فى القرن الخامس الميلادى ، كرد فعل ضد النسطورية .
 ويؤمن بأن السيد المسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية وحدها . وينكر من ثم الطبيعة
 البشرية على السيد المسيح . ويؤمن بهذا المذهب فى الوقت الحاضر أقباط مصر ومسيحيو
 أثيوبيا . (المترجم)

الموت إلا بعد أن رأى « عمرا » خليفة النبي محمد ، يفد إلى مملكته ليُطبل تماماً وإلى الأبد ، فعل جميع من طبعوا الأنحاء السورية بالطابع الهليني ؛ ابتداء من الإسكندر فصاعداً .

فلقد وفق الإسلام فيما فشل فيه سابقوه ، لأنه استكمل عملية طرد الهلينية من العالم السورى . كما عاد فأدمج في الخلافة العربية ، الدولة العالمية السورية التى اختزل إسكندر الأكبر حياتها بقسوة قبل أن تستكمل رسالتها ، وقما هدم الإمبراطورية الأخمينية الفارسية . وأخيراً منح الإسلام المجتمع السورى بعد طول الانتظار ، عقيدة دينية عالمية أصيلة . فعاون بذلك المجتمع السورى — بعد انقضاء قرون من توقف حيويته — على أن يُسلم الروح وهو متأكد أنه لن يزول دون أن يُخلف عقبا . إذ غدت العقيدة الإسلامية ، البرقة التى بزغت عنها فى حينها الحضارتان العربية والإيرانية .

وهكذا ، تُبدى الأمثلة سائلة الذكر ، أننا لما نعثر بعد على الطريقة الصحيحة لدراسة المشكلة التى تواجهنا الآن ؛ والتى تهدف إلى العثور على مثال صريح لا لبس فيه ، كان التحدى فيه زائداً عن الحد .

لذا يجب أن نبعث المسألة على أسس أخرى .

(٢) مقارنات بين حدود ثلاثة

١ — مواجهة جديدة للمشكلة :

هل نستطيع العثور على طريقة أخرى للبحث تؤدى إلى نتائج أفضل ؟ فلنحاول معرفة أثر الشروع فى بحثنا من النهاية المضادة . لقد ابتدأنا حتى الآن بتحد هزم المستجيب إليه . فلنشرع فى البحث ابتداء من حالات كان فيها التحدى حافزاً فعّالاً ، وأحدث استجابة ناجحة .

اختبرنا فى الأقسام المختلفة للفصل السابق حالات كثيرة من هذا النوع . وقارنا مثال الاستجابة الناجحة بالحالات المشابهة التى استجاب فيها نفس

الطرف أو طرف يشابهه لنفس التحدى أو إلى تحد يشابهه مع درجة نجاح أقل ؛ عندما كان التحدى أقل عنفا . فلنعيد الآن النظر في طائفة من حالات المقارنة هذه بين حدّين ، ولنرى فيما إذا كنا نستطيع زيادة حدّينا إلى حدود ثلاثة .

فلنبحث في كل حالة عن وضع تاريخي ثالث لم يكن فيه التحدى أقل عنفا ، ولكنه كان أشد عنفا من التحدى في الوضع الذى ابتدأنا منه . فإذا وفقنا في العثور على حد ثالث من هذا النوع ، يُصبح الوضع الذى ابتدأنا منه - أى الاستجابة الناجحة - حداً متوسطاً بين الحدّين المتطرفين : وتقل في أحد هذين الحدّين المتطرفين شدة التحدى عما كانت عليه في الوضع المتوسط ، وتعظم عنه في الحد الآخر .

فكيف كان نجاح الاستجابة ؟

سبق أن وجدنا في الوضع الذى يقل عنده التحدى ، أن الاستجابة أقل فعلا . ولكن ماذا عن الوضع الثالث الذى تقدّمه الآن للمرة الأولى ؟ هنا حيث شدة التحدى في أعلا درجاتها ، هل سنجد نجاح الاستجابة في أعلا درجاته كذلك ؟

لنفترض أننا وجدنا ، على العكس ، أن ازدياد شدة التحدى حتى تصبح فوق المتوسط ، لا تصحبه أية زيادة في نجاح الاستجابة ، ولكن على العكس تهبط الاستجابة . فإن ثبت أن الأمر كذلك ، نكون قد وجدنا أن التفاعل بين التحدى والاستجابة ، يخضع لقانون « الأثر المتناقص » . وعندئذ نخلص من ذلك إلى القول بأن :

« ثمة مدى متوسط للشدة يكون الحافز عنده في أعلا درجاته : وسنلقب هذه الدرجة بالمثل ، باعتبارها نقيضاً للقصى » .

٢ - الرويج ، إيسلندا ، جرينلند

سبق أن وجدنا أن الحضارة الاسكندنافية العقيمة أحرزت أعظم

انتصاراتها سواء في الأدب أو في السياسة ؛ في أيسلندا لا في النرويج أو السويد أو الدنمرك . وكان ذلك استجابة لحافز مزدوج : جافز الهجرة البحرية ، وحافز بلد أكثر جذباً وأشد قسوة ، مما خلفه الملاحون الاسكندنافيون وراءهم . والآن ، لنفترض أن نفس التحدى ، قد تكرر بشدة مضاعفة ؛ لنفترض أن الرجال الشماليين قد ارتحلوا مسافة خمسمائة ميل واستقروا في بلد تبلغ شدته بالنسبة لأيسلندا ، مثل شدة أيسلندا بالنسبة إلى النرويج . فهل ينبغي هذا الثول^(١) وراء الثول ، جماعة اسكندنافية أقوى من الجماعة الأيسلندية بمقدار الضعف ، في توقدها في الأدب والسياسة ؟

ليس هذا السؤال افتراضياً ، لأن الشروط التي وضعناها جدلاً قد تحققت فعلاً ، وقمنا وصل الملاحون الاسكندنافيون إلى جرينلند . وليست الإجابة على هذا السؤال موضع شك ، فقد دلت استيطان جرينلند على فشله . ففي غضون أقل من خمسمائة سنة ، هُزم مستوطنو جرينلند تدريجياً في معركة أليمة خاسرة ضد بيئة طبيعية كانت عنيفة للغاية حتى بالنسبة إليهم .

٣ — ديكس ، ماساتشوستس ، ماين^(٢)

قارنا بالفل ؛ شدة التحدى الطبيعي الممثل في المناخ القاسي والأرض الصخرية لإنجلترا الجديدة ، مع التحدى الأقل شدة الذي قدمته فرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية ، إلى المستعمرين البريطانيين الأمريكيين ؛ وأظهرنا كيف أن مستوطني إنجلترا الجديدة قد بزوا جميع منافسهم في صراع الاستحواز على القارة . وظهر أن خط ماسون وديكسون ، يتطابق على وجه التقريب مع الحد الجنوبي لمنطقة ذات تحد مثالي .

وأحرى أن نخاطب أنفسنا الآن ؛ فيما إذا كانت هذه المنطقة ذات

(١) الثول Thule الاسم الذي أطلق قديماً على أسواق أوروبا الشمالية (جرينلندا ، أيسلندا ، النرويج ... الخ . (المترجم)

(٢) Dixie — Massachusetts — Maine

الحافز المناخي الأكبر ، لها حد آخر على الجانب الشمالى : وهاقد أصبحنا بمجرد صياغة السؤال ، ندرك أن الرد بالإيجاب ولاشك :

فإن الحد الشمالى لمنطقة المناخ المثلى ، يقسم فعلا إنجلترا الجديدة . لأننا إذ نتكلم عن إنجلترا الجديدة والدور الذى قامت به فى التاريخ الأمريكى ، فإننا نفكر فعلا فى ثلاث ولايات فحسب من ولاياتها الست الصغيرة ، ماساتشوستس ، كونيتكت ، رودايلند ؛ لافى ولايات هامبشير الجديدة وفيرمونت وماين .

وما برحت ماساتشوستس إحدى الجماعات الرئيسية التى تتكلم الإنجليزية فى قارة أمريكا الشمالية . فقد قامت فى القرن الثامن عشر بدور رئيسى فى مقاومة النظام الاستعمارى البريطانى . وما تزال ماساتشوستس تحتفظ بمركزها فى المحيط الفكرى وفى محيط الصناعة والتجارة كذلك ، إلى حذما ؛ رغما عن تقدم الولايات المتحدة الهائل منذ ذلك الحين .

ومن الناحية الأخرى ؛ فإن ماين - وإن كانت فعلا جزءاً من ماساتشوستس حتى إقامتها ولاية منفصلة عام ١٨٢٠ - إلا أنها ما برحت عديمة الأهمية . وتعيش اليوم بمثابة قطعة فى متحف ، فإنها أثر من آثار إنجلترا الجديدة فى عصر القرن السابع عشر يسكنها الخطابون وبجارة الأنهار والصيادون . ويدبر أبناء الأرض القاسية هؤلاء معاشهم الضئيل فى الوقت الحاضر ، بخدمتهم أدلاء لطلاب اللهو الذين ينفدون من مدن أمريكا الشمالية لتمضية أجازاتهم فى هذه الولاية . لأن ماين ما تزال كما كانت عليه فى ذلك العصر ، وقما كان الكثير من هذه المدن لما تبدأ بعد فى الانبعاث من هذا القفر . وعلى حين أن ماين من أقدم مناطق الاتحاد الأمريكى استيطاناً ، فإنها أقلها تحضراً وتعقيداً .

فكيف يفسر هذا التباين بين « ماين » و « ماساتشوستس » ؟

قد يبدو أنه مشقة بيئة إنجلترا الجديدة التي تبلغ درجتها المثلى في ماساتشوستس ، تشتد في مابين إلى درجة تجعل الاستجابة البشرية فيها متناقضة الأثر . وفعلا لو تابعنا دراستنا أبعد من ذلك شمالا ، لتأكد لنا هذا الفرض : فإن نيبرونسويك ونوفاسكوشيا وجزيرة الأمير إدوارد ، هي أقل أقاليم كندا رفاهية وتقدما . وإلى أبعد من ذلك شمالا مرة أخرى ، اضطرت نيوفوندلند في الأعوام الحديثة إلى ترك صراع غير متكافئ في سبيل الاحتفاظ بذاتها ، وقبلت - من ثم - شكلا مستترا وراء قناع خفيف من أشكال حكومات مستعمرات التاج ، مقابل مساعدة من بريطانيا العظمى . وإلى أبعد من ذلك شمالا في لابرادور نصل إلى أحوال مماثلة لتلك التي جابهت المستوطنين الشماليين في جرينلند ، أى التحدى الأقصى الذى شتان بينه وبين كونه مثاليا ، والذى يجدر وصفه حقا بأنه « أسوأ » التحديات .

٤ - البرازيل ، لابلاتا ، باتاجونيا :

يعرض الشاطئ المطل على الأطلسي في أمريكا الجنوبية بجلاء ، ظواهر مماثلة :

ففي البرازيل مثلا ، يتركز الجانب الأعظم من الثرون القومية والمعدات والسكان والطاقة في الجزء الصغير من هذه البلاد الشاسعة ، الذى يقع جنوب الدرجة العشرين من خطوط العرض الجنوبية . وفضلا عن ذلك ، فإن البرازيل الجنوبية نفسها هي أقل حضارة من المناطق الممتدة أبعد من ذلك جنوبا ، على أى جانب من مصب نهر لابلاتا : جمهورية أوروغواي وولاية بوينس أيريس الأرجنتينية .

وواضح أن القطاع الاستوائى على طول الشاطئ الأمريكى الجنوبي على المحيط الأطلسي ، ليس بذى حافز ، ولكنه يبعث قطعاً على التراخي ؛ ولكن ثمة دليلا على أن المناخ المعتدل عند مصب نهر لابلاتا أكثر حفزا ويعتبر مثاليا : ذلك لأننا إذا ما تتبعنا الشاطئ أبعد من ذلك جنوبا ،

سنجد بلا شك زيادة في « الضغط » . ولكن إن اخترقنا هضبة باتاجونيا الكثيفة ، سنجد الاستجابة تقل . وإن آثرنا الماضي إلى أبعد من ذلك ، تُصبح النتيجة أسوأ من ذلك ، إذ سنجد أنفسنا بين المتوحشين الجياع البليدى الإحساس الذين يسعون بالكاد للبقاء أحياء بين الجليد والثلوج في أرض النار (Tierra del Fuegos)

٥ - جالواى ، آلستر ، آبالشيا^(١) :

فلنتأمل بعد ذلك حالة لا يكون فيها التحدى كله طبيعيا ، ولكن جانبا منه طبيعى والآخر بشرى :

يوجد في الوقت الحاضر تباين ذائع الصيت بين آلستر وبقيّة أيرلندا : ففى حين أن أيرلندا الجنوبية بلد زراعى من الطراز القديم إلى حد ما ، فإن آلستر هى من المناطق الصناعية الأكثر نشاطا فى العالم الغربى . وتقف بلفاست^(٢) فى هذا المضمار على قدم المساواة مع جلاسجو وأونيوكاستل أو هامبورج أو ديترويت . ولساكن آلستر الحديث شهرة عظيمة فى الكفاية والمقدرة ، تماثل شهرته فى عدم استعدادة للمجاملة .

فإلى أى تحد استجاب مواطن آلستر ليصبح على ما هو عليه ؟

إنه قد استجاب إلى تحد ثنائى المظهر . مداره ، الهجرة عبر البحر من اسكتلندا ، والنزاع بعد وصوله آلستر مع السكان الأيرلنديين المحليين الذين وجدهم حائزين على البلاد ، فضى هو قُدُما فى تجريدهم منها . وكان لهذه التجربة المزدوجة تأثير ذو حافز ، لعله يقاس بمقارنة قوة آلستر وثروتها فى الوقت الحاضر بالظروف المتواضعة نسبيا لتلك المقاطعات الواقعة على الجانب الاسكتلندى عند الحد بين اسكتلندا وإنجلترا ، وعلى طول قطاع

(١) Galloway — Ulster — Appalachia

(٢) بلفاست عاصمة آلستر (أيرلندا الشمالية) وهى جزء من المملكة المتحدة . (المترجم)

الأرض الواطئة المدى على الهضبة الاسكتلندية التي جُمع منها مستوطنو آلستر الاسكتلنديون الأصليون ، في مطلع القرن السابع عشر (١).

بيد أن سكان آلستر الحاليون ليسوا هم وحدهم ممثلي هذه السلالة الأحياء عبر البحار : إذ أنجب الرواد الاسكتلنديون الذين هاجروا إلى آلستر ذرية من « الاسكتلنديين » الأيرلنديين هاجروا من جديد في القرن الثامن عشر من آلستر إلى أمريكا الشمالية . وتعيش ذرايرهم في الوقت الحاضر في قلاع جبال آبالاش ، وهي منطقة جبلية تمتد عبر حفنة من ولايات الاتحاد الأمريكي من بنسلفانيا إلى جورجيا :

ماذا كان أثر هذا الازدراع (٢) الثاني ؟

عبر رعايا الملك جيمس إبان القرن السابع عشر مضيق سان جورج ، وطفقوا يحاربون الأيرلنديين المممج ، عوضا عن محاربة الاسكتلنديين المممج . وعبر أحفاد أحفادهم المحيط الأطلسي إبان القرن الثامن عشر ليصبحوا « مقاتلين هنود » في الأبحاث الأمريكية المهجورة .

وظاهر أن هذا التحدى الأمريكي كان أشد عنفاً من التحدى الأيرلندي في كلا مظهره : الطبيعي والبشرى .

فهل استثارت زيادة التحدى ، استجابة أكبر ؟

سنجد الإجابة سلبية مرة أخرى ، إن قارنا حالة فرد من آلستر بحالة فرد من أفراد الآبالاش في الوقت الحاضر ، أى بعد انقضاء قرنين من ابتعاد أحدهما عن الآخر . إذ أن فرد الآبالاش الحديث لم يمتاز عن فرد آلستر في شيء ، بل إنه أخفق في الاحتفاظ بمركزه . فلقد هبط إلى المنحدر ، بطريقة نحية للأمال إلى أقصى حد . فإن شعب آبالاش الجبلى لا يفضل في الوقت

(١) يتبين أن الاصطلاح Galloway الذي استخدمناه في تسمية هذه الفقرة ليس وصفاً ملائماً تماماً للوطن الذى وفد منه مستعمرو آلستر . (الملخص)

(٢) الازدراع : نقل نبات من مكان إلى آخر . (المترجم)

الحاضر الهمج ، إذ ارتد إلى الأمية والسحر ، ويعانى الفقر والقذارة واعتلال الصحة ، وهو الصورة الأمريكية المقابلة للبدايين من الجنس الأبيض المنتشرين فى العالم القديم فى هذه الأيام : أهل الريف^(١) والألبانيون والأكراد والبائان والأينو المشعرون ، مع فاروق أنه بينما أن الأخيرين مختلفات باقية للهمجية القديمة ، يعرض سكان الآبلاش مشهداً محزناً لشعب استخوذ على الحضارة ثم أضاعها .

٦ - ردود الفعل لتخريب الحروب :

كان التحدى فى حالة آل ستر / أبلاش ، طبيعياً وبشرياً فى وقت واحد ، بيد أن سريان قانون « النتيجة المتناقضة » ؛ يبدو فيه واضح المعالم تماماً ، كما يبدو فى الحالات الأخرى التى يكون فيها التحدى فى المجال البشرى دون سواه : تأمل مثلاً ؛ نتائج التحدى الذى يمثله التدمير الذى تحدثه الحرب ؛ ولقد سبق أن بينا حالتين قوبل فيهما تحد شديد من هذا النوع ، باستجابتين ظافرتين :

فقد استجابت أثينا لتدمير الغزو الفارسى بأن أصبحت « معلمة هيلاس » ، واستجابت بروسيا لتدمير الغزو البابليونى بتطورها إلى ألمانيا بسمارك .

فهل نستطيع أن نعثر على تحد من هذا القبيل يبدو مفراطاً فى شدته ، على تدمير تقرحت جراحه وأصبحت مميتة على مدى الأيام ؟ نستطيع ذلك .

لم يسفر تدمير هانيبال لإيطاليا عن نعمة مسترة ، على غرار تلك الهجمات الأقل عنفاً . إذ استحوالت الأراضى الزراعية المحتاجة فى جنوب إيطاليا ؛

(١) الريف (*) منطقة فى شمال المغرب الأقصى وبائان منطقة فى شمال غرب باكستان .
(المترجم)

(*) لا نستطيع أن نقر المؤلف على وصفه تلك الشعوب بالبداية فليسوا همجا ولكن لم مثلهم العليا ويضحون بكل عزيز فى المحافظة عليها .
(المترجم)

بعضها إلى مراعى ، والبعض الآخر إلى كروم ومزارع زيتون . وتولى شئون الاقتصاد الريفى الجديد - الغرس وتربية الماشية على السواء - العمال الأرقاء عوضاً عن الفلاحين الأحرار ، الذين كانوا يحرقون الأرض وقتاً ما قبل أن يحرق جنود هانيبال كوخ الفلاح ، وقبل أن تغزو الأعشاب والحشائش حقوله المهجورة :

ولا ريب أن هذا التغير الثورى من الفلاحة لإشباع الحاجة إلى زراعة المحاصيل لبيعها ؛ ومن تولى الفلاح تربية الماشية بنفسه إلى استخدام القوة العاملة من الرقيق ؛ قد رفع - إلى حين - ولا شك ، قيمة إنتاج الأرض النقدية . بيد أنه قابل تلك الزيادة - بأكثر منها - الشرور الاجتماعية التى ترتبت عليها : إفقار الريف من السكان ، واحتشاد بروتلارية فقيرة من المزارعين السابقين فى المدن . ولم ينتج عن محاولة آل جراكشى - Gracchi فى الجيل الثالث بعد جلاء هانيبال عن إيطاليا - لوقف هذه الشرور - سوى تفاقم سخط الكومونلث الرومانى والتعجيل بالثورة السياسية ، دون وقف الثورة الاقتصادية . ولقد استمرت نار الصراع السياسى ، فأصبحت حرباً أهلية . وقبل الرومان بعد انقضاء مائة عام من تريبونيه^(١) تيربوس جراكوس ، ديكتاتورية أغسطس قيصر المستديمة : إذ اعتُبرت علاجاً مرأى لشئون العامة الميثوس منها .

ومن ثم يعتبر تدمير هانيبال لإيطاليا ، أبعد من أن يحفز الشعب الرومانى ، مثلاً حفز وقتاً ما تخريب آجزرسييس لآتيكا أهل أثينا . بل إنه قد وجه إلى الرومان صدمة لم يفيقوا منها أبداً .

وهكذا ، فإن نقمة التدمير الذى أثبت أنه حافز ، عند ما امتزج بحبوية الفرس ، كان قتالاً عند ما وقع بالشدة الفينيقية^(٢) .

(١) أحد مناصب الحكم الرومانى . (المترجم)

(٢) نشبت الحرب البونية بين روما وقرطاجنة . (المترجم)

٧ - ردود الفعل الصينية تجاه تحدى الهجرة :

قارنا فعلا نتائج درجات التحدى الطبيعى المختلفة على مجموعات المهاجرين البريطانيين المختلفة . فلنتأمل الآن ، رد فعل المهاجرين الصينيين على درجات التحدى البشرى المختلفة :

فعندما يهاجر العامل الصينى إلى الملايو أو أندونيسيا^(١) ، يستطيع اجتناء جزاء مغامرته . لأنه عند ما يجابه تجربة اجتماعية تتمثل فى مغادرته موطنه المعتاد وانخراطه فى بيئة اجتماعية غريبة عنه ، إنما يستعيض عن بيئة اقتصادية توهن عزيمته بتقاليدها الاجتماعية العميقة الجذور ، بيئة يجد فيها حافزاً لإصلاح حاله ، وليس بالأمر النادر أن يصيبه التوفيق .

لنفترض - مع ذلك - أننا زدنا فى شدة التجربة الاجتماعية ، التى هى ثمن المغامرة الاقتصادية . ولنفترض ، أنه عوضاً عن إرساله إلى الملايو أو أندونيسيا ، نبعث به إلى استراليا أو كاليفورنيا . عندئذ يخضع عاملنا الصينى المغامر فى بلاد الرجل الأبيض هذه - بفرض السماح له بدخولها - لتجربة أشد بكثير من الأولى . فبدلاً من أن يجد نفسه مجرد غريب فى أرض أجنبية ، فإنه سيضطر إلى مكابدة نقمة متعمدة يكون فيه القانون ضده ، عوضاً عن أن يهب لنجدته كما يحدث فى الملايو ، حيث تخصص إدارة استعمارية طيبة ، موظفاً رسمياً يدعى « حامى الصينيين » .

فهل تستثير هذه التجربة الاجتماعية ذات الشدة الأقوى ، استجابة اقتصادية أشد ؟ تتناسب فى قوتها مع اشتداد تلك التجربة ؟

هذا ما لا يحدث ، كما نستطيع أن نشاهده إن قارنا مستويات الرخاء التى يبلغها الصينيون فعلاً فى الملايو وأندونيسيا . بالمستويات التى يدركها مهاجرو نفس العنصر الموهوب فى استراليا وكاليفورنيا .

(١) أورد المؤلف فى الأصل : ملايو البريطانية وجزائر الهند الشرقية الهولندية . نكتابه هذا الفصل قبل إعلان استقلال البلدين . (المترجم)

٨- السلاف والآخيون والتوتون والكلت :

لنعيد النظر بعد ذلك فى التحدى الذى توجهه إحدى الحضارات للهمجية البربرية : وهو تحدى هياها فى أوروبا ، إشعاع الحضارات المختلفة إلى طبقات البرابرة المتعاقبة ، فى عصور متتالية داخل هذه القارة التى كانت مظلمة وقتنا ما .

ويستلفت نظرنا - إذ ندرس هذه المأساه - حالة واحدة استثار فيها التحدى استجابة ذات سناء غير عادى . ولعل الحضارة الهلينية هى أروع زهرة من الأنواع التى قدر لها أن تزدهر فى أى وقت من الأوقات . وكان انبعاثها استجابة لتحدى وجهته الحضارة المينوية للبرابرة الأوربيين . إذ لما مكنت الحضارة المينوية البحرية لنفسها فى شبه الجزيرة اليونانية لم تقم بالقضاء على البرابرة الآخيين الموجودين فى الداخل . كما أنها لم تخضعهم أو تدبجهم فيها . وعلى العكس ، نجح هؤلاء الآخيون فى المحافظة على ذاتيتهم كبرولتاريا خارجية للإمبراطورية البحرية المينوية ، دون أن يقصروا فى إبراز فنون الحضارة التى كانت كامنة فيهم . وفى الوقت المناسب نزلوا إلى البحر وتغلبوا على المينويين البحرين فى ميدانهم الخاص . فأصبحوا ، من ثم ، آباء الحضارة الهلينية الحقيقيين . ويرر الفحص القائم على أساس الدين ، الادعاء الآخى بأبوة الهلينية ، مصداقا لما رأيناه فعلا : إذ تبدى أسارى وجه آلهة البانشيون الأولمبي بجلاء ، حقيقة مبناه أن هذه الآلهة منحدره من البربرية الآخية . فى حين لا يتأتى العثور على أية آثار للديانة الهلينية المشتقة من العالم المينوى - إن وجدت - إلا فى طائفة من الهياكل الجانبية والمدافن المقامة تحتها فى معبد الديانة الهلينية ، أى فى طائفة من الشعائر المحلية والأسرار الدفينة والعقائد السرية :

وتقاس قوة الحافز فى هذه الحالة ، بما بلغت الهلينية من سناء . إلا أنه

يتأتى قياس تلك القوة بطريقة أخرى مدارها : مقارنة مصائر هذه الطبقة الآخية من البرابرة بطبقة أخرى تصادف بقاؤها على مسافة بعيدة وآمنة ؛ إلى حد جعلها في حكم المحصنة ضد إشعاع أية حضارة — مهما كانت — لمدة ألفى سنة من تلقى الآخيين التحدى المينوى ، وقيامهم باستجابتهم الرائعة . هؤلاء هم السلاف الذين أخفوا أنفسهم في مستنقعات نهر برييت^(١) وقبما تركت حثالة القارة هذه إلى الإنسان عند ارتداد الدائرة القطبية إلى الوراء : فاستمروا يعيشون هناك حياة البربرية الأوربية قرناً بعد آخر : ولما أنهى الزوح التبتونى المأساة الهلينية الطويلة التى بدأها الزوح الآخري قبل ذلك ، وكان هؤلاء السلاف ما يزالون في هذا الموضع .

وفي هذا الزمن المتأخر من عهد البرابرة الأوربيين ؛ ثم اقتلاع السلاف في نهاية الأمر من مكانهم المنيع ، بمعرفة الرُّحل الأفارين الذين أغواهم ؛ الاشتراك مع التبتون في نهب الإمبراطورية الرومانية والاستيلاء على حطامها في البيئة الغربية . فهاموا على وجوههم فيما وراء حدود أرضهم الوطنية ، في السهب الأوراسى .

ورنا أبناء السهب الضالين هؤلاء ، إلى تكييف أسلوب حياتهم القديم مع ملابساتهم الجديدة في البيئة الغربية لعالم زراعى . ولقد كان الأفاريون يكتسبون في السهب ، معاشهم كزراعة ماشية . لكنهم وجدوا أن الفلاحين الآدميين في الأراضي الزراعية التى اغتصبوها ، أنسب شئ يقوم بالدور الذى قامت به الماشية في السهب . ولذا شرعوا — بشئ من المنطق — في تحويل أنفسهم إلى رعاة للمخلوقات البشرية . ومثلما كانوا يُغيرون على ماشية جيرانهم البدو بغتة ليرعوا بها في المراعى الجديدة التى يستولون عليها ،

(١) نهر برييت Pripet أو نهر برييات Pripyt باللغة الروسية : نهر قابل للملاحة يقع جنوب جمهورية روسيا البيضاء (وهى إحدى الجمهوريات السوفيتية الخمس عشرة) وهذا النهر فرع من فروع نهر الدنيبر في أوكرانيا بالاتحاد السوفيتى . ويلتقى النهران قرب مدينة كييف عاصمة أوكرانيا . (المترجم)

باتوا يتطلعون حولهم بحثاً عن قطع آدمى ليملاؤا به فراغ أقاليم الإمبراطورية الرومانية التي استولوا عليها والتي أقفرت من السكان . فوجدوا ضالهم في السلاف . فكان أن حشدوهم في قطعان ، واستقروا بهم في دائرة شاسعة حول السهل المحرق ، حيث أقاموا مخيماتهم . ويبدو أن هذه هي الطريقة التي أخذت بها الطليعة الغربية للجماعة السلافية — أسلاف التشيك والسلفاك واليوغوسلاف الحاليين — سبيلها البطيء المهيمن في التاريخ .

ويبدى هذا التباين بين الآخيين والسلاف ، صدق الرأي القائل بأن مناعة المجتمع البدائي الكاملة ضد تحدى ملاقات الحضارات ، تشكل عقبة خطيرة في طريق ذلك المجتمع . ويبدو فعلاً أن لهذا التحدى تأثيراً حافزاً عندما تصل شدته إلى درجة معينة .

فإن فرضنا وزيدت درجة شدة التحدى ، فهل يقود ذلك إلى الحصول على استجابة أعظم سناء مما حققه آباء الحضارة الهلينية الآخيين ، أو هل يتدخل قانون « الأثر المتناقص » ، فيؤدي دوره مرة أخرى ؟

ومن قبيل المثال أن تأثيرات الطاقة التي أشعتها المجتمع المينوى ، قد ارتفعت إلى درجة أعلى .

لسنا في حاجة بالنسبة لهذه النقطة ، أن نفكر في الفراغ : فإن بين الآخيين والسلاف ، طبقات عديدة أخرى من البرابرة تعرضت لدرجات مختلفة لإشعاع حضارات متنوعة ، فإذا حدث لهم ؟

سبق أن مرت بنا حالة ، فشل فيها برابرة أوربيون أمام إشعاع ذى قوة مدمرة . فلقد رأينا كيف أن الكلت في نهاية الأمر قد أبعدوا أو أخضعوا أو امتزجوا ، بعد فورة عابرة للطاقة نتيجة استجابة لحافز تلقوه عن طريق الأثوريين : وقابلنا وقتئذ إخفاق الكلت النهائي ، ينجاح التيوتون النسبي في الصمود أمام المداخل الهلينية : ولاحظنا كذلك ، أن الطبقة التيوتونية من البرابرة الأوربيين — عكس الطبقة

الكلتية منهم — قد قاومت التأثير الهليني الذى يعمل على الانحلال إلى حد أن التيتون استطاعوا تبوأ مركزهم ضمن البروليتاريا الخارجية للعالم الهليني ، فاستطاعوا أن يوجهوا إلى المجتمع الهليني الضربة القاضية ، إبان معاناته آلام الاحتضار .

ويعتبر رد الفعل التيتونى هذا توفيقاً كبيراً ، إن قورن بالهزيمة الكلتية : ولكن حينما نقارن ما حققه التيتون بما حققه الآخيون ، يرجع بنا الفكر إلى حقيقة مبناها ؛ أن التيتون لم يفوزوا بأكثر من نصر أجوف^(١) . لأنهم لم يظهروا عند وفاة المجتمع الهليني ، إلا ليتلقوا ضربة مميتة فى ذات المكان ، من أيدي منافسيهم أفراد البروليتاريا الداخلية الذين خلفوا المجتمع الهليني بعد موته .

وبالأحرى لم يكن الفائز فى هذا المعترك ، عصابة التيتون العسكرية . ولكن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، التى أدمجت فى نطاقها البروليتاريا الداخلية للمجتمع الهليني . وأصبحت كل عصابة من تلك العصابات ، — الآرية التيتونية العسكرية أو الوثنية — التى تجاسرت على التعدى على المناطق الرومانية ؛ إما وقد تحولت إلى الكاثوليكية ، أو أبيدت من الوجود .

وكانت الحضارة الجديدة المتفرعة من الحضارة الهلينية ، تتصل بسابقتها عن طريق البروليتاريا الداخلية ، لا عن طريق البروليتاريا الخارجية . لأن المسيحية الغربية هى أصلاً من صنع الكنيسة الكاثوليكية ، عكس الحضارة الهلينية التى هى أصلاً من صنع البرابرة الآخيين^(٢) .

فلترتب الآن مجموعتنا الحالية عن أنماط التحدى ، ترتيباً تصاعدياً من حيث الشدة :

(١) فى الأصل فرغوسى ، نسبة إلى فرغوس ملك أفيروس . ويضرب مثالا للانتصار المؤقت الذى تمقه هزيمة حاسمة . (المترجم)

(٢) وهم البروليتاريا الخارجية للحضارة المينوية . (المترجم)

- ١ - لبث السلاف فترة طويلة محصنين كلية ضد التحدى . مما زاد مركزهم سوء بشكل واضح بسبب افتقارهم إلى الحافز .
 - ٢ - تلقى الآخيون تحدياً يجب - وفقاً لما يبدو من مدى استجابتهم - اعتباره تحدياً مثالياً .
 - ٣ - ثبت التيتون لتحدى الحضارة الهلينية . لكن تحدى الكنيسة الكاثوليكية قد هزمهم فيما بعد .
 - ٤ - واجه الكلت المجتمع الهليني في عنفوانه - على عكس التيتون الذين واجهوه إبان تدهوره - فكان أن سحقهم ذلك المجتمع .
- وبالأحرى ، كابد السلاف والكلت ظروفاً على طرفي نقيض : مناعة لا طعم لها من ناحية ، وغارة ساحقة من ناحية أخرى . ويشغل الآخيون مركزى الحدّين الأوسطين ؛ في مقارنة تضم هذه المرة أربعة حدود عوضاً عن ثلاثة . على أن مركز الوسط من حيث التجربة المثالية ، كان مركز الآخيين .

(٣) حضارتان عقيمتان

١ - مؤخرة الهجرات التيوتونية :

هل يتيسر تحديد النقطة التي يبدأ عندها سريان مفعول قانون « الأثر المتناقض » تحديداً أكثر دقة ، في مجموعة التحديات التي تحدث بين الحضارات المشعة والبرابرة الأوروبيين ؟

أجل يتيسر ذلك . إذ ثمة مثالان لم نحسب لهما حساباً بعد :

الأول : النزاع بين الكنيسة الرومانية - باعتبارها 'منشئ' مجتمعنا الغربى - وبين المجتمع العقيم لكنيسة الغرب الأقصى المسيحية في « المقاطعة الحدية الكلتية » .

الثاني : النزاع بين مجتمعتنا الغربى إبان مراحلہ الأولى ، ومجتمع الفايكنج الشمالى الأقصى أو السكندنافى :

وكان الخصم فى كلا هذين النزاعين ، مؤخره بربرية ظلت دائماً خارج نطاق الحكم الرومانى . وظلت فى الوقت الذى كانت فيه الطليعة التيتونية تنغمس سيفها فى جسد المجتمع الهليني المحتضر ، مدخرة نفسها هى الأخرى لتقوم بأعمال تدميرية ؛ ولتتم تدميرها هى الأخرى كما ظهر فيما بعد . وبالإضافة إلى ذلك ، أحرزت كلتا هاتين المؤخرتين درجة من النجاح ، وإن كانت أقل من نجاح الآخين ، إلا أنها تجاوزت كثيراً نجاح التيتون الذين جاءوا بعد الآخين مباشرة ، فى الترتيب ؛ فى مقارنتنا ذات الحدود الأربعة الآنفه الذكر .

ولقد نجح الآخيون فى إنتاج حضارة كبرى خلعت الحضارة المينوية التى هاجوها . وحظيت المقدمة التيتونية بفترة موفقة من « وقت طيب » : إذ جعلت مدار هوها ، القيام بأعمال تدمير خفيفة : على أنها لم تحقق شيئاً — أو لا شئ تقريباً — ذا قيمة إيجابية :

ومن الناحية الأخرى ، توصل مسيحيو الغرب الأقصى والفايكنج فى أقصى الشمال ، إلى حد إنجاب حضارة . إلا أن الجنين سقط فى كل حالة ، أمام تحد أثبت أنه أشد من أن يواجهه الجنين .

كنا قبل الآن قد أشرنا ضمناً أكثر من مرة ، إلى وجود حضارات عقيمة ، وهى الحضارات التى لم تتضمنها قائمتنا الأصلية . لأن جوهر الحضارة ، إنما يظهر عند تمام نضوجها ، بينما أن الحضارات العقيمة تموت فى المهد . ويتيح لنا الآن سير بحثنا مناسبة دراسة اثنتين منهما^(١) :

(١) ستصادف فى الفصل التالى كذلك مجموعة أخرى مختلفة وهى « الحضارات المتعطلة » ، وسنجد أنها ليست ضحايا « وفيات الأطفال » ولكنها تعتبر ضحايا « شلل الأطفال » . وهى حضارات ولدت لكنها أخفقت فى أن تنمو ؛ مثلها مثل أطفال أرض الأحلام (مثل بيتر بان) .
(المؤلف)

٢ - حضارة مسيحية الغرب الأقصى العقيمة :

تمثل رد فعل القطاع الحدى الكلتى للمسيحية ، فى نمط انفراد هو به . فعلى عكس القوط الذين انضموا إلى الآرية ، أو الأنجلوساكسون الذين تحولوا إلى الكاثوليكية ، لم يعتنق هؤلاء الكلت هذا الدين الأجنبي بالحالة التى وجدوه عليها . بل صاغوه بحيث يتمشى مع تراثهم الاجتماعى الهمجى الخاص ، عوضاً عن سماحهم له بتحطيم تقاليدهم الوطنية :

« ولم تبدُ على عنصر آخر » ، كما يقول رينان ، « مثل هذه الطرافة فى طريقة اعتناقه المسيحية » . ولعلنا ندرك ذلك حتى فى ردود الفعل التى أظهرها الكلت المنتصرون فى بريطانيا تحت الحكم الرومانى . ولا نعلم سوى القليل عنهم . لكننا نعلم أنهم أنجبوا فى شخص بيلاجيوس : Pelagius^(١) ؛ زعيم شعبة من الهراطقة ، هزم كيان العالم المسيحى كله فى عصره . على أن ثمة ما ثبت مع الوقت أنه أهم من حركة بيلاجيوس ، وهو أعمال باتريك مواطن بيلاجيوس ومعاصره ، الذى حمل المسيحية إلى إيرلندا فيما وراء حدود العالم الرومانى .

وكانت الهجرات البحرية الإنجليزية (غزو الأنجلو ساكسون لبريطانيا)، ضربة قاصمة للكلت البريطانيين ، فى حين كانت بركة على الكلت الإيرلنديين . إذ قادت إلى فصل إيرلندا عن تلك الأقاليم الرومانيسة السابقة فى أوروبا الغربية ، حيث تطورت حضارة مسيحية جديدة تستلهم روما . وحدث ذلك إبان الفترة التى تلت مباشرة بذر بذور المسيحية هناك — عند مرحلة من مراحل النمو الأولى كان فيها تشكيل الجنين أكثر تأثراً — مما أدى إلى بزوغ

(١) بيلاجيوس Pelagius زعيم طائفة دينية ظهرت فى القرن الخامس الميلادى . وقوام تعاليمه الدينية عدم وجود خطيئة أصيلة . ولا يحتاج المرء إلى النفران لتفادى الخطيئة الفعلية ، وتكفى إرادة الإنسان الاختيارية لبلوغ درجة الخلاص ، وإن كان النفران ييسر بلوغ تلك الدرجة . (المترجم)

جنين مجتمع مسيحي غربي أقصى منفصل ومميز ، توجد ركيزته في إيرلندا ، وذلك في نفس الوقت الذي انبعث فيه المسيحية الغربية حديثة المولد في القارة الأوروبية .

وتتضح بالمثل طرافة مسيحية الغرب الأقصى هذه ، في تنظيمها الكنسي وفي شعائرها وحياة القديسين وفي أديها وفنها .

ولم تقتصر الكنيسة الإيرلندية في غضون مائة عام من بعثة سان باتريك (التي قد تؤرخ في ٤٢٣ - ٤٦١ ميلادية) على استكمال مظاهرها المميزة : بل إنها انطلقت في نواح كثيرة إلى أبعد مما ذهبت إليه كاثوليكية القارة : ويظهر الدليل على ذلك من حرارة الحفاوة التي استقبل بها المبشرون والعلماء الإيرلنديون في بريطانيا والقارة بعد انقضاء فترة الانعزال : ومن ولع الطلبة في بريطانيا والقارة بالالتحاق بالمدارس الإيرلندية .

واتصلت فترة التفوق الثقافي الإيرلندي من وقت تأسيس الجامعة الرهبانية في « كلون ماك نويس » - Clonmacnois في إيرلندا عام ٥٤٨ ميلادية ، إلى تأسيس دير سان جيمس الإيرلندي في راتيسبون عام ١٠٩٠ ميلادية : ولم يكن نقل هذه الثقافة هو النتيجة الاجتماعية الوحيدة لتجدد الاتصال بين مسيحية الجزيرة ومسيحية القارة^(١) . إذ كان لهذا الاتصال نتيجة أخرى ، عبارة عن صراع في سبيل السيطرة .

وكان هذا الصراع يدور حول معرفة هل ستتمو حضارة أوروبا الغربية المقبلة من أصل إيرلندي أو من أصل روماني . وقد هزم الإيرلنديون في هذا الصراع قبل أن يفقدوا سيادتهم الثقافية بوقت طويل .

ولقد وصل الصراع إلى ذروته في غضون القرن السابع بسبب المنافسة بين مريدي سان أوغسطين الكنتبري ، ومريدي سان كولومبا الأيوني ؛

(١) أي المسيحية في جزيرة إيرلندا والمسيحية في القارة الأوروبية . (المترجم)

على تحويل إنجليز نورثمبريا إلى المسيحية . ومن مظاهره اللقاء الدرامى بين مندوبيهما فى مجمع هويتى المقدس عام ٦٦٤ ميلادية ، وقرار ملك نورثمبريا بإيثار سان ويلفريد نصير روما . واستتب النصر لروما مباشرة تقريبا عقب وصول مبعوثها « ثيودور » الطرسوسى مطرانا لكنتربرى لتنظيم كنيسة إنجلترا وفقاً لنظام المطرانيات الرومانى ، وإنشاء كرسيين أسقفيين فى كنتربرى ويورك . ومن ثم تقبّلت - فى غضون نصف القرن التالى - كافة جماعات القطاع الحدى الكلتى : اليبكت والإبرلنديين والويلزيين والبريطون وأخيراً أيونا نفسها : الطريقة الرومانية فى حلق قمة الرأس قبل الدخول فى الرهبة والأسلوب الرومانى فى حساب تاريخ عيد الفصح ، اللذين كانا مثار نزاع رسمى فى مجمع هويتى . بيد أنه لبثت هناك اختلافات أخرى لم تختف تماماً حتى القرن الثانى عشر .

وانعزلت حضارة الغرب الأقصى منذ أيام انعقاد مجمع هويتى إلى ما بعده ، وكتب عليها الهلاك . فقد كابدت كثيراً من قسوة إغارات الفايكنج على إيرلندا . ومصادقا لذلك لم يؤلف فى إيرلندا - إلى مدى معرفتنا - كتاب واحد باللاتينية خلال القرن التاسع الميلادى ، وقتما لم يسلم دير أيرلندى واحد من النهب . مع أن اللاجئين الإبرلنديين فى القارة كانوا قد بلغوا إبان هذا العصر ذاته أعلى مراتب العلم والمعرفة .

وإذا كان التحدى السكندنافى يعتبر السبب الحقيقى لقيام كل من إنجلترا وفرنسا الحديثتين ، لما وجهه إلى الشعبين الإنجليزى والفرنسى من حافز بالغ الدرجة المثلّى ؛ إلا أنه واجه إيرلندا - فى عزلتها الجديدة - بدرجة مفرطة فى الشدة ، جعلتها لا تستطيع أن تفوز بأكثر من نصر أجوف^(١) ، عندما تغلب بريان بورو^(٢) Brian Boru فى كلونتارف

(١) فى الأصل ، نصر فرغوسى نسبة إلى فرغوس ملك أيبديوس (٣١٨ - ٢٧٢ ق . م) ويضرب مثلاً للنصر الذى يكلف كثيراً بحيث يتعادل مع الفشل . (المترجم)

(٢) ملك موستيس Mustes الثمانية (٩٢٦ - ١٠٢٤ ميلادية) ولقد فاز فى معاوكة ضد الدنمركيين فى كلونتارف . (المترجم)

Clontarf على الغزاة . وكانت الضربة القاضية بدء الغزو الإنجليزى النورمندى لإيرلندا على أيدى الملك هنرى الثانى الانجمنى فى منتصف القرن الثانى عشر مصحوبا ببركة البابا :

وهكذا بدلا من أن يقيم رواد القطاع الحدى الكلتى الروحانيون حضارة خاصة بهم ، قُدر عليهم أن يفرض عليهم الجزية بمعرفة منافسهم أنفسهم الذين سلبوهم حقهم الميراثى فى إنشاء حضارة مستقلة . وأصبحت الثقافة الإيرلندية خادمة تعمل لرق الحضارة الغربية فى القارة بفضل التحاق العلماء الإيرلنديين ، الذين لجأوا إليها هربا من المذابح الاسكندنافية ، بخدمة النهضة الكارولنجية التى يعتبر جوهانس سكوتس اريجينيا Johannes Scotus Erigena العالم الأيرلندى الهلبنى الاتجاه ، الفيلسوف واللاهوتى ، أعظم شخصية فيها .

٣ - الحضارة الاسكندنافية العقيمة :

سيبين لنا أن فى السباق بين روما وإيرلندا للحصول على شرف ابتداء الحضارة الغربية الجديدة ، لم تفز روما إلا بكسب محدود .

وكان على المسيحية الغربية الناشئة أن تشبك وهى ما تزال فى طفولتها - بعد فترة راحة قصيرة للغاية - فى صراع آخر للحصول على نفس الغنيمة . وكان الصراع هذه المرة مع مؤخرة برايرة شمال أوروبا التوتونية ، التى كانت محفظة بنفسها فى اسكندنافيا ، متحفزة للوثوب .

ولقد كانت الملابس هذه المرة أشد قسوة . وجرى الصراع فى المجال الحربى ، وفى المجال الثقافى على السواء . واتسم الصراع بأن كلا الفريقين المتنازعين - كل بمفرده - كان أقوى وأكثر بعدا عن الآخر ، مما كان عليه قبل ذلك بقرنين ، كل من الفريقين المتنافسين الإيرلندى والرومانى : وهما جنيئا المسيحية الغربية العتيدة :

ولقد تماثل تاريخا الاسكندنافية والإيرلنديين خلال الحقبة التي سبقت نزاع كل منهم مع المسيحية الغربية ، من وجهة انزال الفريقين فترة ما ، عن خصمها المقبل . إذ أدت غزوة الوثنيين الأنجلوساكسون لانجلترا ، إلى انزال المسيحيين الإيرلنديين . بينما انزل الاسكندنافيون عن المسيحية الرومانية قبل نهاية القرن السادس الميلادى ، بسبب تداخل الوثنيين السلاف بينهم وبينها . وكان هؤلاء السلاف قد سبقوا برا على طول شواطئ البلطيق الجنوبية من خط نيمين Niemen إلى خط نهر الإلب^(١) Elbe ، داخل الفراغ الذى خلفته هجرة البرابرة التيتون الذين جلوا عن هذه المنطقة ، لانسياقهم فى خضم الهجرات التى أعقبت انهيار الهلينية . بينما لبث الاسكندنافيون قابعين فى ديارهم .

فألقى الإيرلنديون أنفسهم - من ثم - منعزلين عن رفاقهم المسيحيين . كما وجد الاسكندنافيون أنفسهم منعزلين عن رفاقهم التيوتون ، بكتل من المتطفلين أشد منهم همجية . على أنه كان ثمة اختلاف جوهري . فإنه فى حين أطلق بين الإيرلنديين الإشعاع السابق المنبعث من الإمبراطورية الرومانية - قبل غزوة الأنجلوساكسون - شرارة من المسيحية تفجرت إلى لهب إبان مدة العزلة ؛ ظل الاسكندنافيون وثنيين .

وكانت الهجرات الاسكندنافية - كأنواع الهجرات الأخرى - رد فعل مجتمع همجى على صدمة حضارة . وكانت الحضارة فى هذه الحالة مندبجة فى إمبراطورية شارلمان . ولقد ثبت أن هذه الإمبراطورية مقدّر لها الفشل لكونها مهيبة وسابقة لأوانها فى وقت واحد . لأنها صرح سياسى طموح أقيم فى عجلة على أسس اجتماعية واقتصادية بدائية ؛ وكان السبب الأساسى لتداعيه ؛ شروع شارلمان فى غزو ساكسونيا . فلقد تبين فى سنة ٧٧٢ ميلادية ، أن إدماج ساكسونيا فى المسيحية الرومانية ، باستخدام القوة الحربية ؛

(١) النيمين والإلب نهران بألمانيا . (المترجم)

يخالف مخالفة قاتلة ، سياسة التسلل السلمى التى اتبعها المبشرون الإيرلندون والإنجليز طوال قرن مضى ،والتي وسّعت فعلا نطاق المسيحية بفضل تحويلها البافاريين والثورنجميين والهسيانيين والفرسيانيين^(١) . فالواقع أن محنة حرب الثلاثين سنة الفرنجية الساكسونية ، قد مزقت إلى حد بعيد ، الأنسجة الضعيفة للمجتمع الغربى الناشئ* . واستثارت في نفوس السكندنافيين نفس « الحمية الهمجية » التى انبعثت في نفوس الكلت من قبل ، وقتما توقف عند سفح جبال الألب توسع الأتروورين الطموحين .

وفاق التوسّع الاسكندنافى خلال الفترة من القرن الثامن إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، التوسع الكلتى إبان المدة من القرن الخامس إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، فى ناحيتى المدى والشدة على السواء .

وإن محاولة الكلت الفاشلة الالتفاف حول العالم اليونانى ونشرهم جناحهم الأيمن فى قلب أسبانيا وجناحهم الأيسر فى قلب آسيا الصغرى ؛ لتتضاءل أمام أعمال الفيكينج الذين هددوا كلا من المسيحية الأرثوذكسية والمسيحية الغربية على السواء . فإنهم قد نشروا جناحهم الأيسر فى روسيا ، وجناحهم الأيمن فى شمال أمريكا .

ولما حاول الفايكنج شق طريقهم على طول نهر التيمس والسين والبسفور إلى ما وراء لندن وباريس والقسطنطينية ؛ تعرضت الحضارتان المسيحيتان ، إلى خطر يفوق ما جابهته الحضارة الهلينية عند ما أصبح الكلت فترة ما سادة روما ومقدونيا .

ولقد فاقت الحضارة السكندنافية العقيمة التى بدأت تنتشر فى ايسلندا قبل أن يذوب جمالها البارد بفعل حرارة النسمة المسيحية وتتحول إلى شيء لاشكل له ؛ فاقت كثيرا الثقافة الكلتية البدائية التى كشف عن

آثارها علماء الآثار المحدثون . وذلك سواء من احية ما حققته تلك الثقافة ، أو من ناحية ما كان يتوقع لها تحقيقه^(١) .

وتتطلب طبيعة الطريقة المتبعة في هذه الدراسة إعادة دراسة نفس الأحداث التاريخية في ظروف مختلفة . ولقد سبق لنا وصف التحدى الذى أبرزته الغزوات السكندنافية تجاه شعبي إنجلترا وفرنسا ، وأبنا أن الشعبين قد خرجا منتصرين على التحدى باستكمال وحدتهما الخاصة . بل وأعظم من ذلك ، بتحويل المستوطنين الاسكندنافيين إلى المسيحية ، ثم إدماجهم في حضارتها .

وكما ساهم أبناء الثقافة المسيحية الكلتية — بعد زوالها الأبدى — في زيادة ثروة المسيحية الرومانية ، غدا النورمنديون كذلك رأس حربة الاعتداء اللاتيني بعد ذلك بقرنين . ولقد كان أحد المؤرخين على حق في وصف الحملة الصليبية الأولى بأنها غزوة من غزوات الفايكنج اصطبغت بالصبغة المسيحية .

ولقد سبق لنا بيان أهمية ايسلندا في حياة الحضارة الاسكندنافية العقيمة ، وأنعمنا الفكر في النتائج العجيبة التى ما كانت لتحدث ، لو تساوى الوثنيون السكندنافيون في أعمالهم مع الآخين ، وتمكنوا من دفع المسيحية إلى الانزواء فى السرادب وأقاموا فى أنحاء أوروبا الغربية ثقافتهم الوثنية الخاصة على اعتبار أن تلك الثقافة هى التى ورثت — وورثت دون سواها — الحضارة الهلينية فى تلك المنطقة .

وما يزال علينا أن نلقى نظرة على غزوات الحضارة الاسكندنافية وانقراضها فى موطنها نفسه .

تم هذا الغزو بفضل العودة إلى الأساليب التى سبق أن نبذا شارلمان :

(١) ثقافة لاتين La Tene Culture عبارة عن اسم الموقع عند تدفق بحيرة نيوشاتل الذى كشفت فيه الآثار الأولى العجيبة لهذه الثقافة . (المؤلف)

فقد تم الدفاع عن المسيحية الغربية بالقوة وبالطرائق الحربية المجردة . ولكن؛ ما إن نجح الدفاع الغربى الحربى فى وقف الهجوم العسكرى الاسكندنافى، حتى استأنف الغربيون استخدام أساليب التسلل السلمى ، وبعد أن حوّلت المسيحية الغربية إليها المستوطنين الاسكندنافيين فى أوروبا الغربية المسيحية وأخرجتهم بهذه الطريقة عن ولائهم الأصيل ، طبقت نفس الأساليب على الاسكندنافيين الذين لبثوا فى ديارهم . وعند هذه النقطة ، ساعدت إحدى فضائل الاسكندنافيين البارزة - وهى سرعة استجابتهم - على تحللهم . ولقد لاحظ عالم مسيحى غربى معاصر لهم هذه الفضيلة وعبر عنها فى بيتين من الشعر سداسى الوزن ردىء نوعاً ما^(١) قال فيها :

« إنهم قد قبلوا لغة وعادات أولئك الذين شاركوهم أعلامهم ، فأصبحوا من ثم كأنهم عنصر واحد » .

وعجيب مثلاً ، أن نجد الحكام الاسكندنافيين - حتى قبل اعتناقهم المسيحية - يجعلون من شارلمان بطلاً . ويميلون إلى إطلاق اسم كارلوس أو ماجنوس على أبنائهم . ولو كان اسماً محمد وعمر قد أصبحا فى نفس الجليل اسمين محبين بين حكام المسيحية الغربية ؛ لاستخلصنا من ذلك بلاشك ، أن فى هذا النمط الجديد نذيراً للمسيحية الغربية بسوء المصير فى صراعها مع الإسلام .

وفى الممالك الاسكندنافية التى قامت فى روسيا والدانمارك والنرويج ، فرض على الشعوب إجمالاً ، اعتناق المسيحية بصفة رسمية علنية ، بمحض إرادة الأمراء الاسكندنافيين الثلاثة الذين حكموا فى عصر واحد قرب نهاية

(١) هذا الشاعر هو وليم الأبولى William of Apulia فى مصنفه المسى (De Gestis Normanorum) أعمال النورمان الذى نشر فى مجموعة موراتورى (Muratori) المسماه Scriptores Rerum Italicarum)

أما الشعر فهو : Moribus et lingua, quoscumque venire videbant,
Informant propria, gens efficiatur et una.

القرن العاشر الميلادي . وبرزت في النرويج في بدء الأمر ، مقاومة عنيفة . لكن قوبل التغير في الدانمرك وروسيا بسلبية ظاهرة : وبهذه الطريقة ، لم يغز المجتمع السكندنافي فحسب ، بل أصابه الانقسام : وذلك لأن المسيحية الأرثوذكسية وإن أصابها قسط من المذابح التي ارتكبتها الفايكنج ، إلا أنها قد ساهمت في الهجوم الديني والثقافي المضاد الذي أعقب ذلك .

« قارن سفراء الإمارة السكندنافية في روسيا أو تجارها بين عبادة أوثان الغابات وبين خرافة القسطنطينية الرشيدة ، أنهم قد حدثوا معجبين إلى قبة سانتا صوفيا ، وتطلعوا إلى صور القديسين والشهداء الزاهية ، وفي ثروة الهيكل وفي عدد الكهنة وأرديتهم ، وفي أبهة الشعائر ونظامها : وأخذ بلهم تتابع السكون المتسم بالورع والتراتيل المتناسقة . ولم يكن إقناعهم شيئاً كبيراً بأن جوقة ترنيم من الملائكة تهبط يومياً من السماء لتشارك المسيحيين في تعبدهم^(١) .

وأعقب ذلك مباشرة - على وجه التقريب - اعتناق إيسلندا نفسها المسيحية عام ١٠٠٠ . فكان هذا بدء نهاية الثقافة الأيسلندية : صحيح أن العلماء الأيسلنديين التالين الذين سجلوا « الساجه » كتابة وجمعوا قصائد ال « اده » ، وأنشأوا المجموعات التقليدية للأساطير الاسكندنافية القديمة ، والسلالات ، والقوانين الاسكندنافية ؛ قد وهبوا تراثاً ثقافياً مسيحياً ونوردياً في وقت واحد ، وقاموا بعملهم هذا بعد اعتناق بلادهم المسيحية بما يقرب من مائة وخمسين سنة إلى مائتين وخمسين سنة ؛ إلا أن تلك الرجعة الثقافية إنما كانت في الواقع آخر مآثر العبقريّة الأيسلندية .

ويمكن مقابلة هذه المآثر الأيسلندية ، بدور القصائد الهومرية في التاريخ الهليني . فقد كانت هذه القصائد أيضاً ، عملاً من أعمال الرجعة الثقافية إلى

(١) انظر : Gibbon E. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الرابع

الماضى . لأن هومر لم يُصنّف عليها المسحة الأدبية ، إلا بعد انقضاء عصر البطولة الذى أوحى بها . بيد أن العبقريّة الهلينية بعد أن انتهت من تلك الملاحم الشعريّة ، انتقلت إلى تحقيق أعمال فريدة أخرى تماثلها في عظمتها في ميادين أخرى . أما العبقريّة الأيسلندية فقد امتّحت بعد بلوغها ذروتها « الهومرية » حوالى ١١٥٠ - ١٢٥٠ ميلادية .

(٤) - اصطدام الإسلام بالعالمين المسيحيين

لكى نختم هذا الجزء من بحثنا ، علينا أن نرى هل أسفرت اصطدامات الإسلام بالمسيحيّين عن تهيئة مقارنة أخرى من تلك « المقارنات ذات الحدود الثلاثة » والتي أصبح القارىء يألفها الآن .

سبق أن لاحظنا - في مناسبة أخرى - تحدياً أبرزه الإسلام واستثار استجابة مثلى . فإن تحديه الفرنجة في القرن الثامن الميلادى قد استثار هجوماً مضاداً من جانبهم استمر عدة قرون . ولم يقتصر ذلك الهجوم على دفع أتباع الإسلام بعيداً عن شبه الجزيرة الأيبيرية ، لكنه تجاوز كذلك هدفه الأصل حاملاً الإسبانيين والبرتغاليين عبر البحار إلى قارات العالم بأسرها . ولعلنا نلاحظ في هذه الحالة كذلك ، ظاهرة سبقت ملاحظتها بمناسبة بحث هزيمة الحضارتين الإسكندنافية والغربية القصوى .

إذ حدث قبل أن تقتلع الثقافة الأيبيرية الإسلامية ، أن تم استغلالها لمصلحة خصمها الظافر . فلقد ساهم علماء إسبانيا الإسلامية - عن غير قصد - في تشييد الصرح الفلسفى الذى أقامه فلاسفة المسيحية الغربية المدرسيون إبان العصور الوسطى . كما وصلت بعض مؤلفات الفيلسوف الهليني أرسطو ، العالم المسيحى الغربى للمرة الأولى عن طريق التراجم العربية ، وصحيح كذلك أن كثيراً من المؤثرات الشرقية على الثقافة الغربية ، وهى

المؤثرات التي عُرِى انتقالها إلى الغرب عن طريق تسربها إلى الأيالات الصليبية في سوريا ، إنما وفدت في الحقيقة من أيريا الإسلامية .

ولم يكن الهجوم الإسلامي على المسيحية الغربية عن طريق أيريا وفيما وراء جبال البرانس - من الناحية الفعلية - بالشدة التي بدأ بها ، وذلك بسبب طول خط المواصلات بين هذه الجهة ، وينايع الطاقة الإسلامية في جنوب غرب آسيا . ولا يصعب علينا العثور على نقطة كانت فيها خطوط المواصلات أقصر ، وظهر بالتالي أن الهجوم الإسلامي كان عندها عنيفاً غاية العنف . وتتجلى هذه الناحية في الأناضول التي كانت في ذلك الوقت معقل الحضارة المسيحية الأرثوذكسية .

ولقد هدف الغزاة العرب في المرحلة الأولى من هجومهم ، إلى شل حركة الروم (كما كانوا يدعونهم أى نسبة إلى روما) ، وسحق المسيحية الأرثوذكسية جملة ، بالانطلاق رأساً نحو العاصمة الإمبراطورية نفسها عبر الأناضول . وحاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً فاشلاً من سنة ٦٧٣ إلى سنة ٦٧٧ ثم من سنة ٧١٧ إلى سنة ٧١٨ . بل إنه حتى بعد فشل الحصار الثاني - وقما استقر الحد بين الدولتين على طول خط جبال طورسوس - طفق المسلمون يغزون بانتظام مرتين في السنة ، ما بقي من أملاك المسيحية الأرثوذكسية في الأناضول .

واستجابت المسيحية الأرثوذكسية لهذا الضغط الإسلامي بوسيلة سياسية . ونجحت هذه الاستجابة نجاحاً قصير المدى . فلإنها ساعدت على وقف تقدم العرب عند حد معين ، لكن لم يكتب لتلك الوسيلة التوفيق على طول المدى بسبب تأثيراتها الضارة على حياة المجتمع المسيحي الأرثوذكسي الداخلية ونموه .

ومناطق تلك الوسيلة السياسية ، محاولة الإمبراطور ليو السورى استعادة الإمبراطورية الرومانية إلى العالم المسيحي الأرثوذكسي . وقد سبقت تلك

المحاولة ، محاولة مماثلة قام بها شارلمان وفشل فيها فشلا جريدا من كل أذى تقريبا . وكان أسوأ أثر قام به ليو السورى ، هو توسيع سلطان الدولة البيزنطية على حساب الكنيسة الأرثوذكسية ، والحرب المدمرة التى ترتبت على ذلك وهى حرب المائة عام بين الإمبراطورية والبطيركية الرومانيتين الشرقيتين من جانب ، والإمبراطورية والبطيركية البلغارييتين من جانب آخر . وقاد هذا الجرح الذى ابتلت به نفسها الإمبراطورية البيزنطية ، إلى موت المجتمع المسيحى الأرثوذكسى فى شكله الأول وفى وطنه الأصل .

وتكفى هذه الحقائق لإظهار أن التحدى الذى هبأه الاصطدام الإسلامى للمسيحية الأرثوذكسية ، كان تحديا مفرطا فى شدته ، عكس التحدى الإسلامى للمسيحية الغربية .

هل نعر على حالة فشل فيها الاصطدام الإسلامى فى إيجاد الحافر ، لعدم كفاية شدته ؟

نستطيع ذلك ؛ ويمكن مشاهدة نتائجه حتى يومنا هذا فى الحبشة . فلقد غدت جماعة الكنيسة المونوفيسيتية التى ظلت قائمة فى هذا المعقل الإفريقى ، إحدى العجائب الاجتماعية فى العالم ، لسببين :

الأول : مجرد بقائها حية فى عزلة تامة تقريبا عن الجماعات المسيحية الأخرى ، من وقت غزو العرب المسلمين مصر منذ ثلاثة عشر قرنا مضت .

الثانى : هبوط مستواها الثقافى هبوطا غريبا . فإذا كانت الحبشة المسيحية قد قبلت - فى شئ من التردد - فى عضوية عصبة الأمم ، إلا أنها كانت مثلا سيئا للاضطراب والبربرية ، اضطراب الفوضى الإقطاعية والقبلية ، وبربرية تجارة الرقيق . وفى الواقع فإن الحالة التى عليها الدولة الإفريقية الوحيدة - فيما خلا ليبيا - التى احتفظت باستقلالها:

التام ، ربما كانت خبير تبرير يمكن العثور عليه لتقسيم بقية أنحاء القارة بين الدول الأوروبية^(١) .

ويُبدى إمعان الفكر ، أن وضعي الحبشة الشاذين وهما احتفاظها باستقلالها وركود ثقافتها ، مستمدان كلاهما من نفس العلة : المناعة الفعلية التي يمتاز بها المعقل الجبلي الذي اعتصم به هذا المجتمع المتحجر . وبالأحرى انكسرت حدة موجة الإسلام وموجة الحضارة الغربية الأشد منها قوة ، حول جرف الصخور ، ثم قفزت مؤقتا إلى ما وراء قفها من غير أن تغمر هذه القمة بصفة دائمة .

وقد كانت المناسبات التي وصلت فيها هاتان الموجتان المعاديتان إلى الأراضي الجبلية قليلة وقصيرة . ولقد تعرضت الحبشة لخطر الغزو الإسلامي في النصف الأول من القرن السادس عشر ، وقما سبق المسلمون في الأراضي الواطئة على ساحل البحر الأحمر ، الأحباش في حيازة الأسلحة النارية . لكن الأسلحة المستحدثة التي حصل عليها الصوماليون من العثمانيين ، وصلت الحبشة بواسطة البرتغاليين في الوقت المناسب لإنقاذهم من الدمار . وعندما جاء بعدئذ دور البرتغاليين وشرعوا في إزعاج الأحباش بمحاولة تحويلهم من مذهب الطبيعة الواحدة إلى الكاثوليكية ، أخذت أنفاس المذهب المسيحي الكاثوليكي ، وطرده جميع الزائرين الغربيين من البلاد حوالي سنة ١٦٣٠ ، أي في نفس الوقت الذي شرعت فيه اليابان في تنفيذ سياسة مشابهة^(٢) .

(١) إن سجل الاستعمار الأوروبي في إفريقيا لا يبرر قطعيا استيلاء الأوروبيين على القارة . فها هي البلاد الإفريقية تحصل على استقلالها الواحدة تلو الأخرى ، ويكابد كل منها مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية جسيمة ، الأمر الذي يهدم كل ذريعة تذرعت بها البلاد الأوروبية المستعمرة للاستيلاء على القارة . وإن السياسة الخمقاء التي تتبناها حكومة جنوب إفريقيا تجاه أصحاب البلاد الأصليين لشاهد صدق على فساد دعوى القائلين بمدى الاستعمار وفائدته للبلاد المتأخرة . (المترجم)

(٢) وقما سعى البرتغاليون والأسبانيون إلى التبشير بالكاثوليكية في اليابان ، وتبين لحاكم اليابان (الشوجن) أن هذا التبشير يحمل بين طياته الاستعمار . فطرده الغربيين من بلاده واستأصل شأفة المسيحية من اليابان ، وأقفل بلاده حتى فتحت أبوابها للأدميرال بيرد الأمريكي عام ١٨٥٣ . (المترجم)

وقُبِضَ للحملة البريطانية الحبشية عام ١٨٦٨ نجاحاً تاماً ، لكن لم تعقبها أية نتائج أخرى ، عكس نتائج فتح البحرية الأمريكية أبواب اليابان قبل ذلك بخمسة عشر عاماً .

بيد أنه كان مقدراً لإحدى الدول الأوروبية أن تنقض على الحبشة إبان التدافع على إفريقيا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر : وكان الإيطاليون هم الذين قاموا بالمحاولة . وقام الفرنسيون في هذه المرة بالدور الذي قام به البرتغاليون قبل ذلك بقرنين ونصف قرن ، إذ أمدوا الإمبراطور منليك ببنادق سريعة الطلقات عاونته على إيقاع هزيمة طنانة بالمغرب الإيطالي في عدوه عام ١٨٩٦ .

وعند ما عاد الإيطاليون - معززين عن سوء قصد بروح بربرية جديدة غرسوها عمداً في أنفسهم^(١) - إلى الهجوم على الحبشة في سنة ١٩٣٥ مع تصميم أعظم هذه المرة ، بدا وقتئذ كما لو أنهم قد توصلوا إلى وضع نهاية لمنعتها القديمة ، كما قضوا في نفس الوقت على الأمل الذي تولد حديثاً في الأمن الجماعي للعالم الغربي المعذب :

بيد إنه حدث خلال أربع سنوات من إعلان الإمبراطورية الإيطالية في الحبشة ، أن اشترك موسوليني في الحرب العالمية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ؛ فدفع اشتراكه هذا ، أولئك الذين كانوا امتنعوا في سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ عن مساعدة الحبشة لإنقاذ عصبة الأمم ، أن يسدوا إلى الحبشة في عام ١٩٤١ لإنقاذ لحياتهم أنفسهم ؛ نفس الخدمة الجليلة التي سبق أن أسداها إليها الفرنسيون والبرتغاليون إبان أزمتيها السابقتين .

هذه الهجمات الأجنبية الأربع ، هي كل الهجمات التي واجهتها الحبشة في غضون الستة عشر قرناً التي انقضت منذ اعتناقها المسيحية . وعلى أية حال صُدَّت الهجمات الثلاث الأولى في سرعة لا تدع لها السبيل لتصبح عاملاً حافزاً .

(١) يقصد المؤلف الفاشية . (المترجم)

وفيا عدا ذلك ، ما برحت خبرتها غفلا . ولعل حالتها تدحض القول بأن الأمة السعيدة هي التي لا تاريخ لها . فإن سجلها يضم القليل إذا استثنينا تكرار توجيه عنف ممل لا معنى له في محيط من البلادة ، ضد أساس قائم من خاصية تدعى بـ « المناعة ضد آلام التجربة » ، أو بعبارة أخرى الاستعصاء على الحافز . ففي سنة ١٩٤٦ ورغما عن الجهود الجريئة التي ما فتئ يبذلها في سبيل الإصلاح الإمبراطور هيلاسيلاسي ومعاونوه ذوو العقول المتحررة ، ما كان ليتأتى القول بأن للغزوة الأجنبية الرابعة للحبيشة أثرا حافزاً أشد من آثار سابقاتها .

الباب الثالث

تم الحاضرات

الفصل التاسع

الحضارات المتعطلة

(١) البوليزيون والاسكيمو والبدو

أخذنا في الباب السابق من هذه الدراسة ، نجاهد المشكلة المسلم بصعوبتها ، ألا وهي كيفية انبعاث الحضارات إلى الوجود . ولكن قد يظن أن المشكلة التي تطالعنا الآن ، أيسر من أن تستحق إمعان النظر فيها كمشكلة أيا ما تكون .

فإذا انبعت حضارة — على شريطة عدم قتلها في نموها كما حدث بالنسبة لما أسميناه بالحضارات العقيمة — فهلا يكون من المتوقع أن يكون نموها أمراً مفروغاً منه ؟

خير وسيلة للاهتمام إلى إجابة على هذا السؤال ، توجيه سؤال آخر : هل نلاحظ — كمسألة تاريخية مقررة — أن الحضارات التي تغلبت على أخطار الميلاد والطفولة المتتالية ، تنمو كلها دون استثناء نمواً ثابتاً مقررراً ؛ إلى « مرحلة الرجولة » ؟ .

وبعبارة أخرى ، هل تواصل كلها دون أى استثناء نموها الطبيعي إلى أن توفّق إلى السيطرة على أسلوب حياتها والبيئة التي تعيش فيها ، سيطرة تبرر إدراجنا إياها في القائمة التي وردت في الفصل الثاني من هذا الكتاب ؟ والإجابة ؛ هي أن بعضها لا يقيض له ذلك . فبالإضافة إلى الطبقتين اللتين لوحظنا فعلاً — الحضارات المتطورة والحضارات العقيمة — توجد ثمة طبقة ثالثة أخرى حريّ بنا أن نطلق عليها اسم الحضارات المتعطلة ؛ ونعني حضارات ظلت على قيد الحياة لكنها أخفقت في متابعة نموها . ويضطرنا وجود مثل هذه الحضارات ، إلى دراسة مشكلة النمو . وستكون خطوتنا الأولى ، استجماع النماذج الموجودة من حضارات هذه الفصيلة ودراستها .

وفى مقدورنا أن نضع أيدينا فوراً على بضعة من المآذج :
فن ضمن الحضارات التي انبعثت استجابة لتحد مادي : حضارات
البولينيزيين والاسكيمو والبدو .

ومن ضمن الحضارات التي انبعثت استجابة لتحد بشري ، ثمة طائفة
من الجماعات الشاذة مثل العثمانيين في العالم المسيحي الأرثوذكسي ،
والإسبارطيين في العالم الهليني .

وانبعثت هذه الجماعات إلى الوجود ، بفضل ازدياد شدة التحديات
البشرية التي كانت سائدة حين انبعاثها ؛ ازديادا محليا ، في ظل ظروف
خاصة . فبلغت درجات من الشدة غير عادية .

هذه كلها أمثلة للحضارات المتعطلة ، في مكنتنا أن ندرك من
النظرة الأولى ، أنها تهيج جميعها صورة من نفس الحالة العامة .

ولقد تعطلت حركة جميع هذه الحضارات المتعطلة نتيجة إنجازها
عملا فذا . وهي استجابات لتحديات بلغت شدتها المرتبة الجدية بالذات .
أى المرتبة الواقعة بين الدرجة التي تتيح حفزاً يقود إلى مزيد من
الارتقاء ، والدرجة التي يتحتم عندها الإخفاق .

وقياساً على المثل الذي ضربناه بشأن متسلقى المنحدر ؛ يمكن تشبيه تلك
الحضارات بمتسقين أصدعوا فجأة ، ولا يستطيعون التوجه لا إلى
الخلف ولا إلى الأمام . فأصبح وضعهم جوداً مخفوفاً بالمخاطر ، على
درجة من التوتر العالية وعسانا أن نضيف ، أن أربع حضارات متعطلة
من الخمس التي ذكرناها ، اضطرت في النهاية إلى التسليم بالهزيمة .
وما تزال واحدة منها فقط — ثقافة الاسكيمو — تحاول البقاء .

فالبولينيزيون مثلاً ، أقدموا على عمل فريد ، برحلتهم الجريئة
عبر المحيط ، وتجلى حذقهم في إنجاز هذه الرحلات العجيبة في زوارق
ضعيفة مفتوحة . وكان الثمن الذي أدّوه ، بقاءهم — إلى أجل غير

التي يجرها الكلاب ، حذاء الثلج ، المنزل الشتوى والمنزل الثلجى المزدود بمصاييح لإحراق شحم الخوت ، والدكة ، والخيمة الصيفية ، وأخيراً الثياب الجلدية^(١) .

تلك هى العلامات الظاهرة والمنظورة لإرادة وإدراك يثيرا الدهشة ، ومع ذلك فإنه :

« يظهر الإسكيمو فى اتجاهات معينة - بالنسبة للتنظيم الاجتماعى مثلاً - أن تطوره لم يصل نوعاً ما إلى هذا الحد . وهذا يبعث على التساؤل عن مرد هذا التباين الاجتماعى المنحط ، وهل يرجع إلى الروح البدائية أو يرجع بالأحرى إلى الظروف الطبيعية التى ما برح الإسكيمو يعيشون فى ظلها منذ زمن سحيق . ولا يتطلب الأمر معرفة عميقة بثقافة الإسكيمو ، لإدراك أنها ثقافة اضطرت إلى استخدام جانب كبير للغاية من طاقتها فى سبيل تنمية الوسائل التى تحصل بها على قوتها ليس إلا^(٢) .

وتمثل الثمن الذى وجب على الإسكيمو أدائه لاجترائهم على مصارعة البيئة القطبية الشمالية ، فى المواعمة - دون أية مرونة - بين معيشتهم ودورة المناخ القطبى الشمالى السنوية . إذ يضطر جميع الذين يستطيعون كسب العيش من أفراد القبيلة إلى مزاولة مهن مختلفة باختلاف فصول السنة . ويفرض طغيان الطبيعة القطبية الشمالية على الصياد القطبى جدول مواعيد يماثل فى شدة وطئته ، ما تفرضه على عامل المصنع ، الإدارة العلمية التى وضعها الطغيان البشرى . وفى الواقع لعلنا نميل إلى التساؤل عما إذا كان الإسكيمو سادة الطبيعة القطبية الشمالية أو عبيداً لها .

وسيجابها سؤال مماثل عندما نصل إلى فحص حياة الإسبرطيين والعثمانيين ، وسنجد أن صعوبة الإجابة واحدة فى جميع الأحوال . بيد . يجب أن نتأمل

(٢) راجع : Steensby, H.P. An Anthropological Study of the

Eskimos Culture. ص ٤٣

(١) المرجع السابق ص ٤٢

أولاً في مصير حضارة متعطلة أخرى نشأت هي الأخرى - مثل حضارة الإسكيمو - عن تحد مادي .

فبينما كان الإسكيمو يصارعون الجليد، والبولينيزيون يصارعون المحيط ، كان للبدو الذين استغرقوا في تحدى السهب ، الجسارة على مصارعة عامل مساو لهذين في العناد . فإن السهب بسطحه العشبي والحصبائي ، يشابه في علاقته بالإنسان « ببحراً لا يحصد » (كما يدعوه هومير) ، أعظم من مشابهته اليابسة التي يسهل علاجها بالمحراث والمخراش . ولسطح السهب وسطح الماء ، شيء مشترك وهو أنه لا يسهل للإنسان الاقتراب منهما إلا حاجاً أو زائراً . ولا يهيئ له في أى مكان من سطحه الواسع - باستثناء الجزر والواحات - مكاناً يستطيع الإقامة فيه إقامة مستقرة . ويهيئ كلاهما أسباباً ميسرة - إلى حد مدهل - للسفر والانتقال أكثر مما تهيئه تلك الأجزاء من سطح الأرض التي اعتادت الجماعات البشرية أن تقيم عليها دورها الدائمة : لكن يقتضى كليهما - كعقاب على انتهاك حرمتيهما - ضرورة التحرك الدائم عليهما ، أو الابتعاد عن سطحيهما كلية إلى شواطئ اليابسة المحيطة بهما .

لذلك يوجد تشابه حقيقى بين جحافل البدو الرحل الذين يتبعون سنوياً نفس مدار المراعى الصيفية والشتوية ، وبين أسطول الصيد الذى يتجول من ضفة إلى أخرى وفقاً للموسم : تشابه بين قوافل التجار التي تقايض حاصلات الشواطئ البحرية المتقابلة ، وبين قوافل راكبي الجبال التي تتصل عن طريقها شواطئ السهب المتقابلة بعضها ببعض الآخر ، تشابه بين قرصان الماء وغزاة الصحراء ، تشابه بين تلك التحركات ذات الطابع الانفجارى للسكان التي دفعت المينويين أو النورديين إلى النزول إلى البحر والانحدار نحو شواطئ أوروبا أو الشرق الأدنى انحدار أمواج المد ، وبين تلك التحركات الأخرى التي ساقى البدو العرب أو الأسقوذيين^(١)

(١) بدو كانوا يقطنون جنوب روسيا الحالية . (المترجم)

أو الأتراك أو المغول إلى الخروج من مداراتهم السنوية ، والاندفاع بمباغثة وعنف متساويين على الأراضي المستقرة في مصر أو العراق أو روسيا أو الهند أو الصين ؟

، وسيظهر أن استجابة البدو - كاستجابة البولنيزيين والأسكيمو - لتحدى الطبيعة المادية ، تعتبر عملاً فذاً . وليس الباعث التاريخي بأكمله في هذه الحالة - عكس الحالين الآخرين - مسألة تخمين بحتة . وفي مكتنتنا أن نستخلص أن البداوة قد استنارها نفس التحدى الذى استنار الحضارات المصرية والسومرية والمينوية والذى دفع أجداد الدنكا والشيلوك إلى المنطقة الاستوائية - وهذا التحدى هو الجفاف . ولقد ألفت أبحاث بعثة بامبلى^(١) في واحة آناو فيما وراء بحر قزوين ، أوضح ضوء لدينا حتى الآن ، على أصول البداوة .

ونجد هنا أن تحدى الجفاف قد يحفز عند ظهوره للمرة الأولى ، طائفة من الجماعات التى كانت تعتمد على امتهان الصيد فى الماضى . فاضطرت لتدبير معاشها فى ظل ظروف أقل موافقة إلى الإقبال على شكل بدائى من أشكال الزراعة : وتثبت الأدلة بصفة قاطعة أن هذه المرحلة الزراعية قد سبقت البداوة .

وللزراعة كذلك تأثير غير مباشر - وإن لم يقل فى أهميته - على التاريخ الاجتماعى لهؤلاء الصيادين السابقين : إذ هيأت لهم إقامة علاقات جديدة للغاية مع الحيوانات البرية . فإن فن استئناس الحيوانات البرية يتيح للمزارع ، إمكانيات أوسع مدى بكثير مما يتاح للصيد الذى يعجز بطبيعة مهنته نفسها عن مزاوله هذا الفن ، اللهم إلا فى نطاق حدود ضيقة جداً . فلقد يتصور استئناس الصياد للذئب أو ابن آوى الذى ينازعه فريسته أو يقاسمه إياها

(١) تنسب هذه البعثة الجيولوجية إلى قائدها « رافاييل بامبلى الأمريكى . ولقد أوفده معهد كارنيجى عام ١٩٠٣ إلى آسيا الوسطى وتركستان للقيام بأبحاث جيولوجية . (المترجم)

بوساطة اتخاذه شريكاً له ، لكن لا يمكن تصور توليه استئناس حيوانات أو طيور الصيد التي يطاردها . وإن الزارع بواسطة كلب حراسته — لا الصيد الذى يصحبه كلب الصيد — هو الذى فى قدرته الانتقال إلى المرحلة التالية التى تنتج الراعى و كلب حراسة الغنم . فالزارع هو الذى تتوافر لديه موارد الطعام التى تُغرى الحيوانات المحبزة كالثور والغنم ، التى لا يغيرها لحم فريسة الصياد كما يغيرى الكلاب .

ويشير الدليل الأثرى فى آنو Anau ، إلى أن هذه الخطوة التالية فى سبيل التطور الاجتماعى قد تمت فيما وراء منطقة بحر قزوين وقما زادت الطبيعة شدة جفافها فى المرة الثانية . واستعداد الفرد الأوراسى — بفضل توفيقه فى استئناس الحيوانات المحبزة — طاقة الحركة التى فرط فيها إبان فترة تحوله السابقة من صياد إلى زارع . واستجاب إلى التحدى السابق عندما ظهر فى المرة التالية باستخدام قدرته على الحركة المكتسبة حديثاً ، بطريقتين جد مختلفتين .

الأولى : مدارها أن بعض زراع الواحات الواقعة وراء منطقة بحر قزوين ، اقتصر استخدامهم لحركتهم ، على الهجرة التدريجية إلى مناطق أبعد ، كلما تعاظمت شدة ميل المناخ إلى الجفاف . وذلك رجاء التمشى مع البيئة الطبيعية التى فيها يستطيعون مواصلة أسلوب معيشتهم .

وبالأحرى فإنهم قد غيروا موطنهم كيلا يبدلوا عاداتهم .

الثانية — لكن زارعا آخرين افترقوا عن صحبة الأولين ، بغية الاستجابة إلى نفس التحدى على نمط أعظم جرأة ، تمثل فى هجران هؤلاء الأوراسيين الآخرين أيضاً ، الواحات التى كانت قد أصبحت وقتئذ غير محتملة ، وحطوا هم وأسرهم وأسرابهم وقطعانهم على سطح السهب الشحيح .

بيد أنهم لم يُقلعوا كهاريين يبحثون على شاطئ أبعد ، بل هجر

أجدادهم الصيد أسلوب معيشتهم السابق وجازفوا بوجودهم اعتماداً على الفئ الذي كانوا اكتسبوه حديثاً - وهو تربية الماشية . وانحدروا إلى السهب ليتخذوه لهم مقاماً ، لاليتجاوزوه إلى ما وراءه . فأصبحوا بذلك بدوا .

• وإذا قارنا بين حضارة البدوى الذى هجر الزراعة ومكّن لنفسه فى السهب ، بحضارات إخوانه الذين احتفظوا بترائهم الزراعى بوساطة تغيير موطنهم ، نلاحظ أن البداوة تبدى تفوقها بعدة طرق : فى المرتبة الأولى يعتبر استئناس الحيوانات ، بكل جلاء ، فنا أسى من استئناس النباتات ، بالنظر إلى أنه يمثل انتصار الفطنة والإرادة البشريتين على مادة أصعب قياداً . إن الراعى فنان أعظم من المزارع ، وهذه حقيقة ذكرت فى عبارة مأثورة من القصص وهى :

« عرف آدم حواء امرأته فحبلى وولدت قابيل . . . ثم عادت فولدت أخاه هايل ، وكان هايل راعياً للغنم وكان قابيل عاملاً فى الأرض ، وحدث من بعد أيام أن قابيل قدم من ثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم هايل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها . فنظر الرب إلى هايل وقربانه ولكن إلى قابيل وقربانه لم ينظر » (١) .

• حقاً ، إن حياة البدوى انتصار للحذق البشرى . إذ قد أحكم أمره على أن يستخلص غذاءه من الحشائش الخشنة ، التى لا يستطيع أن يأكلها هو نفسه . ولكنه يحولها إلى لبن ولحم حيواناته المستأنسة . ولكى يوفر الرزق لماشيته فى الموسم أو فى غير الموسم ، من الإنبات الطبيعى للسهب العارى الشحيح ؛ كيف حياته وتحركاته وفقاً لجدول مواقيت موسمى بالغ منتهى الدقة . وفى الوقع فإن العمل الفذ الذى يتمثل فى البداوة يتطلب مستوى عالياً متزمتاً من الخلق المتين والسلوك .

١ وكان الثمن الذى اضطر البدوى إلى تأديته هو - فى جوهره - نفس الثمن الذى جابه الاسكيمو . فإن البيئة الهائلة التى نجح فى غزوها قد استعبدهت بطريقة غادرة . لأن البدو - مثلهم فى ذلك مثل الاسكيمو - غدوا سجناء دورة سنوية مناخية ونباتية . وهم بحيازتهم ميزة السبق بالنسبة للسهب ، أضاعوا ميزة السبق بالنسبة للعالم فى مجموعه . غير أنهم فى الحقيقة ، لم يغادروا مسرح تاريخ الحضارات دون أن يخلّفوا علامتهم المميزة . إذ دأبوا من حين لآخر على الإغارة على موطن الحضارات المستقرة المجاورة ، ودفعوا فى بعض المناسبات كل شىء أمامهم . ولكن هذه الانتفاضات ، لم تكن تلقائية فى أى وقت من الأوقات . لأن البدوى عندما تدفق من السهب واعتدى على بستان الزارع ، لم يتحرك عن نيّة متعمدة فى تغيير دورته المألوفة ، بل إنه استجاب آليا لقوى خارجة عن إرادته .

١ وثمة قوتان خارجيتان من هذا النوع يتعرض لهما البدوى :

قوة تدفع ، وأخرى تسحب .

إذ يدفعه فى بعض الأحيان خارج السهب ، ازدياد الجفاف إلى درجة تجعل موطنه السابق أشد من قوة احتماله .

ويدفعه خارج السهب كذلك - الفينة بعد الفينة - الامتصاص الناتج عن فراغ اجتماعى يظهر فى محيط مجتمع مستقر مجاور نتيجة لعمليات تاريخية كانهيار حضارة مستقرة وما يتلوه من هجرات .

ولا دخل لتجارب البدوى الخاصة على الإطلاق فى هذين السببين . ويبدو أن استعراض الأحوال التى تدخل فيها البدو على نطاق واسع فى تاريخ المجتمعات المستقرة ، يثبت إمكان إرجاع هذه المداخلات جميعها إلى أحد هذين السببين^(١) .

(١) يمرض العلامة توينبى هذه النقطة عرضا مستفيضا فى ملحق طويل لهذا الفصل ، مما لا يتأتى إعادته هنا ثانية . (الملخص)

وهكذا ، فإنه رغما عن تلك الإغارات العرضية داخل نطاق الأحداث التاريخية ، فإن البداوة هي في جوهرها مجتمع من غير تاريخ . فبمجرد انطلاق القبيلة البدوية في مدارها السنوي ، تظل تدور فيه . وقد تستمر في الدوران إلى الأبد ، إن لم تظهر قوة خارجية لا تملك حيالها شيئا ، فتوقف تحركاتها وتنتهي حياتها . وتتمثل هذه القوة في الضغط الناتج عن الحضارات القائمة حولها . لأنه وإن كان الرب يحترم هابيل وقربانه ، لا قابيل وقربانه ؛ فإن ليس ثمة قوة تنقذ هابيل من القتل على يد قابيل (١) .

« يُبدى البحث الحديث في الأرصاد الجوية ، أن ثمة تناوبا منتظما - ربما يظهر في جميع أنحاء العالم - بين فترات الجفاف النسبي وفترات الرطوبة . ويترتب على هذا التناوب ، تبادل الفلاحين والبدو الإغارة على مناطق بعضهم بعضا : فإنه عندما يبلغ الجفاف درجة يعجز عندها السهب عن توفير المرعى لمقدار الماشية التي يحتفظ بها البدو ، يخرج الرعاة عن السبيل التي اعتادوا طرقها خلال نزوحهم السنوي ، ويغيرون على البلاد الزراعية المجاورة بحثا عن الطعام لحيواناتهم ولأنفسهم . ومن ناحية أخرى عندما يعود المناخ إلى ما كان عليه ، وتصل مرحلة الرطوبة التالية نقطة يصبح عندها السهب قادراً على إنتاج النباتات ذات الدرنات والغلل المزروعة ، يشنّ الفلاح هجومه المضاد على مراعى البدوى .

٧ وتباین طرائق العدوان عند كل فريق منهما تباينا شديداً . فإن هجوم البدوى مفاجئ* مثل حملة الفرسان . أما هجوم الفلاح فإنه كتقدم المشاة ، وهو في كل خطوة يثبت إقدامه باستخدام الفأس أو المحراث البخارى ، ويؤمن مواصلاته ببناء الطرق أو السكك الحديدية . ولعل أبرز أمثلة على

(١) باعتبار قابيل يمثل الحضارة الزراعية ، وهابيل يمثل حضارة الرعى وفقا لنظرية المؤلف . (المترجم)

هجوم البدوى ، اقتحامات الأتراك والمغول التى وقعت فى غضون ما يحتمل أن يكون فترة الجفاف قبل الأخيرة . ويعتبر توسع روسيا التالى شرقاً أعظم مثل على اعتداءات المزارعين . وكلا النوعين من التحركات غير عادى ويغضه إلى أقصى حد الفريق الذى يتم على حسابه . على أنهما يتأثران من حيث انتائهما إلى سبب طبيعى واحد لا يمكن السيطرة عليه .

ولعل ضغط المزارع الذى لا هوادة فيه أشد إيلاًماً على طول المدى — إن حدث أن وقع أحد ضحية له — من مجازر البدو الوحشية ، ومصادفاً لذلك فإن غزوات المغول قد انتهت فى غضون جيلين أو ثلاثة . بينما الاستعمار الروسى — وهو الذى كان بمثابة أخذ الثأر من المغول وغزواتهم — قد استمر حتى الآن أى أكثر من أربعائة سنة : أولاً خلف خطوط القوزاق التى أحاطت بالمراعى وحصرتها من الشمال ، ثم على طول سكة حديد ما وراء منطقة بحر قزوين التى مدت مجساتها حول حدها الجنوبي .

وفى نظر البدوى تشبه الدول المزارعة — كروسيا — الآلات الدائرة والآلات الطاحنة التى تشكل بها الصناعة الغربية الصلب الساخن وفقى ما تشبهه ، فالبدوى فى قبضتها ، إما أن يسحق من الوجود أو يوضع فى قالب الاستقرار ولا تكون عملية التداخل سلمية دائماً . إذ أدخل الطريق لإقامة سكك حديدية ما وراء قزوين ، بذبح التركمان فى جوكيتي Goktepe . لكن الصيحة التى يطلتها البدوى وهو يموت قلماً تسمع . فإنه بينما كان شعب إنجلترا إبان الحرب الأوربية الأولى يعزومسئولية قتل ستمائة ألف أرمنى إلى الأصل البدوى للأتراك العثمانيين ، كان ثمة خمسمائة ألف من الناطقين بالتركية من بدو آسيا الوسطى الذين ينتسبون إلى اتحاد قازاق القرغيز ، يبادون كذلك وفقاً لأوامر عليا كذلك بمعرفة ما يزعم أنه أكثر البشر عدلاً ؛ أى الفلاح الروسى (الموجيك)^(١) .

Toycbee A. J. The Western question in Greece and Turkey (١)

قضى على البداوة في أوراسيا قضاء تاماً ابتداء من اللحظة التي تم فيها للإمبراطوريتين المستقرتين : الموسكوفية والمنشوكية ، مد مجسّاتهما إبان القرن السابع عشر ، حول السهب الأوراسي من ناحيتين متقابلتين .

وإذا كانت حضارتنا الغربية قد بسطت « مجسّاتها » فوق سطح الأرض بأسرها ، فإنها تستكمل الآن استئصال البداوة من جميع مواطنها القديمة الأخرى . ففي كينيا ، قطعت مراعى قبائل الموساي Mosaï وضمر حجمها لفتح السبيل أمام المزارعين الأوروبيين^(١) . ويشاهد البدو حصنهم الصحراوي في الصحراء الكبرى الذي كان منيعاً حتى الآن ، تغزوه اليوم الطائرة والسيارة ذات العجلات الثمان . بل إنه في شبه جزيرة العرب موطن البداوة الأفراسية التقليدي ، يحول البدو بالقوة إلى فلاحين . ويتم ذلك لا بواسطة دولة أجنبية ، ولكن بفضل سياسة مرسومة لعربي صميم هو الملك عبد العزيز آل سعود ، ملك نجد والحجاز ، وأمير الجماعة الوهابية التي تضم مسلمين أتقياء غيورين : فإنه عند ما يعزز حاكم وهابي في قلب شبه الجزيرة العربية سلطانه باستخدام السيارات المدرعة ، ويحل مشكلاته الاقتصادية بفضل مضخات النفط والآبار الارتوازية ، ويمنح امتيازات إلى شركات النفط الأمريكية ، يعنى ذلك بكل جلاء أن ساعة البداوة الأخيرة قد آذنت .

وهكذا قتل هابيل على يد قابيل ، وبقي علينا أن نتساءل هل لا تزال لعنة قابيل تسقط بانتظام على قاتله ، أى قاتل هابيل ؟

« والآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك ، متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها ، تائها وهارياً تكون في الأرض »^(٢) .

ولقد أثبتت الفقرة الأولى من لعنة قابيل عدم جدواها بجلاء : فإذا

(١) وكان ذلك في طليعة عوامل ثورة الماوماو . (المترجم)

(٢) سفر التكوين الأصحاح الرابع ١١ - ١٢

كان زارع الواحة قد ألنى نفسه عاجزاً بالتأكيد عن جنى محصولات من أرض السهب الجافة ، فإن هجراته قد حملته إلى مناطق ذات أحوال مناخية لأمنه ، وعاد من هناك جالِباً وراءه التصنيع الدافعة ليطالب بمصرى هابيل باعتبارها ملكاً له كذلك .

فهل كان قابيل سيد التصنيع الذى أوجده بنفسه أو ضحيته ؟
هذا أمر فيه نظر .

على أنه بدأ خلال عام ١٩٣٣ - وقمات النظام الاقتصادى العالمى الجديد مهدداً بالتعطل والتحلل - أنه لا يستبعد أن يؤخذ بثأر هابيل فى النهاية . وبالتالى فإن الإنسان البدوى ، فى ساعة موته ، قد يظل فيه رمتى حتى يرى قاتله .
- الإنسان الصانع - يسقط مذعوراً ويقاد إلى الجحيم^(١).

(٢) العثمانيون

يكفينا هذا القدر بالنسبة للحضارات التى وقف تطورها ثمناً أدته على نشاطها المفرط فى الاستجابة لنوع ما من التحدى الطبيعى . وننتقل الآن إلى حالات لم يكن فيها التحدى المبالغ فيه طبيعياً بل كان بشرياً .

تمثل التحدى المبالغ فيه الذى كان على النظام العثمانى الاستجابة له ، فى انتقال الجماعة البدوية جغرافياً من بيئتها الأصلية فى السهب ، إلى بيئة جديدة جابهتها فيها مشكلة لا عهد لها بها ، مدارها ممارسة السلطان على كائنات بشرية غريبة عنها .

ولقد رأينا من قبل كيف أن البدو الأفاريين ، عندما ألفوا أنفسهم مبعدين عن مراعيهم فى السهب ومبعثرين فى المنطقة الزراعية ؛ قد

(١) لو كان المستر توينبى يكتب هذا عام ١٩٤٥ كما يفعل المختصر - لما احتاج إلا إلى إجراء تعديل سطحى طفيف فى هذه الفقرة . (المؤلف)

حاولوا معاملة السكان المستقرين^(١) الذين قاموا بغزوهم ، كما لو أنهم قطع آدمى .

وبالأحرى رنا البدو الأفاريون إلى تحويل أنفسهم من رعاة غنم ، إلى رعاة بشر . فإنهم بالتالى عوضا عن أن يقتاتوا من الكلا البرى فى السهب بعد تحويله إلى غذاء عن طريق جهاز التحويل الذى يتمثل فى الحيوانات المستأنسة ، ارتأى الأفاريون (على غرار ما فعله الكثير من القبائل البدوية الأخرى) ، التزود من المحاصيل الزراعية التى تغلها الأرضى المحروثة ، عن طريق جهاز تحويل آخر ؛ يتمثل لا فى الجهاز الهضمى الحيوانى ، بل فى الأيدى العاملة البشرية . ولقد تغرى مقارنة حيوانات الرعى بالبشر ، إلى تطبيق الفكرة ، وقد تنجح التجربة عمليا إلى حد ؛ إلا أن الاختبار التجريبى يكشف عن وجود عيب فيها يكاد أن يكون قاتلا ..

فى السهب ؛ يعتبر المجتمع المركب الذى يتألف من البدو وقطعانهم غير الآدميين^(٢) ، أنسب أداة يمكن الاهتداء إليها للمواءمة مع هذا الضرب من البيئة الطبيعية ، وليس البدوى فى تلك البيئة - بصفة قاطعة - متطفلا على شركائه غير الآدميين ، لأن بينهما تبادلا معقولا للمنافع .

وتفسير ذلك ، أنه إذا كان على القطعان أن تغل للبدو لحومها فضلا عن ألبانها ، فقد اهتم البدو فى المحل الأول بأن يكفلوا لقطعانهم وسائل العيش ؛ ولا يستطيع أى من الفريقين البقاء فى السهب بأعداد كبيرة من غير معاونة الطرف الآخر .

فإذا انتقلنا إلى بيئة الحقول والمدن ، فإن وجود المجتمع المركب الذى يتألف من البدو المبعدين عن مواطنهم ومن « القطيع الآدمى » من أهالى

(١) أى السكان الذين يلتزمون البقاء فى أماكن معينة عكس البدو الذين شبتهم الترحال من مكان لآخر انتجاعا للرعى . (المترجم)

(٢) باعتبار قطع البدو فى الأراضي الزراعية من البشر ، وفقا لآراء المؤلف . (المترجم)

البلاد الأصليين ، أمر يجافى المنطق من الناحية الاقتصادية . إذ يعتبر وجود « رعاة بشر » هنا غير ضرورى من الناحية الاقتصادية ، وإن لم يكونوا كذلك من الناحية السياسية .

١ . وبالأحرى فإنهم متطفلون على البيئة . لأنهم — من الناحية الاقتصادية — لم يعودوا رعاة يتولون رقابة قطعانهم ، بل تحولوا إلى يعاسب (١) ، تستغل النحل الشغالة . أى أنهم قد استحالوا إلى طبقة حاكمة غير منتجة ، تعيش على عمل سكان منتجين ، تصبح حالتهم الاقتصادية خيراً مما هي عليه ، لولا وجود تلك الطبقة الحاكمة الدخيلة بين ظهرانيهم .

٢ . لهذا السبب ؛ أصاب بصفة عامة ، الانحلال السريع والفناء قبل الأوان ؛ الإمبراطوريات التى أقامها البدو الغزاة . ولا شك أن المؤرخ المغربى الكبير ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦ ميلادية) كان يفكر فى الدول البدوية لما قدّر لها أعماراً طبيعية — كما للأشخاص — لا يجاوز مجموعها ثلاثة أجيال . وحقا ، فإنه ما إن يستكمل الغزو ، حتى يتحلل الفاتح البدوى نتيجة لابتعاده عن عنصره الخاص وتحوله من الناحية الاقتصادية إلى شخص زائد عن الحاجة . على حين يتحسن أمر قطيعه البشرى ، بفعل استمراره فى أرضه ذاتها وتواصل بقائه منتجا من الناحية الاقتصادية . ويبعد القطيع الآدمى توكيد طبيعته البشرية بقيامه بطرد حكامه الرعاة أو باستيعابهم .

ومصادقاً لذلك ، لبثت سيطرة الأفاريين على السلاف فترة تقل عن الخمسين سنة على الأرجح ، تكون خلالها السلاف من جهة وتحلل الأفاريون من الجهة الأخرى . ولم يجاوز عمر إمبراطورية الهون الغربيين عمر فرد واحد هو أتيللا . ولبثت إمبراطورية خانات المغول فى إيران والعراق أقل من ثمانين سنة . ولم تتعد تلك الفترة ، إمبراطورية الخانات العظام فى جنوب الصين . وظلت إمبراطورية الهكسوس (الملوك الرعاة) فى

(١) جمع يعسوب — ذكر النحل . (المترجم)

مصر قرناً واحداً لا أكثر . أما الفترة الزائدة على قرنين التي دامها دون انقطاع حكم المغول وأسلافهم المباشرين المحليين (الكين Kin) في شمال الصين ، (من ١١٤٢ إلى ١٣٦٨ ميلادية تقريباً) والفترة الأطول البالغة ثلاثة قرون ونصف التي ظل خلالها البارثيون سادة إيران والعراق (من ١٤٠ ق . م . إلى ٢٢٦ / ٢٣٢ ميلادية تقريباً) فإنما كانتا استثناءاً ظاهراً من تلك القاعدة .

وإذا قيست سيادة الإمبراطورية العثمانية على العالم المسيحي الأرثوذكسي بهذه المعايير ، لبدت شيئاً فذاً . فإذا أرتخنا قيامها بغزو مقدونيا عام ١٣٧٢ ميلادية ، وبدء نهايتها بمعاهدة كوتشوك كاينجارجي عام ١٧٧٤ ميلادية ؛ نكون قد أفردنا لها فترة أربعة قرون دون أن ندخل في الحساب الزمن الذي استغرقته قبل ذلك في النهوض ، ثم بعد ذلك في السقوط . فما هو تفسير طول بقائها بالنسبة للإمبراطوريات البدوية الأخرى ؟

• يتيسر العثور بلا ريب على تفسير جزئي في هذا الأمر مداره أن العثمانيين وإن كانوا عبئاً من الوجهة الاقتصادية ، إلا أنهم أدوا رسالة سياسية إيجابية قوامها تزويد العالم المسيحي الأرثوذكسي بالدولة العالمية التي كان يعجز عن توفيرها لنفسه .

بيد أن في استطاعتنا أن نسوق تفسيرنا إلى مدى أبعد من ذلك .

فلقد رأينا أن الأفاريين ومن في حكمهم ، قد حاولوا — لما جاوزوا الصحراء إلى الأرض المزروعة — تكييف موقفهم الجديد على أساس كونهم « رعاة بشر » ، لكنهم فشلوا . ويبدو إخفاقهم أقل مدعاة إلى العجب ، إن علمنا أن هؤلاء البدو الفاشلين — بناء الإمبراطوريات في المناطق الزراعية — لم يحاولوا العثور من بين البشر المستقرين في المناطق الزراعية ، على بديل لواحد من شركائهم الأساسيين في مجتمع السهب ذي الطابع المركّب . وتفسير ذلك أن مجتمع السهب هذا ، لا يقتصر على الراعي البشري وقطيعه فحسب . لأن

البدوى يحتفظ - بالإضافة إلى الحيوانات التي يقتنيها ليعيش على منتجاتها - بحيوانات أخرى ، هي : الكلب والجمال والحصان ؛ وظيفتها مساعدته في عمله . وتعتبر هذه الحيوانات المساعدة ، خير ما أنتجته الحضارة البدوية ، ومفتاح توفيقها : فاقتضى الأمر مجرد استئناس الغنم والبقر - وإن كان هذا الأمر ليس باليسير - حتى تكون ذات فائدة في خدمة الإنسان . لكن الحال يختلف بالنسبة للكلب والجمال والحصان . فإن استئناسها وحده لا يكفل قيامها بوظائفها الأشد تعقداً ، إذ يتطلب الحال تدريبها على العمل بالإضافة إلى استئناسها .

، ويعتبر تدريب البدوى لمساعدته من غير الآدميين ، ذروة مآثره . وعلى ذلك كان تكييف هذا الفن البدوى السامى ليشتمل مع حياة الاستقرار ، هو ما يميز الإمبراطورية العثمانية على الإمبراطورية الأفارية ، وإليه يرد بقاؤها أمداً أطول بكثير . فلقد احتفظ الباديشاهات^(١) بإمبراطورياتهم ، بفضل تدريبهم الأرقاء ليكونوا مساعدين آدميين يعاونونهم على حفظ النظام بين « قطيعهم البشرى » .

وليس هذا النظام الفذ - نظام إعداد الجنود والإداريين من بين الأرقاء - من ابتكارات العثمانيين وحدهم . فإنه فكرة تتصل تماماً بالعبرية البدوية ، وتجاني تفكيرنا إلى أبعد حد . ونجدها في إمبراطوريات بدوية أخرى فرضت نفسها على الشعوب المستقرة ؛ وتصدق بالذات على أطول الإمبراطوريات عمراً .

إذ نلمح إمارات الأرقاء العسكريين في الإمبراطورية البارثية^(٢) :

(١) الباديشاه هو السلطان العثماني . (المترجم)

(٢) نسبة إلى بارثيا Parthia الاسم القديم لقطر يقع في آسيا الغربية جنوب شرق بحر قزوين ، ويقابله في الوقت الحاضر القسم الشمالى من ولاية خراسان الإيرانية . ولقد كانت مركز إمبراطورية امتدت إلى نهري دجلة والفرات وبحر قزوين ونهر السند والمحيط الهندي . وقد حاربت بارثيا روما أمداً طويلاً ثم انتهى بها المطاف إلى الخضوع لسلطان فارس عام ٢٢٦ ميلادية . (المترجم)

لإذ قيل إن أحد الجيوش التي أحبطت مطمح مارك أنطوني في منافسة الإسكندر الأكبر ، لم يضم سوى أربعائة رجل من الأحرار من بين قوتها البالغة خمسون ألف مقاتل : واستخدم الخلفاء العباسيون بعد ذلك بألف سنة ، نفس الطريقة واتبعوا نفس الأسلوب للاحتفاظ بسلطانهم ؛ فاشترى الأرقاء الأتراك من المذهب ودربوهم على الجندية وعلى الأعمال الإدارية . واحتفظ الخلفاء الأمويون في قرطبة بحرس شخصي من الأرقاء ، اختارهم لهم جيرانهم الفرنجة الذين كانوا يزودون سوق الرقيق في قرطبة بما يأسرونه في إغاراتهم على الجانب الآخر من حدود الأملاك الفرنجية : ومن قبيل المصادفة أن يكون البرابرة المأسورون بهذه الطريقة ، من الصقالبة ؛ وهذا هو أصل كلمة رقيق (Slave) في اللغة الإنجليزية :

على أن نظام المالك في مصر ، هو مثال لنفس الظاهرة أعظم شهرة . وتعني كلمة « مملوك » في اللغة العربية ، الشيء الذي يملك أو يستحوذ عليه . وكان المالك في الأصل ، هم المحاربون الأرقاء للأسرة الأيوبية التي أنشأها صلاح الدين . ثم استطاعوا عام ١٢٥٠ ميلادية ، التخلص من سادتهم ومواصلة الانتفاع بنظام الرق الأيوبي لمصلحتهم الخاصة : وطفقوا يعززون صفوفهم ، لا بطريق التناسل ، ولكن بشراء فريق الأرقاء من الخارج . وهذا الحرس الخاص من الأرقاء الذين يملكون أنفسهم — مستترا وراء خلافة صورية — قد حكم مصر وسوريا ، واستطاع صد الزحف المغولي الرهيب عند خط الفرات إبان الفترة من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧ : وعندئذ واجهته قوة أشد بطشا ممثلة في المالك الأرقاء التابعين للعثمانيين : لكن ذلك لم يكن بشير نهايتهم ، فلقد سمح لهم الحكم العثماني في مصر بالاحتفاظ ببقائهم ، باتباعهم نفس طريقة التدريب وتجديد صفوفهم من نفس المصادر : وعندما

أخذت الدولة العثمانية في التداعي ، أكدت دولة المماليك نفسها من جديد ، إلى أن أصبح الباشا العثماني في مصر خلال القرن الثامن عشر ، في حكم السجين السياسى للمماليك ؛ على غرار ما كان عليه الخلفاء العباسيون في القاهرة قبل الفتح التركى .

وبرز في الفترة بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين سؤال سافر مداره فيما إذا كان التراث العثماني في مصر سيرتد إلى المماليك أو أن مصيره الوقوع في قبضة إحدى الدول الأوروبية — فرنسا النابليونية أو إنجلترا ، بيد أن هذين الافتراضين كليهما لم يتحققا عمليا بفضل المغامر العثماني المسلم محمد على ؛ الذى وجد صعوبة في تسوية أمر المماليك أكبر مما وجده في إيقاف الإنجليز والفرنسيين عند حدهم ؛ واقتضاه استئصال هذه الكتل من الأرقاء التى تجدد نفسها بنفسها ، استخدام كل مهارته وصرامته . وهكذا كانت نهاية المماليك ، بعد أن أقاموا أكثر من خمسمائة سنة في تربة مصر الأجنبية عنهم ؛ بفضل تدفق الطاقة البشرية المستمر ، من السهب الأوراسى والقوقاز .

على أن الحاشية العثمانية المكونة من الأرقاء التى أقامتها الأسرة المالكة العثمانية لفرض سيطرتها والاحتفاظ بسلطانها على العالم المسيحى الأرثوذكسى ، هى أحدث عهداً من نظام المماليك وقد فاقت كثيراً من ناحيتى النظام والطاعة على السواء . ذلك لأن ممارسة السلطان على مجموعة اجتماعية بأسرها تنتمى إلى حضارة غربية ، هى بكل جلاء أصعب المهام التى يجابهها فاتح بدوى . ولقد استثار هذا الأمر فى عثمان وخلفائه حتى سليمان القانونى (من سنة ١٥٢٠ — إلى سنة ١٥٦٦) أسس ما لدى البدو من كفايات اجتماعية .. .

ولقد أشارت دراسة أربية لعالم أمريكى إلى السمة العامة لنظام الحاشية العثمانى من الأرقاء فى العبارة الآتية :

« شملت الخطط العثمانية السلطانية ، السلطان وعائلته وطاقته وكتابه وعمله والجيش العامل من الفرسان والمشاة ، وطائفة كبيرة من الشبان الذين كانوا يدربون للخدمة في الجيش العامل وفي القصر وفي الحكومة . وكان هؤلاء الرجال يمتشقون الحسام والقلم والصولجان ؛ ويسوسون كافة المناحي الحكومية ، خلا ما يتصل منها بالقضاء في المسائل التي تحكمها الشريعة الإسلامية . وكذلك باستثناء تلك الوظائف التي عيّنت تعيينا للجماعات الأجنبية والراعايا العثمانيين من غير المسلمين . وتمثلت أهم السمات الأساسية والحوية لهذا النظام في :

أولا : انحدار أفراده — عدا في حالات استثنائية قليلة — من أشخاص مولودين من أبوين مسيحيين .

ثانيا : أن كل فرد من هذا النظام تقريباً وفد باعتباره رقيقاً للسلطان، وظل عبداً للسلطان طوال حياته معها بلغ من الثراء أو المركز أو السطوة .

« بل إن العائلة المماكة . . . يمكن — بحق — إلحاقها بطائفة الأرقاء لأن أمهات أبناء السلطان كن من تلك الطائفة ، بل كان السلطان نفسه ابن أمة . . . ولقد امتنع السلاطين من الوجهة العملية قبل عصر سليمان بزمان طويل ، عن الاقتران بزوجات ذوات نسب ملكي ، أو عن منح لقب الزوجة إلى أمهات آبائهم . . . وأخذ النظام العثماني متعمدا الأرقاء وجعل منهم وزراء للدولة ، وكان يأخذ الصبية من مرعى الغنم ومن وراء المحراث ، ويجعل منهم رجال حاشية وأزواج أميرات . . . كان يأخذ الشبان الذين حمل أجدادهم أسماء مسيحية قرونا طوالاً ، ويجعل منهم حكاما في أكبر الدول الإسلامية ، وجنودا وقادة في جيوش لا تقهر ، كانت مسرتهم العظمى إنزال الصليب ورفع الهلال . . . وإذ كان النظام العثماني يزدري إلى حد بعيد نسيج العادات الأساسية الذي يدعى « الطبيعة البشرية » ، ويستخف بتلك الاتجاهات الدينية والاجتماعية التي يُعتقد بأنها عميقة

عمق الحياة نفسها ، فقد كان ينزع الأطفال من آباءهم إلى الأبد . ولا يشجع الصلات العائلية بين أفرادها طوال سنوات حياتهم الأكثر نشاطاً ، ولا يتيح لهم أى ضمان على الممتلكات ، ولا يمنحهم أى وعد صريح بأن أبناءهم وبناتهم سيستفيدون من نجاحهم وتضحياتهم . ويرفعهم النظام ويخفضهم دون أى اعتبار للنسب أو لمركزهم السابق . ويلقنهم قانوناً وديناً وأخلاقاً غريبة ، ويجعلهم يشعرون دائماً بأن ثمة سيفاً مسلطاً على رؤوسهم ، قد يضع فى أية لحظة ، حداً لحياة مشرفة فى طريق من المحد البشرى لا نظير له .

ولقد برزت الأحداث جدوى فكرة إقصاء الأرستقراطية العثمانية الحرة المنشأ عن مناصب الحكم ، وهو ما يبدو لنا أنه أغرب ما فى النظام . فإنه عندما وفق المسلمون الأحرار فى نهاية الأمر إلى شق طريقهم إلى وظائف البلاط فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان ، أخذ النظام فى التداعى ، وشرعت الإمبراطورية العثمانية فى الانهيار .

فطالما ظل النظام سليماً ، كان يستمد أتباعه الجُدد من مختلف مصادر التوريد غير المسلمة : من وراء الحدود بواسطة الأسرى فى الحرب والشراء من سوق الرقيق أو الانضواء الإرادى فى الصفوف ، ومن داخل الإمبراطورية عن طريق جمع الأطفال دورياً بطريق القرعة . وكان المجنّدون يخضعون بعد ذلك لنظام تربوى محكم مع تطبيق مبدأى الاختيار والتخصص فى كل مرحلة ، وكان النظام صارماً والعقاب وحشياً . بينما كان يوجد فى الجهة الأخرى ، استثارة للطموح مستمرة ومتعمدة ، وكان كل طفل ينخرط فى سلك أسرة رقيق الباديشاه العثمانى ، على علم باحتمال تنصيبه وزيراً أكبر ، وأنه على بطولته ، كما يبديها تدريبه ، يتوقف تحقيق مطامعه .

ولدينا وصف شائق تفصيلى لهذا النظام التعليمى إبان ازدهاره ، كتبه

معاصر له هو العالم الفلمنكى والديبلوماسى Cligier Ghiselin de Basbeeeg الذى كان سفيراً لبلاط هابسبرج لدى سليمان الأعظم . وقد جاءت استنتاجاته فى صف العثمانيين ، ومناهضة لأساليب المسيحية الغربية المعاصرة له :

« حسدت الأتراك - كما يقول - على نظامهم هذا ، إنه أسلوب الأتراك دائماً عندما يوفقون إلى اقتناء رجل كريم الخصال إلى حد غير عادى ، فنجدهم يطربون ويسرون غاية السرور ، كما لو أنهم قد عثروا على لؤلؤة غالية الثمن ، ويذلون فى سبيل إبراز جميع مواهبه ، كل ما يسعهم من الجهد والفكر ولا سيما إذا رأوا فيه كفاية عسكرية . ولا ريب أن طريقتنا الغربية تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، إذ نسرى فى الغرب أن حصلنا على كلب أو شاهين أو حصان ممتاز ، ولا ندخر أى شىء فى سبيل الوصول بهذا المخلوق إلى أسمى درجات الكمال التى يقيض لفصيلته أن تبلغه . أما بالنسبة للإنسان - فإذا وفقنا إلى العثور على رجل ذى مواهب تلفت الأنظار - فإننا لانجشم أنفسنا إطلاقاً نفس المتاعب ، ولا نعتبر أن مسألة تعليمه مسألة تهمننا بصفة خاصة . وبالأحرى نحصل نحن الغربيين على الكثير من أنواع المتعة والمنفعة من حصان أو كلب أو شاهين مدرب تدريباً جيداً ، بينما يجتنى الأتراك من رجل هذب التعليم خلقه ، على منفعة أعظم مدى يتيحها تسامى الطبيعة البشرية وتفوقها على بقية المملكة الحيوانية^(١) » .

واندثر النظام فى النهاية ، بسبب تسابق كل فرد فى سبيل الحصول على نصيب من امتيازاته . فكان أن فتح حوالى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، باب القبول فى كتائب الانكشارية لجميع المسلمين الأحرار عدا الزوج . فقاد ذلك إلى زيادة عددها ، فضعفت كفاءتها وتضعع نظامها . ولا بدع

(١) انظر : Busbecy, O. G. Exclamatre, sive de Remilitari contra

Turcam instituenda Consilium طبعة ليدن سنة ١٦٣٣ ص ٤٣٩ . وقد ترجم للإنجليزية .

(المترجم)

أن تترد « كلاب الحراسة البشرية » هؤلاء في منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى طبيعتها ، فإذا بها تنكفى إلى ذئاب تنهب ماشية الباديشاه البشرية ، عوضاً عن توليها حراستها وحفظ النظام بينها .

وهنا انخدع السكان من أتباع المسيحية الأورثوذكسية في السلام العثماني Pax Ottomanica ، الذى كان يحملهم في الأصل على احتمال ربة العثمانيين . فلقد تمثلت الحرب الكبرى من سنة ١٦٨٢ إلى سنة ١٦٩٩ بين الإمبراطورية العثمانية ودول المسيحية الغربية الحساسة الأولى من سلسلة خسائر العثمانيين لأراضيهم . وهى سلسلة بدأت منذ حرب ١٦٨٢ - ١٦٩٩ الكبرى بين الدولة العثمانية والدول الغربية ، واستمرت بعد ذلك حتى عام ١٩٢٢ . وانتقل التفوق والنظام بعد تلك الحرب من المعسكر العثماني إلى الغرب بشكل قاطع . ولقد تكشفَت النهاية التى وصل إليها اضمحلال نظام الرق العثماني ، عن تزمته الصارم ، وكان ذلك عيباً قضى عليه . فما أن تصدع هذا النظام ، حتى استحال إصلاحه أو إعادة تشكيله أو صياغته . وتحول إلى كابوس : وانحدر الحكام الأتراك في عصورهم الأخيرة إلى مستوى محاكاة طرائق أعدائهم الغربيين . وإذا كانت تلك السياسة قد أثبتت طويلاً في تردد وقصور ، إلا أن مصطفى كمال قد نفذها أخيراً في أيامنا هذه تنفيذاً شاملاً صارماً .

ولأنه وإن بدا هذا التحول في ذاته عملاً فذاً ، تماثل صورته ابتكار الساسة العثمانيين الأوائل نظام الدولة القائم على استخدام الرقيق ، إلا أن مقارنة نتائج هذين الإجراءين تبرز تفاهة الثانى نسبياً لأن أصحاب نظام الرق العثماني قد ابتدعوا أداة مكنت جماعة ضئيلة من البدو طُردت من موطنها في السهوب ، من المحافظة على أملاكها في عالم يختلف عنها . بل وأتاح لها كذلك فرض السلام والنظام على مجتمع مسيحي كبير ، كان قد سار شوطاً في طريق التحلل . وقادها أيضاً إلى تهديد حياة مجتمع مسيحي آخر أعظم من الأول ، استطاع هو الآخر أن ييسط ظله على البشر جميعاً .

ولا يسدّ ساسة الأتراك في أيامنا الأخيرة إلا جانباً من الفراغ الذي خلفه في الشرق الأدنى ، زوال صرح الإمبراطورية العثمانية القديم الفريد في بابه . أما بقية الفراغ ، فقد تأتت شغله بإقامة دول مصطنعة على نمط غربي وعلى شكل الدولة التركية القديمة . وأصبح ورثة الحضارة العثمانية المتعطلة ، يعيشون قانعين في هذا المثوى المتواضع ؛ مثلهم مثل الصهيونية ورثة الحضارة السورية المتحجرة المجاورة لهم ، والإيرلنديون ورثة حضارة الغرب الأقصى العقيمة في الشارع التالي . وهي عيشة تافهة ، لكنها تعتبر فراراً من وضع لم يعد يُستطاع احتماله ، ألا وهو ، وضع « الشعب الشاذ » .

أما عن نظام الرق الإداري نفسه ، فقد قضى عليه السلطان محمود الثاني عام ١٨٢٦ قضاءً مبرماً إبان منتصف الحرب اليونانية التركية ، بعد انقضاء خمسة عشر عاماً من توفيق محمد علي والى مصر وتابعه الاسمي وحليفه بعض الوقت وعدوه البعض الآخر ، في تحطيم نظام المالك ، الصورة المطابقة للرق العثماني .

وهذا هو المصير الطبيعي لكلب الحراسة الذي انحرف ، فأصبح يوذى الأغنام .

(٣) الاسبرطيون

يعتبر التنظيم العثماني ، أقرب شيء في الحياة الواقعية تتحقق به مثالية جمهورية أفلاطون . بيد أنه من المؤكد ، أنه كان في ذهن أفلاطون نفسه — وقمًا تحيّل مدينته الفاضلة^(١) ؛ نظم إسبرطة . ورغمًا عن اختلاف مقاييس العمليات العثمانية والإسبرطية ، فإن ثمة تشابهاً كبيراً بين « النظم الشاذة » التي اعتنقها كلا الشعبين في سبيل إنجاز عمله الفذ .

(١) ترجمنا كلمة Utopia بالمدينة الفاضلة أخذنا عن الفارابي الفيلسوف الإسلامي .

(المترجم)

ولقد لاحظنا في أول مثال ذكرناه في هذه الدراسة أنه قد انبعثت عن الاسبرطيين استجابة تتسم بالشذوذ ، للتحدى المشترك الذى جابه كافة الدول الهلينية إبان القرن الثامن قبل الميلاد وقمّا أخذ سكان هيلاس يتزايدون بمعدل يفوق زيادة مصادر المعيشة . فكان الاستعمار هو الحل الطبيعى لهذه المشكلة ؛ ومبناه ، توسعة نطاق المساحة الهلينية باستكشاف أراض جديدة وغزوها واستيطانها على حساب « البرابرة » سكانها الأصليون . وكان تطبيق هذا الحل يسيراً سهلاً نظراً لقصور مقاومة البرابرة .

بيد أن الاسبرطيين وهم الذين تفرّدوا وحدهم من بين الجماعات اليونانية الأساسية^{١٢} بنظامهم ، كانوا بعيدين عن البحر ، فأثروا - والحالة هذه - غزو جيرانهم اليونانيين الميسينيين ، على الاستعمار الخارجى ؛ إلا أنه انبعث عن هذا الإجراء ، تحدى يتسم بصرامة غير مألوفة . فإن الحرب الميسينية الأولى (حوالى ٧٣٦ - ٧٢٠ ق . م .) لم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الحرب الثانية (حوالى ٦٥٠ - ٦٢٠ ق . م .) إذ نهض الميسينيون ضد سادتهم بفضل الروح التى بثتها فيهم مشقة خضوعهم . وإنه وإن أخفقوا فى كفالة حريتهم ، لكنهم نجحوا فى تحوير خط سير التطور الإمبرطى بأسره . إذ كانت الثورة الميسينية تجربة من الهول بحيث أنها خلقت المجتمع الإمبرطى « مقيداً بأغلال البؤس والحديد » . ولم تُقيّض للإمبرطيين الراحة أبداً من ذلك الوقت ، وعجزوا دائماً عن انتشال أنفسهم من رد الفعل الذى ألم بهم بعد الحرب . فإن الغزو قد أسر الغزاة ، مثلما استعبد غزو البيئة المتجمدة ، الأسكيمو الغزاة . فإن الأسكيمو كما أصبحوا مصفدين بأغلال دورة معيشتهم السنوية الصارمة ، تقيّد الإمبرطيون كذلك بواجب احتجاز أرقائهم الميسينيين .

تزوّد الاسبرطيون لإنجاز عملهم الفذ بنفس طريقة العثمانيين القائمة على تطبيق نظم مألوفة للوفاء باحتياجات جديدة ؛ مع اختلاف مؤداه أنه فى حين

استطاع العثمانيون الاستقاء من التراث البدوى الاجتماعى الغزير ، كانت النظم الاسبرطية تطبيقاً لنفس النظام الاجتماعى البدائى للبرابرة الدوريين الذين اجتاحتها اليونان بعد عصر الهجرات المينوية . وتنسب الأساطير اليونانية هذه المآثر إلى ليكورجوس Lycurgus ، لكن ليكورجوس لم يكن إنساناً بل إلهاً . فالحتمل إذن أن يكون واضعو الأنظمة الاسبرطية طبقات فى السياسة عاشوا حتى القرن السادس قبل الميلاد .

والسمة الغالبة للنظام الاسبرطى — كما فى النظام العثمانى — هى ازدياد الطبيعة والتهوين من شأنها إلى أبعد حد . وإلى هذه السمة تُعزى كفايته وصلابته القتالة على السواء ، وإليها يرد انهياره فى خاتمة المطاف . على أن الأجوجيين^(١) الاسبرطيين ، لم يتطرفوا تطرف نظام الرق العثمانى فى الاستخفاف بحقوق الميلاد والوراثة . كما اختلف فى الإمبراطورية العثمانية أصحاب الأراضى من أعيان المسلمين الأحرار اختلافاً بيناً عن ملاك الأرض من مواطنى اسبرطه الأحرار . إذ ألزم الأخيرون — من الناحية الافتراضية — بواجب الاحتفاظ بالسيطرة الاسبرطية كاملة على الميسينيين . وكان مبدأ المساواة فى نفس الوقت يطبق تطبيقاً صارماً على أفراد الكيان الاسبرطى ذاته . إذ يحصل كل فرد اسبرطى على قطعة أرض مساوية فى مساحتها وإنتاجها لما يحصل عليه غيره . وكانت كل قطعة أرض — ويتولى زراعتها الميسينيون — كافية لسد احتياجات العائلة الاسبرطية ، الأمر الذى يتيح له تكريس جميع مواهبه إلى فن الحرب .

وكان يُفرض على كل طفل اسبرطى من السابعة وما بعدها ، حضور برنامج التدريب الحربى . إلا إن أعفى لضعفه ، وعندئذ يعرض فى العراء ليموت ؛ ولم تكن ثمة استثناءات . وكانت البنات يدربن على الألعاب الرياضية

(١) نسبة إلى كلمة agâgê اليونانية ، وتعنى زعيم . (المترجم)

كالصبيان سواء بسواء . وكانت البنات - مثل الأولاد - يتبارين عراة أمام جمهور من الذكور . ويبدو الاسبرطى فى مثل هذه الأمور مشابهاً للبابائى الحديث من ناحية قدرته على ضبط إحساسه الجنىسى أو الشعور إزاءه بالفتور . وكان إنجاب الأطفال الاسبرطيين يتم وفقاً لأسس استنساالية^(١) صارمة فيؤسحى إلى الزوج الواهن بالبحث عن ذكر خير منه لكفالة حصول الأسرة على الأطفال .

كان الاسبرطيون ، كما يقرر بلوتارخ :

« يعتبرون القواعد المنظمة للعلاقات الجنسية لغيرهم من البشر ، معرضاً للخشونة والزهو . وعندهم أن ما عداهم من الناس يهتمون بتزويد أناث كلاهم وخيولهم بخير الفحول التى يستطيعون اقتراضها أو استعارتها ، بينهما يحتجزون نساءهم ويخضعونهن للرقابة والحراسة بغية التأكد من أنهن سينجبن أطفالاً من أزواجهن وحدهم فحسب ، فارضين أن الانصال الجنىسى حق مقدس للزوج حتى ولو كان هو ضعيف العقل أو هرمًا أو مريضاً »^(٢) .

ويلاحظ القارئ التشابه العجيب بين تعليقات بلوتارخ على النظام الاسبرطى وتفسيرات بوسبك Busbecq التى سبق أن أوردناها ، لنظام الرق عند العثمانيين .

وهكذا تماثل السمات الرئيسية فى كلا النظامين الاسبرطى والعثمانى : الرقابة والاختيار ، والتخصص ، وروح التنافس . ولم تقتصر هذه السمات فى كلتا الحالتين على مرحلة التعليم . إذ كان الاسبرطى يخدم مع الأعلام ثلاثة وخمسين سنة ، وكانت الواجبات المفروضة عليه تجاه بعض الأوجه ، أرفع مما كان يفرض على الانكشارية . وكانت الانكشارية تثبط عن الزواج ،

(١) نسبة إلى علم الاستنسال ، أى علم تحسين النسل . (المترجم)

(٢) Plutarch : Lycurgus Ch XV .

فإن تزوجوا ، سمح لهم بالعيش في مضارب المتزوجين . في حين كان الاسبرطى يُجبر على الزواج ولكن مع الحيلولة بينه وبين مزاولة الحياة المنزلية بوساطة إجباره - حتى بعد الزواج - على الأكل والنوم داخل ثكناته .

وأُسفرت هذه النظم عن انبعاث روح عامة ساحقة بصفة مؤكدة ، إلى درجة تكاد لا تصدق ، روح ألفاها الإنجليز شاقة كريمة حتى تحت ضغط ظروف الحرب ، ولا يتأتى احتمالها في غيرها من الأوقات . الأمر الذى جعل « اسبرطى » غير مقبولة منذ ذلك الحين . وتبدى قصة الثلاثمة في ترموبيلاي^(١) أو قصة الصبي والثعلب ، جانباً من تلك الروح . ولا يعزب عن ذهننا من الناحية الأخرى ، أن الصبي الاسبرطى كان يقضى العامين الأخيرين من تعليمه في الخدمة السرية التى كانت لا تعدو الانتماء إلى عصابة قتل منظمة تطوف أنحاء البلاد للقضاء على أى رقيق يبدى علامة عصيان ، أو يظهر خلقاً ناشزاً أو إقداماً على أى صورة أو شكل .

ولا تظفر عينا الزائر لمتحف اسبرطه الحالى بأى أثر عن عبقرية النظام الاسبرطى . وتباين مجموعة هذا المتحف أية مجموعة أخرى لأعمال الفن الهليني تبايناً تاماً : فإذا كان في وسع زائر المتاحف الأخرى التى تضم مجموعات الفن الهليني ؛ أن يمتع ناظره بمراى طرائف العصر الكلاسيكى (حوالى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد) ، فإن الفن الكلاسيكى لا وجود له في المتحف الاسبرطى . على أن معروضاته السابقة للعصر الكلاسيكى تبشّر بالخير ، أما ما بعدها فلا شئ على الإطلاق . فإن ثمة فراغاً تاماً في تسلسلها ، ويقسم ما تلاها كله بأنه عمل رتيب ممل خال من طابع الإلهام ، أنجز إبان العصرين الهليني والرومانى : ويقع التاريخ

(١) مر يصل بين تساليا ولوكريس في اليونان . وقد أمكن لثلاثمة يونانى عام ٤٨٠ ق . م الدفاع عنه دفاعاً باسلاً ضد الجيوش الفارسية .

(المترجم)

الذى قُبِضَ فيه على الفن الاسبرطى المبكر إبان « مراقبة تشيلون Chilon »^(١) في منتصف القرن السادس قبل الميلاد تقريباً . وهذا غالباً ما يدعو إلى افتراض أن هذا السياسى هو أحد واضعى هذا النظام . وتقع فترة معاودة الإنتاج الفنى معاودة مفاجئة غير متصلة ، في عصر الاضمحلال بعد سنة ١٨٩ - ١٨٨ ق . م . وقتما أبطل الفاتح الأجنبى النظام بالقوة .

ومما يبعث على العجب بالنسبة لصرامة النظام الاسبرطى ، بقاؤه قائماً قرابة المائتى سنة بعد زوال علة بقائه - أى بعد ضياع ميسينيا إلى غير رجعة . أما قبل هذا التاريخ ، فقد كتب أرسطو العبارة التذكارية على قبر اسبرطة ، في صورة قضية عامة :

« أخرى بالشعوب أن لا تدرب نفسها على فن الحرب بقية إخضاع جيران لا مبرر لإخضاعهم (أى لإخوانها اليونانيين ، أى غير المنتمين إلى السلالات الأوطأ التى لا يحكمها القانون والتى يلقبها اليونانيون بالبرابرة) . . . يجب أن يغدو الهدف الأعلى لأى نظام اجتماعى ، تنسيق النظم الحربية مثل جميع النظم الأخرى ، بغية اتفاقها مع ظروف السلام وقتما يصبح الجندى بعيداً عن الخدمة »^(٢) .

(٤) خصائص عامة

تبرز خاصيتان عامتان في جميع هذه المجتمعات المتعطلة ، بروزاً واضحاً :
الطائفة والتخصص .

ويتيسر إدراج كلتا هاتين الظاهرتين في صيغة واحدة مدارها أن كافة المخلوقات الفردية الحية التى يضمها بين ظهرانينا كل مجتمع من هذه

(١) تشيلون هو أحد الحكماء السبعة . عاش خلال ٦٢٠ - ٥٥٠ ق . م . وإليه يعزى

المثل المشهور « اعرف نفسك » . (المترجم)

(٢) Aristotle : Politics : 1333B - 1334A

المجتمعات ليست جميعها من نوع واحد . لكنها تتوزع على مجموعتين أو ثلاث مجموعات مختلفة ، بشكل ظاهر :

ففي مجتمع الاسكيمو ، ثمة طائفتان : الصائدون البشر ، ومساعدوهم ذوو الأنياب والأظافر . وفي المجتمع البشرى ، توجد ثلاث طوائف : الرعاية البشر ، والحيوانات المساعدة ، والماشية .

ونعثر في المجتمع العثماني على ما يعادل طوائف المجتمع البدوي الثلاث ، مع إحلال الكائنات البشرية محل الحيوانات . وبينما يتكوّن الكيان الاجتماعي البدوي ذو الشكل المتعدد ، من اجتماع الكائنات البشرية والحيوانات في فرد ولا يتأتى لها العيش في السهب دون مشاركة بعضها بعضا ؛ نجد الكيان الاجتماعي العثماني ذو الشكل المتعدد ، يتكون على العكس من تفريق الناس المتجانسين تجانسا طبيعيا ؛ إلى طوائف بشرية تتعامل كما لو أنها تنسب إلى أنواع مختلفة من الحيوانات . على أننا نستطيع تجاهل هذا الاختلاف تحقيقاً لغايتنا .

لقد استحال كلب الاسكيمو وحصان البدوي وبعيره - بفضل مشاركتها للإنسان - إلى أشباه آدميين . بينما أضاع السكان الخاضعون للعثمانيين - أي الرعية وتعني القطيع - والأرقاء اللاوكونيون Laeonian Helots نصف آدميتهم بسبب معاملة سادتهم لهم كقطيع . أما الشركاء الآخرون فهم في كل جماعة قد تخصصوا في أدوار الهولة . ومصادقا لذلك نجد الاسبرطى المكتمل هو « المارسي »^(١) والانكشارى المتكامل هو الناسك ، والبدوي الكامل هو القنطروس^(٢) والاسكيمو المتكامل هو المрман^(٣) . وإذا كان جماع نقطة الخلاف بين أثينا وأعدائها - كما صوره بركليس في خطابه الجنائزى -

(١) مارس إله الحرب عند اليونانيين القدماء . (المترجم)

(٢) القنطروس كائن خرافي له رأس إنسان وجسم حصان . (المترجم)

(٣) المрман : إنسان الماء (شيخ البحر) . (المترجم)

أن الأثيني إنسان صُنع على هيئة الإله في حين أن الاسبرطى محارب فظ ؛
 فإن وصف المراقبين للاسكيمو والبدو يتفق على تأكيد أن هؤلاء الاختصاصيين ،
 قد بلغ بهم حذقهم إلى حد أصبح معه القارب والحصان وحدتين عضويتين .
 فالقارب أصبح كإنسان عند الاسكيمو ، والحصان غدا لإنسانا لدى البدوى .
 وبالأحرى أنجز الاسكيمو والبدو والعثمانيون والاسبرطيون ما وفقوا
 إلى إنجازه ؛ بفضل طرحهم جانبا مسألة التباين الغير المحدود في الطبيعة البشرية ،
 وافترضهم وجود طبيعة حيوانية في البشر عوضا عن طبيعتهم البشرية .
 وقادهم هذا الافتراض إلى طريق الانحلال . وإذا كان علماء الأحياء يقررون
 بأن الوقوف وانتقاء المستقبل في عملية التطور ، يعتبر نهاية أنواع الحيوانات
 التي تغالت في مواءمة نفسها مع البيئات ذات التخصص الرفيع ؛ فإن هذا
 تماما هو مصير الحضارات المتعطلة .

وتسمى كلا المجتمعات البشرية الخيالية التي تدعى بالمدن الفاضلة
 Utopias والمجتمعات الواقعية التي تتولى الحشرات الاجتماعية^(١) إنشاءها ؛
 مشابهاة لمثل هذا المصير :

فلذا عقدنا مقارنة بين نوعي المجتمعات ، نجد الخصائص البارزة التي
 طالعنا في جميع الحضارات المتعطلة ؛ أي الطائفية والتخصص ، قائمة في
 حشد النمل وفي خلية النحل ؛ كما هي قائمة في جمهورية أفلاطون أو في
 العالم الجديد المثالي لألدوس هكسلي .

ولقد ارتفعت الحشرات الاجتماعية إلى مراكزها الاجتماعية الحالية ،
 ثم وقفت هناك ساكنة ملايين عديدة من السنين ، قبل أن يبدأ الإنسان
 العاقل في الارتفاع فوق المستوى المتوسط لمجموعة الحيوانات الفقيرة .

أما عن المدن الفاضلة ، فإن نظمها ثابتة فرضا . لأنها تتضمن دائما
 برامج للعمل تتخفى وراء قناع قوامه وصف أساسه الخيال . ويتمثل

(١) كالفيل والنحل مثلا . (المترجم)

رد الفعل فى جميع الأحوال تقريباً ، وهو الفعل الذى ترنو هذه البرامج إلى تحقيقه ، فى « تعليق » مجتمع قائم دىخل طور انحلال عند مستوى معين ، عندئذ لا بد وأن ينتهى الحال بالاجتماع إلى الانحلال . إلا إن أمكن تعطيل حركة تدهوره بالوسائل المصطنعة . والواقع أن إيقاف حركة تدهور مجتمع هى أقصى ما يطمح إلى تحقيقه أصحاب المدن الفاضلة . فإنهم قلما يُقدمون على تخطيط قواعدها فى أى مجتمع ، إلا بعد أن يفقدوا الأمل فى تحقيق مزيد من التقدم .

وبالأحرى ترنو جميع المدن الفاضلة إلى كفالة توازن ثابت حصين تخضع فى سبيل تحقيقه الغايات الاجتماعية الأخرى ؛ بل وتضحى فى سبيله عند الاقتضاء . على أنه يستثنى من ذلك ، عمل نابه الذكر لعبقريّة انجليزية ، منحت هذا الضرب من الأدب اسمه (١) :

ويصدق هذا الرأى على معنى المدينة الفاضلة فى الهلينية . وهى فكرة تصورها أثينا فى المدارس الفلسفية التى قامت فى العصر الذى تلا مباشرة ، كارثة الحرب البلوونيزية التى قادت إلى بث روح العداء العميق للديمقراطية الأثينية فى تلك المدارس الفلسفية ؛ مما ظهر أثره فى سيطرة تلك الروح السلبية على أسس المدينة الفاضلة الهلينية . ويرجع عداء الفلاسفة للديمقراطية ، إلى أن الأخيرة قد فضّت شركتها الزاهرة مع الثقافة الأثينية ، وأبرزت نزعة حرية جنونية جلبت الخراب على العالم الذى ازدهرت فيه الثقافة الأثينية ؛ وغطت تلك النزعة الحرية فشلها فى كسب الحرب ، بقتلها سقراط بعد محاكمة صورية :

فلا بدع والأمر كذلك ، أن يُصبح أول ما يُعنى به الفلاسفة الأثينيون بعد الحرب (٢) ، إنكار جميع أسباب عظمة أثينا طوال القرنين اللذين سبقا

(١) يقصد المؤلف ، السير توماس مور وهو الذى صك تيمير « Utopia » علماً على المكان المنشود للهناة البشرية . انظر كتاب المدينة الفاضلة للمترجم . (المترجم)

(٢) حروب البلوونيز . (المترجم)

الحرب . فآمنوا - من ثم - بأن إنقاذ هيلاس يكمن فحسب في تحالف الفلسفة الأثينية مع النظام الاجتماعي الاسبرطى . وابتغوا من الموازنة بين النظام الاسبرطى وآرائهم ، إدخال تحسينات عليها عن طريقين :

الأول : إرجاعها إلى طرفيها المنطقيين .

الثاني : فرض سيادة طائفة مثقفة (مثل الحماة عند أفلاطون) شبيهة بالفلاسفة اليونانيين أنفسهم ، على غرار الطائفة الحربية الاسبرطية ، التي ستدرّب وفقا للنظام العتيد على شغل المكان الثانى فى نظام المدينة الفاضلة .

وهكذا أثبت الفلاسفة الأثينيون فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولاءهم لآراء ساسة اسبرطة خلال القرن السادس قبل الميلاد .

وتصطبغ فكرة أفلاطون وأرسطو فى موضوع الطائفة^(١) بهذا التعصب للسلالة الذى ما فتئ أحد خطايا مجتمعتنا الغربى الفادحة فى العصور الحديثة : فإن غرور أفلاطون بـ « الأكنوبة النبيلة »^(٢) ، هو « ابتكار » رقيق لتبرير القول بوجود اختلاف عميق الجذور بين كائن بشرى وآخر ؛ اختلاف يماثل ما هو حاصل بين نوع من الحيوانات وآخر . وجعل أرسطو من هذه الفكرة أساس دفاعه عن الرق ، بما يقرره من أن الطبيعة قد خلعت على بعض الناس صفات خاصة تجعل منهم « أرقاء » . بيد أنه سلم بأن فى دنيا الواقع كثيرين مسترقين أخرى بهم أن يكونوا أحراراً ، بينما آخرون من الأحرار مكانهم الطبيعى الاسترقاق .

ولست سعادة الفرد هى الغاية ؛ سواء فى جمهورية أفلاطون أو فيما كتبه أرسطو^(٣) ، بل إن استقرار الجماعة هو جماع غايتها . ويفرض أفلاطون حظراً على الشعراء لعل مصدره فكرة « المشرف الاسبرطى » . ويدافع عن الرقابة

(١) الذى تأثروا فيه بالنظام الاسبرطى . (المترجم)

(٢) أى تفوق سلالة بشرية على أخرى . (المترجم)

(٣) جمهورية أفلاطون والقوانين لأرسطو والحزماني الأخيران من السياسات .

العامة على « الفكرة الخطرة » ، دفاعاً نجد ما يماثله في روسيا الشيوعية ، وفي ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية واليابان الشينتوية^(١) .

ولقد دلت منهج المجتمع التصورى على أنه أمل لارجاء فيه لإنقاذ هيلاس . إذ كشفت التجربة عن عُقمه ، قبل أن يحيد التاريخ اليونانى عن خط سيره . وذلك وقتما افتعلت على نطاق واسع ، الجماعات التى طبقت مبادئ المدينة الفاضلة . وقد بدأت بإقامة جماعة على رقعة من الأرض البور فى جزيرة كريت اعتنقت قوانين أفلاطون ، ثم تضاعف عددها بالفعل آلاف المرات متمثلة فى المدن التى أنشأها الإسكندر والملوك السلوقيون فى البلاد الشرقية والتى شيدها الرومانيون فى الأقاليم الهمجية فى غضون الأربعة قرون التالية . وفى هذه المجتمعات المثالية فى الحياة العملية ، كان يخصص لليونانيين أو الإيطاليين الذين أتتحت لهم الفرصة لتسجيل أنفسهم كمستعمرين ، قدر كاف من قوة الأهالى الوطنيين العاملة تقوم بتأدية العمل القذر ، حتى ينصرف المستعمرون إلى تأدية رسالتهم الثقافية بنشرهم إشعاع الهلينية على الظلام الخارجى . ولعل المستعمرة الرومانية فى الغال ، قد عهدت إليها إدارة المنطقة بأسرها وسكانها الهمجيين .

وطفق العالم الهلينى إبان القرن الميلادى يتمتع بصيف هندى^(٢) ، اعتبره معاصروه بل أخلافهم عمراً ذهبياً ؛ فأساءوا بذلك إليه ، وبدا كما لو أن أعظم آمال أفلاطون جسارة ، قد تحققت . واتسم العصر كذلك بتولى سلسلة من الملوك الفلاسفة عرشاً سيطر على العالم الهلينى بأسره ، وبشيوع السلام والوفاق بين ألف من المدن تعيش جنباً إلى جنب ، فى ظل هذه الرعاية الإمبراطورية الفلسفية .

(١) كتب هذا الفصل قبل الحرب الأخيرة التى قضت على الاتجاهات النازية والفاشية والشينتوية فى سياسات ألمانيا وإيطاليا واليابان على التوالى . (المترجم)

(٢) فصل دقء ينشئ الهند فى أواخر الخريف وأوائل الشتاء . ويقصد المؤلف بهذا التعبير أن العالم الهلينى كان يتمتع بعصر ربيع . (المترجم)

بيد أن زوال الآثام لم يكن إلا وقتياً ؛ لأن الأحوال لم تكن في الباطن على ما يرام . إذ ترتب عن الرقابة المستترة التي أوحتها طبيعة البيئة الاجتماعية والتي كان أثرها أشد مما لو فرضها أمر إمبراطورى ؛ ترتب عليها زوال الحيوية الثقافية والفنية . واستُخدم تنفيذاً لتلك الرقابة ، أسلوب طابعه روح الانتقام ، لاريب أنه يبت روح الخيرة في نفس أفلاطون ، لو كان قد قيض له أن يبعث حياً ، ليرى كيف تخرج آراؤه الخيالية على علائها إلى حيز التنفيذ العملى .

فكان أن تلا رخاء القرن الثانى - الذى لم يوح به أحد والجدير بالتوقير - بوئس ظاهرتة الفوضى والانفعال إبان القرن الثالث ، وقتما كثر الفلاحون على أسيادهم ومزقوهم . وفى القرن الرابع ، مزق الفلاحون قوائم الملكية تمزيقاً تاماً بعد صيرورة الطبقة التي كانت تنسّم الحكم يوماً ما ، أسيرة الأغلال فى كل مكان . فإن المعاونين الذين كانت تستخدمهم المدن الرومانية ، قد أصبحوا عاجزين ترهقهم ذلة ، ويستحيل أن يكونوا قد انحدروا فكرياً من عناهم أفلاطون بعبارته الرائعة « كلاب الحراسة الآدميين » . وإذا ألقينا فى النهاية لمحة على بضعة من المجتمعات التصورية الحديثة ، سنجد نفس السمات الأفلاطونية . وهذا ما بينه المستر آلدوس هكسلى فى كتابه « الدنيا الجديدة الباسلة » ؛ وفيه التزم ناحية النقد اللاذع الذى يرمى إلى التعزير أكثر من الترغيب . إذ نجده يبدأ من نقطة افتراضية مبناها أن الاتجاه الصناعى يتيسر احتماله إن تيسر انفصال الطبقات « الطبيعية » انفصالا باتا . ويتم هذا بواسطة إحداث تطور مثير فى البيولوجيا ، على أن تعززه السيكلوجية الفنية . وينتج عن هذا مجتمع أساسه الطبقات المرتبة ترتيب الحروف الهجائية ، وهو فى أساسه تطبيق لفكرة أفلاطون أو عمل العثمانيين الفذ ، تطبيقاً متطرفاً . مع فارق أن الطبقات المتتابعة هجائياً التي ابتكرها هكسلى مشروطة بتحوّلها

فعلا إلى عدد ضخم من أنواع « الحيوانات » المختلفة ؛ على غرار الأنواع البشرية وذوات الخالب والأنياب وآكلة العشب التى تتعاون فى المجتمع البدوى . وتؤدى الطبقة الأخيرة فى مجتمع هكسلى الطبقي هذا أفذر الأعمال ، لكنها تؤديه فى شغف ولا ترغب عنه بديلا . هذا وثم صياغة الطبقات فى معمل الاستيلاد .

ويعصور المستر ويلز فى كتابه « الرجال الأوائل فى القمر » مجتمعا يعرف فيه « كل مواطن مكانه الخاص » ؛ فإنه يولد لمكان معين . ويحمله فى النهاية التدريب على النظام الدقيق والتعليم وإجراء عمليات جراحية ؛ إلى شخص صالح لمكانه تمام الصلاحية ، حتى إنه يفقد آراءه وأعضائه الجثمانية التى يتيسر استخدامها فى أية غاية غير الغاية التى يراد تخصيص الشخص لها .

وهناك أيضاً وجهة نظر أخرى أنموذجية وتنسم بالطرافة ، بسطها صمويل بتلر فى كتابه ، ميناها أن أهالى Erewon قد أدركوا قبل زيارة الكاتب ، أنهم قد أصبحوا أرقاء مخترعاتهم الآلية : فإن كيان الرجل الآلى ، قد أصبح ذاتية شبه بشرية على غرار الرجل القارب عند الاسكيمو والرجل الحصان لدى البدو . ولهذا عمدوا إلى فك ما كيناتهم ، وثبتوا مجتمعهم عند المستوى الذى بلغه قبل العصر الصناعى .

حاشية — البحار والسهب كأداتى نقل لغوى

لاحظنا فى مستهل بياننا عن البداوة ، أن السهب كالبحر لا « يحصد » . وهو وإن كان لا يتيح مكانا تخلد فيه البشرية المقيمة ؛ إلا أنه يهيئ تيسيرات للسفر والانتقال ، أعظم مما تهيئ الأراضى المنزوعة . وتصور هذه المشابهة بين البحر والسهب دورهما كأداتى نقل لغوى . فإنه من المعروف جيداً أن شعبا يجوب البحار ، قدبر على نشر لغته الخاصة على طول شواطئ أى بحر أو محيط يتخذها داراً له .

فالبحارة اليونانيون القدماء هم الذين ألقوا باللغة اليونانية إلى التداول حول البحر الأبيض المتوسط بأسره . وإلى جراحة رجال البحر الملاويين ، يرد شيوع مجموعة اللغات الملاوية ؛ حتى مدغشقر من جانب ، وجزائر الفلبين من الجانب الآخر . وما تزال اللغة البولينية^(١) تستخدم في الحديث في المحيط الهادى ، وتمتاز بتجانسها الغير العادى من فيجى إلى جزيرة ايستر ، ومن نيوزيلند إلى هاواى ؛ رغما عن انقضاء عدة أجيال منذ انقطاع القوارب البولينية عن عبور المسافات الشاسعة التى تفصل تلك الجزر بعضها عن البعض الآخر . كذلك يرد صيرورة اللغة الإنجليزية لغة عالمية ، إلى سيطرة بريطانيا على البحار .

ويشهد التوزيع الجغرافى لأربع لغات أو مجموعة من اللغات ما تزال حية : البربرية والعربية والتركية والأندو أوربية ؛ بانتشار اللغات حول شواطئ السهب المزرعة ، بفضل حركة البدو وهم ملاحو السهب ؛ انتشار مماثل الانتشار للغوى حول شواطئ البحار .

ويتحدث باللغات البربرية فى الوقت الحاضر بدو الصحراء ، وكذلك الشعوب الصحراوية المقيمة على شواطئ الصحراء الشمالية والجنوبية ؛ وطبعى أن يفترض أن الفروع الشمالية والجنوبية لهذه العائلة من اللغات ، قد انتشرت فى مناطقها الحالية بفضل المتحدثين بالبربرية الذين عبروا الصحراء فى أزمان سابقة إلى المناطق المزرعة على كلا الاتجاهين .

ويتحدث بالعربية بنفس الطريقة فى الوقت الحاضر ، لاعلى الشواطئ الشمالية للسهب العربى فى سوريا والعراق فحسب ، ولكن على شواطئه الجنوبية فى حضرموت واليمن وعلى شواطئه الغربية فى وادى النيل . ولقد حملت اللغة العربية إلى أبعد من ذلك غرباً من وادى النيل إلى منطقة البربر

(١) أى لغة البربر سكان شمال إفريقيا الأصليون . (المترجم)

حيث يتحدث بها الآن بعيداً في الفيا في حتى ساحل شمال إفريقيا الأطلسي والشاطي* الشمالي لبحيرة تشاد .

وانتشرت اللغة التركية في سواحل مختلفة من السهب الأوراسي . ويتحدث بها الآن بلهجة أو بأخرى في أرجاء كتلة ثابتة من أراضي آسيا الوسطى تمتد من ساحل بحر قزوين الشرقي إلى لوب نو Lob Nor ، ومن المنحدر الشمالي للهبضة الإيرانية إلى الوجه الغربي لجبال آلتاي .

ويقدم هذا التوزيع لعائلة اللغات التركية ، مفتاح التوزيع الحالي للعائلة الأندو أوربية (كما يدل اسمها) ، أصبحت الآن تنقسم انقساماً شاذاً إلى جماعتين جغرافيتين منعزلتين تقيم الآن إحداها في أوروبا والأخرى في إيران والهند . وتبدي الخارطة اللغوية الأندو أوربية واضحة المعالم ، إن افترضنا أن لغات هذه العائلة ، قد نشرها البدو إبان سكنهم السهب الأوراسي ، أي قبل أن يتخذوا لهم مقاماً ثابتاً .

ولأوروبا وإيران كليهما « شواطي* » على السهب الأوراسي . وهذا المحيط اللامائي ، هو الوسيط الطبيعي للاتصال بينهما : ويتمثل الاختلاف الوحيد بين هذه الحالة والحالات الثلاث التي سبق ذكرها آنفاً ، أن الجماعة اللغوية في هذه الحالة ، قد فقدت سيطرتها على منطقة السهب التي تعترضها والتي انتشرت عبرها وقتاً ما .

الفصل العاشر

طبيعة ارتقاء الحضارات

(١) تتبع أثرين مشككين

انتهى بنا البحث إلى نتيجة مبناها أن أشد التحديات استثارة ، ما هو في درجة متوسطة بين إفراط في الشدة ونقصان فيها :

لأن قصور التحدى قد يعجز تماماً عن استثارة الطرف المتحدى : وعلى العكس يحطم إفراط التحدى روح الطرف المتحدى . ولكن ما القول في التحدى الذى فى مكنته أن يتكافأ تماماً مع الطرف المتحدى ؟

توحى النظرة القصيرة بأن ذلك التحدى هو أجلّ التحديات استثارة إلى أبعد حد يمكن تصوره . ويؤيد ذلك ما لاحظناه فى الحالات المميزة للبولونيزين والاسكيمو والبدو والعثمانيين والإسبرطيين . إذ انبعثت عن تلك التحديات أعمال فذة . بيد أنه يناهض هذا القول ؛ ما لمسناه فى الفصل التالى عن خضوع هذه الأعمال الفذة لنقمة قتالة تمثل فى تعطل تطورها :

وبالأحرى تدفعنا وجهة النظر الطويلة الأمد إلى التصريح بأن تلبية الاستجابة فى أسرع صورة ، لا ينهض بصفة عامة دليلاً قاطعاً على مثالية التحدى من ناحية استثارته فى النهاية أقوم استجابة .

لأن التحدى الأمثل ، ليس هو ذلك التحدى الذى يقتصر على استثارة الطرف المتحدى لينجز استجابة ناجحة بمفردها . ولكن ذلك التحدى الأمثل ، هو ما يشتمل على كمية الحركة التى تحمل الطرف المتحدى خطوة أبعد من استجابة ناجحة بمفردها ؛ تحمله من مرحلة

استكمال الاستجابة إلى مرحلة صراع جديد ؛ من مشكلة واحدة حلت ، إلى مواجهة أخرى . أى من حالة البين إلى حالة اليانج كرة أخرى .

فإذا كان يقدّر لارتقاء الحضارات أن تتبع عملية تكوينها ، فلن تكفل ذلك وحدها الحركة المتناهية ؛ من الاضطراب إلى استعادة التوازن . لأنه لكي تتحول الحركة إلى إيقاع متكرر متواتر ، لابد من توافر انطلاق حيوى^(١) : الذى يحمل الطرف المتحدى عبر عملية التوازن إلى مرحلة زيادة فى رجحان الميزان ، تعرضه (أى الطرف المتحدى) إلى تحد جديد يلهمه استجابة غفصة ، على صورة مزيد من التوازن ينتهى بمزيد من رجحان الميزان .

وهكذا دواليك فى عملية ارتقاء ، يحتمل أن تظل إلى ما لانهاية .

وهذا الانطلاق الذى يترتب عن سلسلة من عمليات رجحان الميزان ، يمكن تقصّيه فى سير الحضارة الهلينية ، من بدء تكوينها إلى أن بلغت ذروة ارتقائها فى القرن الخامس قبل الميلاد .

تمثّل التحدى الأول الذى جابه الحضارة الهلينية ، فى تحدى الاضطراب والحنة الناتجين عن انهيار القيم الاجتماعية الذى ترتب بدوره عن تحلل المجتمع المينوى وهو سلف المجتمع الهلنى . تحلل من مظاهره هجرة المينويين ، وجنوح الآخيين والدوريين إلى البر .

فهل قُيِّضَ لحضارة قديمة أن تدفن بقاياها تحت الحصباء التى أنزلها سيل البرابرة الطارىء نزول الهاطل ؟ وهل قدّر للأجزاء الفضة من الأرض السهلة فى المنظر الطبيعى الآخى ، أن تخضع للفلاة الوعرة التى تظنّ خولها ؟ هل يغدو زراع السهول المسالمون تحت رحمة رعاة الجبال وقطاع طرقها ؟ لقد جُوبه هذا التحدى بنجاح ؛ عندما استحات هيلاس إلى عالم

(١) Elan Vital (باستمال اصطلاح برجسون) . (المؤلف)

من المدن لا من القرى . عالم يستند على الزراعة لا على الرعى ، عالم يسوده النظام لا القوضى .

بيد أن توفيق الحضارة الهلينية في الاستجابة للتحدي الأول قد عرضها إلى تحد ثان . فإن انتصار النظام الزراعى فى السهول سلمياً ، قد عمل على ازدياد كثافة السكان ؛ زيادة لم تتوقف عند ما بلغت الحد الأقصى لطاقة الزراعة على استيعابها ، وإعالة الوطن الهلنى بالتالى . فكان أن تولد عن نجاح الاستجابة للتحدي الأول ، تحد ثان يتفق مع آراء مالتس . وأمكنست الاستجابة لهذا التحدى بدرجة لا تقل عن الاستجابة للتحدي الأول .

واتخذت الاستجابة الهلينية لتحدي إفراط زيادة السكان ، لكل سلسلة من التجارب المتعاقبة . وطبقت فى بدء الأمر وسيلة تتسم باليسر والوضوح . وظلت تداوم على تطبيقها إلى أن أخذ يسرى عليها قانون الغلة المتناقصة . فدفعها ذلك إلى اعتناق وسيلة أخرى أشد صعوبة وأقل وضوحاً ، طبقتها مكان الوسيلة الأولى . وظلت تطبقها ، إلى أن اهتدى أخيراً إلى حل لمشكلة إفراط زيادة السكان .

تستند الطريقة الأولى على استخدام الأساليب الفنية والنظم التى ابتكرها سكان سهول هيلاس ، فى سياق فرضهم إرادتهم على جيرانهم سكان الجبال فى نطاق بلادهم ؛ كتوطئة لإلحاق مناطق جديدة بالهلينية خارج بلادها الأصلية . إذ أنشأ الرواد الهلينيون بفضل استخدامهم العدة الحربية ممثلة فى الفيلق المدرع^(١) ، والأداة السياسية وقوامها المدينة ؛ موطناً فسيح الأرجاء على الأسلوب اليونانى فى حرف الحذاء الإيطالى على حساب برابرة إيطالية والتشون Chônes . وأقاموا بيلوبونيز جديدة فى صقلية على حساب البرابرة السيكلين ،

(١) فيلق الجنود المدرعين وكان اليونانيون يستخدمونه فى حروبهم . ويختلف عدد جنود الفيلق باختلاف المدن اليونانية التى استخدمته . (المترجم)

وشيدوا بينتابوليس هلينية فى برقة على حساب البرابرة الليبيين ، وابتنوا تشاليس جديدة على الشاطىء الشمالى لبحر إيجيه على حساب برابرة تراقية .

بيد أن نجاح الاستجابة نفسه قد أبرز للمتصرين مرة أخرى تحدياً جديداً .

فإن ما حققوه هو فى حد ذاته تحدى لشعوب البحر الأبيض المتوسط غير الهلينية ، استثارهم بدورهم لصدد توسع هيلاس ووقفه عند حده . تارة بمقاومة الاعتداء الهليني باستخدام فنون وأسلحة هلينية مستعارة ، وطوراً بتنسيق قواتهم الخاصة على نطاق أعظم مما يستطيع الهلينيون أنفسهم القيام به . ومن ثم أوقف خلال القرن السادس قبل الميلاد ، التوسع الهليني عند حده ، توسع كان قد بدأ فى القرن الثامن قبل الميلاد .

وعملت أثينا - التى غدت مدرسة هيلاس - إبان هذه الأزمة الطارئة على التاريخ الهليني ؛ على تحقيق الكشف المرتجى ، مستخدمة الدراسة ثم التعليم ؛ لتحويل توسع المجتمع الهليني من عملية منبسطة إلى عملية ضيقة الرقعة . وما يزال علينا أن نذكر فى موضع تال من هذا الفصل مغزى هذا التحويل . على أنه قد سبق وصف هذه الاستجابة الأثينية ، ولا يقتضى المقام إعادة وصفها مرة أخرى .

ولقد أدرك والـت هويتان Walt Whitman . هذه الاستطالة الإيقاعية ، وقما كتب عبارته « مشروط فى جوهر الأشياء ، أن يبرز من بين ثنايا أى استمتاع بالنجاح - أياً ما يكون - شيء يجعل المزيد من الصراع أمراً ضرورياً » .

وكتب وليم موريس معاصره الفيكتورى فى أسلوب أشد تشاؤماً « إننى أتأمل . . . كيف يقاتل الرجال ويخسرون الموقعة ، ورغماً عن هزيمتهم يحدث الشيء الذى قاتلوا من أجله ، وعندما يحدث ، يظهر أنه ليس بالشيء الذى قصدوه ، ويصبح على رجال آخرين أن يقاتلوا فى سبيل ما سعوا إليه تحت اسم آخر .

ولعل ارتقاء الحضارات يستبان من خلال « وثبة » تحملها من تحدى إلى تحد آخر مارة باستجابة . ولهذا الارتقاء مظاهره المختلفة الظاهرة والباطنة . ففي الكون الأكبر^(١) ؛ يتبدى الارتقاء على هيئة تفوق متتابع على البيئة الخارجية . أما في حالة الكون الأصغر^(٢) ، يتبدى الارتقاء على هيئة تقرير المصير أو ترابط ذاتي . وإن في حوزتنا بالنسبة لأى من هذين المظهرين قانون متاح ، لارتقاء الوثبة نفسها .

فلنفحص كل من المظهرين في دوره من خلال وجهة النظر هذه :
إذا تأملنا في بدء الأمر ، الانتصار المتوالى على البيئة الخارجية ؛ سنجد مناسبة تقسيم البيئة الخارجية إلى :
أولا : بيئة بشرية ، تضم المجتمعات البشرية الأخرى التي تجد نفسها على اتصال بها .

ثانياً : بيئة مادية ، وتؤلفها طبيعة غير بشرية .
وطبيعى أن يتبدى أصلاً فوز البيئة البشرية المتتابع على صورة امتداد جغرافى للمجتمع موضع البحث . على حين يتبدى فوز البيئة الغير البشرية (المادية) المتتابع على صورة تحسينات فى الأسلوب الفنى .
فلنبداً أولاً بالحالة الأولى ، أى الامتداد الجغرافى ، ولنشاهد إلى أى مدى يستحق اعتباره قاعدة مناسبة لارتقاء الحضارة ارتقاء حقيقياً .

ولعل قراءنا لن يأخذوا علينا توكيدنا — بدون صعوبة تذكر ومن غير إجهاد أنفسنا فى تصنيف شئ من البراهين الوفيرة المقنعة — أن التوسع الجغرافى أو « صيغ الخارطة باللون الأحمر »^(٣) ؛ لا يقيم بأية حال من الأحوال قاعدة لارتقاء الحضارات ارتقاءً حقيقياً . فإننا ننبين فى بعض

Macrocosm (١).

(٢) أى الإنسان Microcosm

(٣) يقصد المؤلف توسع الإمبراطورية البريطانية . (المترجم)

الأحيان اتفاق توسع جغرافى من جهة التاريخ مع الارتقاء النوعى ، وهو مظهر جزئى لفترة التوسع ليس إلا . وهذا هو حال التوسع الذى ذكر فى موضع آخر .

إلا أنه غالباً ما يصحب التوسع الجغرافى ، انحدار المجتمع بشكل فعلى . ويتفق ذلك مع حدوث « عصر اضطرابات » أو قيام دولة عالمية ؛ وكلاهما يعتبران مرحلتى انحلال وتفكك . وليس السبب بعيداً عن الاهتداء إليه . إذ تبرز عصور الاضطرابات ، النزعة الحربية التى تعنى انحراف الروح البشرية إلى مسالك التدمير المتبادل . والقاعدة أن يغدو أعظم الحربين نجاحاً ، مؤسس دولة عالمية . ومن ثم يحىء التوسع الجغرافى ، نتيجة للنزعة الحربية . ويتم ذلك إبان الفترات التى يصدف فيها الرجال الأشداء بالاسلون عن الصراع مع منافسيهم فى مجتمعاتهم نفس ، وينصرفون إلى شن الهجمات على المجتمعات المجاورة .

وما برحت النزعة الحربية — كما سيظهر لنا فى موضع تال من هذه الدراسة — هى أكثر عوامل انحطاط الحضارات شيوعاً فى غضون الأربعة أو الخمسة آلاف سنة التى شهدت تحلل عشرين حضارة أو ما يقاربها ، مما أمكن تسجيله إلى وقتنا الحاضر . وتقود النزعة الحربية إلى تدمير الحضارة ، لدفعها الدول المحلية التى ترابط فى نطاق المجتمع ، إلى الاصطدام بعضها ببعض فى منازعات مدمرة يقتل الأخ فيها أخاه .

عندئذ يستحيل النظام الاجتماعى بأسره فى هذه العملية الانتحارية وقوداً لتغذية اللهب المفترس فى جوف مولوخ النحاسى^(١) . ويتهىأ لفن الحرب بمفرده أن يتقدم على حساب فنون السلم المتنوعة . ولقد يكتسب مريدو تلك الطقوس المميتة خبرة فى استعمال أدوات الذبح ، قبل أن تأتى عليهم خيماً . فإن تصادف توقعهم عن ممارسة ملهاتهم فى تدمير بعضهم بعضاً ، فإنهم يوجهون

(١) مولوخ Moloch ، صنم كان يعبد الفينيقيون وتقدم له القرابين البشرية .

(المترجم)

أسلحتهم خلال فترة من السنة ، إلى صدور الغرباء . هنا يصبحون أكفاء لسوق كل شيء أمامهم .

وفي الواقع ، لعل دراسة للتاريخ الهليني ، توحى بخاتمة تناقض تماماً الخاتمة التي صدفنا عنها . فلقد لاحظنا قبل الآن أن المجتمع الهليني قد واجه في إحدى مراحل تاريخه ، تحدى إفراط السكان بالجوع إلى التوسع الجغرافي ؛ إلا أن الدول الغير الهلينية المحيطة بالمجتمع الهليني قد أوقفت هذا التوسع بعد انقضاء قرنين تقريباً (حوالى ٧٥٠ - ٥٥٠ ق . م) من الشروع فيه . وبالأحرى تحول المجتمع الهليني إلى حالة دفاع تتجلى في مهاجمة الفرس موطنه الشرق ، ومهاجمة القرطاجنيين أراضيهم الغربية التي سبق له الاستيلاء عليها . وكانت هيلاس خلال هذه الفترة - كما شاهدها توكيديديس^(١) Thicydides ، مكتوبة من جميع النواحي عبر فترة طويلة من الزمن ، وكما شاهدها هيرودوتس كذلك ، تسودها اضطرابات أشد مما لقيته خلال الأجيال العشرين الماضية^(٢) .

ويجد القارئ الحديث صعوبة في إدراك مغزى العبارات الكثيرة التي وصف بها المؤرخان اليونانيان الكيران عصرهما بدا في أعين أخلافهما أوج الحضارة الهلينية ؛ العصر الذي استكملت فيه العبقورية الهلينية تلك الأعمال الابتداعية في كل ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية التي خلّدت الهلينية . ولقد كان الدافع لهرودوتس وتوكيديديس إلى ما ذكره عن هذا العصر الخلاقي ؛ أنه عكس سابقه ، كان عصر انكماش لحركة التوسع الجغرافي . بيد أنه لا يوجد سبب للخلاف في أن وثبة الحضارة الهلينية في طريق الارتقاء خلال هذا القرن ، كانت أعظم مدى منها في أى وقت سابق أو لاحق .

(١) سياسى أثينى قاد الحزب الأرستقراطى في معارضة حكم بركليس . ولقد فنى عام ٤٤٤ ق . م . (المترجم)

(٢) Thucydides, Bk. I, ch. 17 : Herodotus, Bk. VI, Ch. 98 .

ولو كان قد قيّض لهذين المؤرخين عمر أطول من عمر البشر ، ليتاح لهما الاطلاع على النتيجة التي تمخضت عنها الحرب الأثينية البلوونيزية ؛ لتولاهما العجب إذ يلاحظان أن الانحلال الذي اتسمت به تلك الحرب ، قد تلتته سورة جديدة من التوسع الجغرافي ، تمثلت في فتوحات الإسكندر التي جاوزت في مداها المادى توسع هيلاس البحرى في عصرها المبكر . وفعلا اتسع نطاق الهلينية في آسيا وفي وادى النيل في غضون القرنين اللذين تليا عبور الاسكندر الدردنيل ، على حساب جميع الحضارات الأخرى التي اصطدمت بها . السورية والمصرية والبابلية والسندية . وواصلت توسعها بعد ذلك قرابة قرنين في مواطن البرابرة في أوربا وشمال إفريقيا في ظل الرعاية الرومانية . وأيا ما تكون الحال ؛ فلقد اتسم هذا العصر ، بانحدار الحضارة الهلينية خلاله في طريق الانحلال بشكل محسوس .

وغالبا ما ينيح تاريخ كل حضارة أمثلة من التوسع الجغرافي المصحوب بتدهور في النوع . وسنختار مثالين فقط .

الأول : ينصل بالحضارة المينوية . فلقد بلغت الثقافة المينوية أوسع مداها الإشعاعى خلال المرحلة التي اصطاح علماء الآثار على تسميتها بالعصر المينوى المتأخر الثالث . ولم تبدأ هذه المرحلة إلا بعد تخريب كنوسوس^(١) حوالى عام ١٩٢٥ ق . م . وبالأحرى ؛ فلإنهم تكن قد بدأت بعد حدوث النكبة التي أطاحت بالدولة المينوية العالمية (التي تتمثل في تفوق مينوس البحرى) . وتركت مكانها للفراغ الذى استصغى فيه المجتمع المينوى . ولقد سكت دمعة الانحلال الرسمية على جميع منتجات الثقافة

(١) مدينة كريتية قديمة ، ويقسب بناؤها إلى مينوس ملك كريت . وكانت المدينة مركز حضارة كريت التي يطلق عليها المؤلف اسم الحضارة المينوية نسبة إلى ذلك الملك . (المترجم)

المينوية المادية التي تنحدر من هذه المرحلة الثالثة للعصر المينوى المتأخر ؛
مصدقا لما يتضح من أن هذه المنتجات قد برزت المنتجات المينوية الأخرى
في انتشارها الجغرافى .

وغالباً ما يبدو كما لو أن الانحطاط الصناعى هو الثمن الذى اقتضاه التوسع
الجغرافى فى الإنتاج .

الثانى : يتصل بالحضارة الصينية — نجد المشابهة مرة واضحة فى تاريخ
المجتمع الصينى ، وهو سلف مجتمع الشرق الأقصى الحالى . إذ لم تعد منطقة
الحضارة الصينية خلال عصر الارتقاء ، أبعد من حوض النهر الأصفر :
ولم يحدث أن اندمج فى العالم الصينى : حوض اليانجسى صوب الجنوب ،
والسهول وراء نهر البهو ، صوب الناحية الأخرى ، إلا فى عصر الاضطرابات
الصينى الذى اصططح الصينيون على تسميته بـ « فترة الدول المتنازعة » .
ففى خلاله وسع « تسين شى هوانج Ts'in she Huang مؤسس الدولة
العالمية الصينية ، حدوده السياسية إلى الخط الذى ما يزال متاحفاً للحائط
العظيم . كما اندفعت أسرة « هان » — التى دخلت فى نطاق عمال الإمبراطور
تسين — أبعد من ذلك تجاه الجنوب .

وبالأحرى ، عاصرت فترات التوسع الجغرافى والتحلل الاجتماعى فى
التاريخ الصينى ، بعضها بعضاً .

وإذا ما ولينا وجهنا أخيراً شطر تاريخ حضارتنا الغربية الغير المكتمل ،
وتأملنا فى نواحى توسعها على حساب حضارة الغرب الأقصى والحضارة
السكندنافية العقيمتين ؛ وامتدادها من الراين إلى الفيستولا^(١) على حساب
البربرية الأوربية الشمالية ، ومن جبال الألب حتى جبال الكربات على حساب
مقدمة البداءة الأوراسية المجرية ؛ وإذا تمعنا كذلك فى توسع حضارتنا
البحرى التالى فى كل ركن من أركان حوض البحر الأبيض المتوسط من

(١) نهر فى بولندا . (المترجم)

مضيق جبل طارق حتى مصبى نهرى النيل والدون ، فى أعقاب حركة الغزو والتجارة الواسعة النطاق ولكن السريعة الزوال التى تعتبر كلمة « صليبية » أوفق عنوان مختصر لتلك الحركة ؛ لو فعلنا ذلك ، لاتضح لنا أن مظاهر التوسع الغربى هذه - مثل توسع هيلاس البحرى المبكر - هى جميعها أمثلة للامتداد الجغرافى الذى لم يصحبه كما لم يتبعه أى تعطل بصورة حقيقية فى نماء الارتقاء الحضارى .

يبد أنه عندما نستعرض هذه المرة ، التوسع فى القرون الأخيرة ، على نطاق عالمى ؛ لا يسعنا إلا التوقف وإبداء العجب . فإن السؤال الذى يعنينا هنا عناية خاصة ، سؤال يعجز أى إنسان فطن أن يجد له جواباً شافياً .

وسنتقل الآن إلى التقسيم التالى لموضوعنا ، ونأمل فيما إذا كان إخضاع البيئة المادية بالتدرج - بفضل التحسينات الطارئة على الأساليب التكنولوجية - سيزودنا بقاعدة مناسبة للارتقاء الحضارى الحقيقى . فهل ثمة قرينة على وجود ترابط أكيد بين التحسينات فى الأساليب التكنولوجية وبين التقدم فى الارتقاء الاجتماعى ؟

يسلم علماء الآثار المحدثون جدلاً بوجود هذا الترابط . ويدللون على ذلك ، بالتصنيف الذى ابتكروه . ومداره افتراض سلسلة من المراحل فى تقدم التكنولوجيا المادية ، وتعتبر دلالة على تعاقب مناظر فصول ارتقاء الحضارة . ويمثل الارتقاء البشرى فى هذا المنهاج الفكرى ، بسلسلة من « العصور » تتميز بطابع تكنولوجيتها الخاصة : العصر الحجري القديم ، العصر الحجري الحديث ، عصر النحاس ، عصر البرونز ، عصر الحديد . ويمكن أن يضاف إلى تلك العصور ، عصر الآلة الذى نتميز نحن بالعيش فيه (١) .

وعلى الرغم من ذبوع صيت هذا التبويب ، ما يزال يستحسن دراسة

ادعائه تمثيل مراحل ارتقاء الحضارة ، بروح النقد . ففي استطاعتنا أن ندل - من غير إضرار بالفحص التجريبي - على بضعة بواعث تدفعنا إلى الشك في طريقة التبويب هذه من أساسها .

إذ تثير هذه الطريقة في المحل الأول ، ارتيابا مبعثه شيوعها ذاته ؛ لأنها تتفق مع تصورات مجتمع غدت تفتنه انتصاراته التكنولوجية الحديثة . كما أنها مثل واضح لاتجاه الدارس ليصبح عبدا لمواد معينة للدراسة ألقت بها الصدفة بين يديه . فإنه من قبيل الصدفة المحضة - من وجهة النظر العلمية - أن تظل أدوات إنسان ما قبل التاريخ التي صنعها لنفسه باقية ؛ في حين فنيت أجهزته الروحية ، أى نظمه وتقاليده .

وفي الواقع يؤدى الجهاز العقلى في حياة البشر دورا أوسع نطاق مما يؤديه أى جهاز مادى ، طالما يظل استخدامه قائما في الوجود . بيد أنه لما كان الإنسان لا يختلف وراءه سوى جهازه المادى ، أى نفايته الظاهرة ، ولا يترك وراءه جهازه الروحى ؛ لا يسع عالم الآثار إلا معالجة البقايا البشرية ليستخلص منها معارفه عن التاريخ البشرى . وبالأحرى ؛ ينزع تفكير عالم الآثار ، إلى تصوير الإنسان المفكر في دور ثانوى ليس إلا ، بالمقارنة بدور الإنسان العامل . فإذا عطينا بهذا الدليل وحده ، تبينت لنا حقيقة مبناها ؛ أنه بينما تظل الحضارة في حالة سكون ، أو تجدّد في طريق الانحلال ؛ ترتقى الأساليب التكنولوجية المادية أثناء ذلك الانحلال . كما تطالعنا كذلك حالات عكسية يظل فيها الأسلوب التكنولوجى المادى في حالة سكون ؛ بينما تتحرك الحضارات ، سواء في طريق التقدم أو التأخر ، وفقا لمقتضى الحال .

ومن قبيل المثل : تطور الأسلوب التكنولوجى المادى في الحضارات المعطلة إلى مستوى عال : فإن البولونيزيين قد تفوقوا ملاحين ، والاسكيمو صيادى سمك ، والأسبارطيون جنوداً ، والبلو مروضى خيول ، والعثمانيون مروضى رجال . هذه جميعها حالات ظلت فيها الحضارات في حالة سكون بينما ارتفع خلالها الأسلوب التكنولوجى المادى :

ويقدم التباين بين العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا ، والعصر الحجري الحديث الأدنى ؛ مثالا لارتفاع الأسلوب التكنولوجي المادي لبان انحدار الحضارة . ويعتبر هذا التباين ، الخلف المباشر لسلسلة الأساليب التكنولوجية المادية المتعاقبة . ولقد ظل مجتمع العصر الحجري القديم الأعلى قانعاً بأدوات صنعت صناعة ساذجة ، لكنه أنتج أدوات تحمل طابع الجمال ؛ ولم يتوان عن كشف طائفة من الوسائل البسيطة أضفت على هذا الطابع تعبيراً تصويرياً . وإن الرسوم الماهرة بالقلم الفحم ، لتنبض بالحياة ، وما تزال باقية على حيطان الكهوف السكنية لإنسان العصر الحجري القديم . ولم يأل مجتمع العصر الحجري الحديث الأدنى جهداً في تزويد نفسه بأدوات دقيقة ، ويحتمل أنه استفاد من هذه الأدوات خلال صراعه في سبيل البقاء ضد إنسان العصر الحجري القديم حيث تضعضع الإنسان الرسام تاركاً الإنسان الصانع سيد الميدان .

وصفوة القول ؛ يعتبر التغير الذي كان فاتحة تقدم مذهل في الأساليب التكنولوجية ، ردّة لمقاييس الحضارة . إذ قد مات فن إنسان العصر الحجري الأعلى بانقضاء هذا الإنسان .

والحال كذلك بالنسبة للحضارة المايانية . فإن ارتفاعها التكنولوجي ، كان منعماً تماماً ؛ إذ لم يجاوز ارتفاعها التكنولوجي أبعد من العصر الحجري . على حين سارت الحضارتان المتفرعتان عنها : المكسيكية واليوكاتية ؛ شوطاً ملحوظاً بالنسبة لتشغيل المعادن المختلفة في غضون الخمسمائة سنة التي سبقت الغزو الأسباني . بيد أنه لا يشك في أن المجتمع الماياني قد أنجز حضارة أرفع مما أنجزه المجتمعان اللذان ينتسبان إليه ، واللذان هما دونه حضارة بكثير .

ولقد قدّم بروكوبيس القيصرى Procopius Calsarea^(١) - آخر

(١) نسبة إلى مدينة قيصرية . (المترجم)

المؤرخين اليونانيين الكبار - لتاريخه عن حروب الإمبراطور جوستينيان^(١) ، بزعم يقوم على أن موضوعه أعظم من أى موضوع سبق لأى من أسلافه المؤرخين معالجته ، لا لسبب إلا لأن أسلوب معاصره التكنولوجى الحربى^(٢) أسمى مما سبق استخدامه فى الحروب الماضيات . وفى الواقع ، إن جاز لنا عزل تاريخ الفن الحربى عن جزائل التاريخ الهلبنى الأخرى ، لاستبان لنا تقدم متصل من أول التاريخ الهلبنى إلى آخره ؛ سواء خلال فترة ارتقاء هذه الحضارة أو إبان انحدارها . بيد أنه ينكشف لنا كذلك أن كل خطوة فى طريق ارتقاء الأسلوب التكنولوجى الحربى ؛ قد استنارتها أحداث تعمل على تدمير الحضارة .

ونجد مصداقاً لهذا الرأى ؛ أن اختراع الفيلق الإسبرطى - وهو أول بادرة معروفة عن تطور الفن الحربى الهلبنى - كان نتيجة للحرب الإسبرطية الميسينية الثانية التى أوقفت الحضارة الهلينية فى إسبرطة عند وقفة فجعة . وتمثلت علامة الارتقاء التالية ، فى تفارق نظام المشاة الهلبنى إلى طرازين متباينتين إلى أقصى حد : الفيلق المقدونى والمدرعين الأثينيين . فكان الفيلق المقدونى المسلح كل رجل من رجاله بحراب ذوات مقبضين طويلين ، عوضاً عن رماح الطعن ذوات المقبض الواحد القصير ؛ أفضع فى نتائج الهجومية هولا ، من سلفه الإسبرطى . لكنه كان من الناحية الأخرى ، أثقل حملاً وأشد قابلية للتصدع إن حدث أن اضطرب تشكيله ؛ وكان يعجز عن الاشتراك فى القتال ، إلا إن أصبح جناحاه فى حراسة المدرعين ، وهى طراز جديد من المشاة الخفيفة كان تنزع من بين الصفوف ويدرب أفرادها على أعمال المناوشة .

وكان التطور الثانى حصيلة قرن من حرب الفناء ؛ امتد من

(١) الحروب التى كانت نذير شوم بانقضاء أجل المجتمع الهلبنى . (المؤلف)

(٢) الإمبراطور جوستينيان . (المترجم)

نشوب الحرب الأثينية البلوبونيزية ، إلى الانتصار المقدوني على طيبة وأثينا في موقعة تشايرونيا Chaeronea (٤٣١ - ٣٣٨ ق . م) . ولقد شاهدت هذه الموقعة ، الطور الأول لانحلال الحضارة الهلينية .

أما عن الرومانيين ؛ فقد أنجزوا علامة التحسن التالية . وقبما وفقوا في مزج مزايا طريقة المشاة المدربين وطريقة الفيلق ، في خطط الكتائب الرومانية وتسليحها ، مع تجنب عيوب الطريقتين . وكانت الكتائب تسلح بزوج من حراب الرماية مزودة بسيف للطعان . وكانت تنزل إلى معمعان الحرب في نظام مكشوف على موجتين ، مع وجود ثالثة في الاحتياطي مسلحة ومنظمة على نسق نظام الفيلق القديم . وكان هذا التطور حصيلة دورة حرية مدمرة بدأت منذ نشوب حرب هانيبال (عام ٢٢٠ ق . م) وانتهت وقتما وضعت الحرب الرومانية المقدونية الثالثة أوزارها عام ١٦٨ ق . م . وكان مدار التطور الثالث والأخير ، استكمال نظام الفيلق ؛ وهي عملية بدأها ماريوس وأكملها قيصر ، وكانت حصيلة قرن من الثورات الرومانية والحروب الأهلية التي اختتمت بقيام الإمبراطورية الرومانية ؛ باعتبارها الدولة العالمية الهلينية . ولا تعتبر حراشف جوستينيان مرحلة تالية في السلسلة الأصلية ، ارتقاء الأسلوب التكنولوجي الحربي الهليني . إذ قد طبقت هذه الحراشف من قبل الأجيال المنحلة الأخيرة في المجتمع الهليني اقتباسا عن الأداة الحربية لمعاصريهم وجيرانهم الإيرانيين الذين أطلعوا روما على بسالتهم لما هزموا كراسوس في موقعة كارهاى Carahae عام ٥٥ ق . م .

وليس فن الحرب بالمثل هو الأسلوب التكنولوجي الوحيد القادر على كفالة ارتقاؤه ، بنسبة هي عكس نسبة ارتقاء الجهاز الاجتماعي بصفة عامة . فإن ثمة أسلوباً هو أبعد الأشياء من حيث طبيعته عن الفن الحربي ، ألا وهو الفن الزراعي - الذي يعتبر بأصله سيد فنون السلام - إذ يصاحب كل تقدم فيه ، انحدار في الحضارة . وهذا ما سيتضح لنا إن عدنا أدراجنا إلى التاريخ الهليني .

يبدو لنا للوهلة الأولى ، عدم اتفاق سير الأحداث مع القاعدة التي أوردناها . فإذا كان التطور الأول لأسلوب الحرب الهليني ، قد تطلب تعطل ارتقاء نفس الجماعة التي اخترعته ، إلا أن الأمر يختلف - في الظاهر - بالنسبة للزراعة التي أسفرت عن نتيجة أسعد حالا . فإن آتيكا عندما تزعمت - بفضل إرشاد صولون ، التحول من نظام الزراعة المشتركة إلى نظام التخصص الزراعي لغرض التصدير ؛ تلا هذا التقدم التكنولوجي ؛ تغلغل روح النشاط ، والارتقاء في كل مظهر من مظاهر حياة آتيكا . بيد أنه ما إن يطالعنا الفصل التالي من قصة هذا التقدم الزراعي ، حتى يتبين أنه قد اتخذوا جهة مختلفة وسيئة الطالع . فلقد تبلورت المرحلة التالية للتقدم التكنولوجي ، في ازدياد مقياس العمليات الذي ترتب بدوره عن تنظيم الإنتاج الوفير القائم على جهد الأرقاء . ويظهر أن هذه الخطوة قد اتبعت في الجماعات الهلينية المستعمرة في صقلية ؛ ولعلها طبقت لأول مرة في أجريجنوم Agrigentum . لأن يونانيي صقلية قد وجدوا سوقاً نافقة لنيذهم وزيتهم ، في محيط البرابرة المحاورين لهم .

هنا جبت التقدم التكنولوجي ، زلة اجتماعية خطيرة . إذ كان استخدام الأرقاء في الزراعة ، شراً اجتماعياً أخطر كثيراً من الاقتصار على استخدامهم في الخدمة المنزلية . إذ كانت الطريقة الحديدية ، أسوأ من الناحية المعنوية والإحصائية ، وكانت مهمة وجائرة ، وكانت على نطاق واسع ؛ وانتشرت في نهاية الأمر من الجماعات اليونانية في صقلية ، إلى المنطقة الواسعة في إيطاليا التي خربتها حرب هانيبال ، وخلقتها مهجورة . ولقد لوحظت زيادة إنتاج الأرض ، وتضاعف أرباح الرأسمالي في كل مكان تأصلت فيه هذه الطريقة . لكنها انحدرت بالأرض إلى الإحمال الاجتماعي . ذلك لأنه أينما انتشرت المزارع التي تقوم على الأرقاء ، أدت إلى إفقار الفلاح والمالك

وإقصائهما عن الأرض ؛ بنفس الأسلوب الذى تطرد به العملة الرديئة العملة الجيدة^(١) .

وترتبت على ذلك نتيجة اجتماعية مبناها إفقار الريف وخلق بروليناريا طفيلية حضرية فى المدن ، وبصفة خاصة فى روما نفسها . ولم توفق جهود أجيال المصلحين الرومانيين المتعاقبة ابتداء من جراكسى Gracchi^(٢) ومن تلاه ، فى تخليص العالم الرومانى من هذه الورطة الاجتماعية التى زجهم فيها تطور التكنولوجيا الزراعية فى نهاية ارتقاءها .

ولبث نظام الزراعة القائم على الرق قائماً ، حتى انهار تلقائياً نتيجة لتصدع الاقتصاد النقدى الذى يستند النظام عليه فى اجتناء أرباحه . وكان هذا التصدع المالى ، جانباً من الانقلاب الاجتماعى الذى حدث إبان القرن الثالث المسيحى . وكان هذا الانقلاب بلا ريب ؛ نتيجة من ناحية أخرى للعلة الزراعية التى كانت تفتت أنسجة الكيان الرومانى الاجتماعى طوال الأربعة قرون السابقة . وهكذا أفنى هذا السرطان الاجتماعى نفسه فى نهاية المطاف ، عن طريق قضائه على المجتمع الذى التصق به .

وثمة مثال آخر من نفس النوع شائع للغاية ؛ هو تطور الزراعة القائم على جهد الأرقاء فى الولايات التى تزرع قطناً فى الاتحاد الأمريكى ، نتيجة للتحسينات التكنولوجية لصناعة القطن فى إنجلترا . فإذا كانت الحرب الأهلية الأمريكية قد استأصلت السرطان فيما يتصل باستخدام الرقيق ؛ إلا أنها ما كانت لتنجح بأية حال من الأحوال فى القضاء على الشرور الاجتماعية التى ترتب على وجود جنس من الزنوج المحررين ، بين ظهرانى مجتمع أمريكى أوربى الأصل .

(١) منطوق قانون جريشام فى الاقتصاد السياسى . (المترجم)

(٢) الأخوان جراكسى امتازا فى التاريخ الرومانى بالإصلاحات الاقتصادية التى تهدف إلى رفع مستوى الجماهير . وفى مقدمة هذه الإصلاحات توزيع الأراضى الزراعية وخفض الضرائب . (المترجم)

ويبدو الافتقار إلى تناسق الارتباط بين التقدم التكنولوجية وارتقاء الحضارة ، واضح المعالم ؛ في جميع الحالات التي تقدمت فيها الأساليب التكنولوجية بينما ظلت الحضارات ثابتة أو كابدت التأخر. ويبدو نفس الشيء واضحاً في الحالات التي ندرسها فيما بعد ، وفيها لبثت الأساليب التكنولوجية ثابتة ، بينما أخذت الحضارات تتحرك إلى الأمام أو إلى الخلف .

مثال ذلك : أن الارتقاء البشري قد خطا خطوة هائلة في أوروبا ما بين العصر الحجري القديم الأدنى والعصر الحجري القديم الأعلى .

« صاحبت ثقافة العصر الأعلى ، نهاية الحقبة الجليدية الرابعة . ونجد مكان بقايا الإنسان النياندرتالي^(١) ، بقايا عدة أنواع لا يمتّ أحد منها إلى الإنسان النياندرتالي ، إذ تقرب جميعها تقريباً من الإنسان الحديث . ولقد يبدو لنا من النظر إلى البقايا الحفرية لهذه الحقبة في أوروبا ، أننا قد انتقلنا إلى العهد الحاضر (إلى المدى المتصل بالتكوين الجفائي البشري)^(٢) .

ويحتمل أن يكون هذا التحول في شكل النوع الإنساني في منتصف العصر الحجري القديم ؛ أعظم الأحداث أهمية التي وقعت في سياق التاريخ البشري حتى الآن . إذ استحال وقتئذ شبيه الإنسان إلى إنسان ، بينما الإنسان لا يزال منذ الفترة التي انقضت على تحوله من شبيه الإنسان إلى الإنسان ؛ يعجز عن إدراك مرتبة « فوق الإنسان » (Superman) . .

وتتيح لنا هذه المقارنة ؛ قياس التقدم الروحي الذي استُكمل وقما احتجب نوع الإنسان النياندرتالي^(٣) ، وانبعث نوع الإنسان العاقل^(٤) . بيد أنه لم تصاحب هذه الثورة الروحية الحسيمة ، ثورة مماثلة في الأسلوب التكنولوجي .

Neanderthal Man (١)

Carr-Saunders, A. M. : The Population Problem P. 6, 116-17 (٢)

Homo Neanderthalensis (٣)

Homo Sapiens (٤)

ومن ثم نجد - وفقاً لتصنيف التكنولوجيا - الفنانين الموهوبين الذين رسموا في دورهم في كهوف العصر الحجري القديم الأعلى - الصور التي ما تزال تعجب بها ، يختلط الأمر بالنسبة إليهم مع « الحلقة المفقودة »^(١) . على حين أن إنسان العصر الحجري القديم العلوي^(٢) ، هو - إن قيس بمقياس العقل والقائمة كليهما وبكل سمة تتميز بها البشرية - ينفصل عن إنسان العصر الحجري القديم السفلي^(٣) ، بهوة تبلغ حداً من الاتساع كذلك التي تفصلنا عن الإنسان الميكانيكي^(٤) .

وعلى نقيض هذه الحالة التي لبث فيها الأسلوب الفني ثابتاً إبان ارتقاء المجتمع ، نجد حالات ظلت فيها الأساليب الفنية ثابتة إبان انحدار المجتمع .

يطالعنا في هذا الشأن ، بقاء فن تشغيل الحديد^(٥) ثابتاً - لا يتقدم ولا يتأخر - خلال النكسة الاجتماعية الكبرى التالية ؛ وقمنا احتذت الحضارة الهلينية حذو سابقتها الحضارة المينوية الماهرة . ولقد ورث عالمنا الغربي بدون عائق تكنولوجية تشغيل الحديد عن العالم الروماني ؛ كما انحدرت إليه تكنولوجية الحروف الهجائية اللاتينية ، وتكنولوجيا الرياضيات اليونانية . لكنه حدث انهيار بالنسبة للناحية الاجتماعية : إذ تفتت الحضارة الهلينية ، فثلا ذلك فراغ ؛ انبثقت عنه في النهاية الحضارة الغربية . وإن لم يترتب عن ذلك من الناحية الأخرى ، الحد من تدفق هذه الأساليب التكنولوجية الثلاثة .

(١) أي الرابطة التي تربط الإنسان العاقل بالقرود وفقاً لنظرية داروين في أصل الأنواع .
(المترجم)

Homo Palaeolithicus Superior (٢)

Homo Palaeolithicus Inferior (٣)

Homo Mechanicus (٤)

(٥) جلب فن تشغيل الحديد أصلاً إلى العالم الآخى إبان نكسة اجتماعية كبرى وقمنا كان المجتمع الآخى أخذاً في التفكك .

(٢) الارتقاء صوب تقرير المصير

أخفق تاريخ التطور التكنولوجى كما فشل تاريخ التوسع الجغرافى ، فى تزويدنا بقاعدة تفسر ارتقاء الحضارات . لكنه قد أبان فى الواقع المبدأ الذى يحكم ارتقاء الأساليب التكنولوجية . وجماع وصف القاعدة التى تحكم هذا الارتقاء هى : « التبسيط المتتالى » .

مثال ذلك : أن المحرك البخارى الحسيم الحجم والمفرط فى الثقل مع ما يستلزم من قضبان حديدية ، قد حل محله محرك ذو الاحتراق الداخلى السهل المنال الذى يتيسر استخدامه على الطرق بسرعة قطار السكك الحديدية ، مع توافر حرية الحركة كالسائر على قدميه تقريبا . وحل اللاسلكى محل التلغراف السلكى . وحلت الحروف اللاتينية الأنيقة السهلة ، مكان حروف الكتابة المعقدة تعقيدا لا يعقل للمجتمعين المصرى والصينى .

وانعكست نزعة التبسيط على اللغة ذاتها فى نبذها الصرف واستخدام الكلمات المساعدة . وهذا ما توضحه مقارنة تواريخ لغات العائلة الأندو أوروبية . فإن السانسكريتية — وهى أقدم الأمثلة الحية لهذه العائلة — تضم ثروة مذهلة من الإعراب ، إلى جانب فقر عجيب فى الحروف . قارن ذلك بتوفيق اللغة الإنجليزية فى التخلص من أساليبها الإعرابية تقريبا وتعويضها نفسها عن ذلك من الناحية الأخرى بتطوير حروف الجر والأفعال المساعدة . وتحتل اللغة اليونانية القديمة وسطا بين هذين الطرفين .

كذلك تناولت نزعة التبسيط فى العالم الغربى ، الملابس . فتحول المرء من البذلة الهمجية المعقدة طراز عصر الملكة اليزابث الأولى ، إلى طراز الملابس السهل فى الوقت الحاضر .

بل إن علم الفلك لم يسلم من التبسيط . فإن النظام الكوبرنيقى^(١) الذى

(١) نسبة إلى كوبرنيقوس العالم الفلكى . (المترجم)

حل مكان النظام البطليموسى^(١) ، قد زوّد علم الفلك باصطلاحات هندسية. تمتاز إلى أبعد حد وأوسع مدى بالسهولة واليسر في تفسير حركات الأجرام السماوية .

وليس التبسيط بالاصطلاح الدقيق دقة تامة ، أو أنه على الأقل لا يفى وفاءً مطلقاً في وصف التغيرات السالفة الذكر . لأن التبسيط كلمة تحمل معنى سلبياً ، بما تشير به ضمناً من حذف وإزالة . في حين أن ما حدث في كل حالة لم ينصبّ على الإقلال ، ولكنه اتجه إلى زيادة الكفاية العملية ، أو اشتداد الغبطة المترتبة عن الشعور بالجمال أو الإدراك الأريب . وبالأحرى لم تكن النتيجة خسارة بل ربّما ، هو حصيلة عملية تبسيط ؛ بما تقود إليه من تحرر القوى التي ظلت أسيرة واسطة يعظم فيها أثر العنصر المادى . وبالتالي تطلق عملية التبسيط ، سراح تلك القوى ، لتعمل في واسطة أشد أثيرية وأبلغ تأثيراً .

ولا تتضمن عملية التبسيط ؛ تبسيط الأداة فحسب ، ولكن يترتب عليها نقل الطاقة أو تحويل التأكيد من نوع من مجال الوجود أو الفعل الأقل ، إلى ما هو أعلا منه . ولعلنا إن وصفنا العملية بالتحويل الأثيرى عوضاً عن التبسيط ، نكون أكثر وضوحاً .

ولقد وصف عالم من علماء الأنثروبولوجى^(٢) المحدثين التطور في مجال السيطرة البشرية على الطبيعة المادية ، وصفا يتسم باللفتة البارعة :

« إننا نبارح الأرض ، ونغدو بعبد من الحس ، وتضعف آثارنا : يظل الظّرآن إلى الأبد ، النحاس طوال فترة حضارة الحديد ، لأجيال . ويظل الصلب فترة حياة . من يستطيع أن يخطط طريق لندن / بكين الهوائى السريع إن زال عصر الحركة ؟ أو نقول اليوم ما هو طريق الرسائل التي ترسل

(١) نسبة إلى العالم بطليموس . (المترجم)

(٢) Anthropology هو علم البحث في الأصول البشرية . (المترجم)

وتتلقى عبر الأثير ؟ لكن حدود مملكة آيسنى ^(١) (Iceni) الضئيلة الزائلة ما تزال تجر أذيالها في دفاعها عن الأراضي عبر الحد الجنوبي لآنجيليا الشرقية ، من المستنقع المحفف إلى الغابة المطموسة ^(٢) . »

توحى تفسيراتنا ؛ بأن قاعدة الارتقاء التي لا نبرح نبحت عنها والتي فُشلنا في العثور عليها خلال غزونا البيئة الخارجية — سواء أكانت مادية أو بشرية — تقع أكثر ما تقع في نطاق يتسم بالتغير المتعاقب ؛ وفي تحول مشهد الفعل من هذا الميدان إلى ميدان آخر ، قد يجد فيه فعل التحدى والاستجابة بديلا لعملياته . ولا تنبعث التحديات في هذا الميدان الآخر من الخارج ، لكنها تنشأ من الداخل . ولا تتخذ الاستجابات الظاهرة شكل التغلب على عقبات خارجية أو قهر خصم خارجي ؛ لكنها تُظهر نفسها في الترابط الذاتي أو تقرير المصير . وعندما نلاحظ أحد أفراد الجنس البشرى أو أحد المجتمعات يقوم باستجابات متعاقبة لتحديات متتالية ، وعندما نساثل أنفسنا فيما إذا كان هذا التسلسل الخاص يُعتبر مظهراً للارتقاء ؛ عندئذ نصل إلى رد عن سؤالنا ، بفضل ملاحظة :

أنه كلما تتابع التسلسل سبيله ، يميل الفعل — أو لا يميل — إلى الانتقال من الميدان الأول إلى الميدان الثانى ، من كلا الميدانين السالفي الذكر .

وتبرز هذه الحقيقة واضحة غاية الوضوح في المحاولات التي تُبذل أثناء عرض التاريخ ، لوصف عمليات الارتقاء بنوع خاص ، باستخدام اصطلاحات الميدان الخارجى ، منذ الشروع في الوصف حتى نهايته .

(١) اسم شعب بريطاني قديم كان يسكن ذلك الجزء من إنجلترا حيث توجد الآن مقاطعات نورفولك وسافولك وكبريدج وهانتيנגدون . ولقد تزعمت ملكتهم بواديسيا ثورة ضد الرومان عام ٦١ ميلادية . (المترجم)

ويطالعنا على سبيل المثال عرضان تاريخيان ، قام بكتابة كل منهما إنسان عبقري : ادموند ديمولين ، وه. ج. ولز^(١) :

استعرض المسيو ديمولين نظرية البيئة في مقدمة كتابه في عبارة محكمة الصياغة إحكاماً رائعاً :

« يوجد هناك على سطح الأرض تنوع في السكان لا نهاية له . فما هو العامل الذي أوجد هذا التنوع ؟ . . . إن العامل الأول والحاسم في تنوع الأجناس هو الطريق الذي تتبعه الشعوب . وهو الطريق الذي يخلق الجنس والأسلوب الاجتماعى كليهما » :

وبعدما يُنجز هذا البيان المشوق غايته باستثارتنا لقراءة الكتاب الذى ضمنه المؤلف نظريته ؛ نجده يعالجها على خير سبيل طالما يستخلص تفسيراته من حياة المجتمعات البدائية . ويمكن إيضاح طابع المجتمع في مثل هذه الحالة بأقرب ما يكون إلى الكمال ، باستخدام اصطلاحات الاستجابات لتحديات واردة من البيئة الخارجية فقط . بيد أن هذا ليس بالطبع ، تفسيراً للارتقاء . لأن المجتمعات البدائية ، تبدو مجتمعات في حالة ثابتة .

كذلك يوفق ديمولين في تفسير وضع المجتمعات المتعطلة . لكن القارئ يبدأ يقلق ؛ عندما يأخذ المؤلف في تطبيق صيغته على الجماعات التى تحكم على أساس النظام القروى الأبوى . إذ يحس القارئ إحساساً صادقاً أثناء قراءته الفصول الأولى عن قرطاجنة والبندقية ، أنه يفقد شيئاً يعجز عن الإفصاح عن ماهيته . ولما ينشد المؤلف تفسير الفلسفة الفيثاغورية^(٢) باستخدام موضوع تجارة النقل عبر الحذاء الإيطالى^(٣) ، يغالب المرء

M. Edmond Demolin : Comment la Route cree le. H. G. Wells : (١)
The Outline of History.

(٢) نسبة إلى فيثاغورس . (المترجم)

(٣) على اعتبار أن شبه جزيرة إيطاليا تشبه الحذاء في شكلها . (المترجم)

إغراء الابتسام . فإذا وصل في قراءته إلى فصل « طريق الهضبات -
 النموذجان الألباني والهليني » ، فإنه يثور على الفور . لأن المؤلف قد
 قرن البربرية الألبانية بالحضارة الهلينية ، لا لسبب إلا أن الألبانيين
 واليونانيين الأوائل تصادف وصولهم إلى مواطنهم باستخدام نفس المسلك !
 وهكذا ، هبط الحديث البشرى العظيم الذى نعرفه باسم الهلينية ، عند
 المؤلف ؛ إلى نوع من المحصول الثانوى لظاهرة عرضية من ظواهر
 الهضبة البلقانية ! . وإن في هبوط الكتاب في هذا الفصل الغير الموفق إلى
 مستوى يناقى العقل ؛ من شأنه تفنيد حجته نفسها بنفسها . لأنه عندما
 تسير حضارة شوطاً بعيداً - مثلما انطلقت الحضارة الهلينية - فإن
 محاولة وصف ارتقائها وصفاً مطلقاً باستخدام اصطلاحات التحديات
 لاستجابات واردة من البيئة الخارجة ، شئ يثير السخرية حقاً .

ويبدو أن المستر ويلز قد فقد كذلك ثقته بحاسة اللمس ، إذ يعالج
 موضوعاً تام النضج عوضاً عن آخر فطرى . وعندما يستخدم المستر
 ويلز ملكات خياله في تصور قصة حدثت في زمن سحيق لأحد العصور
 الجيولوجية ، فإنه يصول ويجول في ميدانه . وحقا فإن قصته التى
 تشرح الطريقة التى عاشت بها تلك « الجوزائيات الصغيرة »^(١) - أسلاف
 الثدييات - وقما هلكت الزواحف المفرطة النمو ؛ جديرة بأن توضع في
 نفس مستوى قصة التوراة عن داوود وجالوت .

ويصل المستر ويلز - مثل المسيو ديمولين - إلى ما نتوقه له وقما
 يتكلم عن تطور تلك الجوزائيات الصغيرة ، إلى صائدى العصر الحجري
 القديم أو إلى بلو أوراسيين . لكن مركزه يتصدع عندما يتعرض
 لحوليات^(٢) مجتمعتنا الغربى ، لما يقتضيه الحال منه من مجهود ترتيب

(١) الجوزائيات Theriomorphs هى الكائنات التى تأخذ شكلا حيوانيا . (المترجم)

(٢) مدونات تاريخية تكتب حوليا أى سنويا . (المترجم)

— وفقاً للحجم — ذلك الجوزائى العالم الأثيرى بشكل لا نظير له « وليم إيوارت جلاستون » . فإن المستر ويلز يفشل لسبب بسيط مداره إخفاقه فى تحويل ركازه الروحى — كلما اتصل سياق روايته — من الناحية الكونية^(١) إلى الإنسانية^(٢) . ويتبدى هذا الفشل فى الحدود التى تنحصر فيها تلك المأثرة الذهنية البديعة ، التى يمثلها كتاب « مجمل التاريخ » . ولقد يقاس إخفاق المستر ويلز بتوفيق شكسبير فى تفسير نفس المعضلة :

فإذا تولينا ترتيب الشخصيات البارزة فى الرواق الشكسبيرى فى نظام تصاعدى للأثيرية ؛ ووضعنا نصب أعيننا أن مدار الأسلوب التكنولوجى للمؤلف المسرحى ، هو الكشف عن الشخصيات ؛ سنلاحظ أنه إذا ما تحرك شكسبير من المستويات الأوطأ إلى الأعلى فى مجال العمل المتصل الدور الذى يقوم به ؛ ينقل باستمرار ميدان العمل الذى يجعل فيه بطل كل مأسة ، يودى دوره باذلاً للناحية الإنسانية نصيباً أوفر من المسرح ؛ ودافعاً للناحية الكونية إلى أبعد من ذلك إلى الوراء .

وفى استطاعتنا التحقق من هذه الواقعة إن تتبعنا السلسلة ابتداء من هنرى الخامس مارين بماكبث إلى هملت . إذ تتبدى بدائية دور هنرى الخامس النسبية بجلاء تام تقريباً ، فى استجابته للتحديات التى تفد إليه من البيئة المحيطة به : فى علاقاته مع منادمية ومع أبيه ، وفى بث شجاعته الشخصية فى رفقاته فى صبيحة موقعة آجينكورت Agincourt^(٣) ؛ وفى خطبته العنيفة مع الأميرة كيت Kate . وعندما تنتقل إلى ماكبث ، نجد تحول مسرح الفعل : لأن علاقات ماكبث بالكلوم أو بماكدوف ، أو حتى مع اللادى

Microcosm (٢)

Macrocom (١)

(٢) اسم قرية فى شمال فرنسا . وكانت مسرحاً لموقعة حربية جرت فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٤١٥ بين هنرى الخامس ملك إنجلترا وبين الفرنسيين . وانجلت الموقعة عن هزيمة الفرنسيين هزيمة ساحقة وفقدانهم عشرة آلاف قتيل غير الأسرى . (المترجم)

ماكث ؛ تتساوى في الأهمية مع علاقات البطل مع شخصه ذاته . وأخيراً فإننا إذ نصل إلى هاملت ؛ نشاهد شكسبير يدع الناحية الكونية تضمحل تقريباً ، إلى أن تصبح علاقات البطل مع قتلة أبيه ومع عشيقته المولية « أوفيليا » ومع ناصحه الأمين الحكيم هوراشيو ، مندججة في الصراع الداخلي الذي يُتم نفسه في روح البطل نفسه . ولقد انتقل ميدان الفعل في هاملت في غالب الأمر من الناحية الكونية ، إلى الناحية الداخلية بالكامل ، ونجد في هذا العمل الفذ من فن شكسبير ، كما في بروميثيوس Prometheus^(١) من تأليف آخيلوس Aeschylus أو في مناجاة براوننج الدرامية ، واحداً يحتكر فعلاً المشهد بغية أن يخلف أعظم مجال للفعل للقوى الروحية الطاغية التي تحتجزها في داخلها هذه الشخصية .

وانتقال الفعل هذا الذي فطنا إليه في تقديم شكسبير لأبطاله لما تولينا ترتيبهم وفقاً لنظام تصاعدي للارتقاء الروحاني ، يتيسر الإلمام به كذلك في تواريف الحضارات . لأنه عندما تتجمع بالمثل سلسلة من الاستجابات والتحديات في ارتقاء ، سنجد - كلما مضى الارتقاء قدماً - أن ميدان الفعل ينتقل في جميع الأوقات ؛ من البيئة الخارجية ، إلى داخلية الكيان الاجتماعي للمجتمع ذاته .

مثال ذلك أننا قد لاحظنا قبل الآن ؛ أن من ضمن الوسائل التي استخدمها أجداد الغربيين في صد الاجتياح السكندنافي وبالأحرى الانتصار على بيئتهم البشرية ؛ ابتداء النظام الإقطاعي أداة حرية واجتماعية فعالة . بيد أن تمايز الطبقات اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في المرحلة التالية للتاريخ الغربي - وهو ما تطلبه الإقطاع - قد أحدث شيئاً من الضغط والعناد ، أنتج بدوره التحدي التالي الذي بات يجابهه المجتمع النامي . إذ كانت المسيحية الغربية قد استراحت

(١) هو ابن أبابيتوس في الأساطير اليونانية . ويقال إنه سرق جذوة نار من الأوليمب ومنحها البشر وعامهم كيفية استخدامها . كما علمهم فنون الحضارة . (المترجم)

بالكاد من دَحْر الفايكنج ، قبل أن تجابه واجبها التالى المتصل بمشكلة إحلال النظام الإقطاعى الطبقي ، بنظام علاقات جديدة بين الدول صاحبة السيادة ومواطنيها الأفراد . ويبدو تحول مشهد الفعل من الميدان الخارجى إلى الداخلى ، واضح المعالم بجلاء ، فى هذا المثال الخاص بتحديين متعاقبين .

وتأتى ملاحظة نفس الاتجاه فى مسالك التاريخ الأخرى التى فحصناها قبل الآن فى مختلف المتن :

فلقد شاهدنا فى التاريخ الهلبنى مثلاً ؛ أن التحديات قد انبثقت جميعها من البيئة الخارجية : تحدى برابرة النهضة فى هيلاس نفسها ، والتحدى المالتسى Malthian^(١) ، الذى ووجه بالتوسع عبر البحار والذى تضمن نتيجة له تحديات انبثقت من السكان الأصليين الهمج ، ومن الحضارة المنافسة للحضارة الهلينية : وتوَجَّ تحديات الحضارات المنافسة ، بالهجمات المضادة التى شنتها قرطاجنة وفارس إبان الربع الأول من القرن الخامس ق . م . ومن ثمت ، فهما يكن من الأمر ، أمكن التغلب على هذا التحدى الرهيب الصادر عن البيئة البشرية خلال القرون الأربعة التى تبدأ من عبور الإسكندر مضيق الدردنيل .

واتصل فوز المجتمع الهلبنى على تحدى البيئة البشرية ، بفضل انتصارات روما . وغدا يستمتع بفضائها ، بفترة استجمام استمرت حوالى خمسة أو ستة قرون ، لم يجابه خلالها المجتمع الهلبنى من البيئة الخارجية تحدياً ذا شأن : بيد أن هذا لا يعنى أن المجتمع الهلبنى كان خلال تلك القرون ، متحرراً من التحديات جملة . فعلى العكس - كما سبق أن لاحظنا قبل الآن - تعتبر تلك الفترة فترة انحلال ؛ بمعنى أنها فترة جابهت الهلينية خلالها تحديات عجزت عن أن تستجيب لها بنجاح ؛ ولقد علمنا ماهية هذه التحديات .

(١) نسبة إلى الاقتصادى الإنجليزى مالتوس الذى أبان للعالم فى رسالة له ، خطورة تزايد السكان بنسبة تفرق كثيراً ازدياد موارده الغذائية . لأنه بينما يتزايد السكان وفقاً لتوالي هندسية ، تزايد الموارد وفقاً لتوالي حسابية . (المترجم)

فإذا تطلعنا الآن إليها ، ألفيناها جميعاً تحديات داخلية ترتبت عن استجابة موفقة لتحد خارجي سابق . مثلها مثل التحدي الذي هبأه النظام الإقطاعي للمجتمع الغربي ؛ وهو تحدي ترتب عن التطور السابق للنظام الإقطاعي الذي يعتبر بدوره استجابة ناجحة للضغط الخارجي للفايكنج .

فمثلاً : استثار ضغط الفارسيين والقرطاجنيين العسكري ؛ المجتمع الهليني لابتدع دفاعاً عن النفس ؛ أداتين فعاليتين اجتماعية وحرية - البحرية الأثينية ونظام الحكم السيراكوزي^(١) . إلا أن البحرية ونظام الحكم المطلق أنتجا في الحيل التالى فى داخلية كيان المجتمع الهليني شدة وضغطاً . إذ ترتب عن البحرية الأثينية ، نشوب الحرب البلوبونيزية ؛ وعن نظام الحكم السيراكوزي تمرّد رعايا المجتمع الهليني من الهمج ضده ، وانتفاض حلفائه عليه . فكانت هذه الفتن والحالة هذه أول صدع يصاب به المجتمع الهليني .

وهكذا سرعان ما اتجهت الأسلحة التى تصوب نحو الخارج فى فتوحات الإسكندر وعائلة سيبو Scipio^(٢) ، إلى الداخل إبان الحروب الأهلية التى نشبت بين الديادوتشي^(٣) المقدونيين المتنافسين .

والمثل يقال عن التسابق الاقتصادي بين المجتمعين الهليني والسورى ، فى سبيل بسط السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط . فإنه قد عاد إلى الظهور داخل أحشاء المجتمع الهليني ، بعد ما تداعى المنافس السورى^(٤) ؛ فعاد أشد من سابقه عنفاً وتدميراً فى صورة صراع بين الأرقاء المشتغلين بالزراعة ، وسادتهم الصقليين والرومانيين .

(١) سيراكوز عاصمة جزيرة صقلية ، وكان نظام الحكم فيها مطلقاً ، ويلقب حاكمها بـ « الطاغية » Tyrannis . (المترجم)

(٢) عائلة رومانية نبيلة تولى كثير من أفرادها المناصب الكبرى ومنها منصب القنصل الذى تولاه بابلوس سيبو عام ٢١٨ ق . م . (المترجم)

(٣) حروب نشبت خلال أعوام ٢٢٣ - ٢٨١ ق . م بسبب مشكلات تقسيم إمبراطورية الإسكندر بين خلفائه أى Diadochi ، وهم صفوة قواد الإسكندر وأصدقائه . وكان أهمهم بطليموس وأنتيجولوس وأنتيبتر . (المترجم)

(٤) أى قرطاجنة (المترجم)

كذلك عاد إلى الظهور بالمثل ، داخل كيان المجتمع الهلنسى ؛ الصراع الثقافى بين الهلينية والحضارات الشرقية : السورية والمصرية والبابلية والهندية ، فى صورة أزمة فى داخل النفوس الهلينية أو التى تطبعت بالهلينية . وهى أزمة تبدت فى صورة انبعاث عبادة إيزيس ، وعبادة النجوم وعبادة ميثرا ، واعتناق المسيحية ؛ فضلاً عن حشد من الأديان المواسطة^(١) .

« توقف الشرق والغرب عن القتال

على حدود صدرى^(٢) »

وفى مقدورنا أن نستشف فى التاريخ الغربى ؛ اتجاهها يطابق ما تقدم ، إلى المدى الذى بلغه تاريخه . إذ هيأت له البيئة البشرية فى عصوره الأولى ، أعظم التحديات التى جابهته وضوحاً . تحديات بدأت بالعرب فى أسبانيا ، ثم السكندنافيين ، وانتهت بالتحدى العثمانى . واتسع منذ ذلك الحين ، التوسع الغربى على نطاق عالمى بمعنى الكلمة ، اتساع أتاح للمجتمع الغربى — بصفة مؤقتة — راحة البال التامة من تحديات المجتمعات البشرية المعادية^(٣) .

ونجد المشابهة الوحيدة لتحده خارجى فعال للمجتمع الغربى ، منذ فشل العثمانيين الثانى فى الاستيلاء على فيينا ؛ فى تحدى البولشفية ، الذى ما انفك يجابه العالم الغربى منذ تنصيب لينين ومعاونيه عام ١٩١٧ . أنفسهم سادة على الإمبراطورية الروسية على أن البولشفية ، لما تهدد بعد سيادة الحضارة الغربية ، أبعد من حدود الاتحاد السوفيتى .

على أنه حتى إن حدث أن أتاح المد الشيوعى تحقيق آمال روسيا فى

(١) أى الأديان التى يتركب كل منها من عناصر شتى . (المترجم)

(٢) Houseman, A.E. : Ashroshire Lad XXVIII

(٣) كتب الأستاذ توينبى هذه العبارة قبل تحدى اليابان الدول الغربية . ويذكر «المختصر» أنه لو كان الزمن قد تأخر بالأستاذ توينبى بضعة سنوات لأجرى استثناء لما كتبه بالنسبة لتحدى اليابان . وفى رأى أن هزيمة اليابان فى الحرب الأخيرة كانت هزيمة حرية وروحية مما ، الأمر الذى جعلها تنطوى تحت جناح الغرب . عل أنه قد ظهر تحد رهيب للدول الغربية يتمثل فى الصين التى تحولت إلى قوة شيوعية هائلة تناهض الغرب والمصالح الغربية . (المترجم)

الانتشار على سطح البسيطة بأسرها ، بفرض انتصار الشيوعية على الرأسمالية انتصارا عالمي الطابع ؛ لا يعنى هذا انتصار ثقافة أجنبية ، طالما أن الشيوعية - عكس الإسلام - تستمد أصولها من مصادر غربية باعتبارها يقينا ؛ رد فعل ضد الرأسمالية الغربية التي تحاربها .

وفي الحقيقة ، يُبْدى انتحال روسيا في القرن العشرين هذه العقيدة الغربية الدخيلة عليها - بصرف النظر عما يحمله انتصارها من تعريض الثقافة الغربية للخطر - مدى ما بلغه نفوذها من حول واقتدار .

وثمة غموض عميق بالنسبة لطبيعة البولشفية التي بشّر بها لينين : فهل جاء يستكمل رسالة بطرس الأكبر أو ليدمرها ؟

إن إعادة نقل عاصمة روسيا من معقل بطرس الغير المألوف^(١) إلى موقع مركزي في الداخل ، هو بمثابة إعلان لينين نفسه خليفة البطريرك الأكبر ، وخليفة قدماء المؤمنين وأصحاب النزعات السلافية . وهنا قد نستشعر بأن لينين بمثابة نبي لروسيا المقدسة ، بُعث لبشر برد فعل الروح الروسية ضد الحضارة الغربية . لكن يُعترض على هذا الرأي ، أن لينين عندما أخذ يبحث عن عقيدة ، استعارها من ألماني يهودي - كارل ماركس - متأثر بالحضارة الغربية . وإن كان لا ينكر أن العقيدة الماركسية ، تقترب من الإنكار التام لنظام المجتمع الغربي ، أكثر من اتجاه أية عقيدة غربية أخرى ، إلى هذا الإنكار . الأمر الذي يجعل الماركسية ، أكثر العقائد الغربية مواءمة لأغراض نبي روسي في القرن العشرين .

وفي الواقع ؛ فإن العناصر السلبية - لا الإيجابية - في العقيدة الماركسية ، هي التي جعلتها موائمة للعقلية الروسية الثورية . وهذا ما يفسر كيف أنه في

(١) يقصد المؤلف مدينة بطرسبرج (أى ليننجراد حاليا) على بحر البلطيق . ويبتهرها الأستاذ توينبى شاذة وغير مألوفة لوقوعها في أقصى غرب الإمبراطورية الروسية على غير المألوف في اتخاذ العواصم في منطقة أقرب إلى وسط البلاد . (المترجم)

سنة ١٩١٧، تولى مذهب غربي غريب يناهض الرأسمالية ؛ خلع الجهاز الرأسمالي الغربي الذي لا يقل عنه غرابة ، والذي كان ما يزال قائماً في روسيا في ذلك الحين . وتعزز هذا التفسير ، عملية الانسلاخ التي يبدو أن هذه الفلسفة الماركسية ما انفكت تتعرض له في الوسط الروسي ، حيث نشاهد الماركسية تتحول إلى بديل عاطفي وثقافي للمسيحية الأرثوذكسية . مع إحلال ماركس محل موسى ، ولينين مكان المسيح ؛ وقيام مجموعة أعمالهما بدور الكتب المقدسة لهذه الديانة الإلحادية ذات الطابع الحربي . على أن الظواهر تأخذ طابعاً مختلفاً ، إذ نحول اهتمامنا من العقيدة إلى الأعمال ، ونفحص ما أداه لينين وخلفاؤه للشعب الروسي فعلاً .

وإذ نسائل أنفسنا عن مغزى مشروع ستالين للسنوات الخمس ؛ نحضرنا إجابة مدارها أنها مجهود لإدخال الأجهزة الميكانيكية على الزراعة والصناعة والمواصلات ؛ وتحويل أمة من الفلاحين إلى أمة من الميكانيكيين ، ونقل روسيا القديمة إلى أميركا جديدة . وبكلمات آخر ؛ هي محاولة أخيرة ناحية التحول الغربي ، بلغت حداً من الطموح والتطرف والجور ، لم تعد معه رسالة بطرس الأكبر شيئاً مذكوراً ؛ ويعمل حكام روسيا الحاليون في نشاط شيطاني ليثبتوا أن نفس الحضارة التي يشتهرون بها في أنحاء العالم كله ، قد انتصرت فيها روسيا .

ولا شبهة في أن حكام روسيا يحملون بإقامة مجتمع جديد ؛ أميركي في معداته ، روسي في روحه . وهذا لعمري حلم عجيب لساسة ينزل عندهم التفسير المادي للتاريخ ، منزلة العقيدة . ولنتوقع طبقاً للمبادئ الماركسية ، أن الفلاح الروسي إذا ما تعلم أن يحيا حياة الميكانيكي الأميركي ؛ سيتعلم أن يفكر تفكير الميكانيكي ، ويحس إحساسه ، ويرغب فيما يرغب فيه .

وإذ نشهد التجاذب في روسيا بين مبادئ لينين وطرائق فورد ، فلعلنا

نتطلع إلى مشاهدة تحقيق أمر غير مألوف ؛ ألا وهو توكيد تفوق الحضارة الغربية على الروسية^(١) .

وتبدى سيرة غاندى نفس الغموض . فإن ترويجه اللاإرادى لنفس عملية التحول الغربى الكلية الوجود ، ما تزال تبعث على التهمك : فإن النبى الهندى ، يزىّن تقطيع خيوط القطن التى أوقعت الهند فى أحاييل العالم الغربى . وهو يبشّر قائلا « أغزلوا قطننا وانسجوه بأيديكم الهندية ولا تتردوا منتجات الأنوال الآلية الغربية ، وأناشدكم أن لا تتوسلوا لإبعاد هذه المنتجات الأجنبية ، بإقامة أنوال هندية جديدة على النمط الغربى » :

ولم يتقبل مواطنو غاندى هذه الرسالة ، التى تعتبر رسالته الحقيقية . فإنهم وإن أحلّوه بينهم كقدّيس ، إلا أنهم يتبعون إرشاده ، طالما سلّم نفسه لقيادتهم على طول الاتجاه صوب الغرب . ومن ثم نجد غاندى اليوم ينشئ حركة سياسية ذات برنامج غربى مداره تحويل الهند إلى دولة مستقلة برلمانية ذات سيادة ، مع تطبيق جميع مظاهر الأداة السياسية الغربية المتصلة بالمؤتمرات والأصوات والمنصات والصحف والإعلان . ونجد أكثر مؤيدى النبى الهندى نفوذاً فى هذه الحملة ، أصحاب المصانع الهنود الذين بذلوا الكثير لإجباط رسالة النبى الحقيقية ، وهم أولئك الرجال الذين أقلموا الأسلوب الصناعى الآلى الهند نفسها^(٢) .

(١) أصبحت الصناعة السوفيتية فعلاً تطبق طريقة فورد فى الإنتاج تحت اسم «الاستخانوفية» . ثم امتد تطبيق هذه الطريقة إلى الزراعة وغيرها من مناحى الاقتصاد السوفيتى ، بل إنه شمل الأعمال الإدارية كذلك . ولقد استتبع هذا التطبيق ، ظهور « طبقة » جديدة من المثقفين تتمتع بأجر أضخم وتحظى بامتيازات أعظم مما يحصل عليه جمهرة السوفيت ، ولقد استفحل أمر هذه الطبقة بعد وفاة ستالين بالذات . (انظر رسالة المترجم عن الدستور السوفيتى) (المترجم)

(٢) فبه المستر تشرشل الأذهان إلى هذه الحقيقة فى خطابه عن الهند فى مجلس العموم فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٢ . ولقد هاجمت صحافة الهند الوطنية ملاحظاته هجومياً شديداً .

(الملخص)

واستتبع انتصار الحضارة الغربية على بيئتها المادية ؛ حدوث تغيرات — مطابقة لما تقدم — للتحديات الخارجية ، تحولت بموجبها إلى تحديات داخلية .
فإن انتصارات ما يسمى « الثورة الصناعية » قد أبرزت في المحيط الفنى حشداً ذا سمعة سيئة من المشكلات فى الميدانين الاقتصادى والاجتماعى .
وهذا موضوع يبدو من التعقيد وذووع الصيت ، بحيث لا نحتاج إلى التوسع فيه هنا .

فلنعد إلى أذهاننا الصورة التى تمحى الآن سريعاً عن صورة الطريق قبل الانقلاب الصناعى . كان هذا الطريق العتيق يزدهم بطائفة من أنواع العربات البدائية ذات العجلات : عربات اليد ، والركشا^(١) ، وعربات النقل التى تجرها الثيران والكلاب ، ومنها عربات السفر التى كانت متناثرة هنا وهناك ، تبشر بظهور أشياء أخرى فى المستقبل . ولما كان الطريق مزدحماً نوعاً ما ، كانت تحدث بعض الارتطامات التى لا يهتم أحد بها ، لقلة المصابين من الناس ، وقلما كانت حركة المرور تتعطل . فلم تنسم هذه الارتطامات بالخطورة . ولا يتأتى أن تصبح خطيرة ، نظراً للبطء الهائل لحركة المرور ، ولأن القوة التى تدفعها ضعيفة للغاية . ولم تتمثل « مشكلة المرور » على هذا الطريق والحالة هذه فى تلافى الارتطامات ؛ ولكن جماع المشكلة ، فى إنجاز الرحلة مع ما كانت عليه الطرق من سوء فى الأيام الخوالى . وبالأحرى ، لم يكن هناك أى ضرب من تنظيم حركة المرور ، ولم يحنج الأمر إلى وجود رجل بوليس على نقط تقاطع الشوارع ، أو إلى إقامة إشارات المرور .

وعلىنا الآن أن نجبل الطرف فى طريق اليوم حيث تطن الحركة الميكانيكية وتهدر . حلت فى هذا الطريق مشكلات السرعة والنقل ؛ كما تشهد بذلك اللوريات ذات المحرك ، التى تسحب رتلا من الناقلات التى تتحرك فى

(١) عجلة ركوب يجرها رجل واحد ، وهى شائعة فى جنوب شرق آسيا . (المترجم)

تثاقل وبطء ؛ بكمية حركة توازى حمولة فيل ، كما تشهد به سيارة السباق التى تروح تطنّ فى خفة النحلة أو الرصاصة :

بيد أن نفس الإثبات يبدى أن مشكلة الاصطدام ، قد أصبحت مشكلة المرور الأصيلة . وبالأحرى لم تعد المشكلة على الطريق الحالى مشكلة تكنولوجية ، ولكن مشكلة نفسانية . فلقد تحوّل تحدّى المسافة المادى القديم ، إلى تحدّى جديد للعلاقات البشرية بين السائقين الذين ، لما علموا طريقة « إفناء » عنصر المسافة ، وضعوا أنفسهم بالتبعية — إفناء بعضهم بعضاً — فى خطر راسخ . ولهذا التغير فى طبيعة مشكلة المرور مغزى رمزى كما هو واقعى :

إذ يرمز هذا التغير ؛ إلى التغير العام الذى أخذ يلم بمجال الحياة الاجتماعية للعالم الغربى بأسره ، منذ انبعاث القوتين الاجتماعيتين المتسلطتين : التصنيع والديمقراطية .

لأنه بفضل التقدم الغير العادى ، الذى حققه مخترعو عصرنا الحاضر فى تسخير قوى الطبيعة المادية ، وفى تنظيم الأفعال المتطابقة للبشر ؛ أصبح كل شئ فى مجتمعنا — سواء للخير أو للشر — يتم بفضل « دافع » هائل : وهذا ما جعل النتائج المادية للأفعال والمسئولية الأدبية للفاعلين ؛ أشد وطأة بكثير ، مما كانت عليه عن ذى قبل . وقد تتمثل دائماً فى كل عصر من عصور كل مجتمع ، فى نتيجة معنوية ؛ نتيجة مدارها تحدّى ينذر بالويل للمستقبل المجتمع . ومهما يكن من أمر ذلك ، فلا ريب أن التحدى الذى يجابه مجتمعنا الحاضر ذاته ، هو تحدّى معنوى أكثر منه مادى .

« تتمثل نظرة المفكر فى العصر الحاضر تجاه ما يدعى بالتقدم الآلى ، فى شعورنا بوجود روح متغيرة . فإن الإعجاب يلفظه النقد ، ويدعن الرضى للشك ، ويتحول الشك إلى دعر . وثمة شعور بالحيرة والخلية ، كحال إنسان يمضى قدماً فى طريق طويل ، ثم يستكشف أنه اتخذ مفترق .

الطريق الخاطئ ، وتتعذر عليه العودة . فكيف يستمر ؟ وأين يجد نفسه أن اتبع هذا السبيل أو ذاك ؟ لعله يلتمس العذر لمفسر قديم للعلوم الميكانيكية التطبيقية ، إن تحرر نوعا ما من الوهم ، إذ يقف جانبا يراقب موكب الكشف والاختراع الجارف . موكب اعتاد أن يحصل منه على غبطة غير محدودة . ويتعذر أن نمنع أنفسنا عن التساؤل عن الوجهة التي يتخذها خط السير هذا ؟ ما هو هدفه بعد كل هذا ؟ ما هو تأثيره المحتمل على مستقبل الجنس البشرى ؟

وتوحى هذه الكلمات المؤثرة ، سوألا ما انفك يجد ليثير على تعبير في قلوبنا جميعها : وهى كلمات تقال فى ثقة ، لأنها صدرت عن رئيس الجمعية البريطانية للتقدم العلمى ، فى خطبته الافتتاحية بمناسبة الاجتماع الواحد بعد المائة لهذه الهيئة التاريخية^(١) . فهل يقدر للطاقة الحديدية الدافعة للتصنيع وللديمقراطية ، أن تُستخدم فى العمل الإنشائى الكبير المتصل بتنظيم العالم ذى الاتجاه الغربى فى مجتمع يشمل الكون بأسره ؟ أو أننا سائرون فى سبيل تحويل طاقتنا الحديدية إلى تدميرنا ؟

لقد جابه حكام مصر القديمة نفس المعضلة ذات مرة ، فى أسلوب لعله أكثر بساطة إلى حد ما . فإن الرواد المصريين عندما وفقوا فى الاستجابة لأول تحدى مادى جابههم ، أى وقفا اخضع ماء وترية ونبات وادى النيل الأدنى لإرادة البشر — برز سؤال ملار: كيفية استخدام حاكم مصر والمصريين التنظيم البشرى البديع الجاهز بين يديه والمطابق لإرادته . كان ذلك تحديا معنويا : فهل يستخدم القوة المادية واليد العاملة التى تحت إمرته فى رفع شأن رعاياه ؟ هل يقودهم نحو العلا وإلى الأمام نحو مستوى الرفاهية الذى يبلغه الملك فعلا ، هو وحفنة من نبلائه ؟ هل الدور الذى يتسم بالسوء

Sir Alfred Euring, as reported in the Times, 1St. Sep. 1932 (١)

الذى قام به بروميثيوس^(١) فى المسألة التى كتبها آشييلوس ، أو الجانب الطاغى من زيوس ؟

شيد سيد مصر وحاكمها ، الأهرامات التى خلدت هؤلاء الحكام المطلقين ، لا باعتبارهم آلهة خالدين أبد الدهر ، ولكن لأنهم قد أذلوا الفقراء . وانحدرت شهرتهم السيئة إلى القصص الشعبى المصرى ، حتى وجدت سبيلها فى صفحات هيرودوتس الخالدة . وعقابا لهم على سوء اختيارهم ، ألقى الموت يده الباردة على حياة هذه الحضارة النامية فى اللحظة التى تحول عندها التحدى الذى كان عامل الاستثارة فى ارتقاءها ، من الميدان الخارجى إلى الداخلى .

ووقتها يتحول تحدى التصنيع فى عالمنا الحاضر — وهو تحدى يتأثر إلى حد ما مع ما حدث فى مصر القديمة — من مجال الأسلوب التكنولوجى إلى مجال الأخلاقيات ، نجد النتيجة ما تزال فى عالم الغيب . ما دام رد فعلنا تجاه الوضع الجديد ، لما يتحدد بعد .

ومهما يكن من أمر ؟ فقد بلغنا نهاية مناقشتنا فى الفصل الحالى . ونخلص منها إلى القول بأن سلسلة معلومة من الاستجابات الناجحة لتحديات متعاقبة ؛ تفسر بأنها مظهر للارتقاء ، على شريطة أن يتجه الفعل — كلما تتابعت السلسلة — إلى التحول من ميدان البيئة الخارجية — مادية كانت أو بشرية — إلى الميدان الداخلى للشخصية النامية ، ونقصد بها الحضارة . وطالما تنمو الحضارة ويستمر ارتقاؤها ، يقود ذلك إلى تناقص الركون إلى التحديات التى تولدها القوى الخارجية ، والتى تتطلب استجابات على ميدان معركة خارجى ؛ وأن يزايد ركونها إلى التحديات التى تتيحها لذاتها هى نفسها فى

(١) بروميثيوس فى الأساطير اليونانية ، وهو ابن تيتان . وقد سعى إلى خداع زيوس الرب اليونانى الأعظم بتقديم قربان له النار ، التى سرقها بروميثيوس من السماء ثم أعطاها للإنسان . وينظر إليه فى الأساطير على أنه بطل الثقافة وأنه المعلم الأول للبشرية . أما آشييلوس (٥٢٥ - ٤٥٦ ق . م) فإنه أحد سادة الدراما فى آتيكا . (المترجم)

ميدان المعركة الداخلي : ويعنى الارتقاء ، أن الشخصية النامية أو الحضارة ؛ تنزع لأن تصبح بيئتها الخاصة ، فضلا عن صيرورتها المتحدّى لنفسها وميدان عملها ذاتها .

وبكلمات أخرى ، فإن قاعدة الارتقاء هى التقدم تجاه تقرير المصير . على أن التقدم تجاه تقرير المصير ، صيغة ركيكة لوصف المعجزة التى بوساطتها ؛ تدخل الحياة ملكوتها :

الفصل الحادي عشر

تحلل الحضارات

(١) المجتمع والفرد

إذا كان النقاش قد انتهى بنا إلى إرساء الفكر على أن تقرير المصير هو قاعدة الارتقاء ، وإذا كان تقرير المصير يعني الترابط الذاتي ؛ فإننا آخذون في تحليل العملية التي تنمو بفضلها الحضارات الآخذة في الارتقاء فعلا . وهذا ما يتييسر ؛ إن استطعنا كشف الطريقة التي تتبعها تلك الحضارات ، لترابط أجزائها تدريجياً بعضها ببعض . وظاهر بوجه عام ، أن مجتمعا يسير نحو الحضارة ؛ ترابط أجزائه بعضها ببعض ، بواسطة الأفراد الذين ينتمون إليه ، أو الذين ينتسب هو إليهم .

وفي قدرتنا التعبير عن العلاقة بين المجتمع والفرد تعبيراً يتسم بعدم الانحياز ، باستخدام أى من هاتين الصيغتين — رغماً عما يتصفان به من غموض وتناقض ، ينتهى بنا إلى القول بأن كلا الصيغتين غير ملائمتين :

الأولى : مدارها أن الفرد حقيقة واقعة ، وأنها خليفة بأن تدرك بدايتها ، وما المجتمع إلا حشد من الذرات الفردية .

الثانية : مدارها أن المجتمع هو الحقيقة ، وأنه كل "كامل" واضح . في حين أن الفرد هو مجرد جزء من هذا الكل . ولا يتأتى لهذا الجزء أن يوجد أو يفهم إن عاش على أية صفة أو في أى وضع آخر .

وسيتبين لنا أن أى من هذين الرأيين لن يصمد للاختبار . وسيصبح علينا قبل أن نمضى قدماً في بحثنا الجديد ؛ أن نتمعن في العلاقة التي تحدد موقف المجتمعات والأفراد ، تجاه بعضهم بعضاً . وهذا هو بالطبع أحد المسائل الأصلية لعلم الاجتماع .

تتمثل الصورة التقليدية للذرة الفردية التصورية في وصف هومبروس

للسيكلوبس^(١) . وهو وصف اقتبسهُ أفلاطون تحقيقاً لغاية تماثل غايتنا :

إنهم لا يأهون للنقاش ولا يخضعون لقانون
وعلى جبال عالية يسكنون فى كهوف غائرة
حيث لكل قانون يطبقه على زوجته وطفله
مثل حاكم لا يلقى بالا إلى جميع نظرائه^(٢) .

ومما له دلالة ، أن هذه الطريقة القائمة على فكرة ذرية الحياة ؛ لا ترجع إلى أى بشر عادى . إذ لم يعيش أى إنسان عادى قط على غرار السيكلوبس . لأن الإنسان بأصله حيوان اجتماعى ، ولأن الحياة الاجتماعية شرط سابق لانبثاق الإنسان من المرحلة الشبيهة الإنسانية إلى المرحلة الإنسانية . ولولاها لعجز ذلك التطور بداهة أن يتخذ سبيله المعلوم .

إذن ، ما هى الصيغة الأخرى التى تعامل الإنسان على أنه جزء مجرد من كُلى اجتماعى ؟

« ثمة جماعات مثل جماعات النحل والنمل ، وإن كان يفتنى من بين أعضائها استمرار العنصر الجوهرى ؛ إلا أن عمل الفرد ينصرف بأسره إلى الكل ، لا إلى الأعضاء أنفسهم . والموت حليف الفرد إن انفصل ، عن مجتمعه .

« وثمة مستعمرات مثل الشعاب المرجانية أو البويات Polyps المائية حيث يعيش عدد من الحيوانات ، معيشة لا يشك عند النظر إليها ، أنها تقوم على أساس فردى ، لكنها تتصل فى الواقع عضوياً بعضها ببعض ؛ بفضل اتصال عنصر الحياة فى واحدتها ، بعنصر الحياة فى الأفراد الآخرين . . . فأيّهم الفرد الآن ؟

« هنا يتابع علم التشريح القصة ، ويبدى أن جمهرة الحيوانات — بما

(١) كائن خرافى يعين واحدة تقول الأساطير اليونانية أنه كان يعيش فى ليبيا منزلاً عن العالم . (لترجم)

(٢) Odyssey, Bk. IX, ll. 112-15 Quoted by Plato : Laws; Bk. II ; 640 b

فيها الإنسان وهو نمط الفردية الأولى^(١) - قد سُيِّدت على عدد من الوحدات هي ما تدعى بالخلايا ، ويتمتع بعضها باستقلال كبير . ولن نلبث إلا قليلاً حتى نجد مسألة تساويها في علاقاتها العامة مع جمهرة الحيوانات بأسرها ؛ تفرض علينا - على غرار ما يحدث في علاقات أفراد مستعمرة الشعاب المرجانية ، أو بصورة أفضل السنفوريات Siphonophora^(٢) - بالمستعمرة بأسرها . وتؤكد لنا هذه النتيجة ، إذ نعلم بوجود عدد كبير من الحيوانات التي تعيش معيشة حرة - مثل البرزويات Protozoa^(٣) . ويدخل في ذلك النطاق ، أبسط الأشكال الحيوانية المعروفة بأسرها . ونجدها تتطابق في جميع الأمور الأساسية مع الوحدات التي تكوّن الجسم الإنساني ؛ خلافاً يتصل بوجودها المنفصل والمستقل .

« وبالأحرى . . . يكون العالم العضوي بأسره ، فرداً ضخماً واحداً يحوطه الغموض وتُسفر أجزاؤه المختلفة عن سوء توافقها . لكن تنسم تلك الأجزاء رغماً عن ذلك ، باستناد بعضها على البعض الآخر : فلو حدث أن نزعّت جميع النباتات الخضراء أو جميع البكتيريا ، فإنه يستحيل على بقية العالم أن تظل حية^(٤) .

هل تصدق هذه الملاحظات المتصلة بالطبيعة العضوية على الجنس البشري؟ وهل الفرد البشري ، وهو أبعد كثيراً عن أن يحقق لنفسه استقلالاً كاستقلال السيكلوبس ، لا يعدو - وفقاً لتلك الملاحظات - إلا أن يكون بالفعل ، مجرد خلية الجسم الاجتماعي؟ أو أنه - مع التجاوز - خلية صغيرة في جسم هائل لفرد واحد عظيم ، قوامه العالم العضوي بأسره ؟

(١) الأول : أى الأول في طبقات العصر الحيواني القديم . (المترجم)

(٢) السنفوريات : فصيلة حيوانية . (المترجم)

(٣) البرزويات : الحيوانات الأولية ، وهي أدنى تقسيمات المملكة الحيوانية التي يحتوى واحدتها على خلية واحدة أو مجموعة من الخلايا لا تختلف في التركيب عن بعضها بعضاً .

(المترجم)

Huxley, J. S. The Individual in the Animal Kingdom (٤)

تمثل مقدمة كتاب هوبز Leviathan بالطريقة المشهورة ؛ الجنس البشرى الاجتماعى ؛ بكائن شئيد من حشد من الذرات البشرية المتماثلة فى النوع . Anaxagorean Homoeomerial (١) . وهكذا يرى هوبز أن للعقد الاجتماعى تأثيراً سحرياً يُحيل « السيكلوس » (٢) إلى مجرد خلية .

ولقد كتب هربرت سبنسر فى القرن التاسع عشر وأوسوالد سبنجلر فى القرن العشرين - فى يقين جاد - عن المجتمعات البشرية ، باعتبارها كائنات اجتماعية حية . وإذا اقتبسنا من سبنجلر :

« تتولد الحضارة « الثقافة » فى الوقت الذى تستيقظ عنده نفس قوية تنقل نفسها من بين ثنایا الأحوال العقلية البدائية التى يتردى فيها جنس بشرى ، فتجعله فى طفولة دائمة . عندئذ تتخذ هذه النفس شكلاً من الللاصورية ، وكيانا محدوداً متغيراً منبثقاً عن اللانهاية والإصرار . وتزده هذه النفس على أرض بلاد ذات حدود دقيقة تظل ملتصقة بها التصاق النبات . »

« وعلى العكس تنقضى الحضارة ، إن حققت هذه النفس وقتاً ما جماع إمكانياتها ؛ على شكل سكان ولغات وعقائد وفنون ودول وعلوم . وسرعان ما تترد الحضارة إلى الحياة العقلية البدائية التى انبعثت أصلاً منها » (٣) .

ويطالعنا نقد صادق للنظرية المبينة فى الفقرة السالفة ؛ أورده كاتب إنجليزى فى مؤلف تصادف ظهوره فى نفس السنة التى ظهر فيها كتاب سبنجلر :

(١) Anaxagorean نسبة إلى الفيلسوف اليونانى Anaxagoras (٥٠٠ - ٤٢٨ ق . م .) الذى وضع أسمن نظرية الدرة وآمن بالقوة المدركة اللانهاية للكون . (المترجم)
(٢) يمثل السيكلوبس هنا الإنسان الفرد الذى يعيش بعيداً عن أفراد جنسه مستقلاً عنهم . (المترجم)

Spengler, O. : Der Untergang des Abendlandes, Vol. I. 15th 22nd, (٢) ed. p. 153.

« ما انفك المفكرون الاجتماعيون يحاولون المرة بعد المرة ، أن يوضحوا وقائع المجتمع وقيمه ، باستخدام مصطلحات نظرية أو علم آخر ؛ عوضاً عن البحث عن طريقة ومصطلحات تليق بموضوعهم ، مع الثبات على استخدامها . ونراهم - قياساً على العلوم الطبيعية - يكدّون لتحليل المجتمع وتفسيره على أساس اعتباره تركيباً آلياً . وقياساً على علم الأحياء يصرون على اعتبار المجتمع كائناً حياً . وباستخدام قياس العلم الذهني أو الفلسفة ، يصابرون على النظر إليه كإنسان . وعلى القياس الديني ، أوشكوا أن يخلطوه بإله » (١) .

ولعل القياسين المتصلين بعلمى الأحياء والنفوس ، أقل القياسات ضرراً وتضليلاً ؛ إن طُبِّقا على المجتمعات البدائية أو على الحضارات . المتعطلة لكن عدم صلاحيتهما للتعبير عن العلاقة التي تربط الحضارات النامية بأعضائها الأفراد ، أمر ظاهر واضح . ويعتبر الاتجاه نحو إيراد مثل هذه القياسات ؛ مثل من أمثلة اتجاه العقول التاريخية إلى اصطناع الأسطورة أو الإغراق في الخيال ؛ ومن مظاهره نزعتها إلى تجسيم الجماعات أو النظم ، وتمييزها على هذا النسق . ومن قبيل المثال تجسيم كلمات كبريطانيا وفرنسا والكنيسة والصحافة وحلبة السباق وما إليها ؛ ومعاملتها - وهي أسماء مجردة - معاملة الأشخاص .

نخلص مما تقدم إلى ؛ القول بأن تمثيل المجتمع بشخصية أو كيان حي ، لن يهيئ لنا تعبيراً مناسباً ، يبين علاقة المجتمع بأعضائه الأفراد ؛ فما هي إذا الطريقة المثلى لوصف العلاقة بين الجماعات البشرية والأفراد ؟

لعل منط الحقيفة ، أن المجتمع البشرى هو في ذاته نظام للعلاقات بين الكائنات البشرية . ولا تقتصر تلك الكائنات على مجرد كونها أفراداً ؛

فإنها كذلك حيوانات اجتماعية . بمعنى أنها تعجز عن البقاء ، على الإطلاق إن افتقرت إلى وجود هذه العلاقة بين بعضها بعضا . وبالتالي ؛ فإن المجتمع هو حصيلة العلاقات بين الأفراد . وتبرز هذه العلاقات من بين ثنايا تطابق أفعالهم الشخصية . ويوحّد هذا التطابق ، الميادين الشخصية في نطاق أرض مشتركة ، وهذه الأرض المشتركة هي ما ندعوه بالمجتمع .

أن ارتضينا هذا التعريف ؛ انبعثت منه نتيجة هامة ، تماز بالوضوح ، مدارها أن المجتمع هو ميدان الفعل . إلا أن مصدر الفعل بأسره مرجعه الأفراد الذين يتكوّن منهم المجتمع .

ويفرض برجسون Bergson هذه الحقيقة فرضا في قوله :

« إننا لا نوّمن (بالعامل) « اللاشعوري » في التاريخ : فإن تيارات الفكر الخفية الكبرى التي كثر الكلام عنها ، تندفق فقط نتيجة لحقيقة مبناها أن جمهرة الناس قد جرفها واحد أو أكثر من عددها ذاته . . . ومن العبث الاعتقاد بأن التقدم الاجتماعي ؛ يأخذ مكانه بنفسه تدريجيا بفضل حالة المجتمع الروحية إبان فترة معينة من تاريخه . وإنه حقا قفزة إلى الأمام ، لا تتم إلا عندما يحزم المجتمع أمره للقيام بتجربة . وهذا يعني أن المجتمع لا بد وأنه قد سمح لنفسه بالإيمان ، أو هيا نفسه على الأقل ، لأن تصيبه رجّات . وهذه الرجّات يُحدثها دائما شخص ما » (١) .

إن هؤلاء الأفراد الذين يدفعون إلى السير في عمالية التقدم في المجتمعات التي ينتسبون إليها ، هم أعظم من كونهم رجالا عاديين . فإن في وسعهم إنجاز ما يظنه غيرهم معجزات . مثل هؤلاء الأفراد ، عباقرة بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى المجازي فحسب .

وإذ يُمنح الإنسان صفة الموامة المعنوية التي يفتقر إليها ليصبح حيواناً

اجتماعياً ، قد تكون الطبيعة قد فعلت ما أمكنها فعله للنوع البشرى . لكن ؛ كما أن العباقر قد وجدوا ليدفعوا حدود الذكاء البشرى وراء ظهرانهم ؛ برزت كذلك نفوس أحست بأنها تُنسب إلى النفوس جميعها ؛ وعوضاً عن أن تبقى فى نطاق جماعتها ، وتحافظ محافظة مطلقة على تضامنها معها ، هذا التضامن الذى أقامته الطبيعة ؛ فإنها — تحت سطوة العشق الصوفى — وجهت كلامها إلى البشرية بوجه عام . ويعتبر تجلّى كل هذه النفوس ، بمثابة خلق نوع جديد ، قوامه فرد فذ^(١) :

وقد يُطلق على الصفة النوعية المعينة لهذه النفوس القدسية التى تحطم الحلقة المفرغة للحياة الاجتماعية البدائية البشرية ، وتتابع عمل الابتداع ؛ اسم « الشخصية » . وجدير بالذكر أنه بفضل التطور الداخلى « للشخصية » ، أمكنت الكائنات البشرية ، أن تُنجز أعمال الابتداع فى ميدان الفعل الخارجى الذى يقوم عليه ارتقاء المجتمعات البشرية .

وفى رأى برجسون أن ذوى النزعات الصوفية هم بأصلهم العبقريات المبدعة ؛ كما يرى أن مناط فعل الإبداع ، يتجلى فى اللحظة القدسية التى تتم خلالها التجربة الصوفية . وفيما يلى تحليله :

« لا تتوقف نفس الصوفى العظيم أثناء عملية الانجذاب الصوفى ، إذ ليس ذلك خاتمة المطاف . ولقد تدعى حالة « الانجذاب » بأنها حالة سكون ، لكنها فى الواقع سكون قاطرة تقف فى محطة ، مع استمرار دوران محركها تحت ضغط البخار ؛ وهى تهتز أثناء وقوفها منتظرة اللحظة التى تثب فيها إلى الأمام . . . لقد أحس الصوفى العظيم بأن الحقيقة تتدفق عليه من نبعها كأنها قوة جارفة . وتنحو رغبته — بمعاونة الله له — إلى استكمال مشيئته تعالى فى تكيف الأنواع البشرية ، وفقاً لإرادته . . . ويتجه الصوفى العظيم نفس اتجاه وثبة الحياة . وتلك الوثبة نفسها هى التى باتصالها فى كليتها بأفراد

البشر المميزين ، الذين تتجه من ثمت إلى إضفاء طابع تلك الوثبة على الجنس البشرى بأسره . ثم — وهذا تناقض نجدهم على علم به — تحويل نوع من الأحياء — هو بالضرورة شيء مخلوق — إلى جهد إبداعي ؛ ليقم حركة من شيء توقف ^(١) .

هذا التناقض هو لغز العلاقة الاجتماعية الديناميكية التي تنشأ بين المخلوقات البشرية ، حين انبعث الشخصيات ذات الإلهام الباطنى . وتلتزم الشخصية المبتدعة ، بتشكيل رفاقها البشر بتحويلهم إلى رفاقها المبدعين ؛ عن طريق إعادة تشكيلهم على صورتها . ويتطلب التبدل الخلقى الذى اتخذ سبيله فى عالم الإنسان الباطنى ، تعديلا مطابقا فى عالم الكون ، قبل أن يغدو ، إما تاماً أو فى أمان . لكن الفرض السابق عن عالم الكون للشخصية المتشكلة ، هو كذلك عالم كون رفاقه البشر غير المتشكّلين . وسيترتب على قصورهم الذاتى ، مقاومة جهده لتحويل عالم الكون ليتفق مع التغير الطارئ عليه . وسيتجه هذا القصور الذاتى ، إلى جعل الكون يتناسق مع أشخاصهم أنفسهم ؛ بوساطة المحافظة على حالته كما هى .

وتترتب على هذا الموقف مشكلة :

فإذا كانت العبقريّة المبتدعة تفشل فى أن تحدث فى محيطها التغير الذى حققته هى فى نفسها ، فإن عملها الإبداعي ينقلب عليها . لأنها تكون قد أحدثت بنفسها خللاً فى ميدان فعلها . وإذا ما فقدت القدرة على الفعل ، ستفقد الإرادة على العيش ؛ حتى ولو لم يضطهدوا رفاقها السابقون ، اضطهاداً يُفضى إلى نهايتها . مثلما تُعدّب عامة الحيوانات حتى الموت ، الأعضاء الشواذ من السرب ، أو الفقير ، أو القطيع ، أو الشرذمة ؛ فى الحياة الاجتماعية للحيوانات أو الحشرات التى تعيش فى قطع أو رعيلى .

(١) ويلاحظ القارئ هنا مدى اقتراب فلسفة برجسون التاريخية من فلسفة كارليل التاريخية . (الملخص)

ومن الناحية الأخرى ، أن وفق عبقريتنا فعلا في التغلب على القصور الذاتي أو الخصومة الحادة لرفاقه السابقين ، وانتصر في تحويل وسطه الاجتماعى إلى نظام جديد ينسجم مع تشكله هو ذاته ؛ فإنه يجعل الحياة بذلك لا تحتل للرجال وللنساء العاديين . اللهم إلا إن نجحوا في تكييف أنفسهم بدورهم ، وفقاً للوسط الاجتماعى الجديد الذى فرضته عليهم إرادة العبقرى القوية المبدعة .

وهذا هو مغزى القول الذى تنسبه الأناجيل للسيد المسيح :

« لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض . ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً » .

« فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أمها والكنة ضد حماها وأعداء الإنسان أهل بيته » (١) .

فكيف تتأتى استعادة التوازن الاجتماعى عند ما يحدث أن تثبت وجودها قوة دفع العبقرية ، دفع يقود إلى اختلال النظام ؟

يكمُن أبسط الحلول في قيام كل عضو في المجتمع - مستقلاً عن الآخر - بإحداث دفعات منتظمة في قوتها وفي اتجاهها على السواء . وعندئذ يكفل الارتقاء ، من غير حدوث شُبْهة ضغط أو احتكاك . وقلمّا يقال بعدم حدوث استجابات حقيقية كاملة تماماً ، تلبية لنداء عبقريات مبدعة . لأن التاريخ حافل بلا ريب بأمثلة عن الحقيقة القائلة بأنه عند ما تلوح فكرة دينية أو علمية ، فإنها تتخذ صورتها ، في عقول عدة أشخاص ملهمين ، يستقل كل منهم عن الآخر ؛ وغالباً ما تنبعث الفكرة في نفس الوقت . بيد أنه يلاحظ أن العقول الملهمة المستقلة عن بعضها بعضاً والتي تنبعث في وقت واحد - حتى بالنسبة للحالات الأكثر إثارة

(١) الإنجيل متى ١٠ الآيات ٣٤ - ٣٦ .

للعجب - تعد على أصابع اليد الواحدة ، مقابل آلاف أو ملايين ممن لا يستجيبون إلى النداء .

ويبدو أن مناط الحقيقة ؛ أن التفرد الأصيل لأى فعل ابتداعى ونزعتة الفردية ، لا يجابهه فعل معاكس : اللهم إلا إلى مدى ضئيل ، يتمثل فى الاتجاه نحو التجانس ، الذى يبرز من خلال الحقيقة القائلة بأن كل فرد هو مُبدع احتمالى ، وأن جميع هؤلاء الأفراد يعيشون فى نفس المجال . ومن ثم يجد المبدع نفسه عند ظهوره ، محاطاً بجمهرة خامدة عاطلة من الابتداع ، يحرقه تيارها ، حتى ولو كان سعيد الحظ بالاستمتاع برفقة نفوس تتآلف معه .

إن جميع أفعال الإبداع الاجتماعى ، هى نتيجة أعمال عباقرة أفراد ، أو أكثر ما يكون أقلية عبقرية . وتختلف وراءها فى كلتا الحالتين ، أكثرية أعضاء المجتمع الغالبة .

ومصدّقاً لذلك ؛ إذا ما ألقينا نظرة على الهيئات الدينية الكبرى المنتشرة فى العالم فى الوقت الحاضر : المسيحية والإسلام والهندوكية ؛ سنجد أن الجمهرة العظمى من مريديها المنتسبين إليها - مهما يكن من أمر إعلائهم شأن العقائد التى يؤدون فرائضها - ما تزال تعيش فى نطاق ذهني لا يبعد عن كونه من ناحية اتصاله بالدين وثنية مجردة .

والمثل يقال ؛ بالنسبة للمآثر التى حققتها حديثاً حضارتنا المادية . فإن معلوماتنا العلمية الغربية وأسلوبنا التكنولوجى لتحويلها إلى عملية حسابية ، أمر يحمل بين ثناياه خطورة أصيلة . لأن القوى الاجتماعية الجديدة للديمقراطية والاتجاه الصناعى ؛ قد انبثقت عن أقلية ضئيلة مبدعة . فى حين لا تزال جمهرة الإنسانية - فى جوهرها - فى نفس المستوى الثقافى والخلقى الذى كانت عليه ، قبل بدء انبعاث القوى الاجتماعية الجديدة الهائلة . وفى الواقع ؛ فإن مدار

الخطر الذى يهدد « الملح الغربى » - المعترف به فى الأرض - بفقدان مذاقه ؛
 يتمثل فى بقاء الجمهرة من الكيان الغربى الاجتماعى « غير مملحة » .

وتحمل الحقيقة المجردة القائلة بأن استطالات الحضارة هى من نتاج أفراد
 مبدعين أو أقليات مبدعة ؛ تحمل بين ثناياها مشكلة مدارها أن الأغلبية
 العاطلة من الإبداع ، ستترك متخلفة ، اللهم إلا أن استطاع الرواد تدبير
 بعض الوسائل لحمل رجال مؤخرة القافلة الكسالى على السير معهم قدماً أثناء
 تقدمهم المثير . ويقتضى منا هذا الاعتبار تكييف تعريف الاختلاف بين
 الحضارات والجماعات البدائية الذى سبق لنا استخلاصه :

ولقد علمنا فى قسم سابق من هذه الدراسة ، أن الجماعات البدائية - كما
 نعرفها - هى فى حالة ثابتة ؛ بينما أن الحضارات - باستثناء الحضارات
 المتعطلة - هى فى حركة ديناميكية . وحرى بنا الآن أن نقرر بأن الحضارات
 النامية ، تختلف عن الجماعات البدائية الثابتة ، بفضل الحركة الديناميكية
 للشخصيات الفردية المبدعة ، إبان تكوينها الاجتماعى ؛ ويجب أن نضيف ، أن
 هذه الشخصيات المبدعة ، لم تصل - فى أقصى قوتها العددية - إلى أبعد من
 أقلية صغيرة ؛

ونجد الأكثرية العظمى من الأعضاء المشتركين فى كل حضارة نامية ،
 فى نفس الحالة الساكنة المتوقفة عن التقدم ؛ مثلها مثل أعضاء مجتمع بدائى
 ساكن . وأكثر من ذلك ، فإن الأكثرية العظمى للمشاركين فى حضارة
 نامية هم - باستثناء القشرة العلمية المبسوطة فوقهم - أناس لهم انفعالات
 تتفق مع البشرية البدائية . وهنا نعر على عنصر الحقيقة ، فى القول بأن الطبيعة
 البشرية لا تتغير قط . فإن الشخصيات السامية من العباقرة والمتصوفين
 أو الرجال الكاملين - سمهم كما تشاء - لا يزيدون عن كونهم خيرة فى الكتلة
 البشرية العادية ؛

وعلىنا الآن أن نتمعن فى كيفية استطاعة هذه الشخصيات الديناميكية

التي نجحت في تحطيم ما يدعوه باجهوت « قرصة العادة » في داخليتها نفسها ، كيف أمكنها بالفعل تعزيز انتصارها الفردى وحايته من التحول إلى هزيمة اجتماعية ، بفضل قيامها بحطم « قرصة العادة » في وسطها الاجتماعى .
ويتطلب حل هذه المشكلة :

أولاً - بذل جهد مضاعف ، يقوم به بعض الناس لابتكار اختراع جديد .

ثانياً - بذل جهد آخر يبذله بقيتهم لتطبيقه ، وتكييف أنفسهم وفقاً له :
ويتأتى تسمية المجتمع بحضارة ، بفضل توافر أفعال الإقدام إلى جانب قابلية التعليم . وفى الحقيقة فإن إكمال توافر الشرط الثانى أكثر صعوبة من توافر الأول . وليس العامل الذى لا غناء عنه والذى لم يخضع للجماعات الغير المتحضرة هو الشخصية السامية^(١) . وأخرى بأن يتمثل العامل المفقود ، فى الفرصة المتاحة لأفراد لهم هذا الطابع ؛ لأظهر تساميمهم ، وميل الأفراد الآخرين من الجهة الأخرى إلى اتباع خطاهم^(٢) .

ريبدو أن لمشكلة كفاءة اقتفاء الأثرية العاطلة من الابتداء ؛ أثر الأقلية المبدعة اقتفاء فعلياً ، حلين :

الأول : عملى .

والآخر : تصوورى .

فالحل الأول - عن طريق التدريب .

والثانى - بوساطة التصوف .

وتغرس الطريقة الأولى فضيلة قوامها العادات الغير الشخصية : وتغرى

(١) ويبدو عدم وجود سبب يدعو إلى حيافة الطبيعة على طائفة من هذه الأوهام المباركة فى جميع الأمكنة والأوقات . (المؤلف)

(٢) برجون : المرجع السابق صفحة ١٣١ .

الثانية بمحاكاة شخصية أخرى ، بل تذهب إلى أبعد من ذلك فتغريها بتحقيق اتحاد روحي ، اتحاد بربطها بها ربطاً تاماً تقريباً^(١) .

ولاريب أن الاستثارة المباشرة لطاقة الابتداع من نفس إلى نفس ، هي الطريقة المثلى . ولكن إن اعتمد عليها اعتماد مطلقاً ، فإن هذا هو قصد التمام . ولا يتأتى من الناحية العملية — على نطاق اجتماعي — حل مشكلة إدخال من هب ودب من العاطلين عن الابتداع ، في صف واحد مع الرواد المبتدعين من غير الإتيان بموهبة المحاكاة المجردة ، إلى مجال الحركة . والمحاكاة المجردة ، هي أقل المواهب العظيمة للطبيعة البشرية ، وتحتوى على تدريب أكثر مما تحتوى على إلهام .

ويعتبر إتيان المحاكاة إلى مجال الحركة ، أمراً لا غناء عنه في سبيل إدراك الغاية التي نحن بصدددها . لأن المحاكاة هي — على أية حال — أحد مواهب الإنسان البدائي العادية . ولقد لاحظنا قبل الآن ، أن المحاكاة هي ظاهرة نوعية للحياة الاجتماعية ؛ في المجتمعات البدائية وفي الحضارات على السواء . لكنها تعمل بأسلوبين مختلفين في هذين النوعين من المجتمع :

ففي المجتمعات البدائية ؛ توجه المحاكاة إلى الجيل الأسن من الأعضاء الأحياء ، وإلى الأموات الذين تتجسد فيهم « قرصة العادة » . على حين توجه نفس الموهبة ، إلى الشخصيات المبدعة التي تشق أرضاً جديدة : إن الموهبة هي ذاتها في الحالين ، لكن الاختلاف هو في الاتجاه .

هل في مكنة هذه الصيغة المستعادة للتثقيف البدائي الاجتماعي — هذا الميل المتكلف والآلى في الغالب نحو اليمين أو اليسار — أن تحمل حقاً محل الصلة الشخصية الوثيقة ، التي أثبت أفلاطون أنها الوسيلة الوحيدة لنقل فلسفة من فرد إلى آخر ؟

قوام الإجابة ؛ أن استخدام الطريقة الأفلاطونية استخداماً مطلقاً ، لم ينبن عليه في الواقع نمط إخضاع جمهرة البشرية للأفراد . إذ ما برحت الطريقة المثلى للإلهام الفردى المباشر ؛ تتطلب دائماً ، تعزيزها الفينة بعد الأخرى ، باستخدام الطريقة العملية القائمة على التثقيف الاجتماعى العام . وذلك عمل شائع في البشرية البدائية . ويتأتى الانتفاع به في خدمة قضية التقدم الاجتماعى ؛ وقتما يتسلم الزمام قادة جدد ، يصدرون أوامر للسير جديدة .

ولقد تقود المحاكاة إلى حيازة « الذخيرة » الاجتماعية وقوامها : النزعات الفطرية ، أو الانفعالات ؛ أو الآراء التى لم تنبعث عن القائمين عليها ، والتى لم يكن ليتأتى امتلاكهم لها ، لو لم يتلاقوا مع مالكيها الأصليين ؛ ويحاكوهم . وإنما في الواقع طريق قصير .

وسنجد في نقطة تالية من هذه الدراسة ، أن هذا الطريق القصير — وإن كان يحتمل أن يكون سبيلاً يقود إلى الهدف الأساسى لا مناص من اتباعه — إلا أنه كذلك واسطة غامضة ، لا تقل في حتميتها عن السبيل السابق ؛ في تعريض الحضارة النامية إلى خطر الانهيار . على أن مناقشة ذلك الخطر هنا عمل سابق لأوانه .

٢ — الاعتزال والعودة

الأفراد

١ — عرض عام :

درسنا في القسم الأخير ؛ السبيل الذى اتبعته الشخصيات المبدعة في اتخاذها طرق التصوف ، وهو أعلى مستوياتها الروحية . وشاهدنا أنهم قد اجتازوا في بدء الأمر ، الفعل إلى الانجذاب . ثم خلّفوا حالة الانجذاب بعد ذلك ، إلى الفعل على مستوى جديد أعلى .

وباستخدامنا مثل هذا التعبير ؛ نصف حركة الابتداع ، بوساطة استعمال اصطلاحات التجربة النفسية للشخصية . وباستعمال مصطلحات علاقات الشخصية الخارجية مع المجتمع الذى ينتمى إليها ، نتمكن من وصف ازدواجية الحركة ذاتها ، إن أطلقنا عليها اسم « الاعتزال والعودة » .

وبتتيح الاعتزال للشخصية ، تحقيق الطاقات فى ذات داخليتها . وهى طاقات تظل هاجعة إن لم يُفكَّ إسارها - فترة ما - من الأحاييل والشباك الاجتماعية التى تتردى فيها الشخصية . ولقد يكون الاعتزال فعلاً اختيارياً قامت به الشخصية من تلقاء نفسها ، أو تفرضه عليها ظروف أقوى من إرادة تلك الشخصية . والاعتزال فى أية حالة ؛ فرصة - وربما شرط ضرورى - ليتجلى الناسك . وتعنى كلمة الناسك حرفياً فى الأصل اليونانى « ذلك الذى يعتزل القوم » .

لكن التجلى باتخاذ طريق الاعتزال ؛ يصبح بلا غاية ، بل ويغدو لا معنى له . اللهم إلا إن أصبح توطئة لعودة الشخصية المتجلىة إلى الوسط الاجتماعى الذى وفدت منه أصلاً . ويتضمن هذا الوسط ، البيئة الأصلية للحيوان الاجتماعى البشرى^(١) ، ولن يستطيع الإنسان التغرب عن هذه البيئة دواماً ، إلا إن أنكر صفته البشرية ؛ فيغدو مصداقاً لعبارة أرسطو إما وحشاً أو إلهاً .

وبالأحرى ، فإن العودة ، هى جوهر الحركة برمتها ؛ كما أنها العنقيدة النهائية . وهذا واضح فى القصة السورية عن صعود موسى جبل سيناء منفرداً . إن موسى قد صعد الجبل بغية التحدث مع ياهوى Yahweh أو تلبية لندائه . ولقد اقتصر النداء على موسى وحده دون بقية بني إسرائيل ، الذين أمروا بالبقاء بعيداً . على أن جماع غاية « ياهوى » برمتها من نداءه موسى ليصعد

(١) أى الإنسان .

الجليل ، هو إعادته إلى السطح ثانية حاملاً قانوناً جديداً . فُرض على موسى إبلاغه بقية الشعب التي كان أفرادها عاجزين عن مشاركة موسى الصعود وتلقى الرسالة بأنفسهم :

« وذهب موسى إلى الرب ، وناداه الرب من الجبل قائلاً : إنك ستقول إلى بيت يعقوب وتخبر أبناء إسرائيل وأعطي موسى بعدما انتهى من رسالته إليه على جبل سيناء ، لوحى الشهادة مكتوبين بأصبع الرب »^(١). وبالمثل : نجد التوكيد بشأن العودة قوياً بالنسبة لتجربة النبوة والبعثة النبوية ، مصداقاً لما يذكره عنها الفيلسوف العربي ابن خلدون في القرن الرابع عشر المسيحى :

« . . . إن للنفس استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لحظة من اللحظات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل . . . ثم تعود النفس إلى البشرية بعدما تستقبل عن طريق الملائكة الرسالة التي يوكل إليها إبلاغها إلى البشر »^(٢) . ويخيل إلينا إزاء هذا التفسير الفلسفى للمذهب الإسلامى عن النبوة ، أننا نلقف ترديداً لعبارة مشهورة فى الفلسفة الهلينية « ابتسامة أفلاطون للكهف » .

فإن أفلاطون فى هذه العبارة ، يمثل الجمهرة البشرية ؛ بمساجين فى كهف يقفون مولين ظهورهم للضوء ومحدقين فى أطيايف تطرحها على مرآة الحقائق التى تنتقل وراءها . ويسلم المسجونون جدلاً بأن الأطيايف التى يرونها

(١) اعتمد العلامة توينبى فى كتابة هذا القسم على المصادر اليهودية والمسيحية وحدها .
(المترجم)

Evodus XIX. sandXXXI. 18. see of k XIX, Kassinrei

(٢) نقلت هذه العبارة عن الأصل الوارد بمقدمة ابن خلدون صفحة ٨٤ طبعة بيروت .

سنة ١٨٨٦ . (المترجم)

على حائط الكهف الخلفى ، هى الحقائق القصوى . طالما أن هذه هى الأشياء الوحيدة التى تيسر لهم رؤيتها .

ثم يتخيل أفلاطون بعد ذلك سجيناً أطلق سراحه وحده على غير انتظار ، وأجبر على أن يدور ليواجه الضياء وأن يسير خارجاً نحو الخلاء . إن النتيجة الأولى لإعادة توجيه الرؤية هذه ، انبهار السجين المحرر وارتبائه . لكن هذا لن يطول أمداً طويلاً ، إذ لا يلبث هذا السجين إلا قليلاً ثم يُؤتى فعلاً موهبة الرؤيا ، فتكشف له عيناه بالتدريج طبيعة دنيا الحقيقة . فإن أعيد إلى السجن بعد ذلك ، ينتابه نفس الشعور بالحيرة والانبهار ، شعور ناتج هذه المرة عن العتمة ، ويمثل ما حدث له لما تعرض لضوء الشمس . وكما انتابه شعور الأسف لتعريضه لأشعة الشمس ، ينتابه هذا الشعور هذه المرة لإعادة تعريضه للعتمة . كما أنه يتعرض كذلك لخطر شعور العداء الذى يستقبله به زملاؤه فى الكهف عند عودته ، لأنهم لم تقع أبصارهم على ضياء الشمس .

« سيسخرون منه بالتأكيد ، وسيقال عنه إن النتيجة الوحيدة لفراره ، عودته فاقد النظر . وتفسير ذلك من الناحية المعنوية : أن محاولة الصعود إلى أعلى عبث ؛ أما عن الفضول الذى يرنو إلى التحرر لبلاوغ هذه الأجواء العليا ، فإن سنحت لنا فرصة القبض عليه وقتله ، سنغتنيها بكل تأكيد » .

ولعل قراء شعر روبرت براوننج يذكرون بهذه المناسبة رؤياه عن عازر Lazarius^(١) . فهو يتخيل عازر الذى نهض من بين الأموات بعد أربعة أيام من موته ؛ لا بد أنه قد عاد إلى « الكهف » مختلفاً تماماً عما كان عليه وقتما غادره . ويضمّن وصفاً لعازر البيثانى Lazarius of Bethany هذا نفسه

(١) عازر هو الرجل الذى أحياه السيد المسيح عليه السلام بعد موته كما تقرر الاناجيل .
(المترجم)

بعد انقضاء أربعين سنة من تجربته الفذة : في رسالة ألّفها ما يدعى كارشيش Karshish وهو طبيب رحالة عربي تخيله براوننج يكتب تقارير دورية يرسلها إلى رب عمله . وعلى ما رواه كارشيش ، فإن أهالي قرية بيناني يختارون في أمر عازر المسكين ، وأصبحوا ينظرون إليه باعتباره أبله القرية . على أن كارشيش قد « استمع إلى قصة عازر لكنه غير متأكد منها » .

وبالأحرى أخفق عازر - وفقاً للشخصية التي ابتدعها براوننج - في أن يعود عودة ذات تأثير ، على أية صورة من الصور . لأنه لم يتحول إلى نبي أو إلى شهيد . بل قد غدا يعاني العودة في الصورة التي تحدث عنها أفلاطون ، مع اختلاف في المصير ؛ فقد أصبح وجوده يقابل بالتسامح مع تجاهل شخصه .

وصور أفلاطون نفسه محنة العودة في ألوان غير جذابة إلى درجة تجعلنا نعجب لما نجده يفرضها في فظاظه على فلاسفته المنتخبين^(١) . بيد أنه إذا كان توافر عنصر الفلسفة ضرورياً في النظام الأفلاطوني ؛ فإنه لا يقل عن ذلك ضرورة ، أن يبقوا فلاسفة فقط . فإن مغزى استنارتهم والغاية منها ، أن يصبحوا ملوكاً فلاسفة . ولا شبهة في أن السبيل الذي استنه أفلاطون لهم ، يتماثل مع السبيل الذي وطأه فلاسفة المسيحية بعد ذلك . على أنه بينما يتماثل طريق الفلسفة الهلينية مع طريق الفلاسفة المسيحيين ، إلا أنه يوجد تماثل في الروح عند الفريقين .

إذ نجد أفلاطون يسلم بأن لامناص من التعارض بين مصلحة الفيلسوف المتحرر المستنير ورغبته الشخصيتين ؛ ومصلحة جمهرة أتباعه من الناس الذين ما يزالون « يجلسون في الظلام وفي ظل الموت مقيدين تقيداً شديداً بالبوُس والحديد »^(٢) . ومهما يكن من أمر ميول المسجونين ، فإن الفيلسوف لن يستطيع - وفقاً لما يعرضه أفلاطون - أن يسد احتياجات البشرية من

(١) انظر نظام جمهورية أفلاطون في مؤلف المترجم « المدينة الفاضلة » . (المترجم)

(٢) سفر الأمثال .

غير التضحية بسعادته الشخصية وكماله الذاتي ؛ وذلك لأنه عندما يبلغ الاستنارة ، خير للفيلسوف نفسه أن يظل خارج الكهف عائشاً في الضياء سعيداً على الدوام .

وحقاً ؛ فإن مدار العقيدة الأساسية في الفلسفة الهلينية ، أن أفضل حالات الحياة هي حالة التأمل ؛ ويعبر عنها بكلمة يونانية أصبحت تعني كلمة « نظرية » ، وهي كلمة أصبحت تستخدم عادة نقيضاً لكلمة « الفعل » . ويضع فيثاغورس حياة التأمل فوق حياة الفعل . ويسرى هذا المذهب في التقاليد الفلسفية الهلينية ، حتى المدرسة الأفلاطونية الحديثة التي لبثت قائمة حتى آخر العهد بالمجتمع الهليني إبان تحلله .

ويميل أفلاطون إلى الاعتقاد بأن فلاسفته سيوافقون على المساهمة في العمل في سبيل هناءة العالم ، مسيرين بشعور الواجب وحده . لكنهم لم يفعلوا ذلك ، في حقيقة الأمر . وقد يكون رفضهم ، جانباً من تفسير مشكلة سبب الانهيار الذي كابدهته الحضارة الهلينية ، في الجيل الذي كان لا يزال متأثراً بآراء أفلاطون .

كما أن سبب « الامتناع الشديد » الذي أبداه الفلاسفة الهليونون ، واضح كذلك . فإن تقييد حريتهم معنوياً ، كان نتيجة لخطأ في الاعتقاد . فإنهم باعتمادهم بأن « الانجذاب » - وليست العودة - هي المطمح الأوحى للأوديسية الروحية التي ألقوا عليها ؛ لم يروا شيئاً سوى تضحية على مذبح الواجب في الطريق الأليم من الانجذاب إلى العودة ؛ التي هي في حقيقة الأمر الغاية ، وذروة الحركة التي ارتبطوا فيها .

ولقد افترقت تجربة الفلاسفة الهلنيين الصوفية إلى الحب . والحب هو فضيلة المسيحيين الرئيسية ، التي تلهم الصوفية المسيحية ، العبور مباشرة من أعلى العشاء الرباني إلى دسكرة^(٢) ناقصي الاعتبار مادياً ومعنوياً ، في عالم الحقيقة والواقع ؛

ولست حركة الاعتزال والعودة هذه ، وقفاً على الحياة البشرية وحدها .
وتأتى ملاحظتها فقط فى علاقات أفراد البشر ، بعضهم ببعض . إذ تنسم
به الحياة بصفة عامة . وتبدى للإنسان فى حياة النباتات ، عندما تصبح للحياة
النباتية أهمية لديه ، بفضل ممارسة الزراعة . والزراعة ظاهرة قادت الخيلة
البشرية ؛ إلى التعبير عن أمانى البشر ومخاوفهم ، باستخدام المصطلحات
الزراعية .

ومصدّقاً لذلك ؛ يُعبّر عن الدورة السنوية لاعتزال القمح وعودته ؛
بمصطلحات تشبيهية ، استخدمت فى الشعائر وفى القصص . كما تشهد بذلك
أسطورة اغتصاب كورى Koré واستعادتها ، أو برسيفونى^(١) ، أو موت
ديونيسوس وبعثه ، أو أدونيس ، أو أوزيريس . . . أو ما شابه ذلك من
الأسماء التى كانت تطلق فى البلاد المختلفة على روح الحنطة العالمية ؛ أوروب
السنة الذى كانت طقوسه وأسطورته تنتشر فى كل مكان يمارس الزراعة .
وكانت خصائصه تتشابه ، وتقوم بأداء الدور نفسه فى المأساة الحزينة ،
تحت أسماء مختلفة .

وبالمثل ، عثرت الخيلة البشرية فى حياة النبات ؛ على ما يمثل الحياة
البشرية فى مجال اعتزال وعودة . وكان ذلك بالنسبة لمشكلة الموت ؛ وهى
مشكلة تشقى بها عقول البشر منذ اللحظة التى شرعت فيها الشخصيات الكبرى
فى الحضارات النامية ، فى تحرير أنفسها من جمهرة البشرية .

ولكن قد يقول قائل : كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون ؟ « يا غبى .
الذى تزرعه لا يحيا إن لم يم . والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى

(١) هى فى الأساطير اليونانية ابنة زيوس من ديمتر . خطفها بلوتو ملك العالم السفلى
واتخذها زوجة له . فعدت أمها على سبيل الانتقام إلى منع النبات من النمو ، فعرض البشر
للجوع . عندئذ تدخل زيوس لدى بلوتو فأطلق سراح بيرسيفونى ، ثم اتفق أخيراً على أن
تعيش ثلثى العام (أو نصفه) مع أمها وبقيّة العام مع زوجها بلوتو . (المترجم)

سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقي . ولكن الله يعطيها جسماً ، كما أراد ، ولكل واحد من البذور جسمه . هكذا أيضاً قيامة الأموات . يزرع في فساد ، ويقام في عدم فساد . يزرع في هوان ، ويقام في مجد . يزرع في ضعف ، ويقام في قوة . يزرع جسماً حيوانياً ، ويقام جسماً روحانياً . يوجد جسم حيوانى ويوجد جسم روحانى . هذا مكتوب أيضاً : صار آدم الإنسان الأول نفساً حية ، و آدم الآخر روحاً حياً . الإنسان الأول من الأرض ، ترابى . الإنسان الثانى ، الرب من السماء (١) .

تعرض هذه الفقرة من الرسالة الإنجيلية الأولى التى وجهها بولس إلى أهالى كورنثيا ، أربعة أفكار متلاحقة ، هى فى نفس الوقت كعلامة التصعيد الموسيقية Crescendo .

الفكرة الأولى : إننا نشهد لونا من البعث ؛ إذ نعاين عودة الحنطة فى الربيع ، عقب انسحابها فى الخريف .

الفكرة الثانية : أن بعث الحنطة ، تؤكد لبعث الموتى من البشر . ويعتبر هذا تأكيداً لمبدأ كان يُدرّس فى الطقوس الهلينية الخفية ، قبل ظهور بولس بزمان طويل .

الفكرة الثالثة : جواز بعث البشر . ويتيسر حدوثه بفضل نوع من التشكيل الذى تتعرض له فطرتها ؛ بواسطة فعل الله خلال فترة الترقب التى تقع بين موت البشر وعودتهم إلى الحياة . ويؤكد هذا التشكيل لموتى البشر ، تشكيل البنور الظاهر إلى زهور وفاكهة . وهذا التغيير فى الفطرة البشرية ، هو تغيير فى اتجاه أعظم ، فى نواحي الاحتمال والجمال والقوة الروحانية .

الفكرة الرابعة : تعتبر هذه الفقرة آخرها وأكثرها تسامياً . فإنه فى

(١) رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (إصحاح ١٥ آيات ٣٥ - ٨ و ٤٢ - ٥ و ٤٧ -) (الترجمة العربية) . (المترجم)

الرأى المتصل بفكرة الرجل الأول والرجل الثانى^(١) ؛ يُتغاضى عن مشكلة الموت ، ويسمى مؤقتاً الاهتمام ببعث الفرد البشرى . أما عند حلول « الإنسان الثانى » وهو « الرب من السماء » ؛ فإن بولس يهتف لخلق نوع جديد قوامه فرد واحد قد ترنو رسالته إلى رفع بقية البشرية إلى المستوى القدسى ، بفضل الإلهام الذى استمدته من الله .

وهكذا يُتبين من آراء بولس ، أنه يتيسر إدراك « خطة » الاعتزال نفسها والتشكل ؛ اللذين يمهدان إلى عودة يحيطها الحجد والقوة ؛ فى التجربة الروحية للتصوف ، وفى الحياة المادية لدنيا النبات ، وفى تأملات البشر عن الموت والحلود ، وفى خلق نوع أعلى من نوع أدنى . وظاهر أن هذا منهج مجاله الكون ؛ وقد أتاح صورة من الصور الأسطورية الأصيلة ، التى تعتبر شكلا يهيم* فهم حقائق الكون والتعبير عنها .

وثمة أسلوب « للخطة » أسطورى الاتجاه يخالف ما تقدم ؛ ويبدو فى قصة اللقيط . ومبناها ؛ ولید ذو نسب ملكى ، يُنبذ إبان طفولته ، يلفظه فى بعض الأحيان أباه أو جدّه^(٢) الذى يتلقى تحذيراً فى منامه . أو بوساطة نبوءة عن طفل يقدر له أن يأخذ مكانه . وينبذه فى بعض الأحيان مغتصب أزاح أبا الوليد عن مكانه الشرعى ، ويخشى أن يكبر الوليد ويأخذ الثأر منه^(٣) . وفى بعض الأحيان تضع الوليد أيد رحيمة تهتم بنجاته من خطط شريرة سفاحه تدبر ضده^(٤) . وتنقذ حياة الطفل المنبؤ فى المرحلة التالية من القصة بأعجوبة ؛ وفى الفصل الثالث من القصة بعد أن يصبح فى

(١) الرجل الأول عند المؤلف هو الذى يخلق من التراب والثانى هو الروح بعد تحررها من ترابيتها . (المترجم)

(٢) كما فى قصتى أويديبوس وبرسوس Eedipus and Perseus . (المؤلف)

(٣) كما فى قصة رومولوس Romulus . (المؤلف)

(٤) كما فى أقاصيص جاسون وأوريستين Jason وزيوس وحورس وموسى وقوروش .

(المؤلف)

مرحلة الرجولة ويصب في قالب البطولة بفضل المصاعب التي يكابدها ،
يعود قوياً يحوطه الجند ويدخل مملكته .

ونشاهد في قصة المسيح ، تكرار « خطة » الاعتزال والعودة دواماً :
فإن المسيح هو الوليد ذو النسب الملكي - وريث داود أو ابن الله نفسه -
الذي يُطرح بعيداً في طفولته . إنه يفد من السماء ليولد على الأرض ،
وإنه يولد في بيت لحم نفس مدينة داود . لكنه لا يجد مكاناً في الزل ،
ويولد من ثم في المذود ، مثلما ولد موسى في قاربه ، وبرزوس في خزانته .
وترعى المسيح في الإسطبل حيوانات صديقة ، مثلما سهرت الذئبة على
رومولوس ، وحرس الكلب قورش . ويتلقى كذلك خدمات الرعاة ،
ويتبناه والد من أصل وضع ، على غرار ما تم لرومولوس وقورش
وأوديبوس . ثم ينقذه من مؤامرة هيرود الدموية ، خله خلصة إلى
مصر ، مثلما أنقذ موسى من مؤامرة فرعون الدموية ، بإخفائه في نبات
البردى ؛ وكما وضع جاسون بعيداً عن متناول الملك بلياس Pelias بإخفائه
في معقل جبل بليون Pelion . ويفقد المسيح في نهاية القصة - كما
يعود الأبطال الآخرون - ليدخل مملكته ؛ مملكة يهوذا . وعندما
يدخل أورشليم ، تهتف له الجماهير باعتباره ابن داود . وأخيراً يدخل السماء
في صعوده .

وتتطابق قصة عيسى في هذا جميعه ، مع النمط المألوف لرواية الوليد
اللقيط . على أن الخطة الكامنة في الأناجيل للاعتزال والعودة ، تعرض نفسها
كذلك في أشكال أخرى :

فهى موجودة في كل تجربة من التجارب الروحية المتتابعة ، التي تبدت
فيها ربوبية المسيح تدريجياً . فإذا ما أحس المسيح برسالته حين عمده
يوحنا ، ينسحب إلى القلا ويظل فيها أربعين يوماً ؛ يعود بعدها من تجربته
هناك بقوة الروح القدس . وعندما يتحقق المسيح بأن رسالته ستقوده إلى

موته ، ينسحب ثانية إلى « الجبل العالى منفرداً » ؛ ولجبل هو « شهد » تجليته . ويعود من هذه التجربة مسلماً أمره إلى الله ، وعاقدا النية على الموت . ومرة أخرى بعدما يعانى على الصليب سكرات الموت البطيء وهو سمة الإنسان الفانى ، يهبط إلى القبر ليقوم خالداً وقت البعث . وهذا القيام ، أى صعوده ؛ يعنى « انسحابه من الأرض إلى السماء ليعود مرة أخرى مكلاً بالمجد ليحكم الحى والميت ، والتى مملكته لا نهاية لها » .

ول هذه المعاداة الرقيقة المتصلة بخطّة الاعتزال والعودة فى قصة المسيح ، ما يماثلها كذلك :

فإن فرار موسى إلى مدين ، يماثل انسحاب المسيح إلى البيداء . وإن تجلّى المسيح على جبل عال منفرداً ؛ بعيد إلى الذهن ، تجلّى موسى على جبل سيناء .

ولقد تنبأت الطقوس الهلينية الخفية بموت كائن إلهى وبعثه . وتكهنت الأسطورة الزرادشتية ، بالشخصية الرائعة التى يقدر لها الظهور والسيطرة على المشهد ، عند حلول الكارثة التى تعمل إلى إنهاء النظام الأرضى الحالى ؛ تكهنت به على صورة مخلص .

كما تنبأت به الأسطورة اليهودية فى صورتى « مسيح » و « ابن الإنسان » . بيد أن ثمة طابعاً للأسطورة المسيحية ، ظاهر أن لا نظير له فيما سبق من الأساطير . ألا وهو تفسير مجيء المخلص فى المستقبل أو المسيح ، بأنه عودة شخصية تاريخية إلى الأرض ، سبق لها أن عاشت عليها على غرار كائن بشرى .

ومن بين ثنانيا وميض المشاهدة العقلية هذه ، يترجم الماضى الأبدى لأسطورة اللقيط ، والحاضر الأزلى للطقوس الزراعية ؛ يترجم هذا كله إلى هدف مسعى البشرية .

ويظهر أن وميض المشاهدة العقلية الذى صوّرت فيها الفكرة المسيحية

عن «القدوم الثاني» ، لابد وأنه كان استجابة لتحد يتصل بالزمان والمكان . أما عن قول الناقد بأنه لا توجد في الأشياء أكثر مما يوجد في أصولها ؛ فإن افتراضه الخاطئ هذا ، يحطّ من قدر هذه العقيدة المسيحية . ويقوم هذا النقد على أن العقيدة المسيحية قد تولدت في محيط « خيبة » الجماعة المسيحية الأولى ، عندما أدركت أن « سيدها » قد قدم فعلا ، ثم رحل دون انتظار للنتيجة . لأن الموت قد فرض عليه ، وسلب الموت أتباعه — إلى المدى الذي يمكن إدراكه — أمانهم . فإذا كان عليهم أن يجمعوا شتات همّتهم المفقودة ليحملوا رسالة ؛ فلا مناص من أن ينتزعوا وخزة الفشل من سيرة سيدهم ، بفضل تحويلها من الماضي . إلى المستقبل . ويتطلب ذلك أن يُبشّروا ، بأن سيدهم سيعود ثانية إلى المجد والسلطان^(١) .

ولقد تأثرت جماعات أخرى بسيرة المسيح ، فاعتنقت عقيدة «القدوم الثاني» .

ففي أسطورة «القدوم الثاني» لآرثر مثلاً ، واسى البريطانيون أنفسهم لإخفاق آرثر التاريخي في الانتصار على غزاة البرابرة الإنجليز ، بالاعتقاد بعودته مرة أخرى .

وعزّى ألمان العصور الوسطى أنفسهم عن إخفاقهم في الاحتفاظ بزعامتهم على المسيحية الغربية ، بالاعتقاد بعودة الإمبراطور فردريك بارباروسا (١١٥٢ - ٩٠ ميلادية) مرة أخرى ، وفي هذا يقول أحد المؤرخين^(٢) : « إلى الجنوب الغربي من السهل الأخضر الذي يكتنف صخرة سالزبرج ، تتجههم كتلة الأونترسبرج Untersberg الهائلة على الطريق التي تطوى مضيقاً

(١) تختلف سيرة السيد المسيح عليه السلام في المصادر المسيحية عن سيرته في المصادر الإسلامية اختلافاً أساسياً . كما يرض الأستاذ المؤلف هنا تحليله لشخصيته عليه السلام على صورة تخالف ما هو وارد في المصادر المسيحية التقليدية . (المترجم)

Bryce, games : The Holy Roman Empire, Ch. XI, ad fin. (٢)

طويلاً إلى خور وبحيرة برختسجادين Berchtesgaden . وهناك بعيداً إلى أعلى بين القنن الجيرية الوعرة في نقطة نادراً ما تبلغها قدم بشرية ، يدل فلاحو الوادي المسافر على فتحة سوداء لكهف يقولون بأن هناك يرقد بارباروسا وفرسانه في سبات فتان ، ينتظرون الساعة التي تنقطع فيها الغربان السوداء عن التحليق حول القمة ، وتزهو شجرة الكمثرى في الوادي ؛ لينزل مع أتباعه المجاهدين ليعيدوا إلى ألمانيا العصر الذهبي للسلام والقوة والوحدة » .

ولما فقدت جماعة الشيعة في العالم الإسلامي معركتها وأصبحت طائفة مضطهدة ، احتضنت فكرة أن الإمام الثاني عشر^(١) (الوارث الثاني عشر المنحدر من علي زوج ابنة النبي) لم يمت ، لكنه اختفى في كهف حيث يستمر في تزويد شعبه بالإرشاد الروحي والزمني ، وأنه سيعود مرة أخرى باعتباره المهدي المنتظر . وتكون على يديه نهاية عصر الطغيان الطويل الأمد^(٢) .

وإذا ما عدنا أدراجتنا إلى عقيدة « القدوم الثاني » في عرضها المسيحي التقليدي ؛ سنجد أنها بالفعل إشارة أسطورية باستخدام التصور الحسي ، إلى العودة الروحية التي يعيد فيها سيّد الخواريين المهزوم ، تأكيد مقامه في قلوب الخواريين ، وقمًا قويت عزائمهم على إنجاز رسالة سيدهم الجريئة التي

(١) الإمام محمد المهدي صاحب الزمان وهو ابن الإمام الحادي عشر ، حسن العسكري . والإمام المهدي ، لم يمت كما يقول الأستاذ توينبي ولكنه - وفقاً لاعتقادات الشيعة الاثني عشرية - قد اختفى وهو طفل في السادسة وعين نائباً عنه نقيباً وتوالى النقباء حتى بلغت عدتهم أربعة . وهذه هي الغيبة الصغرى للإمام . ثم أعلن النقيب الرابع أن الإمام سيفيب غيبته الكبرى وأنه سيظهر آخر الزمان ليملا الأرض عدلاً ونوراً بعد أن ملكت ظلاماً وفجوراً . (المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ توينبي مذهب الشيعة الاثنا عشرية . أما الشيعة الإسماعيلية فإن إمامهم قائم وهو الآن آغا خان الرابع . وقد افرقت الطائفتان بعد وفاة الإمام جعفر الصادق ، إذ رأى فريق أن ابنه الثاني موسى الكاظم ، أحق بالإمامة ، وهؤلاء هم الاثنا عشرية . أما الفريق الآخر فرأى أن الإمامة تنتقل إلى ابن إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق ، وهؤلاء هم الإسماعيلية . (المترجم)

وضعها على عاتقهم مرة أخرى . وذلك على الرغم من غياب صورة السيد المادية .

هذا ؛ ويُصور انبعاث شجاعة الحوارين وإيمانهم الإبداعيين بعد فترة الحنية والقنوط ، في هيئة أفعال أسطورية ، وفي صورة نزول الروح القدس يوم عيد العنصرة .

وإذ تمكنا من تفهّم المعنى الحقيقي المراد بالاعتزال والعودة ؛ نصبح والحالة هذه ، في مركز أنسب للقيام باستعراض تجريبي لمجال فعل المبدأ في المحيط البشري ؛ عن طريق تفاعل الشخصيات المبدعة والأقليات المبدعة ؛ مع رفاقها البشر .

وتطالعنا أمثلة تاريخية مشهورة لمجال فعل « الاعتزال والعودة » ، في كثير من مراحل الحياة المختلفة . وسنجاهبها في حياة المتصوفة والقديسين والساسة والعسكريين والمؤرخين والفلاسفة والشعراء . كما سنجاهبها في تاريخ الأمم والدول والأديان .

ولقد عبّر والتر باجهوت عن الحقيقة التي تسعى إلى إماطة اللثام عنها ؛ عندما كتب :

« كانت جميع الأمم الكبرى تستعد سراً وعلى انفراد . : ولقد تألفت في ظروف أبعد ما تكون كثيراً عن عوامل الارتباك »^(١) .
وسنمر سراعاً بعرض لأمثلة مختلفة بادئين بالأفراد المبدعين :

٢ - القديس بولس :

ولد بولس الطرسوسي يهودياً في جيل كان هموم الهلينية خلاله على المجتمع السورى ، يمثل تحدياً لا يتأتى تفاديه .

عمل بولس في المرحلة الأولى من سيرته على اضطهاد أتباع المسيح من اليهود الذين كانوا في نظر اليهود المتعصبين ، يحدثون خرقاً في صفوف الجماعة اليهودية .

وحول بولس أوجه نشاطه في الجزء الثاني من سيرته إلى اتجاه مخالف تمام المخالفة ؛ قوامه التبشير بناموس جديد « حيث لا يوجد يوناني أو يهودي ، ختان وعدم ختان ، برابرة أو أسقوذيين ، رابطة أو تحرر »^(١) . وكان يبشّر بهذه الروح المسالمة باسم الطائفة التي سبق له اضطهادها .

ويعتبر هذا الفصل الأخير ، فصل الإبداع في سيرة بولس . أما الأول فقد كان بداية زائفة .

وتقع بين الفصلين هوة كبرى . فإن بولس بعد استنارته المفاجئة وهو على طريق دمشق ؛ لم يحدث « اللحم والدم »^(٢) ، ولكنه توجه إلى جزيرة العرب . ولم يزر أورشليم إلا بعد انقضاء ثلاثة أعوام ؛ وهناك قابل الحوارين الأصليين . فجعل هدفه متابعة النشاط العملي^(٣) .

٣ - القديس بنديكت :

عاصرت حياة بنديكت النورسي^(٤) (حوالى ٤٨٠ - ٤٥٣ ميلادية) العصر الذى جابه خلاله المجتمع الهليني فترة « سكرات الموت » . وأرسل فى طفولته من وطنه الأمبري^(٥) إلى روما ليحصل العلوم العقلية التقليدية للطبقة العليا . لكنه ثار على حياة العاصمة ، وانسحب إلى البيداء فى هذه السن المبكرة . وظل يعيش فى وحدة مطلقة طوال ثلاثة أعوام .

وتمثلت نقطة التحول فى حياته ، فى عودته إلى الحياة الاجتماعية وقتما بلغ مرحلة الرجولة ، لما أن ارتضى رئاسة جماعة رهبنة فى وادى سوبياكو Subiaco وبعدها فى مونت كاسينو Monte Cassino . وتميزت هذه المرحلة الأخيرة فى حياته بالابتداع . إذ ابتكر القديس بنديكت نوعاً جديداً من التعليم

(١) « رابطة » أى عبودية - « تحرر » أى حرية . (المترجم)

(٢) أى الناس .

(٣) Gallatians i 15-18

(٤) نسبة إلى نورسا . (المترجم)

(٥) نسبة إلى أمبريا فى وسط إيطاليا . (المترجم)

مكان نظام بطل استعماله ، كان هو نفسه قد نبذه إبان طفولته . وتفرعت عن جماعة البندكتيين في مونت كاسينو بفضل هذا الاتجاه الثقافي الجديد ، عديد من الأديرة تزايدت وتضاعفت بمرور الأيام ، حتى بلغت التعاليم البندكتية أقصى جهات الغرب . وتعتبر هذه التعاليم في الواقع ، إحدى القواعد الأساسية لكيان النظام الاجتماعي الجديد ، الذي شيد في النهاية في المسيحية الغربية ، على أطلال النظام الهليني القديم .

أول ما يطاتنا من المظاهر الهامة للتعاليم البندكتية ؛ الحوض على العمل اليدوى ، ومعنى ذلك أولا وأخيراً ، العمل الزراعى في الحقول . فكأن الحركة البندكتية تتجه بالنسبة للمستوى الاقتصادى إلى إحياء الزراعة . وكانت تلك الحركة ، أول محاولة ناجحة لإحياء الزراعة في إيطاليا ، منذ أن حطمت حرب هانيبال الاقتصاد الريفي الإيطالى .

واستطاعت التعاليم البندكتية فعلاً ، أن تحقق ما عجزت القوانين عن تحقيقه في أيام الأخوين جراكوس^(١) . لأنها نفذت لا باعتبارها أعمالاً تصدر عن الدولة — أى من أعلى إلى أدنى — ولكن باعتبارها أعمالاً تصدر عن الشعب ، أى من أدنى إلى أعلى . وتحقق ذلك الهدف بفضل استئثاره الحافر للفردى ، بوساطة استغلال حماسه الدينى .

وبالإضافة إلى تحويل مجرى حياة إيطاليا الاقتصادية ، استطاع النظام البندكتى خلال القرون الوسطى بهذه الوثبة الروحية ، أن يدفع أتباعه الرواد إلى تنظيف الأرض من الغابات في مناطق أوروبا ما وراء الألب ، وتجفيف المستنقعات ، وإنشاء الحقول والمراعى ؛ التى أقامها بعد ذلك في أميركا الشمالية ، رجال الأجناس من الفرنسيين والبريطانيين .

٤ — سانت جريجورى الكبير :

كان جريجورى يشغل منصب المحافظ في مدينة روما ، عند ما ألقى

نفسه بعد حوالى ثلاثين سنة من وفاة بوندكت ، يجابه إنجاز عمل مستحيل .
إذ كانت مدينة روما عام ٥٧٣ ميلادية تجابه محنة تشابه كثيراً نفس المحنة
التي جابهت فيينا عام ١٩٢٠ ميلادية : مدينة كبيرة وصلت إلى ماهى عليه
بفضل بقائها عدة قرون عاصمة إمبراطورية عظيمة ، ثم وجدت نفسها فجأة
بعد ذلك فى عزلة عن أقاليمها السابقة . مجردة من وظائفها التاريخية ،
وتركت لحالها تعتمد على مواردها الخاصة .

وكان نطاق نفوذ روما وقماً تولى جريجورى ولايته ، قد انحصر تقريباً
فى المساحة التي كانت تشغلها قبل ذلك بتسعة قرون مضت . أى قبل بدء
كفاح الرومانيين مع السامنيين Samnites ، للسيطرة على إيطاليا . مع فارق
أنه بينما كانت تلك المساحة تعول سكان مدينة محلية صغيرة ، أصبح عليها
أن تعول عاصمة طفيلية ضخمة .

ولا شبهة فى أن عجز النظام القديم عن علاج الأحوال التي طرأت ؛
كان فى ذهن القطب الرومانى الذى كان يشغل منصب المحافظ فى ذلك
الوقت . ولقد كان لمحنة روما الأليمة اعتبارها عند جريجورى ، عندما انسحب
تماماً من الحياة المدنية ، بعد ذلك بسنتين .

لبث انسحاب جريجورى — كانسحاب بولس — ثلاثة أعوام . اعتزم
فى نهايتها أن يباشر بشخصه ، المهمة التي أمر فيها بعد بإجرائها ؛ وهى الخاصة
بتحويل الإنجليز الوثنيين إلى مسيحيين . لكن البابا استدعاه إلى روما .

وهنا وفى غيرها من الوظائف الكنسية التي شغلها ومنها العرش
البابوى نفسه (٥٩٠ — ٦٠٤ ميلادية) ؛ أنجز جريجورى ثلاث مهام
عظيمة :

الأولى : إعادة تنظيم إدارة أملاك الكنيسة الرومانية فى إيطاليا وخارجها .
الثانية : المفاوضة لعقد تسوية بين السلاطات الإمبراطورية فى إيطاليا ،
والغزاة اللومباردين .

الثالثة : وضع أسس إمبراطورية رومانية جديدة لتحل محل الإمبراطورية القديمة التي غدت أطلالا . إمبراطورية تشيّد بفضل حماس الهيئات التبشيرية . لاستخدام القوة الحربية . والتي أدت في النهاية إلى غزو عوالم جديدة لم تطأها قط قدم عسكرية رومانية ولم يحلم بها القياصرة وآل سيبو (١) .

٥ - البوذا (٢) :

ولد سيد هارثا جوتاما بوذا في العالم الهندي ، إبان عصر اضطراباته . وعاش ليرى المدينة كايلافاستو Capilavastu التي ينتسب إليها ، تنهب وعشيرته الساكينيين يذبّحون .

ويبدو أن الجمهوريات الأرستقراطية الصغيرة في العالم الهندي المبكر ، والتي كان مجتمع ساكيا جزءاً منها ، أخذت تنهار إبان جيل جوتاما لتقوم مقامها ملكيات أوتوقراطية على نطاق واسع . ولقد ولد جوتاما من مجتمع ساكيا الأرستقراطي ، في الوقت الذي كان النظام الأرستقراطي يجابه تحدي قوى اجتماعية جديدة . وتمثل دفع جوتاما الشخصي لهذا التحدي ، في هجرانه العالم الذي أصبح لا يرحب بالأرستقراطيين من عينة أسرته .

وظل جوتاما طيلة سبعة أعوام ، ينشد الاستنارة عن طريق الإفراط المتزايد في الزهد . ولم ينفذ الضياء إليه ، إلا بعد اتخاذ الخطوة الأولى في طريق العودة إلى العالم ، بالتوقف عن الصوم . ولما حقق مرتبة الاستنارة لنفسه ، أمضى بقية عمره في إضفائها على رفاقه البشر .

(١) Scipios عائلة رومانية قديمة تقلد كثير من أفرادها مناصب رئيسية في روما القديمة وفي مقدمتهم سيبو الإفريقي الذي استولى على قرطاجنة وهزم هانيبال . (المترجم)

(٢) تعني كلمة « بوذا » الإنسان المستنير . وأساس التعاليم البوذية فكرة مدارها أن السعادة والخلاص ينبعثان من الإنسان نفسه . وأن جميع المظاهر موقوتة . وتعتبر الحياة أس النقائص والحزن . ويعني البوذا بالخلاص ؛ بلوغ حالة « الرفاقا » ، أي حالة الاستنارة الخالدة أو النقطة الكاملة . (المترجم)

ولكفالة إشعاع الاستنارة على رفاقه على صورة فعالة ، سمح لجامعة من مريديه أن يتجمعوا حوله ، فأصبح والحالة هذه ، مركز تأخى المريدين ورئيسهم .

٦ - محمد (١)

ولد محمد في نطاق البروليتاريا العربية الخارجية (٢) للإمبراطورية الرومانية في عصر كانت العلاقات بين الإمبراطورية وبلاد العرب قادمة على أزمة . ففي دوران القرنين السادس والسابع الميلاديين ، بلغ اقتحام التأثيرات الثقافية الواردة من الإمبراطورية لشبه الجزيرة العربية ، درجة الإشباع . فكان لا مناص من أن يترتب على ذلك انبعاث رد فعل شبه الجزيرة العربية على هيئة تولد طاقة مضادة تصد تلك التأثيرات الثقافية الدخيلة على بلاد العرب .

وكان على الرسالة المحمدية (٣) أن تقرر الشكل الذي يتخذه رد الفعل للتححرر من التأثيرات الهلينية . وكانت حركة الاعتزال والعودة (٤) بمثابة تمهيد لكل من الارتحالين الجديدين اللذين يتسمان بالدقة البالغة ، واللذين استند عليهما تاريخ حياة محمد بأسره .

وثمة مظهران في التاريخ الاجتماعي للإمبراطورية الرومانية في عهد الرسالة المحمدية ، يضيفان تأثيراً عميقاً على عقل كل باحث في الشؤون

(١) صلى الله عليه وسلم .

(٢) يقصد الأستاذ توينبى باصطلاح البروليتاريا الخارجية : العناصر الخارجة عن نطاق الدولة ، والتي تقم فيما وراء حدودها ، ولا تخضع لسلطانها ، وتناجزها . فكان العرب يعتبرون - وفقاً لهذا الاصطلاح - بروليتاريا خارجية ، بالنسبة للإمبراطوريتين الرومانية والفارسية . (المترجم)

(٣) عاش الرسول العربي الكريم بين عامي ٥٧٠ - ٦٣٢ ميلادية . (المؤلف)

(٤) حركة الاعتزال والعودة هنا في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، تتمثل في انسحابه . انسحاباً جزئياً زهاء خمسة عشر عاماً في العمل في التجارة وعودته إلى بيئته العربية . (المترجم)

العربية . ويجمع المظهرين انتفاء وجودهما في الجزيرة العربية بوضوح تام قبل البعثة المحمدية :

الأول - انتفاء عنصر الوجدانية في الفكرة الدينية .

الثاني - انتفاء القانون والنظام وهما دعامة كل حكومة .

ولقد كرّس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية . وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرائه الوجدانية والسلطة التنفيذية معاً في صورة عربية . فغدت للإسلام بفضل ذلك ، قوة دافعة جبارة ؛ لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة ، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة ، واستولى على العالم السورى بأسره من سواحل الأطلس إلى شواطئ السهب الأوراسي .

واستغرق هذا العمل الذي يبدو أن محمداً قد بدأه في السنة الأربعين من عمره (حوالى ٦٠٩ ميلادية) ، مرحلتين :

الأولى - انصب اهتمامه خلالها على رسالته الدينية ؛ ولقد لبث قبل ذلك خمسة عشر عاماً يشتغل بتجارة القوافل بين الواحات العربية والموانئ الصحراوية السورية للإمبراطورية الرومانية ، على طول مشارف السهب العربي الشمالى . ثم عاد في سن الأربعين إلى إبلاغ رسالته الدينية :

واختتمت المرحلة الأولى بهجرته من واحة مكة مسقط رأسه إلى يثرب الواحة المنافسة لها^(١) .

الثانية - وفيها غطت الشؤون^(٢) السياسية على الرسالة الدينية بل حجبتها . والواقع يتخذ المسلمون من الهجرة مبدأ لتأريخ العصر الإسلامى .

(١) التي عرفت بعد ذلك باسم المدينة ، أى مدينة النبی . (المؤلف)

(٢) هذا النطاء ظاهري صرف . ففي المدينة تكونت الجماعة الإسلامية أى الأمة الإسلامية ، لأول مرة ، وفي المدينة بدأت سيرتها . (المترجم)

لأنهم يعتبرونها حدثاً حاسماً في الإسلام . فإن محمداً قد غادر مكة هارباً
مطارداً ، ثم عاد إليها بعد سبع سنوات (٦٢٢ - ٩ ميلادية) ، لا باعتباره
منفيّاً نال عفواً شاملاً ، ولكنه عاد إلى مكة سيد نصف الجزيرة العربية .

٧ - ماكيافيللي

كان ماكيافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧ ميلادية) مواطناً لفلورنسا . وكان
في الخامسة والعشرين ، وقتما عبر شارل الثامن ملك فرنسا الألب بجيش فرنسي
اجتاح إيطاليا عام ١٤٩٤ .

ومن ثم انتهى ماكيافيللي إلى جيل ، بلغ بالكاد سنّاً تتيح له الاطلاع على
أحوال إيطاليا في عصر مناعتها من « الغزوات البربرية » . كذلك عاش
ماكيافيللي فترة كافية ، هيأت له رؤية شبه الجزيرة الإيطالية ميداناً تختبر فيه
قوتها ؛ جمهرة دول ما وراء الألب ، أو ما وراء البحار . تلك الدول التي
وجدت - الفينة بعد الأخرى - في اختطاف المدن الإيطالية من بعضها بعضاً ،
جائزة أو رمزاً لانتصاراتها .

ويمثل هجوم الدول الغير الإيطالية على إيطاليا ؛ التحدي الذي التزم جيل
ماكيافيللي بمجابهته ، والحنة التي كان عليهم العيش في ظلها . بيد أن الحنة
كانت أشد مما يستطيع إيطاليو هذا الجيل مجابهته . إذ لم يسبق لهم أو لأجدادهم
معاناة مثلها ، في غضنّ الجانب الأعظم من فترة القرنين ونصف
قرن الماضية .

وأودعت الطبيعة في ماكيافيللي ، كفاية سياسية بالغة حد الكمال . إذ امتاز
بإقباله العجيب على استخدام مواهبه . ولقد جعلته المصادفة مواطناً لفلورنسا ،
إحدى المدن الرئيسية في شبه الجزيرة . وأهلتته كفايته ليشغل عام ١٤٩٨
منصب سكرتير في الحكومة ، بعد انقضاء أربعة أعوام من الغزو الفرنسي ؛
وكان وقتئذ في التاسعة والعشرين . ومكّنته مناصبه الرسمية من دراسة الدول
« البربرية » الجديدة عن كثب .

وأصبح ماكيا فيللى - على ما يُعتقد - بعد انقضاء أربعة عشر عاماً من هذه التجارب ، أكفأ الإيطاليين وقتذاك ، للمساهمة فى المهمة العاجلة الخاصة بمساعدة إيطاليا على الاهتداء إلى طريق « خلاصها » السياسى . إلا أن تحولاً مفاجئاً فى عجلة شئون فلورنسا الداخلية ، قد ألقى به بعيداً عن ميدان نشاطه العملى . ففى سنة ١٥١٢ ، جرد من منصب سكرتارية الدولة ، وكابد فى السنة التالية : السجن والتعذيب . وكان سعيد الحظ بالخروج حياً مرة أخرى . وكان عليه أن يدفع ثمناً لإطلاق سراحه من السجن ، إقامة دائمة بمزرعته بريف فلورنسا .

وتمثل فى انهيار منهاج حياته التام ، تحسدى رهيب لشخصه . إلا أن ماكيا فيللى كان لحسن طالعهِ : من القوة بحيث استجاب للتحدى استجابة ناجحة مثمرة .

ففى كتاب بعث به إلى صديق وزميل قديم عقب لجوئه إلى الريف بقليل ، وصف بالتفصيل فى جزء منه ، يفيض بالدعابة : طريقة الحياة التى اختطها لنفسه . فإنه يستيقظ مبكراً مع الشمس ، ويكرّس نفسه خلال ساعات النهار للالتزامات الاجتماعية والرياضية الكثيرة التى تتفق مع طريقة الحياة التى فُرِضت عليه . بيد أن ذلك ليس نهاية يومه :

« عندما يأتى المساء ، أعود إلى المنزل وأتجه إلى مكتبى . وأخلع عند الباب ملابسى الريفية الملطخة بالطين ، وأرتدى لباس البلاط . فإذا تم تغيير ملابسى على تلك الصورة اللائقة ، أكون قد دخلت قصرًا من القصور الريفية لرجال من الأيام الخوالى . وهناك يستقبلنى مضيفى بكل مظاهر التعطف ؛ وأنعم بذلك الطعام الذى هو وحده غذائى الحقيقى والذى ولدت له . »

فى هذه الساعات من الدراسة الأكاديمية والتأمل ، أمكن لمكيا فيللى تصور كتاب الأمير وكتابه . ويكشف الفصل الأخير من رسالته المشهورة ، وعنوانه

« الرغبة في تحرير إيطاليا من البرابرة » ، عن النية التي كانت تراود ذهن ماكيافيللي عند تناوله قلمه ليكتب . لقد كان يسائل نفسه المرة بعد المرة عن المشكلة الحيوية التي كانت تجابه السياسة الإيطالية المعاصرة ، على أمل أنه ربما - حتى في حالته تلك - يوفق إلى حل تلك المشكلة ، بفضل تحويل الطاقات التي حرمت من منفذ عمل يقودها إلى فكرة إبداعية .

وإذا كان كتاب الأمير قد أخفق في الحقيقة في تحقيق هدف مؤلفه المباشر ، إلا أن هذا لا يعني أن كتاب « الأمير » كان خسراناً على طول الخط . لأن هدف ماكيافيللي الرئيسي ، لم ينحصر في استخدام الوسائل العلمية لمتابعة السياسات العملية . لأن انكباب ماكيافيللي على العمل وقماً ولج بخياله في بيته الريفى القصى ، قصور العصر الماضى الريفية أمسية بعد أخرى ، قد هباً له العودة إلى العالم على مستوى أكثر روحانية ؛ وكان تأثير هذه الروحانية على العالم ، أعظم بكثير جداً مما قد يتاح لسكرتير دولة فلورنسا أن يحققه لو كان قد انعكس في دقائق السياسات العملية .

وعندما ارتفع ماكيافيللي فوق المدار الروحى ، وفق خلال ساعات التطهر السحرية هذه ؛ إلى تحويل طاقاته العملية ، إلى سلسلة من الأعمال الثقافية الرائعة : الأمير ، محادثات عن ليفى ، فن الحرب ، تاريخ فلورنسا . وكانت تلك الأعمال بذور فلسفتنا السياسية الغربية .

٨ - دانتي :

هياً تاريخ فلورنسا قبل ظهور ماكيافيللي بمائتى عام ؛ مثالا آخر شبيهاً له شبيهاً عجيباً . لأن دانتي لم ينجز أروع أعماله ، إلا بعدما أجبر على الانسحاب عن مسقط رأسه .

وفي فلورنسا ، أحب دانتي بياتريس ؛ لكنها قضت نحبها وهى أمامه ، وما تزال فى عصمة رجل آخر . وفي فلورنسا اندمج فى شؤون السياسة ، ولكنه نفى إلى مكان لم يعد منه أبداً .

لكن دانتى وإن خسر موطنه ، إلا أنه فاز بالعالم كله وطناً له . لأن
العبرى الذى أمتحن في مبادئه السياسية بعدما أمتحن في حبه ، أنجز في منفاه
« عمل العمر » في كتابه « الكوميديا الإلهية » Divina Commedia :

(٣) الاعتزال والعودة

(الأقليات المبدعة)

١ - أثينا في الفصل الثانى من ارتقاء المجتمع الهلنى :

يعتبر سلوك الأثينيين إبان الأزمة التى أبرزها للمجتمع الهلنى التحدى
المالئسى^(١) فى القرن الثامن قبل الميلاد ، مثالا شائعاً للاعتزال والعودة ؛
طالعنا فى ارتباطات أخرى .

بدا رد فعل أثينا فى بداية الأمر ، على مشكلة إفراط ازدياد السكان ؛
أى فى صورة سلبية فى الظاهر . لأنها لم تستجب للتحدى ، مثلما فعل كثير من
جيرانها : بإقامة المستعمرات فيما واء البحار ، أو - مثل الاسبرطيين -
بالاستيلاء على أراضى المدن اليونانية المتاخمة وتحويل سكانها إلى أرقاء .

واستمرت أثينا تقوم خلال هذا العصر بدور سلبي فى ظاهره ، ما دام
جيرانها يصدفون عن التدخل فى شؤونها . فلما أن حاول كلومينيس
الأول Cleomenes ملك اسبرطة أن يُخضعها للزعامة اللاسيدامونية
Lacedaemonian^(٢) ، انبثت أول بادرة لطاقة أثينا الماردة الكامنة ، فى صورة
رد فعل عنيف أبرزته تجاه هذه المحاولة . وأن أثينا بإظهارها رد الفعل

(١) يقصد المؤلف بهذا الاصطلاح سريان قانون مالئس على بلاد اليونان . ومووداه
تزايد السكان بسرعة تفوق تزايد الإنتاج . فالسكان يتزايدون بنسبة متوالية هندسية (١ -
٣ - ٤ - ٨ - ١٦ . . . الخ) بينما تزايد الموارد على أساس متوالية حسابية (١ - ٢ - ٣ -
٤ - ٥ - ٦ . . . الخ) الأمر الذى يسبب الفقر والمجاعة . (المترجم)
(٢) نسبة إلى La:edaemon وهى الإقليم الذى كانت مدينة إسبرطة عاصمته ، مثلما
كانت أثينا عاصمة آتيكا . (المترجم)

القوى ضد لاسيدامون ، مع عزوفها في نفس الوقت عن المشاركة في حركة الاستعمار ؛ قد عزلت نفسها متعمدة - إلى حد ما - نيفاً ومائتي سنة عن بقية العالم الهليني .

بيد أن أثينا لم تركز للخموم طوال هذين القرنين . فإنها على العكس ، اغتنمت فرصة هذا الاعتزال الطويل الأمد ، لتركز جهودها لحل المشكلة الهلينية العامة ؛ بواسطة ابتكار حل طريف لمشكلتها الخاصة . حل أثيني أثبتت الحوادث تفوق صلاحيته في كل وقت ، عندما أخذ الحل القائم على إنشاء المستعمرات والحل الاسبرطي ، يجودان بحصيلة تتناقض تناقضاً مستمراً . ولم تعد أثينا في نهاية الأمر إلى ميدان مشاركة العالم الهليني ، إلا وقتما أعادت تكييف نظمها التقليدية ، لتتناسب مع أسلوب حياتها الجديد . وتمت العودة في عصرها الزاهر . على أنها لما عادت ، عادت يصحبها دافع لا نظير له في التاريخ الهليني .

فلقد أعلنت أثينا عن عودتها بأسلوب مثير ، مبناه طلبها الإمبراطورية الفارسية للنزال . فإن أثينا ، وليست إسبرطة التي ترددت ؛ هي التي استجابت عام ٤٩٩ ق . م . لنداء اليونانيين الآسيويين الثائرين .

واحتفظت أثينا بزعامتها منذ هذا التاريخ وما بعده ، طوال حرب الخمسين سنة بين هيلاس والإمبراطورية السورية العالمية . وكان دور أثينا في التاريخ الهليني ، طوال قرنين من مستهل القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده ، يناقض تماماً الدور الذي طفقت تؤديه قبل ذلك ، طوال فترة تعادل هذه المدة تقريباً . وكانت أثينا خلال الفترة الثانية ، في معمعان التطاحن السياسي للمدن الهلينية .

ولم تتدخل أثينا - رغماً عنها - عن صفة الدولة الهلينية الكبيرة ، وعن أعبائها . إلى أن ألفت نفسها متخلفة تخلفاً ميئوساً منه ، عن الجبايرة الذين انبثقوا عن مغامرة الإسكندر في الشرق .

ولم يكن انسحاب أثينا بعد غلبة المقدونيين لها عام ٢٦٢ ق . م ؛ نهاية مشاركتها الفعالة في التاريخ الهليني . فلما جعلت من نفسها في كل ميدان آخر ؛ قبل تخلفها في السباق الحربى والسياسى بأمد طويل ؛ « معلمة هيلاس » وتم ذلك ، بإضفاءها على الثقافة الهلينية ، طابعاً آتيكياً خالداً ما تزال تحتفظ به في أعين الأجيال التالية .

٢ - إيطاليا في الفصل الثانى من ارتقاء المجتمع الغربى :

لاحظنا وقت كلامنا عن ماكيافيللى ، أن إيطاليا قد نجحت في عزل نفسها عن أوروبا ما وراء الألب النصف الهمجية والإقطاعية المضطربة ، خلال فترة تنيف على القرنين ، تقع بين تدمير هوهنستوفين (Hohenstanfan)^(١) في منتصف القرن الثالث عشر ، والغزو الفرنسى في نهاية القرن الخامس عشر .

ولم تكن المآثر الكبرى للعبقريّة الإيطالية في غضون هذين القرنين ونصف القرن من الانعزال ؛ ذات طابع انتشارى ، لكنها ظهرت على صورة محدودة غزيرة ؛ ليست مادية لكنها روحانية . وتمثلت تلك الصورة في البناء والنحت والتصوير ، وفى الأدب والثقافة . وحقق الإيطاليون في هذه الميادين أعمالاً خلاقة ، تحمل بين ثناياها مشابهة لمآثر اليونانيين خلال نفس الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .

وحقاً التمس الإيطاليون الوحي من العبقريّة اليونانية القديمة ، بفضل بعثهم إلى الحياة روح الثقافة الهلينية المندرسة . وتطلّعوا إلى المآثرة اليونانية ، كشئ مطلق يُحتذى قياساً ، مأثوراً يحاكى ، لكنه لا يُعلى

(١) Hohenstanfen بيت من الأمراء الألمان . كان أعضاؤه أباطرة أو ملوكاً ألمانيا خلال الفترة ١١٣٨ - ١٢٥٤ ، وأول ملوكه فردريك فون بورين الذى مات في نهاية القرن الحادى عشر . (المترجم)

عليه . وأقننا نحن على أثر خطواتهم ، نظاماً للتثقيف المأثور^(١) لم يتخل عن مكانه أمام مطالب الأساليب الفنية الحديثة ، إلا مؤخراً .

وصفوة القول ؛ استغل الإيطاليون بشق الأنفس المناعة التي استخلصوها من السيطرة الأجنبية . ومكنتهم تلك العزلة المضطربة ، من أن يبتدعوا داخل شبه جزيرتهم ، عالماً إيطالياً ارتفعت الحضارة الغربية في نطاقه إلى مستوى النضوج المبكر ؛ إلى مقام أصبح معه الاختلاف في الدرجة ، يتساوى مع الاختلاف في النوع .

ولقد أحس الإيطاليون في نهاية القرن الخامس عشر ، أنهم أسمى كثيراً من الشعوب الغربية الأخرى ، بحيث أنهم عادوا إلى استخدام اصطلاح « البرابرة » ليصفوا به الشعوب التي تقع فيما وراء الألب وعلى طول البحر التيراني . ولكن لم يلبث هؤلاء البرابرة المحدثون إلا قليلاً ، حتى شرعوا يدللون في تصرفاتهم على أنهم أعظم حكمة سياسية وعسكرية من الإيطاليين أبناء المعرفة .

وكلما تألفت الثقافة الإيطالية الجديدة خارج شبه الجزيرة في جميع الاتجاهات ، كلما عجل انتشارها بالارتقاء الثقافي للشعوب التي حولها . سيما ما يتصل بالعناصر الثقافية ذات الصفة الجماعية ، مثل التنظيم السياسي والأسلوب الفني الحربي . وفي تلك العناصر الجماعية ؛ يلمس الناس دائماً ، سرعة تأثير الإشعاع . وعندما امتلك البرابرة زمام هذه الفنون الإيطالية ؛ أمكنهم أن يطبقوها على نطاق أوسع مدى ، مما طبقته المدن الإيطالية .

ويمكن تفسير توفيق « البرابرة » في إنجاز قدر من التنظيم ألفاه الإيطاليون بعيداً عن متناولهم ؛ إلى حقيقة مبناها أن « البرابرة »

(١) يقصد هنا اتخاذ الدراسات اللاتينية اليونانية أساساً للتعليم في غرب أوروبا .

(الترجم)

يطبقون الدروس التي تعلموها من الإيطاليين على أحوال أيسر كثيراً من الأحوال التي اكتنفت الإيطاليين . إذ كان الساسة الإيطاليون مقبدين ؛ بينما يمتاز ساسة « البرابرة » بحرية العمل ، بفضل تطبيق مبدأ « التوازن الدولي » ؛ وهو أحد القوانين التي ابتكرها الفكر الإيطالي . والتوازن الدولي ؛ عبارة عن نظام للحركة السياسية ، يبرز إلى الميدان ، وقتما يتكوّن المجتمع من عدد من الدول المحلية المستقلة عن بعضها . وكان المجتمع الإيطالي الذي ميز نفسه عن بقية المسيحية الغربية ، قد تكوّن في نفس الوقت على هذا النحو .

وتيسر تنفيذ حركة انتشار إيطاليا من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، بفضل وجود ذلك الحشد من المدن التي سعى كل منها أن يحقق لنفسه حق تقرير المصير ، في صورة موضعية . وبالأحرى ؛ يعتبر إنشاء عالم إيطالي منفصل ، وترابط أجزاء هذا العالم بعضها ببعض داخل نطاق كثرة من الدول ؛ يعتبر هذا أهم أحداث العصر .

ويسرى فعل مبدأ توازن القوى في مثل هذا العالم بطريقة عامة ؛ مؤداها الاحتفاظ بحد معين بالنسبة لمظاهر القوة السياسية القياسية في ذلك العصر — المساحة والسكان والثروة — تلزم به الدولة . فإذا تجاوزته تعرضت تعرضاً آلياً في غالب الأحيان ، إلى دفع الدول الأخرى لها ، للبقاء في مكانها . ويبلغ هذا الضغط أقصى مداه ، في مركز مجموعة الدول المعنية بأمر التوازن ، ويصل إلى أضعف حالاته عند السطح .

ومن ثم ؛ فإذا قامت دولة عند المركز بأية حركة ترمى إلى تعظيم شأنها ؛ لن تقف الأخرى إزاء تلك الحركة ساكنة ، بل تراقبها في حسد وتعدّ عليها خطواتها في دقة . ويتطور الحال حتى تصبح مسألة الاستيلاء على مساحة قليلة من الأميال المربعة ، موضوع منازعات عاتية . وعلى العكس تخفّ حدة المنافسة على السطح ؛ وإن من شأن بذل جهود صغيرة ، تحقيق جهود كبيرة .

ومصدقاََ لذلك في ممكنة الولايات المتحدة أن تمتد في سهولة ويسر من الأطلسي إلى الهادي ، كما تستطيع روسيا أن تتسع من البلطيق إلى الهادي . على حين أن جميع جهود فرنسا أو ألمانيا ، لن تكفي لكفالة الاستحواز على الألزاس أو بوسن Posen .

فها هي نظرة روسيا والولايات المتحدة في الوقت الحاضر إلى دول أوروبا الغربية القديمة المزدهجة ، تلك الدول التي اصطبغت بالصبغة الإيطالية فيما مضى ؛ فإن فرنسا مثلاً قد اصطبغت بصبغة سياسية إيطالية بفضل لويس الخامس عشر ، وأسبانيا بفضل فرديناند الأراجوني ، وإنجلترا بفضل آل تيودور الأوائل ؟

إن نظرة روسيا والولايات المتحدة إلى تلك الدول ، هي كنظرة تلك الدول منذ أربعمئة سنة إلى المدن الإيطالية .

وإذا قارنا الانسحاب الأثيني بالانسحاب الإيطالي ؛ لبدت لنا مشابهة قوية بين الانسحاب الأثيني خلال القرون الثامنة والسابعة والسادسة قبل الميلاد ، والانسحاب الإيطالي إبان القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر الميلادية . إذ كان الانسحاب في كلتا الحالتين تاماً على المستوى السياسي ؛ ويتسم بالثبات . وكرّست الأقلية المنعزلة انعزالاً ذاتياً ، قواها في كلتا الحالتين ، للاهتمام إلى مشكلة تواجده المجتمع بأسره . ولما اكتمل الوقت وتحقق عمل الخلق ، تمت عودة الأقلية المبدعة في كلا الحالين ، إلى الجماعة التي كانت قد فارقتها بصفة موقوتة . وأخذت تلك الأقلية ، تضيئ طابعها على الكيان الاجتماعي للجماعة بأسره .

وبالإضافة إلى ذلك ، تماثلت كثير من المشكلات التي قامت أثينا وإيطاليا بحلها في غضون فترة انسحابهما .

فلقد كان وضع لومباردي وتوسكاني في المسيحية الغربية ، كوضع آتيكا في هيلاس . إذ كانتا بمثابة معمل اجتماعي منزول ، أجريت فيه

بنجاح ، تجربة تحويل مجتمع على زراعى يتمتع بالاستكفاء الذاتى ، إلى مجتمع صناعى وتجارى ذى طابع دولى يستند على العالم الخارجى .
وبالنسبة لإيطاليا كما بالنسبة لأثينا ، كانت ثمة عملية إعادة تكييف النظم ، لجعلها متفقة مع طراز الحياة الجديد :

أولا : عمدت أثينا إلى تعديل نظمها بعد غلبة الطابع الصناعى والتجارى على حياتها . فتحوّلت - على المستوى السياسى - من نظام أرسقراطى يقوم على المنبت ، إلى نظام بورجوازى يستند على الملكية .

ثانياً : أما بالنسبة لإيطاليا ؛ فإنه لما غلب الطابع الصناعى والتجارى كذلك على المدن فيها مثل ميلانو وبولونيا وفلورنسا وميسينا ؛ عدلت عن نظام الإقطاع السائد فى المسيحية الغربية ، إلى نظام جديد يقوم على العلاقات المباشرة بين المواطنين الأفراد والحكومات المحلية صاحبة السيادة ، التى تستقر سيادتها فى المواطنين أنفسهم . ولقد نقلت إيطاليا هذه الابتكارات الاقتصادية والسياسية المميزة ؛ إلى أوروبا ما وراء الألب . كما نقلت إليها بدائع العبقريّة الإيطالية الشبيهة بالأطراف^(١) منذ ختام القرن الخامس عشر وما تلاه .

بيد أن خطوط سير التاريخين الغربى والهلبنى ، تتباين بعد ذلك فى نقطة واحدة أساسية ؛ مدارها مكان المدن الإيطالية فى المسيحية الغربية ، وموضع أثينا من هيلاس . إذ كانت أثينا مدينة ترجع إلى عالم من المدن ؛ بينما لم يكن طراز المدينة الذى صيغ العالم الإيطالى على غرارهِ فى غضون القرون الوسطى ، هو أساس الترابط الاجتماعى للمسيحية الغربية ؛ بل كان الإقطاع هو محوره الأصيل . ولقد كان الجانب الأعظم من المسيحية الغربية ما يزال منظماً على أساس إقطاعى عند ختام القرن الخامس عشر ، وقما أعيد استيعاب المدن الإيطالية داخل الكيان الرئيسى للمجتمع الغربى .

(١) لا تدرك باللس ولا وزن لها . (المترجم)

ولقد برزت عن سعى أوروبا ما وراء الألب لتطبيق الابتكارات الاجتماعية الجديدة التي قدمتها لها إيطاليا ، مشكلة كان يتأتى حلها من الوجهة النظرية باستخدام إحدى هاتين الوسيلتين :

الأولى : أن تقطع صلتها بماضيها الإقطاعي ، وتعيد الترابط بين مختلف أجزائها ، على أساس نظام المدينة السائد في إيطاليا في ذلك الوقت .

الثانية : أن تحوّر الابتكارات الإيطالية بطريقة تجعلها صالحة للعمل ؛ وذلك بالجوء إلى تطبيق النظام الإقطاعي وما يناظره في المرتبة : نظام الدولة الملكية .

ولأنه وإن أمكن لنظام المدينة تحقيق قدر جوهري من النجاح في سويسرا وفرنكونيا^(١) والأراضي المنخفضة^(٢) وفي السهل الألماني الشمالي حيث كانت مدن عصبة الهانسا هي المراكز الرئيسية التي تسيطر على المسالك البرية والبحرية ، إلا أنه عجز عن أن يصبح أساس الحل الذي طبّق فيما وراء الألب بصفة عامة .

وهذا يقودنا إلى فصل آخر من التاريخ الغربي ، وإلى مظهر آخر يشابه ما تقدم في أهميته ونفعه لقاعدة « الاعتزال والعودة » .

٣ - إنجلترا في الفصل الثالث من تقدم المجتمع الغربي :

انحصرت المشكلة التي واجهها المجتمع الغربي في كيفية التحول من أسلوب للحياة زراعي الاتجاه ، أرستقراطي النزعة ، إلى طريقة للحياة أساسها الصناعة ، ديمقراطية الطابع . مع العدول عن تطبيق نظام المدينة .

شغل هذا التحدي ، أذهان سويسرا وهولندا وإنجلترا . وانجلي التفكير أخيراً عن حل انجليزي الطابع . ولقد أضفت البيئة الجغرافية على هذه البلاد

(١) اسم قديم لإحدى القبائل الجرمانية (المترجم)

(٢) هولندا (المترجم)

الثلاثة نوعاً من الميزة ، يتمثل في انسحابها من حياة أوروبا العامة . وهي عزلة ترتد إلى الجبال بالنسبة لسويسرا ، وإلى السدود بالنسبة لهولندا ، وإلى المانش^(١) بالنسبة لإنجلترا .

فأمكن السويسريون التغلب بنجاح على أزمة عالم المدينة - تلك الأزمة التي طرأت على حياة أوروبا السياسية في أواخر القرون الوسطى - بفضل إقامة شكل من الحكومة الاتحادية . واحتفظوا باستقلالهم ضد آل هابسبرج أولاً ، ثم ضد دولة بوجونديا .

وشيد الهولنديون استقلالهم ضد أسبانيا ، وتجمعوا في اتحاد يضم سبعة أقاليم .

وشقى الإنجليز من طموحهم لاستعادة ممتلكاتهم في القارة ، بسبب إخفاقهم النهائي في حرب المائة عام . كما أنهم - مثل الهولنديين - صدوا في عصر الزباث الأولى - تعدى أسبانيا الكاثوليكية . واعتنقوا دون أية مناقشة منذ ذلك التاريخ حتى حرب ١٩١٤ - ١٨ ، مبدأ تفادى تعقيدات القارة ، وجعلوه هدفاً من الأهداف الأساسية والدائمة لسياسة بريطانيا الخارجية .

بيد أن هذه الأقليات الخاصة الثلاث لم تتماثل بالنسبة لوضع سياستها المشتركة عن الانعزال ، موضع التنفيذ . فإن الجبال السويسرية والسدود الهولندية ، كانت أضعف من بحر المانش تجاه الغزو الخارجي . فوجد الهولنديون لم يفيقوا أبداً من صدمة حروبهم مع لويس الرابع عشر . وابتلعت وقتاً ما إمبراطورية نابليون هولندا وسويسرا .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، عجز السويسريون والهولنديون عن العثور على حل للمشكلة التي تاقوا إلى حلها ؛ وهي الاهتمام إلى طريقة للحياة تقوم على

(١) يفصل بحر المانش إنجلترا عن بقية القارة الأوروبية ، فصلا له أثره في سياسة إنجلترا ، وجعل هذه البلاد طابعا خاصا يميزها عن بقية أوروبا . (المترجم)

أساس صناعى ديمقراطى ، بدون تطبيق نظام المدينة . ويرد عجزهم إلى أن سويسراً وهولندا لم تكونا دولتين قوميتين تحكمان حكماً مركزياً ، لكنهما مجرد مجموعتين من المقاطعات والمدن المتحدة اتحاداً واهناً . ومن ثم وقع على كاهل إنجلترا - وعلى المملكة المتحدة الإنجليزية الاسكتلندية بعد اتحاد عام ١٧٠٧ - القيام بدور قيادة المسيحية الغربية فى الفصل الثالث من تاريخها ، وهو الدور الذى قامت به إيطاليا فى فصله الثانى .

وجدير بالملاحظة ، أن إيطاليا نفسها ، كانت قد شرعت فعلاً فى الاهتداء إلى معالم الطريق الخاص باجتياز حدود المدن . ومصدّقاً لذلك هبط بفضل أعمال الغزو عدد المدن المستقلة عند نهاية فترة الانعزال ، من حوالى السبعين أو الثمانين مدينة ، إلى ثمانية أو عشرة اتحادات مدن .

يبد أن النتيجة كانت قاصرة لسببين :

الأول : كانت الوحدات السياسية الإيطالية الجديدة أضعف من أن تتماسك تجاه غزوات البرابرة ، رغمّاً عن ضخامتها ؛ بالقياس لما كانت عليه المدن فيما سلف .

الثانى : اتسم شكل الحكم الذى طبقته هذه الوحدات الكبيرة ، بالطغيان ؛ وضاعت فى غمار عمالية التوحيد المزىة السياسية لنظام المدينة .

وهذا النظام الاستبدادى الإيطالى ؛ هو نفسه الذى ألفى الجو مهيناً لتطبيقه فى الوحدات السياسية الكبيرة عبر الألب ، بعد وضوؤها إليها . فطبقته هابسبرج فى اسبانيا ، وأسترتا فالوا وبوربون فى فرنسا . وأخذت به مرة أخرى أسرة هابسبرج فى النمسا . ثم اعتنقته فى النهاية أسرة هوهنزلرن فى بروسيا .

يبد أن هذا الأسلوب الدافع للتقدم ، قد أثبت عقمه . إذ كان عسيراً على البلاد الواقعة وراء الألب ، أن تُبارى ما أنجزته إيطاليا فى الميدان الاقتصادى المتصل بالارتقاء من الزراعة إلى التجارة والصناعة . وهو ما لم تنجزه إيطاليا فى ظل المدّ الإيطالى ؛ إلا بفضل تحقيق نوع ما من الديمقراطية السياسية .

ولقد كانت استقالة الملكية الأوتوقراطية في إنجلترا - عكس فرنسا واسبانيا - تحدياً استثنائياً استجابة فعالة . وكان قوام الاستجابة الإنجليزية ، تنسّم حياة جديدة ، واستجلاب وظائف جديدة إلى الدستور التقليدي للكيان السياسى لبلاد ما وراء الألب . - هذا الكيان الذى يعتبر تراثاً إنجليزياً كما هو فرنسى واسبانى ، انحدر من ماضى المسيحية الغربية المشترك . إذ كان من النظم المألوفة للبلاد الواقعة وراء الألب ، عقد اجتماعات دورية أو مؤتمر بين الملك وطبقات الأمة ، تحقيقاً لغاية مزدوجة مدارها : التنفيس عن النفس ؛ بإبداء الشكاوى ، والموافقة على حصول الملك من طبقات الأمة على قدر من المال لتأدية عمل نبيل ، يهدف إلى إنصاف أصحاب الشكاوى الحقّة .

ولقد اكتشفت الممالك الواقعة وراء الألب فى غضون تطور هذا النظام تدريجياً ؛ كيفية التغلب على صعوباتها المادية الخاصة ، كمشكلة السكان الغير الخاضعين للإدارة المركزية ، ومشكلة وعورة أنحاء البلاد ؛ بفضل ابتكار الحيلة القانونية التى تقوم عليها فكرة « النيابة البرلمانية » . وبمقتضاه أصبح لكل فرد له مصلحة فى العمل الذى يتولاه البرلمان ، أن يشترك بشخصه فى إجراءاته . وهذا ما يتأتى تطبيقه تطبيقاً كاملاً فى المدينة ، لكن يتعذر تنفيذه فى هذه الممالك الإقطاعية الضخمة ، الأمر الذى دفع إلى نشوء النيابة بطريق الوكالة . وأصبح على الوكيل واجب الرحيل إلى مكالى انعقاد جلسات البرلمان .

وأثبت هذا النظام الإقطاعى القائم على التمثيل النيابى والجمعية الاستشارية ، صلاحيته التامة للغاية الأصلية لقيامه ، باعتباره حلقة اتصال بين الملك ورعاياه . إلا أن النظام لم يكن جديراً بالاضطلاع بمهام الملك نفسه ، والحلول محلّه باعتبار الملك قطب الرحى فى السلطة السياسية . وهذا ما اضطلع به النظام البرلمانى الإنجليزى بنجاح إبان القرن السابع عشر .

فهاهو سبب إمساك إنجلترا بزمام تحد ، عجزت أية مملكة أخرى من الممالك

الواقعة وراء الألب ، عن أن تكون أهلاً لمواجهة ، مثلما فعلت إنجلترا ؟
 يكمن الرد على هذا السؤال ؛ في حقيقة مبناها أن إنجلترا قد سبقت
 جيرانها بكثير ، في أن تكون لنفسها ذاتية وطنية مستقلة استقلالاً حقيقياً ،
 متميزة عن الكيان الإقطاعي ؛ بفضل تمتعها بحدود معينة تعييناً دقيقاً ، ولأنها
 أصغر ممالك القارة الإقطاعية . كما أنه في ظل حكام أقوياء كويلم الفاتح
 وهنري الأول والثاني وادوارد الأول والثالث ، تماسكت إنجلترا في وحدة
 وطنية ، قبل أن تحقق فرنسا أو ألمانيا ما يماثلها بزم من طويل . وفعل لم يحظ
 بمثل هذا السلطان المترمّت ، حاكم دولة أخرى خلال الفصل الثاني من تاريخ
 المسيحية الغربية .

بيد أن استفحال سلطان النظام الملكي ، يسرّ للحكومة البرلمانية
 الحد من قوته خلال الفصل الثالث من تاريخ المسيحية الغربية . وليس
 في قولنا هذا تناقض مطلق .

وثمة عامل آخر عاون على إبراز النتيجة السالفة الذكر ، ألا وهو عظم
 شأن لندن . إذ لم يوجد في أية مملكة أخرى تقع وراء الألب ، مدينة حجبت
 بمفردها جميع المدن الأخرى تماماً ، كما فعلت لندن . ففي نهاية القرن السابع
 عشر - وقمّا لم يكن سكان إنجلترا شيئاً مذكوراً بالقياس إلى تعداد سكان فرنسا
 أو ألمانيا ، وكانوا أقل عدداً من سكان أسبانيا أو إيطاليا ؛ كانت لندن أضخم
 مدن أوروبا من كافة الوجوه . وحقاً يستطيع المرء أن يؤكد أن إنجلترا قد
 نجحت في حل مشكلة الموامة بين نظام المدينة الإيطالي والحياة العامة على
 نطاق قومي . ويرد ذلك إلى أن إنجلترا - أكثر من أية أمة أخرى تقع وراء
 الألب - قد استكملت بالفعل ، شيئاً من التماسك والإحساس الذاتي بأنها دولة
 مدينة واسعة الأرجاء ، بفضل صغر حجمها وتعيين تخومها ، وملوكها
 الأقوياء ، وسيطرة مدينتها الكبرى الوحيدة .

على أنه حتى مع تجاوزنا التام عن هذه الملابس الملائمة ؛ فإن ما حققته

الإنجليز من صبب الخمر الجديدة^(١) في زجاجات ما وراء الألب^(٢) ، مع مراعاة عدم انفجار هذه الزجاجات ؛ يعتبر هذا نصراً دستورياً يرقى إلى مرتبة العمل القذ الرائع . ولقد قام الإنجليز - ويعتبرون أقلية مبدعة في المجتمع الغربي - بنقل المبادئ البرلمانية عبر البرزخ الذى يفصل ؛ بين مجرد نقد الحكومة ؛ وبين قيامها بمهمتها . وهى ماثرة دستورية لإنجليزية فريدة :

ولقد أمكن الأقلية الإنجليزية تحقيق ذلك ، إبان المرحلة الأولى لانسحابها من أحابيل القارة . وهى فترة تشمل عصر اليزابيث والجانب الأعظم من القرن السابع عشر .

ولما استجاب الإنجليز لتحدى لويس الرابع عشر ، وعادوا إلى ميدان القارة عودة جزئية وموقوتة تحت زعامة مارلبورو Marlborough الممتازة ؛ أخذت شعوب القارة ترقب ما يقوم به سكان الجزيرة البريطانيين . ومن ثم انطلق عصر التشبه بالإنجليز^(٣) ، كما يحلو للفرنسيين تسميته فى بعض الأحيان . ولقد مدح مونتسكيو ما حققه الإنجليز ، وإن أساء فهمه . وتمثلت محاكاة القارة للإنجليز ، فى اعتناق عقيدة الملكية الدستورية التى كانت إحدى فتائل البارود التى أشعلت الثورة الفرنسية . ومن المسائل المعروفة ، أنه لما انقضى القرن التاسع عشر إلى العشرين ، استولى على شعوب العالم طموح كساء عُريها السياسى بأوراق التين البرلمانية^(٤) .

ولا شبهة فى تطابق تقديس النظم الإنجليزية الذى ذاع فى نهاية الفصل

(١) أى الكفاية الادارية الإيطالية . (المترجم)

(٢) أى نظم القرون الوسطى البرلمانية فى تلك البلاد . والاستعارة مستقاة من قول للسيد المسيح عليه السلام وارد فى إنجيل متى « بل يعملون خيراً جديدة فى زقاق جديدة فتحفظ جميعاً » . (المترجم)

(٣) Anglomanie

(٤) هذا التشبيه مستق من قصة آدم وحواء فى التوراة . فإن حواء بعد ارتكاب المعصية كست عورتها بأوراق التين . (المترجم)

الثالث الأخير من التاريخ الأوربي ؛ مع تقديس الثقافة الإيطالية إبان النهاية الأخيرة للطور الثاني ، عند دوران القرنين الخامس عشر والسادس عشر : وتصور مدى تقديس الثقافة الإيطالية بجلاء ، حقيقة مؤداها أن ثلاثة أرباع مسرحيات شكسبير التصويرية ، تقوم على أفاصيص إيطالية . وحقاً فإن شكسبير يلمح إلى هذه النزعة نحو التأثير بإيطاليا ، ويعرض بها في الوقت نفسه . وهي النزعة التي تصورهما الأفاصيص التي اختارها . فإن دوق يورك العجوز الجليل ، يدفع إلى القول بأن الملك الصغير الطائش يقوده إلى الضلال !

تَبَّتْ من الأساليب في إيطاليا الفخورة
التي ما تزال طرائقها ، أمتنا المقلدة المترامية
تعرج وراء تقليدها تقليداً أعمى (١)

ولقد أتاح الابتكار الإنجليزي السياسى المتمثل في الحكومة البرلمانية ، وضعاً اجتماعياً يناسب الابتكار الإنجليزي التالى الخاص بالاتجاه الصناعى . فإن « الديمقراطية » بمعنى نظام حكومى تصبح فيه السلطة التنفيذية مسئولة أمام برلمان يمثل الشعب ؛ والاتجاه الصناعى بمعنى أنه نظام يتضمن الإنتاج الآلى بأيدى تتجمع فى المصانع ؛ هما النظامان المسيطران فى عصرنا . ولقد قدّر لهما أن يسودا العالم ، بما يتيحانه من خيرة الحلول التى أمكن للمجتمع الغربى العثور عليها ، لمشكلة تحويل مآثرة ثقافة المدينة الإيطالية السياسية والاقتصادية ، من المدينة إلى مجال الدولة الملكية . ولقد تحقق كلا هذين الحلين فى إنجلترا ، إبان العصر الذى أطلق عليه ساستها فى العصر التالى « العزلة الباهرة » .

(١) Shakespeare : Richard the Second, Act I, Sc. II 21-3

(٢) تشوسر Chaucer شاعر انجليزى ولد عام ١٣٤٠ وقوفى عام ١٤٠٠ ميلادية . وقد تأثر بالأعمال الأدبية الفرنسية والإيطالية والأولى بصفة خاصة . وقد خلف ثروة كبيرة من القصص والدواوين الشعرية . (المترجم)

٤ - ما هو دور روسيا في تاريخنا الغربي؟

هل يتأتى في التاريخ المعاصر للمجتمع الكبير الذى اتسعت داخله المسيحية الغربية ، أن تميز مرة أخرى أعراضاً لتلك النزعة الخاصة بأحد العصور ؛ وهى نزعة تميل إلى رجحانها داخل نطاق العصر التالى ؟

وهل ثمة ما ينبى عن أن قسماً من مجتمع كامل ، يتولى بمفرده حل مشكلة المستقبل ، فى حين تظل بقية المجتمع منهكة فى تعقيدات الماضى ؟ وهل يعنى هذا كله ، أن عملية الارتقاء ما برحت متصلة ؟

نميز فى عصرنا هذا نوعين جديدين من التحدى ما برحنا نتعرض لهما ، وكلاهما ناجم عن فوز الديمقراطية والاتجاه الصناعى . ونخص بالذكر ؛ النظام الاقتصادى القائم على الصناعة ، الذى يعنى التخصص فى إنتاج سلع عظيمة التكاليف وتتطلب قدراً كبيراً من الحذق لتصديرها إلى الأسواق العالمية . وهذا يتطلب بدوره ، توفير قسط من الأمن الدولى ؛ باعتباره إطار هذا النظام الاقتصادى الصناعى .

وعلى أية حال ؛ يفرض الاتجاه الصناعى والديمقراطية كلاهما على البشرية بصفة عامة ؛ قسماً من ضبط النفس والتسامح المتبادل والتعاون فى الشؤون العامة ، أعظم مما يستطيع الإنسان الاجتماعى الإتيان به . لأن هذين النظامين الحديثين ، قد بثا فى جميع الأفعال البشرية الاجتماعية ، قوة دافعة لم يسبق لها مثيل . ومن المعروف بصفة عامة - مثلاً - أن الأوضاع الاجتماعية التى نجد أنفسنا فى خضمها ، تجعل استمرار حضارتنا متوقفاً على عامل التخلي عن فكرة الحرب كطريقة لتسوية اختلافاتنا . على أننا نعى هنا ملاحظة فيما إذا كان هذان التحديان سيسفران عن أمثلة طريفة لاعتزال تتبعه رجعة .

إن الحكم على فصل من التاريخ وهو ما يزال فى مراحل بدايته كما هو ظاهر ، يعتبر حكماً مبسراً . لكن عسانا أن نجازف بإمعان النظر فيما لدينا

هنا من تفسير لوضع المسيحية الأرثوذكسية الروسية . فلقد استبان لنا قبل الآن ، أن حركة روسيا الشيوعية — تحت قناعها الغربي — تعتبر محاولة غيورة للانفلات من التأثير الغربي الذى فرضه بطرس الأكبر على روسيا منذ قرنين مضيا . ورأينا هذا القناع فى نفس الوقت ، يتقطع فى حماس رغمًا عن أنفه . وخلصنا من ذلك إلى القول بأن روسيا المتأثرة بالآراء الغربية ، قد اعتنقت كارهة الحركة الثورية الغربية تعبيراً عن مناهضتها للاتجاه العربى ؛ بيد أن هذه الحركة قد غدت تمكّن للاتجاه الغربى فى روسيا ، أعظم مما يتيح تطبيق أية عقيدة اجتماعية غربية أخرى .

ولقد حاولنا التعبير عن النتيجة الأخيرة للعلاقة الاجتماعية بين روسيا والغرب ؛ فى صيغة مبناها أن العلاقة التى كانت ذات مرة عبارة عن اتصال خارجى بين مجتمعين منفصلين ، قد تحولت إلى تجربة داخلية لمجتمع كبير ، اندمجت فيه روسيا .

فهل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك ؛ فنقول بأن روسيا وقد أصبحت الآن مندججة فى المجتمع الكبير ، ما تزال تسعى فى نفس الوقت إلى الانسحاب من حياتها المألوفة لكى تقوم بدور أقلية مبدعة تجد لإيجاد حل ما للمشكلات الجارية للمجتمع الكبير ؟

وهكذا أصبح مفهوماً — وهذا ما يؤمن به كثير من المعجبين بالتجربة الروسية الحالية — أن روسيا ستتخذ عودتها إلى المجتمع الكبير ، لتؤدى دور الخلق فيه .

الفصل الثاني عشر

التمايز عن طريق الارتقاء

استكملنا الآن بحثنا ، عن الوسيلة التي استخدمتها الحضارة في ارتقاءها . ويبدو من بين ثانيا المراحل المختلفة التي تولينا بحثها ؛ وحدة الوسيلة ، وتمائلها .

إذ يتحقق الارتقاء وقما يُجيب فرد أو أقلية أو مجتمع بأسره ، عن تحد ؛ بإبراز استجابة ، لا تقتصر فحسب على الإجابة على التحدي ، بل إنها تعرض المستجيب إلى تحد جديد ، يقتضي من جانبه استجابة أخرى .

يبد أنه رغما عن احتمال تجانس عملية الارتقاء ؛ لا تماثل الحالة الشعورية للأطراف المختلفة التي تتعرض للتحدي . وينكشف اختلاف الحالة الشعورية ، إبان مواجهة سلسلة مفردة من التحديات المشتركة ؛ إذا ما قارنا الحالات الشعورية لطائفة مختلفة من الجماعات التي يترابط بها وحده ، مجتمع من المجتمعات :

إن بعضها ينتهي به الحال إلى التسليم والإذعان .

بينما يبتكر البعض الآخر استجابة ناجحة ، عن طريق قيامه بحركة خلاقه للاعتزال والعودة .

وثمة آخرون لا يستسلمون ولا يوفقون . لكنهم يتحاربون على البقاء حتى يرشدتهم العضو الظافر إلى الطريق الحديد الذي يسلكونه طبعين ، في أعقاب الرواد .

وبالأحرى ؛ يبرز التحدي الواحد بعد الآخر ، تمايزا في داخل نطاق المجتمع . وكلما طال أمد سلسلة التحديات ، كلما ازدادت قوة

هذا التمايز وضوحاً : فضلاً عن ذلك ؛ إذا أتاحت عملية الارتقاء ظهور التمايز داخل نطاق مجتمع فرد آخذ في النمو حيث تماثل التحديات بالنسبة للجميع ؛ فأحرى بنفس العملية عندئذ ، أن تميّز بصورة قوية ، مجتمعاً في طريق الارتقاء عن آخر . حيث التحديات نفسها ، تختلف في طبيعتها .

وتبدي لنا في محيط الفن ، صورة واضحة المعالم . فإنه من المسلم به ، أن كل حضارة تُوجد لتفهمها طابعا فنياً يكون علماً عليها . وليس أدل على أهمية عامل الطابع الفني ؛ من أنه إذا كنا نسعى إلى التحقق من تخوم أية حضارة بعينها — سواء في المكان أو الزمان — فإن الاختبار القائم على تدوّن الجمال ، هو أسلم وسائل الاختبار وأسماها .

مثال ذلك ؛ يوحى استعراض الأساليب الفنية التي شاعت بمصر ، حقيقة مبناها أن فن عصر ما قبل الأسرات ، لم يكن قد اتخذ بعد الطابع المصرى الماثور عنه . في حين أن الفن القبطي ، قد طرح عنه السمات المصرية المألوفة . وعلى أساس هذا الدليل ، يتأتى تعيين عمر الحضارة المصرية ؛ بين مبتدأها ومنتهاها .

ونستطيع باستخدام نفس الاختبار ؛ تعيين التاريخ الذي انبثقت عنده الحضارة الهلينية ، من تحت قشرة المجتمع المينوى . وكذلك تحديد تاريخ انحلال الحضارة الهلينية ، لتدع سبيل الظهور للمجتمع المسيحى الأرثوذكسى . وتساعدنا الأدوات الحجرية المينوية بالمثل على حصر الامتداد المكافئ للحضارة المينوية في مراحل تاريخها المختلفة .

فإن سلّم بأن لكل حضارة أسلوباً فنياً خاصاً ؛ يقتضى الأمر البحث في احتمال ظهور الوحدة النوعية — وهى جوهر الأسلوب — في هذا المجال الفرد ؛ دون أن يشمل كافة الأجزاء ، والأعضاء والنظم وأوجه نشاط كل حضارة على حدة . وفى مكنتنا — دون أن نطرق أبحاثاً بعيدة المرمى في هذا الاتجاه —

أن نؤكد هذه الحقيقة المعترف بها تماماً . ومبناها ؛ أن الحضارات المختلفة ، تُضفي على ضروب معينة لأوجه النشاط ، درجات شتى من الأهمية .

فإن الحضارة الهلينية مثلاً : تنزع بشكل ظاهر إلى حياة يغلب عليها طابع الجمال بوجه عام . وهذه حقيقة تفسرها الصفة اليونانية Kalos التي تعبر عما يتصل بالإحساس بالجمال . فإنها تستخدم أيضاً بدون تمييز ، للتعبير كذلك عما هو حسن من الناحية المعنوية .

ومن الناحية الأخرى ، فإن الحضارة السندية وكذلك الحضارة الهندية المتفرعة عنها ، تُبدى كذلك نزعة ظاهرة تتسم بغلبة الروح الدينية عليها . فإذا أقبلنا على حضارتنا الغربية ، لا نجد أدنى صعوبة في استبانة وجهتنا أو مكاننا . أنها تقسم بالولع بالآلات . ويعنى ذلك :

أولاً : تركيز الاهتمام والجهد والكفاية على تطبيق استكشافات علم الطبيعة على الأغراض المادية ؛ عن طريق استخدام العمل الميكانيكي المنظم ، في تشييد المحركات المادية مثل السيارات وساعات اليد والقنابل .

ثانياً : تشييد المحركات الاجتماعية ؛ مثل الدساتير البرلمانية وأنظمة الدولة الخاصة بالتأمين وجداول مواقيت التعبئة العامة .

وما يزال هيامنا بهذه الميكانيكيات ، مستمراً فترة أطول مما نظن عادة . ولقد كانت الطبقة الخاصة المثقفة في الحضارات الأخرى ؛ تنعى على الإنسان الغربي ، غلبة الروح المادية عليه ، وذلك قبل انبعاث ما أصبح يعرف بعصر الآلة . ومصدّقاً لذلك كانت الأميرة البيزنطية « آنا كومنيننا Anna Commena » — التي استحالَت إلى مؤرخة — تجد الحضارة الغربية خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، تحمل نفس هذا الطابع المادى . ويعتبر هذا ؛ رد الفعل الذى خلفته في نفسها البدعة الآلية لقوس الصليبيين ، الذى كان أحسد مستحدثات الغرب في عصرها ؛ وهو أحد مخترعات

التدمير المبكرة^(١) . وقد تلاه بعد انقضاء عدة قرون ؛ ابتكار آلة الساعة التي تعتبر خيرة مآثر الإنسان الغربي في العصور الوسطى ، ويتجلى فيها ولعه بالميكانيكا في فنون السلم التي لا تجذبه إلا بمقدار .

ولقد تابع بعض الكتاب الغربيين المحدثين - وبصفة خاصة سبنجلر Spengler ، موضوع « خصائص الحضارات » المختلفة ، إلى نقطة يعبر عندها الوصف المقترن بالرصانة ، إلى الوهم الموسوم بالتعنت .

ولعلنا قد أوردنا ما يكفي لتقرير الحقيقة القائلة بأن تمايزا من نوع ما ، يتخذ مكانه فعلا . الأمر الذي يعرضنا إلى خطر فقدان إحساسنا بالقياس النسبي ؛ لو فرض وانفلتت عنا حقيقة لا تقل من ناحية التوكيد عن الحقيقة السالفة الذكر ، بل إنها لأبلغ في معناها عن تلك الحقيقة . ومدار هذه الحقيقة الجديدة ، أن التنوع الذي يتبدى في الحياة والنظم البشرية ، هو ظاهرة سطحية تحجب خلفها وحدة كامنة ، دون أن تضيرها .

لقد سبق أن قارنا حضاراتنا بمتسلقى الصخور على جانب الجبل . وإذا نعروض هذا التشبيه ، فإن زمرة المتسلقين - رغماً عن كونهم بالتأكيد أفراداً ينفصل بعضهم عن البعض الآخر - يشتركون جميعاً في عمل متماثل . لأنهم يحاولون تسلق سطح المنحدر ذاته ، من نقطة البداية نفسها ؛ على طنף يقع أسفل ، تجاه نفس الهدف على طنף يقع أعلى . وبالأحرى فإن أساس الوحدة الكامنة ، واضح هنا . ويظهر مرة أخرى إن نوعنا تشبيهاً ، وفكرنا في

(١) هو ما يعرف عند الإنجليز بـ cross-bow أو الأربالست Arbalest . وقد استخدم بصفة خاصة أثناء حروب القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . وكان هذا القوس يصنع من الخشب والصلب ، ملتصق بقائمة تشابه دعامة البندقية . وكان وتر القوس يسحب بواسطة رافعة مقببة في حيز . وكان المسبار « القلاووظ » يتكون من جذع قصير بدين مجنح يرافقه سن معدني ، ويوضع في أخدود في أعلى . وبفضل استخدام محرك (زناد) كان يمكن إطلاق الوتر . (المترجم)

ارتقاءات الحضارات باستخدام مثل « لزراع » ، فإن البذور التي تُبذر
 ينفصل بعضها عن البعض الآخر ، ولكل بذرة مصيرها الخاص ، وإن
 كانت تشترك جميعها في النوع ، كما يتولى بذرها باذر واحد يأمل جنى
 محصول واحد^(١) .

(١) يشير الأستاذ المؤلف إلى قول السيد المسيح واردة في الإنجيل الرابع من إنجيل
 مرقس ، آيات ٣ - ٩ وهي : « اسمعوا هذا الزارع قد خرج ليزرع . وفيما هو يزرع
 سقط بعض على الطريق فجاءت طيور السماء وأكلته . وسقط آخر على مكان محجر حيث لم تكن
 له تربة كثيرة فنبت حالا إذ لم يكن له عمق أرض ، ولكن لما أشرقت الشمس احترق .
 وإذا لم يكن له أصل جف . وسقط آخر في الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يعط ثمرا . وسقط
 آخر في الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو » . (المترجم)

الباب الرابع

انهيار الحضارات

الفصل الثالث عشر

طبيعة المشكلة

إن مشكلة انهيار الحضارات ، أشد وضوحاً من مشكلة ارتقائها . وبالفعل تكاد أن تتماثل في وضوحها مع مشكلة تكوينها ؛ ويقتضى الأمر تفسير تكوين الحضارات . ويرد ذلك إلى حقيقة مجردة مبناه أن هذا « النوع »^(١) قد برز إلى الوجود فعلاً ؛ وأن في قدرتنا بالتالى سرد ثمانية وعشرين ممثلاً له ، مع تضمين هذا العدد من الحضارات ، الخمس المتعطلة ، والتغاضى عن الحضارات العقيمة .

وعسانا الآن أن نمضى قدماً في ملاحظة أن من بين الحضارات ، ثمة ثمان عشرة حضارة ماتت فعلاً وووريت التراب . أما العشر الباقية فهي : حضارة المجتمع الغربى - الكيان الرئيسى لحضارة المسيحية الأرثوذكسية - وغصينها في روسيا - حضارة المجتمع الإسلامى - حضارة المجتمع الهندى - الكيان الرئيسى من مجتمع الشرق الأقصى فى الصين - غصينه فى اليابان . ثم الحضارات الثلاث المتعطلة للبولونيزين والاسكيمو والبدو .

ويبدى استقصاؤنا عن كئيب ؛ هذه الحضارات الباقية على قيد الحياة ؛ أن مجتمعى البدو والبولونيزين ، هما الآن فى سكرة الموت . وأن سبعا من الثمان الباقية هى جميعها - بدرجات مختلفة - تحت تهديد : إما الإبادة أو الاندماج فى المجتمع الثامن ، أى الحضارة الغربية . وثمة - فضلاً عن ذلك - ما لا يقل عن ست من هذه الحضارات السبع^(٢) تحمل فعلاً أمارات الانهيار ، والانحدار صوب التحلل .

(١) أى الحضارة . (المترجم)

(٢) الاستثناء هو حضارة الاسكيمو التى تمطل نموها إبان طفولتها . (المترجم)

في طليعة العلامات الظاهرة للتحلل — كما لاحظناها من قبل — ظاهرة في المرحلة الأخيرة ، لكنها تُنبئ عن الانحلال والسقوط . وتمثل تلك الظاهرة في حصول الحضارة المنحلة على وسيلة تُمهّل عملية انحلالها ، وسيلة مدارها خضوعها لتوحيد سياسي إجباري في دولة عالمية . ويطلع الباحث في هذا الصدد ، المثال التقليدي عن الإمبراطورية الرومانية ؛ التي جمعت في نطاقها المجتمع الهليني عنوة واقتداراً ، إبان الفصل قبل الأخير من تاريخه ؛ فإذا تطلعنا الآن إلى الحضارات القائمة — خلا الحضارة الغربية — ألفينا ما يلي :

١ — أن الكيان الرئيسي للمسيحية الأرثوذكسية قد اجتاز فعلاً مرحلة الدولة العالمية في شكل الإمبراطورية العثمانية .

٢ — أن غصين المسيحية الأرثوذكسية في روسيا ، قد شارك في دولة عالمية حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، عقب التوحيد السياسى بين موسكو ونوفوجورود .

٣ — أن الحضارة الهندية كانت لها دولتها العالمية في الإمبراطورية المغولية وخليفتها «السلطان البريطانى» .

٤ — كان للكيان الرئيسى من حضارة الشرق الأقصى ، دولته العالمية متمثلة في الإمبراطورية المغولية ، وفي إمبراطورية المانشو عند إحيائها على ألبسهم .

٥ — وتمثلت الدولة العالمية في غصين حضارة الشرق الأقصى في اليابان في حكم أسرة توكوجاوا .

٦ — أما بالنسبة للمجتمع الإسلامى ، فقد يتيسر لنا تمييز نذير أيدلوجى لدولة عالمية تتمثل في حركة الجامعة الإسلامية^(١) .

(١) تطورت الأمور منذ أن كتب الأستاذ توينبى هذه العبارة . والواقع أن حركة الجامعة الإسلامية كانت قوية منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وأخذت تضعف بعد الحرب =

وبالأحرى ؛ فإذا تقبلنا ظاهرة الدولة العالمية كدلالة على انحلال الحضارة ،
يوحى لنا ذلك بأن الحضارات الست الغير الغربية والتي ما تزال تعيش حتى
الآن ، قد تصدّعت داخلياً قبل أن تتحلل بفعل هجوم الحضارة الغربية
عليها من الخارج . وسنجد في مرحلة تالية من هذه الدراسة مبرراً للاعتقاد
بأن انهيار حضارة من الحضارات وزوال مكانها بالتالى من سجل الارتقاء ،
يسبق فعلاً عملية اقتحام حضارة أخرى لها اقتحاماً ظاهراً . بيد أنه تكفي في
الوقت الحاضر ، ملاحظة أن كل حضارة باقية في الوقت الحاضر ، تنهار فعلاً
وأنها في طريق التحلل ، خلا الحضارة الغربية .

فما هو الحال بالنسبة للحضارة الغربية ؟

واضح أنها لما تصل بعد مرحلة الدولة العالمية . لكن قد استبان لنا في
فصل سابق ، أن ظاهرة الدولة العالمية لا تعتبر أولى مراحل عملية التحلل ؛
كما أنها لا تعتبر بالمثل المرحلة الأخيرة . إذ يتلوها ما أطلقنا عليه اصطلاح
« الفراغ » . ويسبقها ما دعونا به عصر الاضطرابات ، الذى يبدو أنه يستغرق
عادة بضعة قرون . وإذ كنا نسمح لأنفسنا فى عصرنا أن نحكم على
عصرنا نفسه باستخدام قاعدة ذاتية مستمدة من شعورنا نفسه ، فإن خيرة
القضاة يحتمل أن يعلنوا بأن « عصر اضطرابات » الحضارة الغربية قد أناخ
بلا مراء بكلكله على الغربيين . ولكن لندع هذا السؤال معلقاً فى
الوقت الحاضر .

عرفنا قبل الآن طبيعة انهيار الحضارات ؛ بأنها تتضمن إخفاق محاولة جريئة
للصعود من مستوى البشرية البدائية ، إلى قمة نوع للحياة يسمو على البشرية .

= العالمية الأولى ثم انتهت تماماً بعد الحرب العالمية الثانية . وتعتبر هذه الحركة رد فعل ضد اندفاع
الدول الغربية لاستعمار الدول الإسلامية . فلما تقلص ظل الاستعمار أو كاد ، أخذت الدول التى
غالبية سكانها مسلمون تتجه اتجاهاً قومياً بحتاً . وإن كانت قوة الإسلام الفائقة فى التقريب بين
الشعوب الإسلامية وتعاطف أفرادها وتوادم ، مما لا نظير لها فى أتباع الديانات الأخرى .

(المترجم)

وقدما وصفاً للطوارئ في هذا المسعى الكبير باستخدام مختلف التشبيهات .
 فقارناها - مثلاً - بمتمسكين يسارعون إلى حتفهم بأنفسهم . أو يركضون إلى
 حياة مهينة هي والموت سواء بسواء - فوق الحافة التي بدأوا أخيراً في سيرهم
 منها ، قبل استكمالهم اجتياز « أول المنحدر » ليصلوا إلى استراحة جديدة
 على الحافة فوق . كما وصفنا كذلك طبيعة انهيار الحضارات باصطلاحات
 غير مادية ، فاعتبرنا الانهيار خسارة في الطاقة المبدعة التي تضمها بين
 جنباتها ، نفوس المبدعين أو الأقليات المبدعة . وهي خسارة تجردهم من قدرتهم
 السحرية على التأثير على نفوس الجماهير العاطلة من الابتداع . فالواقع أنه حينما
 ينتفى الإبداع ، تنتفى المحاكاة^(١) . فإن الزمّار الذي يفقد مهارته ، يعجز
 بلا ريب عن إغراء أرجل الجمع بالاستجابة إلى الرقص ، فإن حاول -
 عندما تسيطر عليه سورة غضبه وذعره - أن يحيل نفسه إلى أحد زبانية القهر
 أو ملاحظ أرقاء ، وأن يقهر - باستخدام القوة البدنية - جمهوراً غداً هو
 عاجزاً عن قيادته باستخدام فتنته الجذابة ؛ فإنه كلما واصل إصراره وتعبته ،
 كلما هُزم في تحقيق غايته ذاتها . فإذا كان التابعون قد تخاذلوا واضطرب
 نظام خطواتهم - لما انقطع عن إسماعهم الموسيقى العلوية - فأحرى بلمسة
 السوط التي تلسعهم ، أن تدفعهم إلى ثورة عارمة .

وحقاً ؛ يثبتنا تاريخ أى مجتمع من المجتمعات ، أنه عندما تتحلل
 أقلية مبدعة فتغدو أقلية مهيمنة تسعى إلى الاحتفاظ بمركز لم تعد
 جديرة به ، باستخدام القوة ؛ يحدث ذلك التغيير في طابع العنصر الحاكم ،
 انشقاقاً في بروتيتاريا أصبحت لا تعجب بحكامها فلا تحاكمهم بالنلى ،
 ومن ثم تثور ضد استعبادهم إياها . وشاهدنا كذلك أن هذه البروليتاريا
 تنقسم منذ البداية - عندما تتمكن لنفسها - قسمين مميزين :

(١) لأن جماهير الأفراد العاديين تسعى إلى محاكاة الأفراد المبدعين الأمر الذي يقود
 إلى ارتقاء تلك الجماهير بفضل محاكاتها الأفراد المبتدعين . (المترجم)

الأولى : بروليتاريا داخلية عنيدة ذليلة ؛

الثانى : بروليتاريا خارجية وراء الحدود تقاوم الاندماج فى عنف ؛
وصفوة القول ، يتأتى إيجاز طبيعة انهيار الحضارات فى ثلاث نقط :

الأولى : قصور الطاقة الإبداعية فى الأقلية ؛

الثانية : عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقتها
الإبداعية ؛

الثالثة : فقدان الوحدة الاجتماعية فى المجتمع بصفة عامة نتيجة
لما تقدم .

وعلى أساس هذه الصورة الذهنية لطبيعة الانهيار هذا ؛ عسانا
الآن نتابع بحثنا فى عوامل انهيار الحضارات . وهو بحث سيشغل بقية
هذا الجزء من دراستنا .

الفصل الرابع عشر

حلول حتمية

مالذى يسبب انهيار الحضارات ؟

أخرى بنا أن نستعرض طائفة من حلول المشكلة التى تخلق عاليا ،
بحثا عن دليلها ؛ وتعتمد فى إثباتها :

إما على مذاهب لا يمكن التثبت من صحتها ؛

أو على أشياء أخرى تخرج عن نطاق التاريخ البشرى .

وإن فى طبيعة علل البشر المزمنة ، ما يعمدون إليه من إرجاع
فشلهم الشخصى إلى قوة بعيدة عن سلطانهم . وتجذب هذه المداورة
العقلية ؛ العقول المرفقة الحس ، فى أوقات الانحدار والسقوط . ولقد
دأبت مدارس الفلسفة المختلفة خلال انحدار الحضارة الهلينية وسقوطها ،
على تفسير الانحلال الاجتماعى الذى كانوا يتوقعون له ولا يملكون حياله
دفعاً . لاعتقادهم بأنه نتيجة حتمية لا مناص عنها ، لإغارة شاملة جامعة
بشنها « تشيخ كوني »^(١) :

تلك هى جماع فلسفة لوكريتيوس Lucretius خلال الجيل الأخير من
عصر الاضطرابات الهلينية . وقد ردّ نفس النغم أحد آباء الكنيسة
الغربية « سانت سيريان St. Cyprian فى مؤلف تغلب عليه روح الجدل ،
حينما أخذت الدولة الهلينية تتحلل بعد انحلال الحضارة الهلينية بثلاثة
قرون . إذ نجده يقول :

(١) تشيخ : بدء دور الشيخوخة . (المترجم)

« خَلِيقُ بَكَ أَنْ تَدْرِكَ أَنَّ الْعَصْرَ الْحَاضِرَ قَدْ بَلَغَ الشَّيْخُوخَةَ . إِذْ أَصْبَحَ يَفْتَقِرُ إِلَى قُوَّةِ الْإِحْتِمَالِ الَّتِي كَانَتْ تَصْلُبُ عَوْدَهُ . كَمَا أَنَّهُ خَلُوَ مِنَ الْحَيَوِيَّةِ وَالْحَشُونَةِ الَّتِي كَانَتْ تَزُوْدُهُ بِالْقُوَّةِ . . إِنَّ ثَمَّةَ قَلَّةٍ فِي أَمْطَارِ الشِّتَاءِ الَّتِي تَغْذِي بِذَوْرِ الْأَرْضِ ، وَضِعْفًا فِي حَرَارَةِ الصَّيْفِ الَّتِي تُنْضِجُ الْحَاصِيلَ . . هَذَا هُوَ الْحُكْمُ الَّذِي صَدَرَ عَلَى الْعَالَمِ : هَذَا هُوَ قَانُونُ الرَّبِّ : كُلُّ مَا هُوَ كَائِنٌ يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ ، وَكُلُّ مَنْ يَدْرِكُ سِنَ الْبُلُوغِ يَجِبُ أَنْ يَشِيخَ » (١) .

يَبْدُو أَنَّ عِلْمَ الطَّبِيعَةِ الْحَدِيثِ قَدْ أَطَاحَ بِأَسَاسِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ ، مِنْ نَاحِيَةِ اتِّصَالِهَا بِأَيَّةِ حَضَارَةٍ مِنَ الْحَضَارَاتِ الْقَائِمَةِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ . حَقِيقَةُ تَحْيِيلِ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ الْمُحْدَثِينَ : تَوْقُفُ سَاعَةِ الْكَوْنِ عَنِ الدُّوْرَانِ — فِي مُسْتَقْبَلٍ بَعِيدٍ لَا يَسْتَطَاعُ تَصَوُّرُهُ — نَتِيجَةُ لِنَحْوَلِ الْمَادَّةَ تَحْوِلًا حَتْمِيًّا إِلَى إِشْعَاعٍ . لَكِنْ هَذَا الْمُسْتَقْبَلُ — وَفَقًّا لِمَا ذَكَرْنَاهُ — بَعِيدٌ بَعْدًا لَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُهُ .

وَفِي هَذَا يَكْتُبُ السَّيْرُ جِيمْسُ جِينِزُ مَا يَلِي :

« قِيَاسًا عَلَى النَّظَرِ إِلَى مُسْتَقْبَلِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ نَظَرَةً كُنِّيَّةً غَايَةَ الْكَأَبَةِ ، لِنَفَرَضُ أَنَّهُ لَنْ يَتَوَقَّعَ لَهُ الْبَقَاءُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِي مِليُونِ سَنَةٍ ، وَتِلْكَ الْفَتْرَةُ تَعَادِلُ تَقْرِيْبًا عُمُرَ الْأَرْضِ السَّابِقِ . وَبِالنَّاتِلِ لَوْ قُدِّرَ لِلْأَرْضِ أَنْ تَعِيشَ سَبْعِينَ سَنَةً ؛ فَإِنَّ الْبَشَرِيَّةَ وَإِنْ كَانَتْ تَعِيشُ فِي بَيْتِ عَمْرِهِ سَبْعُونَ سَنَةً ، إِلَّا أَنَّ عُمُرَهَا يَقْدَرُ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَحَسَبِ . . . إِنَّا كَائِنَاتٌ قَلِيلَةٌ التَّجَرِبَةِ تَمَامًا ، مَا تَزَالُ تَقِفُ فِي مُسْتَهْلٍ لِمَعَانِ فَجْرِ الْحَضَارَةِ . . . وَلَا مَنَاصَ لَجَلَالِ الصَّبَاحِ أَنْ يَذْوِيَ إِلَى الضِّيَاءِ الْيَوْمِيِّ الْعَادِيِّ . . . وَسَيَبْرُكُ هَذَا مَكَانُهُ فِي عَصْرِ بَعِيدٍ بَعْدًا قَصِيًّا إِلَى غُبُشَةِ السَّمَاءِ مُنْذِرًا بِأَمْلِيلِ النَّهَائِيِّ الْخَالِدِ . لَكِنَّا نَحْنُ أَطْفَالُ الْفَجْرِ لَا يَتَطَلَّبُ الْأَمْرُ مِنَّا إِلَّا تَوْجِيهَ الْقَلِيلِ مِنَ التَّفَكُّيرِ صَوْبَ الْمَغِيبِ الْبَعِيدِ الْقَصِيِّ » (٢) .

وَمَعَهَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ تَفْسِيرِ الْغَرِيبِينَ الْمُحْدَثِينَ لِأَنْهِيَارِ الْحَضَارَاتِ عَلَى أَسَاسِ

(١) انظر Cf. : De Rerum Natura, Bk. 11, II, 1144—74

(٢) Jeans, Sir I : Eos. or the Wider Aspects of Cosmogony 12-13, 83-4

مبدأ الجبر قضاءً وقدرًا ؛ فإنهم لا يسعون إلى ربط مصائر هذه النظم البشرية بمصير الكون المادى فى مجموعه . وهم عوضاً عن ذلك ، يلجأون إلى تطبيق قانون للشيخوخة والموت قصير المدى . ونجدهم فى سبيل إثبات صحته يدعون الولاية على كافة ملكوت الحياة على هذا الكوكب .

ومن قبيل ذلك يعلن سبنجلر - وهو الذى تنحو طريقته إلى استخدام نوع من الحجاز يشرع منه فى المناقشة معتقداً أنه قانون يقوم على ظواهر مرئية - بأن كل حضارة تمر من خلال نفس تتابع الأجيال الذى يمر به الكائن البشرى . لكن بلاغته تجاه هذا المبحث ، لا ترقى فى أية ناحية إلى منزلة الدليل . فإن المجتمعات - كما سبق أن لاحظنا - ليست كائنات حية وفقاً لأى معنى . فإنها - باستخدام الاصطلاحات الموضوعية - تعتبر الأساس المشترك بين الميادين الخاصة لنشاط عدد من أفراد الكائنات البشرية ، انتهى وإن كانوا هم أنفسهم كائنات حية ؛ إلا أنهم يعجزون عن استحضار شيطان على مثال صورتهم نفسها من بين تقاطع نفس أشباحهم ، ثم يتولون النفخ فى هذا الكائن الأثيرى لتحل فيه نسمة من حياتهم ذاتها .

إن الطاقات الخاصة بجميع الكائنات البشرية التى تكون ما يدعى بـ « أعضاء المجتمع » ؛ هى قوى حيوية يؤدى فعلها ، تاريخ ذلك المجتمع بما فى ذلك فترة بقائه . وبالأحرى فإن التصريح بطريق الجزم بأن لكل مجتمع فترة بقاء مقدرة ، أمر يماثل فى طيشه التصريح بأن كل رواية مسرحية قينة بأن تحتوى عدداً معيناً من الفصول ؟

ولقد نلفظ النظرية القائلة بأن انهيار الحضارة يحدث وقتما تقترب الحضارة من نهايتها البيولوجية ؛ لأن الحضارة هى كيان من نوع لا يخضع لقوانين البيولوجيا . لكن ثمة نظرية توحى بأنه لسبب غير واضح ، ينحط - فى

(١) Aetas Parentum, Prior avis, tulit Nos nequiores, mox daturos Progeniem vitiosiore

وارد فى : Horace ; Clides, Bk. III, clide vi last Stenza

صورة مبهمة - النوع البيولوجى للأفراد الذين تكون علاقاتهم المتبادلة ؛ حضارة ، بعد انقضاء عدد معين أو غير معين من الأجيال . وأنه فى حقيقة الأمر ؛ أن تجربة الحضارة تعيق على - طول المدى - التوريث الإحيائى ، إعاقه لا تمكن معالجتها ، ولا مناص من وجودها .

« آباء منحلّون ، بذرة ! منحلة »

« ستلد قريباً سلالة من الطبقة الرابعة »

ويقتضى ذلك وضع عربية النقل أمام الحصان . ويعنى التفاوض عن تأثير الانحلال الاجتماعى ؛ إساءة فهم تأثير الانحلال الاجتماعى ، فى سبيل معرفة سبب حدوثه . فإن أعضاء المجتمع الآخذ فى الانحلال وإن بدوا إبان أوقات التحلل الاجتماعى ، كما لو أنهم يتضاءلون إلى أقزام أو يتصلبون مشلولين ، عكس ما يبدو عليه آباؤهم من بنيان جليل وحيوية سامية خلال عصر الارتقاء الاجتماعى ؛ إلا أن هذا يدل على فساد الرأى القائل بنسبة المرض إلى عامل الانحطاط . لأن التراث البيولوجى للأبيجونيين^(١) ، هو نفسه تراث الرواد ، وأن مآثر الرواد وكدهم ، كان فى متناول سلالتهم .

والحال ؛ فإن الداء الذى يحتجز أبناء الاضمحلال ، ليس شللاً ؛ ناجماً عن ملكاتهم الطبيعية ، ولكنه انهيار يصيب تراثهم الاجتماعى يصلدهم عن الاهتمام إلى مجال لملكاتهم الطليقة ، فى فعل اجتماعى لإبداعى مثمر .

إن هذا الافتراض الواهى القائل بأن الانحطاط العنصرى هو علة الانهيار الاجتماعى ؛ تؤيده فى بعض الأوقات ما تسفر عنه ملاحظة

(١) الأبيجونيون Epigoni فى الأساطير اليونانية هم سلالة الأبطال السبعة الذين فنوا أمام طيبة . وبعد مرور عشرة أعوام من موتهم اجتاحت الأبيجونيون طيبة انتقاماً لأبائهم ، ثم ساورها بالأرض . (المترجم)

وجود ما أطلقنا عليه اصطلاح « الهجرات » ؛ يحدث إبان الفراغ الذي يتخلل بين الانحلال النهائي لمجتمع مضمحل ، وانبعث مجتمع جديد وليد ينتسب إلى الأول عن طريق التبنى . ويتعرض سكان بلاد المجتمعين المتعاقبين لتخلل « دم جديد » . ويفترض وفقاً لمنطق العبارة القائلة « ومن ثم فهذا السبب Posthoc propterhoc » ؛ أن النمو الجديد للطاقة المبدعة التي تُبديها الحضارة الوليدة في غضون ارتقائها ، هو منحة هذا « الدم الجديد » من المصدر الأصيل للجنس الممجى البدائي . وينبني على ذلك من الناحية الأخرى ، أن فقدان الطاقة المبدعة إبان حياة الحضارة السابقة ، لا بد وأن يُعزى إلى شيء من فقر الدم ، أو التسمم الدموي العنصري الذي لن يشفيه سوى إعادة سكب دم صحي جديد .

ويذكر تعزيزاً لوجهة النظر هذه ؛ حالة في صميم الموضوع ، تُقتبس من تاريخ إيطاليا . إذ يُشار إلى أن سكان إيطاليا قد أظهروا طاقة مبدعة سامية ، إبان الأربعة قرون الأخيرة قبل الميلاد . كما أبدوها مرة ثانية ، في فترة تقارب الستة قرون من القرن الحادى عشر إلى القرن السادس عشر الميلاديين . وأنه يفصل الفترتين ، عصر تقرب مدته من الألف سنة ، اشتمل على التدهور وتضعيف القوى ودور النقاة . حتى لقد بدا في وقت من الأوقات ، كما لو أن الطاقة الفعالة قد تسلبت من الإيطاليين كلية .

ويذكر علماء السلالة تدليلاً على فكرتهم ؛ أنه لا يستطيع تفسير هذه للتقلبات المذهلة في التاريخ الإيطالى ، لولا ماتم من سكب دم الغزاة الجديدة من القوط واللومباردين في عروق الإيطاليين خلال الفترة الواقعة بين هذين العصرين الحافلين بالآثر الإيطالية . واستولد اكسير الحياة هذا في حينه وبعد انقضاء قرون من الحضانة ، عنصر الاحياء أو النهضة الإيطالية . ثم يقررون بعد ذلك بأن افتقار إيطاليا من

الناحية الأخرى ، إلى الدم الغض ، قاد إلى ذبولها وإلى انحطاطها في ظل الإمبراطورية الرومانية ، بعد زوال الطاقة الجبارة التي ظلت كامنة فيها في غضون أيام الجمهورية . ثم يؤكدون بأن هذه الطاقة التي بزغت إلى مجال الفعل مع قيام الجمهورية ، كانت حصيلة سكب دم همجي غض ، وفد إليها مبكراً مع فترة الهجرات التي سبقت ميلاد الحضارة الهلينية .

ولهذا التفسير العنصرى لتاريخ إيطاليا حتى القرن السادس عشر الميلادى ما يبرره ظاهرياً . إن فرض وقفنا بالتزام نقطة الزمن تلك . إذ يتبين لنا أنه عقب فترة إضافية من الانحلال في القرنين السابع عشر والثامن عشر . كانت إيطاليا خلال القرن التاسع عشر مسرحاً لبعث آخر بلغ من قوة طابعه الروائى ، أن أصبح اصطلاح *Risorgimento* يطبق الآن على علاته بدون تحديد ، على هذه النسخة المكررة ، لتجربة إيطاليا خلال القرون الوسطى .

هنا نتساءل عن ماهية سكب الدم الخالص الهمجى الذى سبق هذا التفجر الأخير للطاقة الإيطالية :

الرد الطبيعى انتفاء ذلك . إذ يبدو أن المؤرخين يجمعون على أن اجتياح فرنسا الثورية النابليونية لإيطاليا وحكمها إياها ، هو العامل الرئيسى فى انبعاث إيطاليا إبان القرن التاسع عشر .

ولا يحتاج الأمر إلى كبير عناء للعثور على تفسير غير عنصرى لنهضة إيطاليا السابقة ، فى مستهل الألف الثانية من العصر المسيحى . وكذلك لتفسير انحدارها الذى تبدى فى غضون القرنين الأخيرين قبل الميلاد .

إذ كان هذا الانحدار بلا ريب ، جزءاً وفاقاً للروح العسكرية الرومانية التى جلبت على رأس إيطاليا ، جميع رتل المساوئ الاجتماعية التى تتابعت إثر حرب هانيبال .

ويستطاع - بتأكيد مماثل - رد أصول البرء الاجتماعى فى إيطاليا إبان فترة الفراغ التى أعقبت الهلينية ، إلى ظهور الشخصيات المبدعة التى تنتسب جميعها إلى الجنس الإيطالى القمح . ونخص بالذكر سان بندكت والبابا جريجورى الكبير ؛ فانهما بالإضافة إلى اعتبارهما أبوى إيطاليا التى وفقت إلى استعادة شبابها إبان العصور الوسطى ، هما كذلك أبوا الحضارة الغربية الجديدة التى ساهم فيها إيطاليو القرون الوسطى بنصيب موفور .

وإذ نستعرض تاريخ المقاطعات الإيطالية التى اجتاحتها غزاة اللومباردين ذوو « الدماء الخالصة » ، نجد أن المقاطعات التى لم يطأها اللومبارديون ذوو الدماء النقية ؛ قد ساهمت بأعمال مميزة فى النهضة الإيطالية ، أعظم كثيراً مما قامت به مدن أخرى عرفت بأنها مراكز السلطة اللومباردية : بافيا ، بينيفينتو Benevento ، سبوليتو Spoleto . فإذا رغبتنا فى صقل تفسير عنصرى للتاريخ الإيطالى - والحالة هذه - لاستطعنا أن نقدم الدليل بسهولة على أن الدم اللومباردى صبغة ، أكثر منه إكسبر حياة .

وفى مكنتنا أن نجرد أصحاب المذهب العنصرى من معقلهم الوحيد فى التاريخ الإيطالى ، بوساطة عرض تفسير غير عنصرى لقيام الجمهورية الإيطالية . إذ يتأتى ردّها إلى التحدى الذى أبرزه الاستعمار اليونانى الأثرورى . فهل كان على شعوب شبه الجزيرة الإيطالية الأصيلة أن يسلموا أمرهم إلى ذلك الاختيار بين الإبادة والخضوع ؛ أو الاندماج الذى فرضه اليونانيون على أبناء عموماتهم فى صقلية ، كما فرضه الأثرورى على أهالى أيومبريا Umbria الأصليين ؟ أو كان عليهم أن يذودوا عن كيانهم ضد المتطفلين عليهم عن طريق اعتناق الحضارة الهلينية باختيارهم ووفقاً لشروطهم^(١) ، وبهذا يرقون إلى مستوى الكفاية اليونانى والأثرورسكانى ؟

(١) كما فعلت اليابان لما أخذت بالحضارة الأوربية . (المؤلف)

قرر الرومانيون التزام الاستجابة الأخيرة : وما أن اعتنقوا هذا الرأي ، حتى أصبحوا منشئى مجدهم العتيد .

لقد تخلصنا حتى الآن من ثلاثة تفسيرات قائمة على مبدأ حتمية انحطاط الحضارات :

الأول : يرد الانحطاط إلى استهلاك طاقة العمل فى الكون ، أو تشيخ الأرض .

الثانى : يقرر بأن الحضارة باعتبارها كائنا حيا ، لها فترة حياة المحددة مداهها القوانين الطبيعية المتعلقة بطبيعتها .

الثالث : يعلل انحطاط الحضارات بتلف يصيب نوع الأفراد المشتركين فى الحضارة نتيجة توالى تسلسلهم من أسلاف متحضرين .

وما يزال علينا أن نبحث نظرية أخرى ، يشار إليها عامة تحت عنوان « نظرية أكوار التاريخ » .

وكان ابتكار هذه النظرية الخاصة بالأكوار فى التاريخ البشرى ، نتيجة طبيعية للكشف الفلكى المشير الذى يبدو أنه قديم فى المجتمع البابلى فى تاريخ يقع بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد ، ومبناه :

أولاً : أن الدورات الثلاث الذائعة والمعروفة - اليوم والليل ، والشهر القمري ، والسنة الشمسية ، ليست هى فحسب المثل الوحيدة للتواتر الدورى فى حركات الأجسام العلوية .

ثانياً : أن ثمة كذلك اتساقاً لتحركات الكوكبية يشمل كافة الكواكب فضلاً عن الأرض والشمس والقمر .

ثالثاً : أن « موسيقى الأجرام السماوية » التى وضعها توافق هذا الكورس العلوى ، تُدْعَن لدورة كاملة - الوتر نحو الوتر - فى دورة شاسعة جعلت من السنة الشمسية قرماً لا يؤبّه له .

وانبئت على تلك النظرية ، نتيجة مؤداها أن ولادة النبات وموته سنوياً
— وواضح مدى سيطرة الدورة الشمسية عليه — له ما يطابقه تماماً في تواتر
ميلاد جميع الأشياء وموتها ، وفقاً لدورة الكون الزمنية .

ولقد استهوى تفسير التاريخ البشرى باستخدام المصطلحات الدورية ،
أفلاطون بشكل ظاهر^(١) . كما نشاهد نفس العقيدة تعود إلى الظهور في
عبارات من أشهر عبارات فرجيل الواردة في الأنشودة الرابعة :

إن العمر الأخير الذى تنبأت نبوءة الكومانية قد أقبل
ولد مرة أخرى نظام العصور الجديد

إن العذراء والعصر الذهبي يعودان فعلاً

ويرسل جنس جديد بالفعل من السماء العليا

سيكون هناك تيفيس^(٢) أخرى وآرجو تحملان جماعة مختارة
من الأبطال

سيعاد نشوب الحروب القديمة وسيُرسَل آشيل العظيم مرة أخرى
إلى طروادة^(٣) .

لقد استخدم فرجيل النظرية الدورية ، لخرقة أنشودة التفاؤل ،
مستوحاة من حالة السلام التى حققها أغسطس للعالم الهليني . ولكن هل يعتبر
قوله « سيعاد نشوب الحروب القديمة » مما يدعو إلى التهنته ؟ لقد أعلن كثير
من الأفراد الذين تمتعوا بحياة هائلة وناجحة في حدود الاعتدال — وهم
مقتنعون بما يقولون — صدوفهم عن تكرار حياتهم تلك من جديد .
فهل التاريخ أجدر بصفة عامة أن يكون « إعادة أحداث » منه لإيراد السير ؟

(١) *Timaeus*, 21E—236, and *Politicus*, 269C—273E

(٢) *Argo*, *Tiphys* مدينتان كانتا في البلبونيز في عصر هوميروس . (المترجم)

(٣) فيما يل النص اللاتيني : *Ultima Cumaei venit iam chrynis aetas* ;

*Magnus ab integro saeculorum nascitur ordo, I am redit et virgo, redeunt
Saturnia regna I am nova progenies caelo demittitur alto. Alter erit tum
Tiphys et altera quae vehat Argo Delectos heroas ; erunt etiam altera
bellar At que oterum ad Troiam magnus mittetur A chilles.*

هذا السؤال الذى لا يجابهه فرجيل ، قد أجاب عليه شيللى فى التريمة الأخيرة من قصيدته « هيلاس » التى تبدأ بداية تذكرنا بفرجيل ، وتنتهى بنغمة هى علم على شيللى وحده :

« يبدأ عصر العالم العظيم من جديد
تعود الأيام الذهبية
إن الأرض كالحية تجدد نفسها
تغدو خشائش شتائها باردة . :
تبسم السماء ، وتتلاأأ العقائد والإمبراطوريات
مثل حطام حلم منحل . . .
تشق أرجو البحر الطام متشاخنة
مفعمة بجائزة تالية
وتنشد أورفوس أخرى ثانية
وتحب وتبكي وتموت
ويهجر عوليس جديد مرة أخرى
كاليسو ، راحلا إلى شاطئ بلاده
حبذا أن تكف عن كتابة طروادة
إن كان لا مناص من بقاء قائمة الموت
ولا أن يخلط حق « لايان » بالغبطة
التي تبزغ على الأحرار
رغما عن إعادة تشييد ، أو هول أشد خبيثا
فإن ألباز الموت لم تعرفها طيبة . :
لينك تتوقف . هل قدر للكراهية والموت أن يعودا ؟
توقف ! هل قدر على الرجال أن يقتلوا ويموتوا ؟
توقف ! لا تفرغ الإبريق حتى الثمالة :

من النبوءة المرة !

إن العالم قد مل الماضى

ليتة يموت أو يستريح فى نهاية المطاف .

وإذا كان قانون الكون هو حقيقة مغزى العبارة اللاذعة « كلما يزداد تغييراً ، كلما ظل كما هو » ؛ فليس عجباً أن يُهيمن الطابع البوذى على الشاعر فتجعله يصبح طالباً التحرر من عجلة الوجود^(١) . وقد تكون عجلة الوجود شيئاً له جماله أن اقتصرته مهمتها على إرشاد النجوم فى مسارها . إلا أنها تصبح مثل طاحونة السعى^(٢) التى لا تطيقها أقدامنا البشرية .

هل يدفعنا العقل إلى الاعتقاد بحركة دورية التاريخ البشرى^(٣) ؟

ألم ندفع أنفسنا فى سياق هذه الدراسة إلى الاعتقاد بهذا الافتراض ؟

وإلا ، ما هو مغزى تلك الحركات التى سبق لنا بيانها : الين واليانج ،

التحدى والاستجابة ، الاعتزال والعودة ، التبنى والانتساب ؟

أليست هى أساليب مختلفة تدور جميعها حول الموضوع الرث القائل بأن

التاريخ يعيد نفسه ؟

إننا نسلّم بالتأكيد ، بأن ثمة عامل تكرر فى حركة جميع هذه القوى

التي تحيك نسيج التاريخ البشرى . غير أن الوشيعة^(٤) التى تمرق إلى الوراء

وللى الأمام عبر منسج الزمن ذهاباً وجيئة فى حركة متصلة ؛ تُبرز إلى

(١) تؤمن الديانتان البوذية والبرهمية على السواء ، بأن الأرواح تنتقل من جسد إلى آخر سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو حشرة ، أو نبات . ويتوقف ذلك على أعمال الإنسان فى الدنيا . فإن ساءت أعماله حلت روحه فى حيوان خبيث . وتظل الروح تنتقل من جسد إلى آخر فى سلسلة لا تنقطع . ولن يقبض الشخص الانفصال عن تناسخ الأرواح ، إلا أن استوعب « الحقيقة » بفضل قيامه بأعمال عقلية وبدنية شتى . وهنا يبلغ حالة الرفانا أى الطمأنينة الكاملة .

(المترجم)

(٢) طاحونة السعى أداة يديرها المسجونون عقاباً لهم .

(٣) مع استبعاد أى تأثير للنجوم مزعوم استبعاداً تاماً .

(٤) الوشيعة هى الماكوك .

(المترجم)

الوجود خلال هذا الزمن « طنفسة »^(١) تحتوى على صورة متكامل ، وليست مجرد تكرار لا نهائى لنفس النمط .
هذا ما قد طفقنا نشاهده المرة بعد الأخرى .

ويهيئ لنا استخدام مجاز العجلة فى حد ذاته ، تفسيراً للتواتر الذى يتلاقى مع الارتقاء . ومن المسلم به أن حركة العجلة ، حركة تكرارية بالنسبة لمحور العجلة^(٢) ذاته . غير أن العجلة قد صُنعت وأُعدت ، لتوائم محورها بغية إضفاء الحركة على العربة التى تعتبر العجلة مجرد جزء منها . وإنه وإن كانت العربة — وهى المبرر لوجود العجلة — تتحرك تحت تأثير حركة العجلة الدائرية حول محورها ، إلا أن ذلك لا يلزم العربة نفسها أن ترحل فى طريق دائرى مثلها مثل الدوّارة^(٣) .

ولعل هذا التجانس فى الحركتين المتباينتين — حركة رئيسية لا يأتيا الباطل ، نشأت على أجنحة حركة متكررة أقل شأناً — هو جوهر ما نقصده بكلمة « الإيقاع » . وفى وسعنا أن نميز سير القوى هذا ، لا فى السحب المركب وفى الآلات الحديثة فحسب ، ولكن كذلك فى الإيقاع العضوى للحياة .

لقد جعل تعاقب الفصول السنوى — الذى يجلب معه ارتداد النبات وعودته سنوياً — تطور المملكة النباتية أمراً ميسوراً . كذلك يسّرت دورة الميلاد والتوالد والموت ، موضوع تطور جميع الحيوانات العليا ، هذا التطور الذى قاد إلى ظهور الإنسان . ولا يخفى أن تعاقب حركة الساقين يتيح للسائر أن يطوى الأرض طياً ، وتتهيأ عمليات الضخ التى تمارسها الرئتان والقلب ، الحياة للحيوان . كما تعاون الأقدار الموسيقية^(٤) والفواصل والموشحات

(١) قماش مزركش برسوم للتعليق . (المترجم)

(٢) محور العجلة هو ما يعرف بالدنجل . (المترجم)

(٣) لعبة من أفراس خشبية تلور . (المترجم)

(٤) الأقدار : جمع قدر وهى الكلمة التى وضعها مجمع اللغة العربية لكلمة Bar وتعنى

هنا قسماً من عبارة موسيقية . (المترجم)

الشعرية ؛ الملحن والشاعر على التعبير عن مناهجها . بل إن السنة الكوكبية نفسها — التي لعلمها هي أصل الفلسفة الدورية نفسها — لا يمكن أن تظل مخطئة بعد الآن تجاه الحركة النهائية الشاملة . حركة تعتبر تحولاً تاماً للكون الكوكبي الذي يبدو فيه نظام عالمنا الشمسي ضئيلاً غاية الضآلة ، ولا يعدو شذرة من تراب تحت أعظم منظار مكبر يتوافر الآن للفلكي الغربي . وأصبحت « موسيقى الأجرام السماوية » المتكررة ، لا تريد عن كونها منسازة موسيقية مساعدة ، مثلها مثل موسيقى فصيلة من آلة البرقي الموسيقية Alberti Bäss^(١) . وهذه الأجزاء السماوية كائنة في عالم من عناقيد النجوم يتسع اتساعاً مستمراً . وتراجع تلك النجوم عن بعضها بعضاً في سرعة لا تصدق . على حين أن نسبية نظام المحال الزمني ؛ تهيئ للموقع بعد الموقع من مواقع الترتيب النجمي الواسع ، موقفاً درامياً في مسرحية من المسرحيات ؛ القائمون بأدوارها شخصيات حية . ويتميز هذا الموقف بالتفرد التاريخي الذي لا يأتيه الباطل .

تخلص من هذا إلى القول ؛ بأن استقرار الحركات المتكررة في تحليلنا عملية الحضارة ، لا يتضمن أن يكون لها نفس النظام الدوري كما هو الحاصل . وعكس ذلك ؛ إن أمكن أن نحصل بطريقة مشروعه من استقرار دورية هذه التحركات الفرعية ، على أي استدلال قد يقودنا إلى معرفة أن الحركة الرئيسية التي تحملها من الأول إلى الآخر ، ليست حركة تكرر نفسها ؛ ولكنها حركة تسير قدماً . ذلك لأن البشرية ليست إكسيون Ixion^(٢) قدر له أن يظل مرتبطاً إلى عجلته أبد الأبدن . كما أن البشرية ليست

(١) اصطلاح موسيقى للمسائرات الموسيقية التي كانت معروفة في دساتين الأرغن والبيان خلال القرن الثامن عشر . (المترجم)

(٢) كان إكسيون Ixion في الأساطير اليونانية من تساليا . ولقد لعته الناس لفته زوج أنه . لكن زيوس الإله الأكبر حمله إليه في الأوليمب . على أن إكسيون قد أساء كرم زيوس فحاول استالة زوجه ، فعاقبه بربطه في عجلة تدور أبد الأبدن . (المترجم)

مثل سيسوفوس Sisyphus^(١) الذى حكم عليه بأن يدحرج صخرته إلى قمة الجبل نفسه ثم يشاهدها وهو عاجز ، تعود إلى أسفل مرة أخرى .

إن هذا القول هو بلا مرأى رسالة تشجيع لنا نحن أطفال الحضارة الغربية ، فى انسياقنا وحدنا فى الوقت الحاضر . ولا شئ يشد أزرنا سوى حضارات طاعنة فى السن . ولعل ملاك الموت سيفزع يده الباردة على حضارتنا كذلك . بيد أنه لا يحدق بنا فى الوقت الحاضر أى نوع من العدم العاقى . فإن الحضارات الميتة لم تمت قضاءً وقدرًا أو فى « مسير الطبيعة » : وبالتالي لا يقدّر لحضارتنا القائمة مقدماً ، تقديرًا متزمتاً بأنها ستلحق بالحظارات الأخرى . فإنه على الرغم من أن ست عشرة حضارة لعلها قد انقرضت قبل الآن وفقاً لعلمنا ، وأن تسعا أخرى قد تكون الآن على شفا الموت ، فإن الحضارة الغربية – وهى السادسة والعشرون – ليست منكرومة على تسليم زمام مصيرها إلى تحكيم الإحصاءات العمياء . فإن قبس الطاقة المبدعة الإلهى ما يزال حياً فينا ، وإن قُبِضت لنا نعمة إضرارها ناراً ، فإن النجوم فى مسالكها تعجز عن هزيمة جهودنا لبلوغ هدف جدّها :

(١) هو فى الأساطير اليونانية ملك كورنث . وتذكر أنه شجع الملاحة والتجارة . لكنه كان يحيا حياة شريرة ، عوقب من أجلها فى نهاية الأمر . فحكم عليه أن يدحرج حجراً ضخماً إلى أن يبلغ قمة أحد التلّول لكنه قبل أن يبلغه يعود الحجر إلى نقطة البداية .
(المترجم)

الفصل الخامس عشر

فقدان السيطرة على البيئة

(١) البيئة المادية

إن كنا قد أثبتنا بالقدر الذى يرضينا أن انهيارات الحضارات لا تسبب عن تأثير قوى الكون الخارجة عن نطاق الإرادة البشرية ، فإنه ما يزال علينا إيجاد علة هذه النكبات الواقعة .

وسنبحث فى بدء الأمر احتمال أن يرجع هذا الانهيار إلى شىء من فقدان السيطرة على بيئة المجتمع . وإذ نسعى إلى حل هذه المشكلة ، سنستخدم التمييز الذى سبق لنا استخدامه - بين نوعين من البيئة ، الطبيعية والبشرية .

فهل تنهار الحضارات بفعل فقدان سيطرتها على بيئتها المادية ؟

يتأتى قياس درجة سيطرة مجتمع من المجتمعات على بيئته المادية - كما سبق بيانه - بواسطة دراسة أسلوبه التكنولوجى . ولقد سبق لنا - أثناء دراسة مشكلة الارتقاء - إثبات أنه إن أخذنا نحن على أنفسنا تخطيط مجموعتين من المنحنيات - مجموعة تمثل الحضارات وتمثل الأخرى تقلبات الأساليب التكنولوجية - تسفر النتيجة عن فشل المجموعتين فى التطابق ، بل وتنافر إحداهما عن الأخرى .

فلقد مرت بنا حالات لأسلوب تكنولوجى يتقدم ، بينما تظل الحضارات واقفة أو تنحدر ؛ وحالات أخرى لأسلوب تكنولوجى يظل واقفاً بينما تتصل حركة الحضارات سواء إلى الأمام أو إلى الوراء وفقاً للحالة . وهكذا مضينا بالفعل شوطاً بعيداً فى إثبات أن فقدان السيطرة على البيئة المادية ، ليس هو قاعدة انهيارات الحضارات .

واستكمالاً لإثباتنا ، علينا - مع ذلك - أن نبدي أنه في الحالات التي يتفق فيها حدوث انهيار حضارة من الحضارات مع انحطاط المستوى التكنولوجي ، لا يعتبر هذا الانحطاط علة انهيار الحضارة . وحقيقة الأمر ، ما برح انحطاط الأسلوب التكنولوجي نتيجة انهيار الحضارة ، أو ظاهرة من ظواهره ؛ لا سبباً له .

إذ يحدث في بعض الأحيان وقتاً تندهور الحضارة ، أن يأخذ أسلوب تكنولوجي معين كان يتسم خلال مرحلة ارتقاء الحضارة بقابليته للتطبيق وإداره الربح ، في مواجهة عقبات اجتماعية تضعف من قابليته للتطبيق ، وينتهي الحال بإنتاجه إلى التناقص . فإن ظهر قصوره للعيان ، يترك تطبيقه عن عمد . وهنا يبدو كما لو أن عاملي السبب والنتيجة قد انحرفا انحرافاً كاملاً . لأن التخلي عن الأسلوب في مثل هذه الظروف ، مرده العجز فنياً عن استخدامه ، وهذا العجز هو علة انهيار الحضارة .

وتطالعنا في هذا الشأن حالة ماثلة للعيان مدارها التخلي عن استخدام الطرق الرومانية في أوروبا الغربية . وواضح أن إجراء التخلي لا يعتبر سبباً لانهيار الإمبراطورية الرومانية ، ولكنه جاء نتيجة لها . فلقد هُجرت الطرق ، لا بسبب قصور المهارة الفنية ، ولكن لأن المجتمع الذي احتاج إليها وشيّد لها للوفاء بأغراضه الحربية والتجارية ، قد تمزق إرباً .

كذلك لا يتأتى رد تندهور الحضارة الهلينية وسقوطها ، إلى تندهور في الأسلوب التكنولوجي ، بمجرد اتساع نطاق رؤيتنا للأسلوب التكنولوجي لتشديد الطرق ، ليشمل الجهاز الفني للحالة الاقتصادية :

« يجب التخلي تماماً عن التفسير الاقتصادي لانحطاط العالم القديم . . . فإن التجريد الاقتصادي للحياة القديمة ، لم يكن سبب ما ندعوه بانحطاط العالم القديم . إذ يعزى هذا إلى ظاهرة أكثر شمولاً ، تمثلت في فشل الإدارة وخراب الطبقة المتوسطة » (١) .

وللاستغناء عن الطرق الرومانية ، نظير يعاصرها إلى حد ما يتمثل في الاستغناء الجزئي عن نظام الري في دلتا جوص الدجلة والفرات الغرينية ، وهو نظام أقدم كثيراً من الطرق الرومانية . إذ حدث في القرن السابع الميلادي ، أن أهمل أمر استصلاح مشروعات الري الهندسية في قسم كبير جنوب غرب العراق . وهي مشروعات تعطلت عن العمل إثر فيضان لعله لم يحدث من الضرر الخطير أكثر مما أحدثه الكثير من الفيضانات التي آلت بالعراق على مدار أربعة آلاف سنة : فكان أن تطرق الفساد إلى نظام الري العراقي بأسره إبان القرن الثالث عشر (١) .

فما هو السبب الذي جعل سكان العراق يواصلون التخلي عن نظام دأب أجدادهم على الاحتفاظ به بنجاح طوال بضعة آلاف سنة ، وهو نظام اعتمدت عليه الطاقة الإنتاجية للزراعة ولكفالة معيشة حشد من السكان ؟

لم تكن هذه المفوة في الواقع في الميدان التكنولوجي هي العلة ، ولكنها نتيجة انخراط في السكان والرخاء . انخراط يعزى إلى العواجل الاجتماعية . ولقد كانت الحضارة السورية في غضون كلا القرنين السابع الميلادي ثم القرن الثالث عشر ، في أدنى حالات التدهور في العراق . وكانت حالة الاضطراب التي ترتبت على ذلك ، في أعلى درجاتها . بحيث افتقر كل فرد إلى كل من وسائل استثمار المال ، والباعث على استخدام النشاط في صيانة النهر وفي أعمال الري . ولقد تمثلت الأسباب الحقيقية للقصور التكنولوجي في الحرب الرومانية الفارسية خلال أعوام ٦٠٣ - ٢٨ ، وما تلاها بعد ذلك من اجتياح العرب المسلمين الأوائل للعراق . أما غزو المغول للعراق عام ١٢٥٨ ، فقد كان الضريرة القاضية التي وجهت للمجتمع السوري :

(١) الواقع أن العراق كان مزدهراً في عهد الخلافة العباسية سواء في النواحي الاقتصادية أو الثقافية أو الاجتماعية حتى غدت بغداد قبلة العالم المتحضر في ذلك الوقت . ولم يتحطم الاقتصاد العراقي إلا بعد الغزو المغولي . هذا ولم يغير استيلاء العرب على العراق وغيره من حالة الأرض والسكان . (المترجم)

ونتهى إلى نفس النتيجة عندما نتبع رتلا من البحث ، يوحيه كشف عجيب في سيلان يقوم على الملاحظة التجريبية . فإن المنطقة التي تجنوى على الآثار المهدمة للحضارة السندية في سيلان في الوقت الحاضر ؛ تتطابق ، لا مع المنطقة المصابة بالجذب فحسب ، ولكن كذلك مع المنطقة التي تتوطن بها الملاريا . وتبدو من النظرة الأولى ، غرابة الرأى القائل بأن تلك المنطقة التي تمرّد أخذها المائى ، أصبحت قاصرة تماما عن أن تنى مياهاها باحتياجات زراعة المحاصيل ، وباتت لا تكفى إلا لتغذية بعوض الملاريا^(١) ؛ أن تكون موطناً لحضارة سابقة . إلا أنه لا يتأتى بحال من الأحوال أن تسود الملاريا المنطقة ، وقما شيد رواد المجتمع الهندى نظام الرى العجيب : وواقع الحال ؛ أن الملاريا هى نتيجة خراب نظام الرى ، فهى من ثم نالمة لإنشائه . ولقد أصبح هذا القسم من سيلان موطناً للملاريا ، لأن انهيار نظام الرى قد حوّل الحارى المائية الصناعية إلى سلاسل من المستنقعات الآسنة ، وأهلك السمك الذى كان يعيش فى الحارى المائية فينظفها من يرقات البعوض .

ولكن ، لم أهمل نظام الرى الهندى ؟

تُلمت تلك الشيطان^(٢) ، وتهمّت تلك القنوات إبان حرب متصلة مدمرة . إذ تعمّد الغزاة تخريب منشآت الرى على اعتبار أن ذلك أقصر سبيل لإحراز النصر . وتقاعس الشعب الذى أنهكته الحرب من جهة عن استصلاح ما أتلفته الحروب المتتالية ، سيما وقد تأكد من جلول النكبة به مرات أخرى .

نخلص من هذا إلى القول بتضاؤل عامل الأسلوب التكنولوجى فى هذه الحالة كذلك ، وصيرورتها علاقة عرضية ، تتبع سلسلة من السبب والنتيجة . وهى سلسلة ما يزال علينا واجب إرجاعها إلى أصولها الاجتماعية .

The Lands of the Eastin Catlithate (١)

(٢) الأصل كلمة Bund وهى هندية تعنى شاطئ . (المترجم)

ولهذا الفصل من تاريخ الحضارة الهندية في سيلان ، نظير يقاربه في تاريخ الحضارة الهلينية . إذ يتبين لنا أن طائفة من المناطق التي عاشت فيها تلك الحضارة المدرسة أزهى مراحل حياتها ، والتي أنجبت أبداع طاقاتها الحيوية ؛ قد تحولت منذ ذلك الحين إلى مستنقعات تنشر الملاريا ، لم تستصلح إلا منذ عهد قريب . فإن مستنقعات كوبايك Copaic Marsh ^(١) مثلا ، تولت تجفيفها شركة بريطانية منذ عام ١٨٨٧ ميلادية بعدما لبثت مستنقعا وبائيا طوال فترة ألفى سنة على الأقل ، وكانت في سالف عصرها حقولا تُطعم مواطني أورتشومينوس الأغنياء ^(٢) . وكانت مستنقعات بومبتين Pomptine ^(٣) — التي جففت وأعيد إسكانها في عهد موسوليني بعد فترة من الخراب — تضم فيما مضى حشداً من المدن القولسكانية والمستعمرات اللاتينية .

ولقد قيل بحق إن « فقدان التغلب » (وتلك عبارة البروفسور جيلبرت موراي) الذي كان كامناً في قلب الانهيار الأثيني ، يعزى إلى انتشار الملاريا في الأوطان الهلينية . بيد أن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن عهد الملاريا لم يبدأ في أية منطقة من هذه المناطق — كما رأينا بالنسبة لسيلان — إلا بعد أن اجتازت الحضارة الحاكمة فترة ذروتها . ولقد خلص أحد الثقات المحدثين ^(٤) الذي تخصص في موضوع الملاريا في التاريخ اليوناني ، من دراسته ؛ إلى تقرير أن الملاريا اليونانية لم تتوطن إلا بعد الحرب البلوبونيزية ؛ ولم يستشر المرض في لاتيوم Latium إلا بعد حرب هانيبال . ومن السخف الذي

(١) نسبة إلى كوبايس Copaio أرتوبولياس Topalias . وقد أصبح مستنقعا وبائيا مساحته ١٣٥ ميلا مربعا ويقع في مقاطعة بوثوثيا باليونان . وفي عام ١٨٨٧ أمكن تجفيفه فأصبح منذ هذا التاريخ أرضا زراعية تنتج القطن والحبوب . (المترجم)

(٢) حملت هذا الاسم في اليونان القديمة مدينتان : واحدة في بوثوثيا والأخرى في أركاديا . (المترجم)

(٣) في إيطاليا .

(٤) Jones, W. H.S. : Malaria and Greek History

لا يحتاج إلى بيان ، القول بأن يوناني العصر التالى للإسكندر وروماني عصر سيبيوس Scipias والقياصرة ؛ حرمهم قصورهم الفنى من مواصلة الصراع مع مشكلات مياه مستنقعات كوبايك وبومبتين . وهى المشكلات التى استطاع أجدادهم حلها ، رغما عن قصور وسائلهم التكنولوجية نسبياً .

ويتأتى تفسير المفارقة ، لاعلى المستوى الثقافى ، ولكن على المستوى الاجتماعى . فلقد كان لحرب هانيبال ؛ ولحركة السلب والنهب والحروب الأهلية التى نشبت إبان القرنين التالين لتلك الحرب ، تأثير انحلالى عميق على الحياة الاجتماعية الإيطالية . فكان أن تقوضت فى بدء الأمر دعائم الثقافة والاقتصاد الزراعيين ، وانتهى الأمر بهما أخيراً أن جرفهما تأثير عدد من القوى الضارة ، احتشد بعضها إثر البعض الآخر :

١ - تخريب حرب هانيبال

٢ - تجنيد الفلاحين للخدمة العسكرية تجنيداً دائماً .

٣ - الثورة الزراعية التى أحلت المزارع الكبيرة القائمة على عمل الأرقاء ، مكان المزارع الصغيرة التى يملكها فلاحون يرتزقون بعملهم فيها .

٤ - هجاء واسعة النطاق من الريف إلى المدن الطفيلية .

فإلى هذا المزيج من الشرور الاجتماعية فى إيطاليا ؛ يرد انسحاب الإنسان ، وتقدم البعوض فى غضون القرون السبعة بين جيل هانيبال وجيل سانت بنديكت .

أما عن اليونان ؛ فإن مزيجاً من الشرور يماثل ما تقدم ويرجع العهد به إلى الحرب البلوبونيزية ، قد أسفر فى عصر بوليبيوس Polybius (٢٠٦ - ١٢٨ ق . م) عن هبوط فى عدد السكان ، أفدح مما حدث بعد ذلك فى إيطاليا . ويحمل بوليبيوس فى عبارة مشهورة ، شيوع عادة تقييد حجم الأسرة بوساطة ممارسة الإجهاض أو وأد الأطفال ، مسئولية انهيار اليونان الاجتماعى والسياسى فى عهده .

وهكذا يتضح لنا فعلا ، قصور تفسير تحول سهل كوبايك وكذلك بومبتين من صومعة غلال إلى مرتع للبعوض ، بعجز الفن الهندسى .
ونصل إلى نتائج مشابهة أن انتقلنا من الهندسة التطبيقية ، إلى فنون العمارة والنحت والتصوير والخط والأدب .

فما هو مثلا سبب إبطال استخدام الأسلوب المعمارى الهلانى خلال القرنين الرابع والسابع الميلاديين ؟

ولم هجر الأتراك العثمانيون حروف الكتابة العربية عام ١٩٢٨ ؟

ولم نبذت تقريبا كافة المجتمعات الغير الأوربية أسلوبها التقليدى فى اللباس وفى الفنون ؟

توطئة للرد على تلك الأسئلة ، عسانا كذلك نوثق بالمشكلة تحت أنظارنا ، وبالتساؤل عن الأسباب التى دفعت جانبا من جيلنا الناشئ إلى التخلي عن أساليبنا التقليدية فى الموسيقى والرقص والتصوير والنحت .

فهل يتأتى بالنسبة لحالتنا ، تفسير أسباب ضياع أسلوبنا التكنولوجى ؟

هل نسينا قواعد الإيقاع والوزن والمنظور والتناسق ، التى كشفها الإيطاليون وغيرهم من الأقليات المبدعة فى الفصلين الثانى والثالث من تاريخنا ؟

واضح أن هذا لم يحدث . إذ ليست النزعة السائدة للتخلي عن تقاليدنا الفنية ، نتيجة القصور التكنولوجى . فما هى إلا تعمّد هجران أسلوب بات يفقد إعجاب الجيل الصاعد ، لأن هذا الجيل أصبح يتوقف عن بث الأحاسيس بالجمال ، وفقاً للنظم الغربية فى نفوس أفرادها . لقد طرحنا متعمدين بعيداً عن نفوسنا ؛ ما أثر الأساتذة العظام الذين كانوا بمثابة الأرواح لأجدادنا . وبينما كنا ملفوفين فى إعجاب الغبطة الذاتية للفراغ الروحى الذى خلّفناه نحن بأيدينا ، فراغ يتمثل فى ترحيلنا بروح إفريقيا الاستوائية فى الموسيقى والرقص ، وفى إبرام محالفة غير مقدسة ؛ بين فن النحت ،

وروح بيزنطية كاذبة يبدو أثرها في التصوير والنقش البارز . وقد دخلت تلك التأثيرات الفنية في بيت ألفته خالياً ومزينا .

إن مظاهر هذا الانحدار لا تمت في جوهرها إلى الفن ، ولكنها روحانية الطابع . لأننا بطرحنا وراء ظهرنا تقاليدنا الفنية الغربية وخفض مواهبنا إلى حالة من الوهن والجدب ، بتنا نقبل على فن داهومي وبنين Benin^(١) البدائي الدخيل ، كما لو أنه « من » سقط من السماء على البليداء^(٢) . إننا نعترف أمام جميع الناس بتزييفنا تراث آبائنا . إذ يبدو أن تحللنا عن أسلوبنا التكنولوجي التقليدي ، نتيجة نوع من الانهيار الروحاني في حضارتنا الغربية ، وواضح أن علة هذا الانهيار لا يمكن العثور عليها في ظاهرة تعتبر هي إحدى نتائجها .

يتيسر وفقاً لهذه الأسس ، تفسير إحلال الأتراك حديثاً الحروف اللاتينية محل الحروف العربية . فلقد اتجه مصطفى كمال أتاتورك وزملاؤه اتجاه غريباً محضاً داخل نطاق عالمهم الإسلامي . وفقدوا إيمانهم بتقاليد حضارتهم ، مما حدا بهم إلى نبذ الوسطة الأدبية لهذه الحضارة .

وثمة تفسير مشابه لاستغناء حضارات ماتت عن حروف كتابتها التقليدية ، قبل ذلك . مثال ذلك الكتابة الهيروغليفية في مصر والمسمارية في بابل . وثمة حركة في الصين واليابان لإلغاء الحروف الصينية في الكتابة في البلدين^(٣) .

(١) داهومي قطر في إفريقيا الغربية الفرنسية . وقد أعلن استقلاله أخيراً ، وبينين قطر في إفريقيا الغربية البريطانية وهو جزء من جنوب نيجيريا . (المترجم)
 (٢) يشير الأستاذ المؤلف إلى نزول المن والسلوى على بني إسرائيل أثناء تيهيم في بلياء سيناء . (المترجم)
 (٣) ظهرت في الصين الشعبية دعوة إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف الصينية في الكتابة . بيد أنه اعترض على ذلك بخشية جهل الجيل القادم قراءة المؤلفات الصينية المفقورة . ولم تخرج الفكرة إلى حيز التفكير الحاصل في اليابان حتى وقت مفادوني إياها (٤ ديسمبر ١٩٥٧) (المترجم)

ويطالعنا مثال طريف لإحلال أسلوب فى محل آخر ، هو هجران أسلوب العمارة الهلننى واعتناق الأسلوب البيزنطى المستجد . فكأن المهندسين المعماريين لمجتمع كان يعانى سكرات الموت ، يبنون والحالة هذه طريقة مبسطة نسبياً ، أساسها استخدام العارضة القائمة على العمود ، ويقبلون على تطبيق أسلوب البناء أصعب عبارة عن تنويع البناء على شكل قبة مستديرة . ومن ثم لم يكن ثمة مجال للقول بقصور الكفاية التكنولوجية . إذ لا يصدق أن المهندسين المعماريين الأيونيين الذين وفقوا إلى حل مشكلات تشييد كنيسة أيا صوفيا للإمبراطور جوستنيان ، عجزوا عن بناء معبد يونانى قديم لو اتفق ذلك مع إرادة الحاكم ومع رغبتهم . فالواقع أن جوستنيان ومهندسيه قد اعتنقوا نمطاً جديداً للبناء بدافع من كراهيتهم للنمط القديم ، لارتباطه ببقايا ماضٍ ميت فاسد .

وصفة القول ؛ يعتبر الاستغناء عن نمط فن تقليدى ، دليلاً على تصدع الحضارة التى ترتبط بهذا النمط منذ أمد ، وأنها غدت تسير فى طريق الانحلال . كما أن إهمال استخدام أسلوب فى مقرر ، يعتبر نتيجة للانهايار ، لا سبباً له .

(٢) البيئة البشرية

تبين لنا من بين ثنايا بحثنا السابق فى هذا الموضوع ، من ناحية ارتباطه بارتقاء الحضارات ، إمكان قياس درجة السيطرة على البيئة البشرية التى فى حوزة حضارة معينة خلال مرحلة من تاريخها . ويتيسر ذلك باستخدام مصطلحات التوسع الجغرافى إلى حد ما . كذاك تبين لنا — من دراسة الأمثلة — أنه يصحب التوسع الجغرافى فى غالب الأحيان ، تحلل اجتماعى :

فإن كانت الحال كذلك ، يبدو أمراً بعيد الاحتمال إلى أعظم حد ، العثور

على علة هذا الانهيار والانحلال الذاتيين ، في نزعة تخالف التوسع الجغرافي تماماً . ونعني بها نزعة الاتجاه نحو تضيق نطاق السيطرة على البيئة البشرية ، على أن المتفق عليه في الغالب ، أن الحضارات — مثلها مثل المجتمعات البدائية — تفقد كيانها نتيجة هجمات ظافرة تشنها عليها قوى خارجة عنها .

ويطالعنا في هذا الشأن المثال البارز التقليدي الذي بسطه إدوارد جيون في كتاب تاريخ انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها . وتتكشف الحقيقة في جملة واحدة أجمل فيها جيون قصته التي يسردها « لقد وصفت انتصار البربرية والدين » . ويعرض جيون المجتمع الهليني الذي تجسّد في الإمبراطورية الرومانية التي بلغت ذروة مجدها في عصر الأنطونيين ؛ كما لو أنه قد دمرته مهاجمة عدوين غربيين عليه ، أغارا عليه في ميدانين مختلفين .

الأول : يتمثل في برابرة أوربا الشماليين الذين تدفقوا من الشقة الحرام فيما وراء الدانوب والراين .

الثاني : يتجلى في الكنيسة التي انبثقت من الولايات الشرقية التي خضعت للإمبراطورية ، وإن لم تندمج فيها قط .

ولم يدر في خلد جيون قط ، أن عصر الأنطونيين لم يكن صيف التاريخ الهليني ، ولكن صيفه الهندي^(١) . وإن عنوان الكتاب نفسه « انحلال الإمبراطورية الرومانية وانهيارها » لينم عن مدى وهم المؤلف . لأن المؤلف الذي يحمل كتابه هذا العنوان ويبدأ نقطة بحثه من القرن الثاني الميلادي ، لا شك أنه يقترب من القصة الحقيقية التي هي الحضارة الهلينية التي تعتبر « ميدان الدراسة التاريخية الواضح » ، وليست

(١) الصيف الهندي فصل دافئ يغشى الهند في أواخر الخريف أو أوائل الشتاء . ويقصد المؤلف أن عصر الأنطونيين يعتبر نذيراً بانهيار الإمبراطورية ، ولم يكن ذروة مجدها كما يعتقد جيون . (المترجم)

الإمبراطورية الرومانية التي هي دلالة ضخمة على تحلل الحضارة في زمن متقدم كثيراً .

فإذا ما أخذت القصة كلها في الاعتبار ، نجد أن انحلال الإمبراطورية السريع بعد العصر الأنطوني ، لم يكن بالأمر المستغرب . إذ يبدو الأمر على العكس غريباً ، إن كان قد قُيِّض للإمبراطورية الرومانية البقاء . لأن هذه الإمبراطورية كان مقدراً لها الهلاك قبل تشييدها^(١) . إنها هلكت لأن تشييد هذه الدولة العالمية لم يكن إلا صحوة الموت أجملت دمار المجتمع الهليني المحتوم ، ولكنها لم توقف هلاكه إلى الأبد .

ولو كان جيون قد كرّس نفسه لإيراد هذه القصة الطويلة من بدايتها ، لتبين له أن « انتصار البرابرة والدين » ؛ لم يكن حبكة الرواية ، لكنه خاتمها فحسب . فإن هذا الانتصار ليس علّة الانهيار ، لكنه مساهمة حتمية للاضمحلال الذي يقدر أن تنتهي إليه عملية التحلل . ولتبين له فضلاً عن ذلك ، أن الكنيسة والبرابرة المتصيرين ، لم يكونوا - مع ذلك - أجانب . لكنهم يقينا أبناء العائلة الهلينية ، أبعادوا عن الأقلية الحاكمة في غضون عصر الاضطرابات الذي تحلل انهيار عصر بركليس ، والانتعاش في عصر أغسطس .

وفي الواقع لو أن جيون قد أرجع استقصاءه إلى بداية المأساة ، لاعتنق رأياً مخالفاً لما تقدم . إذ لقاده استقصاؤه إلى تشبيه المجتمع الهليني بمنتهجر حاول - بعد أن استحال عليه إنقاذ حياته - أن يتفادى النتائج القاتلة لاعتدائه على نفسه ، والذي تلقى في نهاية الأمر ضربة قاتلة من أبنائه الدخلاء الذين أُسيئت معاملتهم ، وقتما ترك الانتعاش الأوغسطي مكانه قبل ذلك ، لنكسة حدثت في القرن الثالث . ومن ثم كان يتضح

(١) ثمة حالة فذة تمثل في الإمبراطورية المصرية التي لبثت قائمة عدة قرون بعد انقضاء الوقت المقدر لها وفقاً لكل قياس . وقد سبقت مناقشة ذلك . (المؤلف)

لحيون أن المريض يموت تحت تأثير الجروح القديمة التي أحدثها بنفسه .

ولا يركز المؤرخ المحقق لأسباب الموت في ظل هذه الظروف ، التفاته على الخاتمة . لكنه يتجه إلى أن يعين تعييناً تاماً ، الوقت الذي ألقى المنتحرف فيه يديه العنيفتين على شخصه وكيفية ذلك : وهو في تنقيبه عن تاريخ ؛ يحتمل أن يضع أصبعه على نشوب الحرب البلوبونيزية عام ٤٣١ ق . م . فلإنها كارثة اجتماعية نعمها توكيديديس على لسان إحدى شخصيات إحدى رواياته الدرامية بأنها « بداية شرور مستطيرة لهيلاس » . ولعله في تقريره عن الطريقة التي استخدمها أعضاء المجتمع الهليني في اقراراف جريمتهم التدميرية في حق أنفسهم ، يعلّق أهمية مماثلة على آفتين توأمين تتمثلان في الحرب بين المدن الهلينية من جهة ، والحرب بين الطبقات من الجهة الأخرى . ولعل هذا المؤلف إذ يتابع خطوات توكيديديس ، يطرح جانباً العقاب الرهيب الذي أنزله الأثينيون على المالطين ، وحروب الأحزاب في كورسيرا^(١) التي لا تقل عن ذلك رهبة ؛ باعتبارها أمثلة لقبح صبت هذه الشرور .

على أية حال ؛ سيؤكد هذا المؤرخ بأن الضربة القاضية قد وجهت إلى الامبراطورية الرومانية قبل الوقت الذي دار في خلد جيون بسمائة سنة ، وأن اليد التي وجهتها كانت يد الضحية نفسها .

وينطبق نفس الرأي على حالات طائفة أخرى من الحضارات أصبحت ميّنة بكل تأكيد أو تبدو في حالة احتضار ، إن وسّعنا الآن نطاق بحثنا ليشملها .

فبالنسبة لانهلال المجتمع السومري وسقوطه — مثلاً — يمثل عصر حورابي الذهبي^(٢) مرحلة « صيف هندي » متأخرة عن مثيلها في عصر الأنطونيين ؛

(١) الاسم القديم لجزيرة كورفو . (المترجم)

(٢) كما يسمى في تاريخ كمبردج القديم . (المؤلف)

إذ يعتبر خموراني ، دقلديانوس التاريخ السومري ، أكثر من تراجع هذا التاريخ . ومن ثم لن نوحّد قتلة الحضارة السومرية مع برابرة ما وراء الحدود الذين انقضّوا على « مملكة الجهات الأربع » في القرن الثامن قبل الميلاد . وسيتجه بحثنا عن الضربات المميتة ، في الأحداث التي حدثت قبل ذلك بحوالى التسعمائة سنة : الحرب الطبقيّة بين أورو كاجينا^(١) وطبقة الكهنة المحليين من ناحية ، والروح الحربية للمخرب لوجالزاجيسي^(٢) . وهكذا تعتبر هذه النكبات القديمة ، هي البداية الأصليّة لعصر الاضطرابات السومري .

ويمثل انتصار « البربرية والدين »^(٣) في انحلال المجتمع الصيني وسقوطه ، بتشديد دول البدو الأوراسيين التي خلفت الدولة الصينية العالمية في حوض النهر الأصفر حوالى عام ٣٠٠ ق . م وباجتياح الشكل الماهاياني^(٤) من البوذية العالم الصيني في نفس الوقت : وكان هذا الضرب من البوذية هو أحد أديان البروليتاريا الداخلية الصينية في الأقاليم الشماليّة الغربية . بيد أن هذه الانتصارات كانت على غرار انتصارات « البربرية والدين » في الامبراطورية الرومانية ؛ أى انتصارات بروليتاريا داخلية ، وبروليتاريا خارجية لمجتمع يحترق . ولا تكون هذه الانتصارات سوى الفصل الأخير من القصة الكاملة . إذ كانت الدولة العالمية الصينية تمثل صحوة اجتماعية بعد عصر الاضطرابات ، تمزّق خلاله الكيان الاجتماعي الصيني إرباً ، بفعل الحرب الأهلية بين عدد معين من الدول سبق للمجتمع الصيني ربط مصيره بها . ويعتبر عام ٤٧٩ ق . م ، التاريخ الحاسم في التقاليد الصينية ؛ إذ قد اتفق

(١) Wukagina from Lagash

(٢) Wukagina's destroyer Inghazaggisi

(٣) وفقاً لرأى جييون السالف الذكر عن سقوط الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

(٤) بوذية ماهايانا هي ذلك النوع من البوذية الذي انتشر في الصين واليابان وغيرها من

أقطار شمال شرق آسيا . (المترجم)

على أنه بداية ما تدعوه التقاليد الصينية « فترة الدول المتنازعة » . ويتطابق هذا العام مع عام ٤٣١ ق . م . الهليني . ولكن لعل هذا التاريخ المتعارف عليه ، يتأخر عن الحدث الحقيقي بمحاولي المائتين والخمسين سنة . ولقد اعتبرت التقاليد الصينية قد هذا التاريخ بداية عصر الاضطرابات الصيني ، لأنه بالمثل التاريخ المتفق عليه لوفاة كونفوشيوس .

أما بالنسبة للمجتمع السوري الذي استمتع بـ « صيفه الهندي » في ظل الخلافة العباسية في بغداد ، والذي شاهد « انتصار البربرية والدين » متمثلاً في غزوات البدو والأتراك ، وفي تحوّلهم إلى الإسلام دين البلاد المغزوة . فأحرى بنا أن نسترجع نقطة سبقت لنا إقامتها في موضع سابق من هذه الدراسة ، ومؤداها أن عملية التحلل والسقوط السورية ، قد أرجأها مداخلة هليونية استمرت فترة ألف سنة . وأن الخلافة العباسية لم تعمل سوى التقاط خيط التاريخ السوري ، من حيث اضطرت الإمبراطورية الأخيمينية إلى التخلي عنه إبان القرن الرابع قبل الميلاد . ومن ثم علينا أن ندفع بحثنا إلى الوراء ، إلى عصر الاضطرابات السوري الذي تلا عصر السلام الذي فرضته الإمبراطورية الأخيمينية^(١) والذي افتتحه قورش .

إذاً ما الذي قاد إلى انهيار حضارة أثبتت عبقريتها خلال عصر ارتقائها القصير السالف الذكر ، وأظهرت حيويتها في ثلاثة استكشافات ضخمة تجلّت في : الوحداية ، والحروف الهجائية ، والمحيط الأطلسي ؟

لعله يبدو للوهلة الأولى كما لو أننا قد عثرنا هنا أخيراً ، على مثال أصيل لحضارة صرعتها صدمة قوة بشرية خارجية . ألم تدمّر القوة الحربية الآشورية الحضارة السورية ، إبان القرون التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد ؟

ويتضح بالتالي — وهذا ما يظهره البحث عن كذب — أنه عندما

انقضت العسكرية الأشورية انتفاض الذئب على قطيع الغنم ، لم يكن العالم السورى قطعاً واحداً يحرسه راع واحد . إذ فشلت محاولة هدفت خلال القرن العاشر لى تتوحد سياسياً تحت قيادة اليهود : المواطن العبرية والفينيقية والآرامية والحيشية التى تقع فى عرض الطريق بين العالمين البابلى والمصرى . وكان نشوب الحرب الأهلية بين المقاطعات السورية ، فرصة اغتنتها الأشوريون .

من ذلك يتبين أن انهيار الحضارة السورية ، أخرى بأن يؤرخ من انحلال دولة سليمان بعد موت مؤسسها عام ٩٣٧ ق . م . ، لا أن تؤرخ من عبور آشور ناصر بال الفرات لأول مرة عام ٨٧٦ ق . م .

وكثيراً ما يقال كذلك ؛ أن الأتراك العثمانيين ، قد دمروا الحضارة المسيحية الأرثوذكسية إبان تجسدها السياسى البيزنطى^(١) . ويضاف عادة أن الأتراك المسلمين ، قد وجهوا الضربة القاضية إلى مجتمع كان قد أضرب به غزو المسيحية الغربية ضرراً مميتاً . تلك الغزوة التى تنكرت فى زى الورع تحت اسم « الحرب الصليبية الرابعة » التى جرّدت بيزنطة من إمبراطورها طوال فترة تليف على النصف قرن (١٢٥٤ - ٦١) . بيد أن هذا التعدى اللاتينى — مثل خلفه التركى — قد انبثق عن أصل كان غربياً عن المجتمع الذى كان هو ضحيته . وإذا ارتضينا أن نخلف تحليلنا هنا ، علينا أن نعيد البحث فى قرار يتصل بجريمة قتل ؛ وردت فى قائمة حالات موت انتهينا من تشخيصها وحكمنا بشكل راسخ أنها حالات انتحار .

على أننا نرى أن نقطة التحول القتالة فى تاريخ المسيحية الأرثوذكسية ، لا تكمن فى العدوان التركى إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وليست هى العدوان اللاتينى خلال القرن الثالث عشر ؛ بل إنها لا تتمثل فى موجة

(١) تلك الإمبراطورية الرومانية الشرقية التى كانت مصالها العضال موضع خاتمة طويلة أوردتها جيبون فى مؤلفه . (المؤلف)

الغزو المبكرة التي شنها الغزاة الأتراك السلاجقة على قلب الأناضول إبان القرن الحادى عشر . أن نقطة التحوّل تتجلى - فى رأينا - فى حدث داخلى بحت ، نعتبره مقدمة جميع الأحداث السالفة الذكر . هذا الحدث هو الحرب البيزنطية البلغارية (٩٧٧ - ١٠١٩ ميلادية) . إذ استمر هذا النزاع الأهلى بين قوى العالم المسيحى الأرثوذكسى الكبيرتين ، حتى أسفر عن زوال الكيان السياسى لأحد المتنازعين ، ومكابدة الآخر جراحاً لم يبرأ منها قط . ولم يكن فى فتح الباديشاه العثمانى محمد الثانى القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، نهاية الحضارة المسيحية الأرثوذكسية . فإن من المتناقضات العجيبة ، أن يزود الفاتح الدخيل ، المجتمع الذى غزاه ، بدولته العالمية . إذ أنه على الرغم من أن كنيسة أياصوفيا المسيحية قد أصبحت مسجداً إسلامياً ، فإن الحضارة المسيحية الأرثوذكسية ، قد استمرت تحيا الفترة المقدرة لحياتها ، على غرار الحضارة الهندية التى عاشت فى ظل دولة عالمية تركية الأصل أقامها السلطان المغولى « أكبر » بعد الغزو التركى للقسطنطينية بمائة عام . كما أنها عاشت بعد ذلك فى ظل الحكم البريطانى^(١) ، وليس هو دخيلاً على الهند بأكثر من الحكم المغولى عليها .

وبمرور الوقت ؛ تطرّق انحلال مثير إلى ذلك الجزء من الإمبراطورية العثمانية التركية ، واتخذت إمارات الشرود سبيلها إلى داخل هذا الكيان الذى يتطابق مع مجال المجتمع المسيحى الأرثوذكسى . ومصدافاً لذلك ، طفق اليونانيون والمصريون والألبانيون يجيشون بالحركة قبل نهاية القرن الثامن عشر .

فلماذا لم يترتب عن هذه الحركات « انتصار البربرية والدين » ؛ على غرار ما وجدناه قبل الآن فى ثنايا النهاية الأخيرة للمجتمع الهلنى ، وللمجتمع الصينى ، وغيرهما من المجتمعات ؟

مناطق الإجابة أن المسيحية الغربية في سيرها القوى في طريق توسعها الذى لا يدفع ؛ كانت تطأ بقوة ، أعقاب هؤلاء الورثة العقيمين لبرابرة المجتمع المسيحى الأرثوذكسى . ومن ثم تمثلت في انتصار الاتجاه الغربى - وليس انتصار البربرية والدين - العملية التى تحكمت في الواقع في تعطّل الإمبراطورية العثمانية . وعوضاً عن أن تتخذ الدول التى تخلّفت عن الإمبراطورية العثمانية شكلها الطبيعى كإيالات بربرية على نمط « عصر البطولة » ؛ صاغها الضغط الغربى - بالسرعة التى انبعثت بها - إلى دول قومية تقلّد الدول الأعضاء في مجتمع الدول الغربية . وكان المجتمع الغربى في ذلك الوقت بالذات ، يجرى إعادة تنظيم نفسه على أساس قومى .

على أن فقدان الشخصية - من وجهة نظر أخرى - سيغدو أكثر استكمالا وليس أقل من ذلك . لأن المجتمع الذى يزول عن طريق اندماجه في مجتمع آخر ، يحتفظ بشيء من عنصر الاستمرار في تركيبه المادى . وذلك على حساب تفريطه التام في فرصة قد تسنح له لإقامة مجتمع منبثق ، عساه أن يمثله في الجيل التالى . مثلما يعتبر مجتمعنا مثلاً أصدق تمثيل للمجتمع الهلبنى ، والمجتمع الهندى مثلاً للمجتمع السندى ، ومجتمع الشرق الأقصى مثلاً للمجتمع الصينى .

إن المثال الذى دار بخلدنا عن عملية الانقراض بطريقة الاندماج ، قد تجلّى في اندماج كيان المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الرئيسى ، في الكيان الاجتماعى لحضارتنا الغربية . لكن في مُمكننا أن نُدرِك للوهلة الأولى ، أن الحضارات القائمة الأخرى ، توشك بأسرها أن تسلك نفس الطريق : هذا هو التاريخ السائر لغصين المسيحية الأرثوذكسية في روسيا ، وللمجتمعين الإسلامى والهندى ، ولفرعى^(١) مجتمع الشرق الأقصى . ويصدق كذلك على الجماعات المتعطلة الباقية الثلاث : الاسكيمو ، البدو ، البولونيزيين ؛

(١) أى فرع الصين ، وفرع اليابان . (المترجم)

وجميعها في مرحلة اندماج بالحضارة الغربية . طالما لن يحطمها الإشعاع الاجتماعي للحضارة الغربية تحطياً تاماً .

وفي مكنننا أن ندرك أيضاً أن عدداً من الحضارات المنقرضة في الوقت الحاضر ، قد فقدت ذاتيتها وفقاً للأسلوب نفسه . فإن مرحلة الاتجاه الغربي التي أخذت في مداهمة المسيحية الأرثوذكسية منذ نهاية القرن السابع عشر ، قد داهمت المجتمعين المكسيكي والاندلياني في العالم الجديد قبل ذلك بحوالي القرنين . ويبدو أن مرحلة الاتجاه الغربي ، قد استكملت حلقاتها في كلتا الحالتين افتراضاً .

ولقد سبق للمجتمع السورى أن أدمج المجتمع البابلي في ذاتيته ، خلال القرن الأخير قبل الميلاد . كما استوعبت ذاتية المجتمع السورى ، المجتمع المصرى بعد ذلك ببضعة قرون . ولعل هذا الاستيعاب السورى للمجتمع المصرى - وهو أطول الحضارات المعروفة حتى الآن عمراً وأشدّها تماسكاً واتحاداً - أخطر ظاهرة للاندماج الاجتماعي عرفت حتى الآن .

والآن ، إن تطلّعنا إلى الحضارات القائمة والتي تسير في سبيل الاندماج بالحضارة الغربية ؛ نجد العملية تمضى قدماً في خطوات مختلفة وعلى مسطحات متباينة وفقاً لما يظهر مما يلي :

(أ) بالنسبة للسطيح الاقتصادى - نجد شبكة العلاقات التي نشرتها حركة التصنيع الغربى الحديثة في جميع أرجاء العالم المعمور ، قد أمسكت بتلابيب هذه المجتمعات كافة . وفي هذا يقول الشاعر :

إن متفلسفها قد شاهدوا

الضوء الكهربائى القادم من الغرب ، فوفدوا يتعبدون^(١)

(ب) بالنسبة للمستوى السياسى - ما فتئ أبناء هذه الحضارات المشرفة

على الموت - كما هو ظاهر - تسعى إلى قبولها في جماعة النظم السياسية الغربية بمختلف الوسائل .

(ح) بالنسبة للمستوى الثقافى - لا يشابه الاتجاه هنا ما رأيناه بالنسبة للمستويين السالفي الذكر من جهة اطراد حدوثهما ، وفقاً لمسا يبدو من العرض التالى :

أولاً : بالنسبة للكيان الأصيل للمسيحية الأرثوذكسية ، أى اليونانيون والصربيون والرومانيون والبلغاريون ، وهم الرعية السابقة للإمبراطورية العثمانية^(١) ، فظاهر أنهم يرحبون ترحيباً قليلاً بسرطان الطابع الغربى على منحاهم الثقافى وعلى اتجاهيهما الثقافى والاقتصادى كذلك^(٢) .
ولقد احتذا حذوهم الأتراك سادتهم السابقين .

ثانياً : بالنسبة للعرب والفرس والهنود والصينيين واليابانيين ، فإنهم عكس الحالات السالفة الذكر التى يبدو أنها أمثلة استثنائية - يتقبلون الثقافة الغربية مع إبداء طائفة من التحفظات الذهنية والأدبية التى تنسم بالوعى والإدراك . هذا إن فرض تقبلهم إياها^(٣) .

ثالثاً : بالنسبة للروس - فإنه قد سبقت فى موضع سابق مناقشة المظهر المبهم لاستجابتهم على تحدى الغرب لهم .

(١) وهم ما يطلق عليهم المؤلف اسم « القطيع البشرى » كما ذكر فى موضع سابق .
(المترجم)

(٢) كتب العلامة توينبى هذه السطور قبل تغلب النظام الشيوعى على بلاد يوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا وغيرها . وما تبع هذا من اتجاهها سياسياً واقتصادياً وثقافياً نحو الاتحاد السوفيتى .
(المترجم)

(٣) تغزو الثقافة الغربية اليابان . ويقبل اليابانيون بعد هزيمتهم الأخيرة على أساليب الغرب وأعماله إقبالا أذهلنى وقتاً كنت فى اليابان (١٩٥٥/١٩٥٧) . ومن ثم أخذ الطابع اليابانى فى المأكل والملبس والمسكن والرياضة والموسيقى . . الخ يختفى لتحل مكانه ضروب الثقافة الغربية سيما الأمريكية . أما الصين فقد غلب النظام الشيوعى عليها منذ أواخر عام ١٩٤٩ .
(المترجم)

ولقد يدل هذا الاستعراض السالف الذكر على أن اتجاه العالم نحو توحيده داخل إطار غربي متماثل الأوضاع على المستويات : الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ما يزال سابقاً لأوانه ، وإن أوحى النظرة الأولى أن نجاح ذلك التوحيد نهائياً ، أمر مضمون .

هذا من جهة ؛ ومن الجهة الأخرى تطالعنا حالات أربع للمجتمعات المكسيكية والأنديانية والبابلية والمصرية ، تكفى لإقامة الدليل على صحة القول بأن خسران الذاتية بسبب الاندماج ، يماثل تماماً خسرانها عن طريق بديل له هو « التحلل » . وهو الذى قاد إلى نهاية المجتمعات الهلينية والهندية والصينية والمينوية .

وما علينا الآن ، إلا أن نعيد توجيه التفاتنا إلى ما هو قبل كل شئ هدف الفصل الحاضر . ونأمل فيما إذا كانت المصائر التى لاقتها هذه المجتمعات أو التى ما برحت تلاقيها الآن - أى التوحيد والاندماج فى مجتمع مجاور - هى الأسباب الحقيقية لانهارها . أو فيما إذا كان الانهيار - كما ألفيناه فى المجموعة الأخرى التى فحصناها فيما سبق - قد حدث بالفعل ، قبل أن تبدأ عملية التوحيد والاندماج عملها . فإذا انتهينا إلى الاستنتاج الأخير ، نكون قد استكملنا بحثنا الحاضر ، وبتنا فى مركز يتيح لنا تقرير أن فقدان السيطرة على بيئة مجتمع ما - سواء أكانت البيئة اجتماعية أو بشرية - ليس هو العامل الأول فى انهيار الحضارات ، الذى نبحث عنه .

فلقد علمنا مثلاً أن الكيان الرئيسى للمسيحية الأرثوذكسية ، لم يفقد ذاتيته بفعل الاستيعاب ، حتى انتهت دولته العالمية إلى فترة فراغ . كما علمنا أن الانهيار الفعلى قد بدأ مع الحرب الرومانية البلغارية التى نشبت قبل حدوث أية إمارة ظاهرة من إمارات الاتجاه نحو التأثير بالغرب .

فإذا تطلعنا إلى المجتمع المصرى ، نجد الفاصلة بين انهياره واستيعابه

المجتمع السورى له ، أطول من المؤلف فى المجتمعات الأخرى بكثير جداً .
فإن ثمة ما يبرر تعيين موضع هذا الانهيار فى مكان قصى إلى الوراء خلال
فترة الانتقال من الأسرة الخامسة إلى الأسرة السادسة ، أى حوالى عام ٢٤٢٤
قبل الميلاد ، وقتما حلت خطايا بناء الأهرام على خلفائهم ، فتهدمت القمة
الثقيلة لبناء « الدولة القديمة » السياسى .

ولم تكن الفاصلة بين الانهيار وبداية عملية التوحيد فى مجتمع الشرق
الأقصى طويلة المدى مثلاً بلغت فى التاريخ المصرى^(١) . لأن انهيار مجتمع
الشرق الأقصى ، قد يتعادل فى الزمن مع اضمحلال أسرة « تانج » إبان
الربع الأخير من القرن التاسع الميلادى . ولقد تلا بداية عصر الاضطرابات
الذى أعقب هذا اضمحلال ، انبعث إمبراطوريات شيدتها البرابرة ،
وتعتبر مظهراً مجسماً للدولة عالمية ؛ وكانت الإمبراطورية المغولية^(٢) التى
أقامها قوبلاى خان ، أولها . إلا أنها تعتبر أقل توفيقاً فى نتيجتها مما أتاحتها
إمبراطوريات مماثلة من ناحية أصولها البدوية ، للمجتمع الهندى بفضل
السلطان أكبر ، وللمجتمع المسيحى الأرثوذكسى بفضل محمد الفاتح . فإن
الصينيين مسيرين بالمبدأ القائل « إننى أخشى اليونانيين حتى ولو جاءونى
بمنافع^(٣) » قد طردوا المغول مثلاً طرد المصريون الهكسوس . على أنه كان على
المانشو^(٤) أن يأتوا ويذهبوا ، قبل أن يتهيا المجال للاتجاه نحو الأساليب
الغربية^(٥) .

ولقد حلت صدمة الحضارة الغربية فى روسيا واليابان فى مرحلة مبكرة

(١) وإن كان أطول مدى نوعاً ما ، مما هى فى تاريخ المسيحية الأرثوذكسية . (المؤلف)

Pax Mangolia (٢)

Timeo Danaos et dona ferentes (٣)

(٤) سكان منشوريا - المقاطعة الواقعة فى أقصى شمال الصين . (المترجم)

(٥) كتب الأستاذ توينبى هذه العبارة قبل سيطرة النظام الشيوى على الصين وما تلا

ذلك من مناهضته للاتجاه الغربى اللهم إلا ما يتصل بحركة التصنيع . (المترجم)

إبان انحطاط الحضارتين اللتين تنسب إليهما هاتان الدولتان الكبيرتان اللتان تنتهجان اليوم نهجاً غربياً . فإن الانحلال كان قد أصاب روسيا القيصرية واليابان الشوجونية^(١) . لأن روسيا القيصرية التي حولها بطرس الأكبر إلى دولة قومية عضو في المجتمع الغربي ، واليابان التي تحولت من شوجونية ثوكوجاوا إلى دولة قومية عضو في جماعة الأمم الغربية وقتما استرد ساسة اليابان للإمبراطور مييجي سلطانه المسلوب ؛ كانت الدولتان قد بلغتا فعلاً مرحلة الدولة العالمية قبل الاتجاه صوب التأثير بالغرب بثلاثمئة عام بالنسبة لليابان ، ومائتي عام بالنسبة لروسيا . على أنه في هاتين الحالتين ، لا يوجد سوى دليل ضئيل على أن ما حققه بطرس الأكبر وساسة اليابان ، جدير باعتباره انهياراً حضارياً . فإن المآثر التي تحققت بفضلهم — هي نقيض ما تشهد به جميع المظاهر — قد بلغت درجة من النجاح ، بحيث أن كثيرين من المراقبين قد يميلون إلى النظر إليها كشاهد على أن المجتمعات التي تعتمد إقحام نفسها عن طريق هذا الانسلاخ^(٢) الأصيل ، والتي تتخذ من هذا الطريق منفذاً تسلكه ولو في الوقت الحاضر ؛ هي يقيناً ما تزال في وثبة الارتقاء الكاملة ، إلا إن صادفها سوء الطالع^(٣) .

على أية حال ؛ تتعارض الاستجابة الروسية واليابانية ، تعارضاً حاداً

(١) نسبة إلى Shogmate وهي نظام عسكري شاع في اليابان فترة طويلة . وبمقتضاه كانت أسرة تحكم البلاد حكماً مطلقاً مع ترك السلطة الإسمية للإمبراطور « الميكادو » . وآخر العائلات عائلة ثوكوجاوا . ويشبه بذلك النظام نظام السلاطين الذي ساد العالم الإسلامي في العصر العباسي الأخير . (المترجم)

(٢) الانسلاخ Metamorphosis ، أي التحول من حالة إلى أخرى . (المترجم)

(٣) مثلما صادف اليابان لما هزمت في الحرب الأخيرة هزيمة لا تقتصر على الميدان الحربي بل جاوزتها إلى النواحي الروحية والثقافية . على أن الأمة اليابانية أثبتت حيويتها الفائقة في ازدهار اقتصادياتها وتقدمها الثقافي وفقاً للمنهج التفكيرى الغربي . حتى باتت خيراً مما كانت عليه قبل الحرب . (المترجم)

مع ما لمسناه من قصور العثمانيين والهندوس والصينيين والأزتيكيين^(١) والآنكيين^(٢) ، في مجابهتهم تحدياً مماثلاً للتحدي الذي استجابت له روسيا واليابان . فإن الروس واليابانيين - عوضاً عن خضوعهم قسراً لعملية الاتجاه الثقافي الغربي على أيدي جيرانهم البولونيين والسويديين والألمان أو الأمريكيين (بالنسبة لليابانيين) - قد تولوا هم أنفسهم إنجاز عملية انسلاخهم الاجتماعي : فتمكّنوا بذلك من دخول جماعة الأمم الغربية على قدم المساواة مع الدول العظمى . فجنّبوا بلادهم السيطرة الاستعمارية أو الارتباط بالغرب في علاقات دولية ذليلة .

وجدير بالملاحظة أن الروس واليابانيين قد عانوا خلال السنوات الأولى من القرن السابع عشر - أي قبل عصر بطرس الأكبر بمائة سنة وقبل استعادة الإمبراطور ميخائيل ساطنانه بقرنين ونصف قرن - محاولة غربية للسيطرة عليهم وفقاً لما اتبعه الغرب في أماكن أخرى ، إلا أنهم وفقوا في صدّها . واتخذ الضغط الغربي في حالة الروس شكلاً فجئياً تمثل في الغزو الحربي المنظم الذي قاد إلى احتلال قوات جارة روسيا الغربية - مملكة بولونيا وليتوانيا المتحدة - موسكو احتلالاً موقوتاً بحجة مساندة أحد أدعياء العرش الروسي « ديمتري المزيّف » : واتخذ الضغط الغربي في الحالة اليابانية شكلاً أكثر تسامياً مبناه قيام البعثات التبشيرية الكاثوليكية الإسبانية والبرتغالية ، بتحويل بضعة مئات الألوف من النفوس اليابانية إلى الكاثوليكية . ولو عاشت هذه الأقلية المسيحية المتحمسة ، لكان من المحتمل أن تسعى على مر الأيام إلى فرض سيادتها على اليابان بمساعدة الأسطول الإسباني المستند على جزائر الفلبين .

(١) الأزتيك - قبيلة كانت تسكن المكسيك وقت الفتح الأسباني عام ١٥١٩ ميلادية . ولقد انهارت مقاومتها أمام الأسبانيين وانتهت الحضارة الأزتيكية منذ ذلك الحين . (المترجم)
(٢) نسبة إلى إنكا Inca وهو لقب كان يطلق على حكام بيرو حتى الفتح الأسباني تحت قيادة بيزارو عام ١٥٣١ . (المترجم)

على أن الروس قد دفعوا بالبولنديين خارج بلادهم . كما طرد اليابانيون « الخطر الأبيض »^(١) بإقصائهم جميع البعثات التبشيرية والتجار الغربيين المقيمين في اليابان ، وتحريمهم على الغربيين أن يطأوا الأرض اليابانية باستثناء بضعة تجار من الهولنديين سمح لهم بالإقامة في ظل شروط مهينة ، وأخيراً باستئصال الجماعة الكاثوليكية اليابانية بواسطة اضطهادها اضطهاداً جائراً .

ولقد ظن الروس واليابانيون بعد أن تخلصوا من « مسألتهم الغربية » ، أنه لم يبق لهم سوى الانسحاب إلى « مكانهم » والعيش قريري العين . بيد أنه لما أظهرت الأحداث عقم تلك السياسة ، طفقوا يقومون باستجابات أصيلة إيجابية سبقت لنا وصفها .

بيد أن ثمة دلائل لا تخطئ ، عن أنه قبل أن تبحر أول سفينة برتغالية إلى ناجازاكي ، وقبل أن تبحر أول سفينة إنجليزية إلى أركانجل^(٢) ، كانت حضارة الشرق الأقصى في اليابان ، وحضارة المسيحية الأرثوذكسية في روسيا ، قد انهارتا بالفعل :

إذ لا يعتبر « عصر الاضطرابات » في التاريخ الروسي^(٣) ، هو دورة الاضطراب خلال السنوات الأولى من القرن السابع عشر : وهو التعبير الذي صكته الروس أنفسهم ، للدلالة على هذا النوع من الاضطرابات . إذ كانت الدورة مجرد فعل إضافي بين مرحلتى الدولة العالمية الروسية الأولى والثانية ، تتطابق مع دورة الاضطرابات التي

(١) يشير المؤلف باصطلاح « الخطر الأبيض » الذى أحس به اليابانيون في القرن السادس عشر إلى الخطر الأصفر الذى أدركه اليابانيون منذ انتصار اليابان نفسها على روسيا القيصرية عام ١٩٠٤ . (المترجم)

(٢) أركانجل ميناء روسية على المحيط المتجمد الشمالى . ويعتبر هذا أول نذير بالتدخل الغربى في الشؤون الروسية سبق الغزو البولونى لموسكو . (المؤلف)

(٣) بالمعنى الذى يستخدم فيه هذا الاصطلاح في هذه الدراسة . (المؤلف)

حدثت في العالم الأثيني خلال القرن الثالث بين عصر الأنطونيين وجولس دقلديانوس على العرش .

أما الفصل من التاريخ الروسى الذى يتطابق مع ذلك الفصل من التاريخ الهلبنى الذى يقع بين الحرب البلوبونيزية والسلام الذى فرضته إمبراطورية أغسطس^(١) ، والذي يمثل فعلا عصر الاضطرابات الروسى بمفهوما ، فإنه يقع فى نطاق فترة الكارثة التى تقدمت تشييد الدولة الروسية العالمية ، بفضل توحيد موسكو ونفوجورود عام ١٤٧٨ ميلادية .

والمثل يقال عن عصر الاضطرابات فى التاريخ اليابانى . إذ تمثله فترة فوضى الإقطاع فى كاماكورا وآشيكاجا اللتان سبقتا التوحيد والمهادنة النظاميين ، اللذين قاما بتنفيذهما نوبوناغا Nobonage وهيديوشى Hideyoshi وإياسو eyasu . ويمتد الزمن الذى استغرقت كلتا الفترتين - وفقاً للمؤرخات المعتمدة - من ١١٨٤ إلى ١٥٩٧ ميلادية :

فإذا كان الزمان السالفا الذكر ، عصر الاضطرابات الروسى واليابانى ، يصبح علينا أن نبحث فيما إذ كان عصر الاضطرابات فى كلتا الحالتين ، قد عجّل به فعل موجب للانتحار ، أو نتيجة فعل خصم خارجى :
أولا : بالنسبة للحالة الروسية - ثمة تفسير شائع للانهيبار يسلم به المؤرخ المعاصر للعصور الوسطى الغربية ، مداره أن الانهيبار يرد إلى عدوان المغول البدو المنحدرين من السهل الأوراسى : بيد أنه قد سبق لنا رفض حالات أخرى مماثلة^(٢) ، مثل الحجة القائلة بأن البدو الأوراسيين هم أس المصائب التى ألمت بتلك الحالات : أليس من الجائز كذلك أن يكون المجتمع المسيحى الأرثوذكسى فى روسيا قد جلب بنفسه فعلا عامل انهياره ، قبل أن يعبر المغول نهر الفولجا عام ١٢٣٨ ؟

(١) Pax Augusta

(٢) مثل حالة الفرع الأقدم : المجتمع المسيحى الأرثوذكسى . (للمؤلف)

إن انقسام إمارة كييف الروسية البدائية إلى حشد من الدول المتنازعة التي خلفتها إبان القرن الثاني عشر الميلادي ، شاهد صدق على صحة هذه الفكرة .

ثانياً : بالنسبة لليابان - يبدو الوضع أكثر وضوحاً : إذ لا يمكن رد حالة الانهيار هنا إلى عدوان المغول الذي صدّه اليابانيون عن شواطئهم بنجاح عام ١٢٨١ ميلادية . فإذا رغبتنا في استقصاء عامل هذا النصر الماراثوني ^(٥) Marathonic ، نجد أن جانباً من النصر يرجع بلا شك إلى موقع اليابان الجغرافي ، بحسبانها جزيرة . إلا أن الجانب الأكبر منه يرجع إلى الخبرة في القتال التي اكتسبها اليابانيون أثناء عراكلهم مع بعضهم بعضاً ، إبان عصر الاضطرابات الذي شملهم أكثر من مائة عام . وكما حدث في حالي روسيا واليابان ، اتفق في تاريخ المجتمعات الهندية والبابلية والأنديانية ، حدوث عملية استيعاب حضارة دخيلة لكل هذه المجتمعات . وذلك وقتما كانت المجتمعات الآخذة في الانحلال ، في مرحلة الدولة العالمية . وحرى بالذكر ، أن عملية الاستيعاب ، قد اتخذت صورة كارثة في حالات المجتمعات الهندية والبابلية والأنديانية . إذ عانت غزواً عسكرياً دخليلاً :

فأولاً : سبق الغزو البريطاني في التاريخ الهندي ، غزو مسلم تركي يرتد إلى زمن أبعد كثيراً من عصر « المغول العظام » . إذ يرجع إلى أعوام ١١٩١ - ١٢٠٤ ميلادية . ويرد هذا الغزو الأجنبي مثلما ترد الغزوتان التاليتان له (مغولية وبريطانية) - حسب المتعارف عليه - إلى حقيقة مبناها أن المجتمع الهندي ، كان بالفعل في حالة فوضى أزمّت .

ثانياً : استوعب المجتمع السوري ، المجتمع البابلي عقب غزو قورش

(٥) يشبه المؤلف هنا المعركة البحرية التي انتصر فيها اليابانيون على المغول بمركة ماراتون التي انتصر فيها اليونانيون على الفرس انتصاراً مبيناً . (المترجم)

الفارسي إمبراطورية نبوخذ نصر التي أصبحت دولته العالمية . وتركت الثقافة البابلية منذ ذلك الحين وما بعده ، الطريق للمجتمع السورى الذى تعتبر الإمبراطورية الأخمينية دولته العالمية . على أن عامل الانهيار البابلى يكمن فى استفحال الروح العسكرية السورية :

ثالثاً : يبدو بالنسبة للمجتمع الأنديانى ، صدق القول بأن الغزاة الإسبان قد حطموا إمبراطورية الأنكا : ومن الجائز أنه لو لم تجدد شعوب العالم الغربى طريقها عبر الأطلسى ، لبقيت إمبراطورية الانكا بضعة قرون أخرى : بيد أن تدميرها لا يتماثل مع مسألة انهيار الحضارة الأنديانية . فإن معرفتنا بالتاريخ الأنديانى تتيح لنا إدراك أن الانهيار قد اتخذ سبيله قبل تدمير إمبراطورية الانكا ، وأن نهضة أهالى الانكا حربياً وسياسياً طوال القرن الذى سبق الغزو الإسبانى - وهو أبعد من أن يتطابق مع النهضة الثقافية للحضارة الأنديانية - كان بالفعل حدثاً فى انحلالها .

رابعاً : سقطت الحضارة المكسيكية أمام الغزاة الإسبان فى مرحلة سبقت مرحلة حطم إمبراطورية الانكا : وتم ذلك وقتما عجزت إمبراطورية الأزتيك عن الصمود أمام غزاتها : وإن كان قد تبين أنه قد رها أن تصبح الدولة العالمية لمجتمعها .

وفى وسعنا أن نعبر عن الاختلاف بالقول^(١) بأنه قد تم غزو المجتمع الأنديانى فى عصره الأنطونى ، بينما تم غزو المجتمع المكسيكى فى عصر سيبيو ، لكن « عصر السيبيوين » عبارة تستخدم فى عصر اضطرابات : ومن ثم يعتبر - وفقاً للتعريف - « عقيب انهيار سابق » .

خامساً : أما عن العالم الإسلامى - فقد أصبح للاتجاه الغربى اليد الطولى قبل أن تلوح فى الأفق نذر أية دولة إسلامية عالمية . وتبذل الدول أعضاء العالم الإسلامى - فارس والعراق والسعودية ومصر وسوريا ولبنان وبقيةهم -

(١) يستخدم الأستاذ توينبى اصطلاحات عند كلامه عن حالة المجتمعين الأنديانى والمكسيكى ، اصطلاحات سبق له استخدامها عن كلامه عن التاريخ الإيطالى . (الترجم)

خير جهودها لتحقيق عمل لا ترتاح إليه نوعاً ما ، يتصل بعلاقتها السيئة مع جماعة الأمم الغربية . إن حركة الجامعة الإسلامية ، يبدو أنها قد أصبحت حركة عقيمة .

وقد يستعرض عدد آخر من الحضارات ، بما في ذلك البعض الذي نما إلى مرتبة النضوج . وتستعرض كذلك الحضارات المتعطلة بل وحتى الحضارات العقيمة . أما بالنسبة للحضارات التي بلغت كمال نموها ، فإن بعضها كالحيثية والمينوية والمايانية ، ما يزال الباحثون الحداثيون عاجزين عن حل رموز توارينها حلاً كاملاً . وبالتالي ، فإن استخلاص نتائج من تلك التواريخ يعتبر من سبق الحوادث . أما عن الحضارات المتعطلة ، فإن استعراضها لن يثمر أية ثمرة للبحث الحالى . لأنها بحكم تعريفها ، حضارات استكملت تكوينها ، لكنها لم تستمر في طريق الارتقاء . أما الحضارات العقيمة ، فإنها أدعى أن تكون بطبيعتها غامضة :

(٣) — حكم سلبي

لعلنا نكون قد استخلصنا من البحث المتقدم نتيجة صادقة مبناهـا عدم الاهتمام إلى سبب انهيارات الحضارات فيما أسميناه « فقدان السيطرة على البيئة البشرية » ، على أساس طغيان قوى بشرية دخيلة على حياة أى مجتمع تنقصى سبب انهياره :

ولقد تبين في جميع الحالات التي استعرضناها ، أن أقصى ما يلحقه عدو أجنبي ، لا يعدو توجيه ضربة قاضية إلى مجتمع ينتحر ، يلفظ أنفاسه الأخيرة . فإن اتخذ العدوان شكل هجوم عنيف في مرحلة من مراحل حضارة ، لن يقود العدوان على الفريق المعتدى عليه إلى تدميره ؛ لكن يستثير بصفة قاطعة ، طاقاته الكامنة . وتطالعنا حالة العدوان الفارسي على المجتمع الهليني في مستهل القرن الخامس قبل الميلاد ، إذ استثار فيه أسـمى

مظاهر العبقرية . والمثل يقال عن هجمات الاسكندنافيين والمجريين خلال القرن التاسع الميلادى ، إذ استنارت المجتمع الغربى إلى تحقيق تلك المآثر التى تنسم بالإقدام والحنكة السياسية ، اللتين أسفرا عن تشييد مملكتى انجلترا وفرنسا ، وقيام السكسونيين بإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، واستنارت إغارات الهوفاستوفين Hohenstaufens ، المدن فى إيطاليا الشمالية . واستنارت هجمات أسبانيا ، الانجليز والهولنديين . واستنارت هجمات المسلمين خلال القرن الثامن الميلادى ، المجتمع الهندى الناشئ .

يتضح لنا من إبراد الأمثلة السالفة الذكر ، أنها حالات كان فيها الفريق المعتدى عليه ما يزال فى مرحلة النمو . وأنه يستثنى منها المرحلة التى تلفظ فيها الحضارة أنفاسها الأخيرة . كما أن فى مكنتنا أن نسرد عدداً من الحالات لا تقل عدداً عن الحالات السابقة ، هياً فيها العدوان الأجنبى استنارة موقوتة لمجتمع قد انهار بالفعل ؛ ويتم ذلك بوساطة توجيه نفسه توجيهها فظا .

ويطالعنا هنا المثال التقليدى عن تكرار رد فعل المجتمع المصرى لهذا الضرب من الاستنارة . إذ أستثير رد الفعل المصرى هذا المرة بعد المرة ، طوال فترة ألفى سنة . ويُعتبر تجاوز المجتمع المصرى الفعلى مرحلة دولته العالمية ودخوله مرحلة الفراغ ، بداية هذه الخاتمة الطويلة لهذا المجتمع ، وكان يتوقع أن تتطور الخاتمة إلى انحلال سريع . بيد أنه أستثير إبان هذه المرحلة الأخيرة ، عندما طُرد الغزاة الهكسوس . ثم أستثير بعد ذلك بزم من طويل ليصدّ هجمات غزاة البحر المتتالية ، ثم غزوات الأشوريين والفرس . . . وأخيراً بعد ذلك كله ؛ استنير المجتمع المصرى ، استنارة انبت عليها مقاومته العنيدة الناجحة ، لمحاولة البطالسة صبغته بالصبغة الهلينية ؛ وثمة طائفة من الحالات المشابهة للحالة المصرية ، تتصل برودود الفعل ضد الضربات والضمغوط الخارجية ؛ وردت فى تاريخ حضارة الشرق

الأقصى في الصين . إذ يعيد قيام أسرة مينج Ming بطرد المغول ، إلى الدهن طرد مؤسسى « الدولة الجديدة الطيبين »^(١) الغزاة الهكسوس . ولمقاومة المجتمع المصرى عملية اصطباغه بالصبغة الهلينية ، ما يماثلها في حركة الصين المناهضة للغرب التى تجلّت في ثورة البوكسر^(٢) عام ١٩٠٠ ، وفى محاولتها خلال عامى ١٩٢٥ و ١٩٢٧ أن تقاتل معركتها الخاسرة حتى نهايتها المرة ، بوساطة استعارتها أسلحة من روسيا الشيوعية^(٣) .

ولعل هذه التفسيرات التى يسهل إردافها بأخرى كثيرة ، ما يكتفى لتأييد نظريتنا القائلة باعتبار التأثير العادى للضربات والضغط من الخارج ، عامل استنارة لا عامل تدمير . فإن قبلت هذه النظرية ، فإنها تؤكد النتيجة التى انتبهنا إليها ومبناها أن فقدان السيطرة على البيئة البشرية ، ليس هو علّة انهيار الحضارات^(٤) .

(١) نسبة إلى طيبة (الأقصر الحالية) . والدولة الجديدة هى التى بدأت بالأسرة الثامنة عشرة التى أسسها أحمد الأول محرر مصر من الهكسوس . (المترجم)

(٢) البوكسر : اسم أطلقه الأوبيون على أعضاء جماعة سرية في الصين . تألفت عام ١٨٩٦ على أسس دينية سياسية في مقاطعة شانتونج بالصين . وبخام مبادئها معارضة النفوذ الأجنبى . ولقد اشدت كراهية أعضاء الجماعة للأجانب عقب مطالبة الدول الغربية للحصول على مزيد من الامتيازات والأراضى من الصين . فانطلقوا في ثورة عارمة يقتلون الأجانب . وصمموا على محر النفوذ الأجنبى من الصين ، فأخذوا يقتلون أعضاء الإرساليات الأجنبية ويحطمون أملاكها وينهبونها ويذبحون الصينيين المسيحيين باعتبارهم قد تأثروا بالأفكار الأجنبية . وقتل في الثورة مستشار مفوضية اليابان ووزير ألمانيا المفاوض . وجدير بالذكر أن قوات الحكومة كانت تناصر الثورة . عندئذ تدخلت القوات الأوروبية وانضمت إليها قوات أمريكية ويابانية لسحق الثورة . فنشب قتال عنيف في كثير من مدن الصين ، انتهى بالقضاء على الثوار ، واضطرت حكومة الصين إلى دفع تعويضات طائلة للدول الغربية واليابان .

(المترجم)

(٣) واصلت الصين حركتها التحررية ضد الغرب حتى أمكنها التخلص نهائياً من النفوذ الأجنبى . (المترجم)

ملاحظة للمختصر :

(٤) قد يميل بعض القراء إلى الاعتقاد بأن الأستاذ المؤلف قد أرجع في الفصل السابق أكثر من نتيجة للمناقشة التى باشرها في تاريخه بالنسبة لانهيارات الحضارات ؛ إلى أزمة مبكرة بشكل لا يمكن استغاثته . فإن حدث ذلك ، يكون مصدر ذلك الاعتقاد سوء الفهم المترتب عن -

« معنى اصطلاح » انهيار » . فإننا حينما نتكلم عن شخص يعاني انهيار في صحته ، نقصد بذلك أنه إن لم يتدارك الانهيار بالشفاء المعقب ، تنتهى حياة الشخص الناشطة . وحقاً فإننا نستخدم اصطلاح « الانهيار » في المناقشة العادية ليعنى إلى أعظم حد ، ما يعنيه الأستاذ توينبى إذ يكتب عن « انحلال » . لكن الانهيار ، لا يعنى تماماً في هذه الدراسة أن المقصود به نهاية مرحلة الارتقاء والواقع أن إيراد المجانصات من الحياة العضوية ، على يتم دائماً بالخطورة عند مناقشة المجتمعات . لكن القارئ قد يذكر أن عملية الارتقاء تنتهى في حياة الكائن العضوى مبكراً نسبياً . ويمكن الاختلاف بين كائن حي ومجتمع - وفقاً لما أظهره المؤلف بعد كد رعا في الفصل الذى سبق الفصل الذى نكتب نتيجته - في أن فترة حياة الكائن الحى ، تعينها طبيعته ذاتها . إن أيام ستوانتا هي ثلاثة عشرينات من الأعوام وعشرة أعوام ، في حين لا يشير التاريخ إلى أية حدود لفترة الحياة الممكنة لمجتمع . لكن المجتمع يموت دائماً بسبب الانتحار أو القتل ، وإنه ليموت دائماً بفضل العامل الأول ، وفقاً لما أظهره هذا الفصل . وبالمثل فإن نهاية فترة الارتقاء التى هي حادث طبيعى في تاريخ الكائن الحى ، هي حادث غير طبيعى سواء بسبب الجرم أو الزلزل - في تاريخ المجتمع . وقد استخدم المستر توينبى اصطلاح « الانهيار » للدلالة على هذا الجرم أو الزلزل ؛ تحقيقاً لأغراض هذه الدراسة . وسيتبين أنه عنهما يستخدم الاصطلاح بهذا المعنى ، فإن طائفة من أهم الأعمال المثمرة الثيرة والمشهورة في تاريخ حضارة ما ، قد جاءت في أعقاب الانهيار - أو بالفعل - نتيجة له .

سياق الاستدلال

الباب الأول

المقدمة

الفصل الأول : وحدة الدراسة التاريخية

إن وحدات الدراسة التاريخية الواضحة المعالم ، ليست هي الأمم أو العصور ، لكنها « المجتمعات » : ويبدأ فحص التاريخ الإنجليزي فصلاً فصلاً ، عدم قابليته للفهم كشيء في حد ذاته ؛ لكنه لا يفهم إلا جزءاً من كل أكبر . ويشغل هذا الكل أجزاء (من قبيل المثال : إنجلترا وفرنسا وهولندا) ؛ تخضع لعوامل مثيرة مطابقة ، أو تحديات : لكن تختلف طرائق رد فعلها عليها ؛ وتفسيراً لهذا الرأي أورد المؤلف مثلاً من التاريخ الهليني :

أما « الكل » أو « المجتمع » الذي تنتمي إليه إنجلترا ، فقد اصطُلح على تسميته بالمسيحية الغربية . ولقد حدد امتداده المكاني في أوقات مختلفة ، كما عيّنت أصوله الزمانية . فوجد أنه يرجع إلى زمن أبعد ، لكنه ليس أقدم كثيراً من تميز أجزائه بعضها عن بعض ؛ ويكشف ارتياد أصوله عن وجود مجتمع آخر ، غداً الآن ميتاً ، هو المجتمع اليوناني الروماني ، أو الهليني ، الذي يتصل به المجتمع الغربي بصلة البنوة :

وواضح كذلك أن ثمة عدداً من المجتمعات القائمة الأخرى هي المجتمعات : المسيحية الأرثوذكسية — الإسلامية — الهندية — الشرقية القصوى : يضاف إليها مختلفات المجتمعات المتحجرة الغير المعينة الشخصية في هذه المرحلة ، مثل اليهود والبارسين .

الفصل الثانى : الدراسة المقارنة للحضارات

يهدف هذا الفصل إلى التحقق من شخصية جميع المجتمعات - أو بالأحرى الحضارات - وتعيينها وتسميتها .

ومناطق طريقة البحث الأولى ، تناول الحضارات القائمة التي تحققت شخصيتها بالفعل ، وفحص أرومتها والنظرة إذا كان في وسعنا العثور - على حضارات أندرسن في الوقت الحاضر ، تتصل بها الحضارات القائمة بصلة البنية ، على غرار ما وجد من انتساب المسيحية الغربية إلى الحضارة الهلينية : ومجمل إمارات هذه البنية :

(أ) دولة عالمية (مثل الإمبراطورية الرومانية) .

(ب) فترة فراخ تظهر فيها :

١ - عقيدة دينية

٢ - هجرات البرابرة خلال عصر بطولية .

ويعتبر ظهور العقيدة الدينية والهجرات ، نتيجتين على التوالي للبروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية لحضارة تموت :

وبالسير على هدى هذه القرائن ، نجد :

إن المجتمع المسيحي الأرثوذكسى ، يتصل بصلة البنية - مثل المجتمع الغربى - إلى المجتمع الهليني :

وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامى إلى أصوله ، نجد أنه ذاته حصيلة اندماج مجتمعين كان فى الأصل متميزين هما الإيراني والعربى : وباقتفاء أثر هذين المجتمعين نجد خلف ألف سنة من « المداخلة الهلينية » مجتمعا مندرسا ، يدعى المجتمع السورى .

ونجد وراء مجتمع الشرق الأقصى ، مجتمعا صينياً :

وتعتبر المجتمعات المتحجرة بقايا واحد أو أكثر من المجتمعات البائدة :
ونجد المجتمع المينوى وراء المجتمع الهليني : بيد أننا نلاحظ أن المجتمع
الهليني - عكس المجتمعات التي تتصل بصلة البنية إلى مجتمعات أخرى -
لم يعتنق عقيدة دينية كشفها البروليتاريا الداخلية للمجتمع المينوى : ومن
ثم لعل المجتمع الهليني ، لا ينحدر تماماً عن المجتمع المينوى :

وراء المجتمع السندى ، نجد المجتمع السورى .

وبالإضافة إلى المجتمع السندى ، نجد مجتمعين آخرين هما الحيثى
والبابلي ، يعتبران عقين للمجتمع السورى .

ليس للمجتمع المصرى سلف ينسب هو إليه ، كما أن ليس
له خليفة .

فى وسعنا أن نحقق فى العالم الجديد ذاتية أربعة مجتمعات : الأنديانى
والياكوتى والمكسيكى والماليانى .

ومن ثم يصبح مجموع ما لدينا تسعة عشر نوعاً للحضارات .
ولو قسمنا المجتمع المسيحى الأرثوذكسى إلى : أرثوذكسى بيزنطى
(فى الأناضول والبلقان) وأرثوذكسى روسى ، وقسمنا مجتمع الشرق
الأقصى إلى صينى ويابانى - كورى ، يصبح لدينا واحد وعشرون مجتمعاً .

الفصل الثالث : قابلية الحضارات للمقارنة

١ - الحضارات والمجتمعات البدائية :

تشترك الحضارات على أية حال فى نقطة واحدة ؛ مدارها أنها نوع
آخر غير نوع المجتمعات البدائية . وهذه المجتمعات أكثر عدداً بكثير من
الحضارات ، لكنها - أفراداً أصغر من أفراد الحضارات بكثيراً :

٢ - خطأ فكرة وحدة الحضارة :

ناقش المؤلف الفكرة التى وصفها بالضلال القائلة بأن ثمة حضارة واحدة .

هى الحضارة الغربية ، ولفظتها . كما ناقش نظرية استطارة الحضارة القائلة بأن مصر هى أصل جميع الحضارات ، ولم يقبلها .

٣ - الدفاع عن فكرة قابلية الحضارات للمقارنة :

تعتبر الحضارات نسبياً ، ظاهرة حديثة للغاية فى التاريخ البشرى . فإن أقدمها لم ينشأ أبعد من ستة آلاف سنة مضت . ولذلك رؤى معاملتها باعتبار أنها تنتمى لنوع واحد يعاصر بعضه بعضاً - من الناحية الفلسفية - ويقرر المؤلف إن القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه ، لا يحول دون الإجراء المقترح ، وهو القاضى بأن الحضارات متعاصرة .

وقد وصف المؤلف هذا القول بأنه نصف الحقيقة :

٤ - التاريخ والعلم والمصنف الخيالى :

هذه هى وسائل ثلاث مختلفة لتقديم موضوعات الفكر وبحجها : ومن بينها ظواهر الحياة البشرية . ويفحص المؤلف الاختلافات بين هذه الأساليب الفنية الثلاثة ويناقش استعمالات العلم والمصنف الخيالى ، فى عرض مبحث التاريخ :

الباب الثالث

بدايات الحضارات

الفصل الرابع : المشكلة وكيف لا تحل

١ - استعراض المشكلة :

من بين مجتمعاتنا الحضارية الواحد والعشرين ، ثمة خمسة عشر تتصل بصلة النبوة بحضارات سابقة : لكن ستة مجتمعات فقط قد انبعثت مباشرة عن الحياة البدائية . والمجتمعات البدائية هى فى حالة سكون فى الوقت

الحاضر ، لكن من الواضح أنها لا يمكن أن تكون في الأصل إلا في حالة تقدم ديناميكي . فإن الحياة الاجتماعية أقدم من الجنس البشرى نفسه ، إذ توجد في محيط الحشرات والحيوانات . ولا بد أن شبيه الإنسان قد برز إلى مستوى الإنسان ، في ظل حماية المجتمعات البدائية : وهذا تقدم يعتبر أعظم من أى تقدم حققته حضارة من الحضارات : ومع ذلك ، فإن المجتمعات البدائية — كما نعرفها — هي حالة سكون . ومناطق المشكلة هو : لماذا وكيف تحطمت « قرصة العادة » البدائية هذه ؟

٢ - الجنس :

إن العامل الذى نبحث عنه ، يجب أن ينحصر إما في صفة خاصة في الكائنات البشرية التى بدأت عملية التحضر ، أو طائفة من مظاهر بيئتها . وقت بداية الحضارة ، أو في شيء من التفاعل بين الجنس والبيئة . ولقد بحث المؤلف أول هذين الرأيين المتصل بوجود جنس متفوق تفوقاً فطرياً كالجنس النوردي مثلاً ، وأثبت بطلانه .

٣ - البيئة :

بحث المؤلف الرأى القائل بأن أنواعاً من البيئات توفر الأسباب السهلة والميسرة للحياة ، وتتيح مفتاح أصل الحضارات : وقد أثبت بطلان هذا الرأى :

الفصل الخامس : التحدى والاستجابة

١ - المفتاح الأسطوري :

يعزى ضلال الرأيين اللذين سبق بحثهما ونبذهما ، إلى تطبيقهما منهاج العلوم المادية أى علمى الحياة والجيولوجيا ، على مشكلة ؛ هي في الواقع معنوية : ويوحى استعراض للأساطير الكبرى التى أودعها الجنس البشرى حكمته ؛

باحتمال أن الإنسان قد حقق الحضارة - لانتيجة لمواهب بيولوجية عليا أو بيئة جغرافية - ولكن استجابة لتحدي موقف ذي صعوبة خاصة ، استثاره الإنسان لبذل جهد لم يقم به من قبل .

٢ - تطبيق الأسطورة على المشكلة :

كان السهب الأفراسي (الصحراء الكبرى والصحراء العربية) قبل فجر الحضارة ، أرض رعى عامرة بالمياه . وطالع الجفاف الطويل الأمد والمتتالي هذه المراعى ، فجابه سكانها بتحد استجابوا له بطرائق مختلفة :

تمسك البعض بأرضهم وغيروا عاداتهم ، فابتكروا نمط الحياة البدوية . ونقل آخرون مواطنهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية ، متبعين أثر المراعى المرتدة . ومن ثم احتفظوا بطريقة حياتهم البدائية التي ما يزالون يعيشونها حتى الآن .

وآخرون ولجوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ، فجاهوا بذلك التحدي الذي تمثله . وعملوا على تخفيفها ، فكان أن أقاموا الحضارة المصرية . وانبعثت الحضارة السومرية بنفس الطريقة ومن نفس الأسباب ، في دلتا الدجلة والفرات .

وانبعثت الحضارة الصينية في وادى النهر الأصفر . ولا تعرف طبيعة التحدي الذي برز إلى الوجود ، لكن يبدو من الاستقراء أن الظروف كانت أبعد من أن توصف بالسهولة .

وانبعثت الحضارة المايانية من تحدي غابة استوائية . وانبعثت الأنديانية من تحدي هضبة كثيفة .

وانبعثت الحضارة المينوية من تحدي البحر . وكان مؤسسوها لاجئين من شواطئ إفريقيا التي أصيبت بالجفاف . فامتطوا البحر واستقروا في كريت وغيرها من جزائر بحر إيجه . ولم يأتوا في بدء عهدهم من البر الأقرب في آسيا وأوروبا .

أما بالنسبة لحالات الحضارة التي تنتسب لغيرها ؛ فلا بد أن التحدى الذى أبرزها إلى الوجود ، قد جاء فى الأصل - لامن العوامل الجغرافية - ولكن من البيئة البشرية ، أى من الأقليات المسيطرة للمجتمعات التى تتصل بها بصلة الجنس .

وتعريف الأقلية المسيطرة ، أنها طبقة حاكمة تعطلت وظيفتها القيادية ، فانقلبت إلى طاغية . وتستجيب البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية للحضارة المنهارة ، لهذا التحدى عن طريق الانفصال عنها . ومن ثم تضع أسس حضارة جديدة .

الفصل السادس : فضائل المشتقة

يمكن تفسير بدايات الحضارات - وفقاً لما ورد فى الفصل السابق - فى الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة - أكثر من السهلة - هى التى تولد هذه الأعمال المحيطة .

ويقرب المؤلف هذا الفرض إلى حيز الوقائع ، بفضل التفسيرات التى يحصل عليها من المواقع التى سبق أن ازدهرت الحضارة فى ربوعها ؛ لكنها أخفقت بعد ذلك . ثم كان أن انكفأت الأرض إلى حالتها الأصلية :
إن ما كان وقتاً ما مشهداً للحضارة المايانية ، هو فى الوقت الحاضر ، غابة استوائية .

وازدهرت الحضارة السندية فى سيلان فى النصف الغربى الممطر من الجزيرة ؛ لكنه أصبح الآن قاحلاً تماماً . وإن ظلت آثار نظار الرى السندى تشهد على ازدهار الحضارة هناك .

وتقوم أطلال بصرى وتدمر فى واحات صغيرة فى الصحراء العربية .
وتدل التماثيل القائمة فى جزيرة إيستر - وهى من أقصى الأماكن بعداً فى المحيط الهادى - على أنها كانت مركزاً للحضارة بولونيزية .

وتعتبر إنجلترا الجديدة التي قام مستعمروها الأوروبيون بدور غالب في تاريخ أميركا الشمالية ، من أكثر أجزاء القارة كآبة وجدبا .

وقامت المدن اللاتينية في مقاطعة كامبانا الرومانية - وكانت حتى وقت قريب مباءة للملاريا - بدور عظيم في قيام سلطان روما . عكس الدور الضئيل الذي قامت به كابوا التي تتمتع بمركز ممتاز .

كذلك يورد المؤلف صورا مستخلصة من المؤرخ اليوناني هيرودوتس ومن الأوديسية ومن سفر الخروج .

ولقد لبث أهالي نياسالند - حيث الحياة ميسرة - متوحشين بدائين حتى وفد إليهم غزاة من أوروبا البعيدة القاسية المناخ .

الفصل السابع : نحدي البيئة

١ - حافظ البلاد الشاقة :

يورد المؤلف سلسلة من أزواج البيئات المتجاورة . ونجد البيئة المبتدعة في كل حالة ، المنطقة « الأشد وعورة » . ولها كذلك سجل أشد ضياءاً ؛ كمنشي* لشكل أو آخر من أشكال الحضارة .

ويطالعنا في هذا الشأن :

وادي النهر الأصفر ووادي اليانجتسي - آتيكا وبوتنيا - بيزنطة وكاليدون - إسرائيل ؛ فينيقية وفلسطين - براندنبرج وأرض الراين - اسكتلندا وإنجلترا - الجماعات المختلفة للمستعمرين الأوروبيين في أميركا الشمالية .

٢ - حافظ الأرض الجديدة :

نجد أن الأرض « البكر » تُبرز استجابات أشد حيوية من الأرض التي سبق اقتحامها بالفعل ، وشغلها مقيمون متحضرون ، فيسروا المعيشة فيها . ومن ثم ؛ إذا ما تناولنا كل الحضارات التي تتصل بصلة البنوة بحضارات

أخرى ؛ نجد أنها قد أبرزت أعجب تجلياتها في أماكن خارجة عن المنطقة التي شغلها الحضارة المنشئة . ويقبى بصورة خاصة تفوق الاستجابة التي تستثيرها أرض جديدة ، إن كان الوصول إلى الأرض الجديدة يتطلب عبور البحر .

ويورد المؤلف أسباب ذلك كما يورد أسباب ظاهرة ارتقاء الدراما في الوطن الأصلي ، والملاحم الشعرية في المناطق المستوطنة عبر البحار .

٣ - حافز الضربات :

يورد المؤلف أمثلة مختلفة من التاريخ الهليني والغربي لتفسير المراد بالقول بأن الهزيمة الساحقة الفجائية ، كفيلة باستثارة الجانب المهزوم ، لترتيب نظام داره ، والاستعداد لتحقيق استجابة منتصرة .

٤ - حافز الضغوط :

تبدى الأمثلة المختلفة أن الشعوب التي تشغل مواقع حدود وتعرض لعدوان متصل ، تبدى استتالة أشد إشراقاً من جيرانها أصحاب الموقع المحمية .

ومصادقاً لذلك ، كان العثمانيون الوقيين تحت ضغط حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، في موضع أفضل من القرمانيين القاطنين شرقهم . وكان للنمسا حياة جارية أفضل من حياة بافاريا ، بفضل تعرض النمسا باستمرار لعدوان الأتراك العثمانيين .

ويبحث المؤلف من وجهة النظر هذه موقف الجماعات المختلفة في بريطانيا ومصائرهم خلال الفترة الواقعة بين سقوط روما والفتح النورمندى .

٥ - حافز النقم :

ما برحت طوائف وشعوب تعاني طوال قرون ، صنوفاً مختلفة من

النقم أنزلتها بها طوائف وشعوب كانت لها السيادة عليها . وتستجيب - بصفة عامة - الشعوب والطوائف التي أصابتها النقم ، لتحدي الحرمان من المشاركة في فرص ومزايا معينة ، بإبراز طاقة استثنائية ، وإظهار أهلية غير عادية في الاتجاهات المفتوحة أمامها . ومثلها في هذا الشأن ، مثل الأعمى الذي تقوى لديه حاسة السمع ، قوة خارقة .

وكان الرق ؛ أثقل تلك النقم . بيد أنه انبعث خلال القرنين السابقين للميلاد ، من حشود الأرقاء الذين استجلبوا إلى إيطاليا من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، طبقة من المعتوقين أحرزوا نفوذاً يعمل له حساب . ومن عالم الرق هذا ، ظهرت كذلك العقائد الدينية الجديدة للبروليتاريا الداخلية . وكانت المسيحية من بينها .

ويبحث المؤلف ؛ من نفس وجهة النظر ، مصائر الجماعات المختلفة للشعوب المسيحية ، التي أخضعها العثمانيون لحكمهم . وبصفة خاصة ؛ الفناريون . ويستخدم المؤلف هذا المثال هو ومثال اليهود ، للبرهنة على أن السمات التي توصف بأنها جنسية ؛ لا تمت في الواقع إلى الجنس بحال ؛ لكن مرجعها التجارب التاريخية التي تمر به الجماعات موضع البحث .

الفصل الثامن : الوسط الذهبي

١ - كاف وكثير جداً :

هل في إمكاننا أن نقرر بكل بساطة أنه ؛ كلما اشتدت صرامة التحدي ، كلما ارتقى مستوى الاستجابة ؟

أو ، هل ثمة تحد ، أشد من أن يستثير استجابة ؟

بالتأكيد ؛ إن بعض التحديات التي دحرت فريقاً أو أكثر لمن واجهتهم ، قد استثارت في النهاية ، استجابة منتصرة ؛ مثال ذلك : أن التحدي الذي مثله امتداد نطاق الحضارة الهلينية ، كان قوياً للغاية على مقدره استجابة

الكالت ؛ بينما استجاب له بنجاح خلفاؤهم التوتون . واستثارت « المداخلية الحلينية » في العالم السورى ، سلسلة من الاستجابات السورية الفاشلة — الزرادشتية ، اليهودية (حركة المكابيين) ، النسطورية ، المينوفيستية ، لكن نجحت الاستجابة ؛ ممثلة في ظهور الإسلام .

٢ — المقارنات في ثلاثة حدود :

وعلى أية حال ؛ فإنه لا يتأتى التدليل على أن التحديات يمكن أن تتطرق في صرامتها . بمعنى أن التحدى الأقصى ، لن يبرز دائماً الاستجابة المثلى . ومصدقا لذلك ، استجاب مهاجرو الفايكنج من الرويج استجابة رائعة لتحدى بيئة أيسلندا الصارمة ، لكنها انهارت أمام تحدى بيئة جرينلند . وكانت بيئة « ماساشوستس » ، تحدياً صارماً للمستعمرين الأوروبيين ، أقصى من بيئة « دكسى » التى استثارت استجابة طيبة . لكن لابرادور التى أبرزت تحدياً أشد قسوة من تحدى ماساشوستس ، لم يستطع المستعمرون الأوروبيون الاستجابة لها .

ويتلو ذلك أمثلة أخرى : فإن حافز الضربات قد يتطرق في صرامته ، سيما إن طال أمده ، مثل تأثير الحرب الهانيبالية على إيطاليا . ويستثير الصينيين تحد اجتماعى ، قوامه هجرتهم إلى الملايو . لكنهم ينهزمون أمام تحد اجتماعى أشد صرامة يقابلهم في بلد سكانه من البيض مثل كاليفورنيا . ويستعرض المؤلف في النهاية درجات مختلفة من التحدى الذى تبرزه الحضارات ، لجيرانها البرابرة .

٣ — حضارتان عقيمتان :

هذا القسم استمرار لمناقشة المثال الأخير الوارد في القسم السابق . كان ثمة جماعتان من البرابرة يقطنون خلال الفصل الأول من تاريخ المسيحية الغربية على حدودها ؛ بلغت استنارتهم درجة جعلتهم يشرعون في إخراج حضارتين منافستين لحضارتهم الخاصة . إلا أنهما مع ذلك ، قد ذبلتا

في البرعمة . هاتان الحضارتان هما حضارة الغرب الأقصى التي اعتنقها مسيحيو الكلت (في إيرلندا وإيونا) ، وحضارة الفايكنج الاسكندنافيين .
ويبحث المؤلف هاتين الحالتين ودرس الاحتمالات التي قد تنجم لو تغلبت على المسيحية الغربية ، هاتان الحضارتان المنافستان لها ، لو لم تستوعبهما الحضارة المسيحية التي شعت من روما ومن أرض الراين .

٤ - ضغط الإسلام على عالمي المسيحية :

كان تأثير ضغط الإسلام على المسيحية الغربية طيباً في مجموعه . فإن الثقافة الغربية خلال القرون الوسطى ، تدين بالكثير إلى الأندلس المسلمة . إلا أن الضغط الإسلامي على المسيحية البيزنطية ، كان متناهماً في شدته واستئثار نزعة ساحقة لإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية تحت حكم ليو السورى .
كذلك يتكلم المؤلف عن حالة الحبشة التي يعتبرها « مجتمعاً مسيحياً متعجراً » قائماً في رباط محاط بالعالم الإسلامي .

الباب الثالث

استطالات الحضارات

الفصل التاسع : الحضارات المتعطلة

١ - البولونيزيون والاسكيمو والبدو :

قد يبدو أنه ما دامت الحضارة قد ظهرت للوجود ، فإن ارتفاعها يصبح مؤكداً . لكن الأمر ليس كذلك ، وفقاً لما يديه سجل طائفة من الحضارات التي حققت لها وجوداً لكنها أخفقت في اتصال نموها .
وتمثل مصير هذه الحضارات المتعطلة ، في مواجهتها تحد على خط الحد

بين درجة من الشدة تستثير استجابة ناجحة ، وبين درجة أعظم شدة تجرّ إلى الهزيمة .

وتطالعنا ثلاث حالات انبعث فيها التحدى من هذا النوع من البيئة المادية . وكانت النتيجة فى كل حالة ، عملاً فذاً حققه المستجيبون الذين استهلكوا كافة طاقاتهم للاستجابة للتحدى ، بحيث لم يعد لديهم ما يؤهلهم لمزيد من الارتقاء .

فإن البولونيزيين قد حققوا عملاً فذاً قوامه الانتقال بين جزائر المحيط الهادى ؛ إلا أن المحيط قد هزمهم فى النهاية . فكان أن انكفأوا إلى حياتهم البدائية على جزائرهم العديدة المنعزلة . وحقق الاسكيمو دورة سنوية حاذقة تخصصت فى الحياة على شواطئ المحيط المنجمد .

وأنجز البدو كرامة دورة سنوية مماثلة على السهب شبه الصحراوى . وثمة نقاط كثيرة مشتركة بين المحيط بجزائره والصحراء بواحاتها . ويحل المؤلف تطور البدوة خلال فترات الجفاف . ويلاحظ أن الصيادين يتطورون إلى زراعيين قبل أن يتخذوا الخطوة التالية المتصلة بصيرورتهم بدواً . ويعتبر قابيل وهابيل أنموذجين للزراع والبدوى . وتعزى دائماً اقتحامات البدو لمناطق الحضارات ؛ إما إلى ازدياد قسوة الجفاف فتدفع البدو عن السهب ؛ أو إلى انهيار حضارة من الحضارات ، فيخلف الانهيار فراغاً يجذب إليه البدوى ويجعله مشتركاً فى مرحلة « هجرات » .

٢ - العثمانيون :

تمثل التحدى الذى كان النظام العثمانى استجابة له ، فى نقل جماعة بدوية إلى بيئة تضم جماعات مستقرة كان عليها أن تحكمها .

وحل العثمانيون مشكلتهم بمعاملتهم رعاياهم الجدد على أنهم قطعان .

وأسرار بشرية وابتكروا مكافئاً بشرياً لكلاب أغنام البدوى فى شكل رقيق « ملكى » يشغل وظائف المديرين والجنود .

ويورد المؤلف أمثلة أخرى للإمبراطوريات البدوية الماثلة ، كالمالك مثلاً . إلا أن النظام العثمانى قد فاق النظم الأخرى فى كفايته وزمن بقائه . . على أنه كابد تلك الصلابة القتالة التى هى سمة البداوة .

٣ - الاسبرطيون :

كانت استجابة الاسبرطيين لتحدى لإفراط السكان التى ألت بالعالم الهلنى ، عبارة عن إبراز عمل قد يشابه فى كثير من النواحي العمل الذى أظهره العثمانيون . مع فارق أنه فى الحالة الاسبرطية كانت الطبقة العسكرية هى الأرستقراطية الاسبرطية نفسها . لكنهم كانوا كذلك « أرقاء » استعبدهم الواجب الذى فرضوه على أنفسهم ؛ ومداره إخضاع شعب من مواطنى اليونان إخضاعاً دائماً ؛

٤ - خصائص عامة :

للاسكيمو والبدو والعثمانيين والاسبرطيين خاصيتان مشتركتان : التخصص والطبقية .

فبالنسبة للاسكيمو والبدو ؛ يقوم الكلاب والرنة والجياد والماشية ، مقام الطبقات المسترقة عند العثمانيين .

ويحيط التخصص فى جميع هذه المجتمعات من شأن الكائنات البشرية ، فينزلها إلى مرتبة : الإنسان القارب ، والإنسان الحصان ، والإنسان المحارب . إلا أن التخصص يرفع الأدوات التى يستخدمها إلى مرتبة شبيهة بمرتبة الإنسان الكامل : والإنسان الكامل ، كان غاية بركليس التى أفصح عنها فى خطاب الرثاء الذى ألقاه . والإنسان الكامل هذا ، هو الذى فى وسعه تحقيق الارتقاء الحضارى .

وتشابه هذه الجماعات المتعطلة مجتمعات النحل والنمل التى ما برحت فى

حالة سكون قبل فجر الحياة البشرية على الأرض . وتشابه كذلك المجتمعات التي ترسمها « المدن الفاضلة » .

ويعلو ذلك كله ، مناقشة موضوع « المدن الفاضلة » : ومن رأى المؤلف أن المدن الفاضلة بصفة عامة ، نتاج الحضارات في مرحلة تحللها وهي محاولات ترنو إلى السعى لوقف الانهيار ؛ عن طريق وقف تطور المجتمع عند الحد الذي هو فيه وقت رسم البرنامج .

الفصل العاشر : طبيعة ارتقاءات الحضارات

١ - الدروب الخداعة :

يحدث الارتقاء وقتما تصبح الاستجابة لتحد معين ، لا ناجحة في نفسها فحسب ، لكنها تستثير تحدياً إضافياً ، يقابل باستجابة ناجحة .

فكيف يتأتى قياس مثل هذا الارتقاء ؟

هل يقاس وفقاً لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟

إن ثمة نوعين من مثل هذه السيطرة المتزايدة :

سيطرة متزايدة على البيئة البشرية التي تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة .

وسيطرة متزايدة على البيئة المادية ، تعبر عن نفسها بتحسينات في الأسلوب التكنولوجي المادى .

ويورد المؤلف أمثلة لبيان أى من هاتين الظاهرتين - سواء التوسع السياسى والحربى أو تحسين الأسلوب الفنى - لا يعتبر قاعدة مناسبة لقياس الارتقاء الحقيقى . فإن التوسع الحربى التكنولوجى عادة هو نتيجة نزعة حربية تعتبر بدورها قرينة للتدهور . ولا تبدى التحسينات التكنولوجية سواء أكانت زراعية أو صناعية ، سوى ارتباطاً قليلاً أو لا شىء البتة بينها وبين الارتقاء

الصحيح : وحقاً فقد يرتقى تماماً الأسلوب الفني وقما يكون التحضر الفعلى فى مرحلة المخطط . والعكس بالعكس :

٢ - التقدم صوب تقرير المصير :

يظهر المؤلف أن قوام التقدم الحقيقى ، عملية يعرفها بكلمة « التسمى » ويعنى بها التغلب على الحواجز المادية . وتعمل عملية « التسمى » على إطلاق طاقات المجتمع من عقالها لتستجيب للتحديات التى تغدو منذ الآن وصاعداً داخلية أكثر منها خارجية ، روحانية أعظم منها مادية .
ويفسر المؤلف هذا التسمى بأمثلة من التاريخين الهلنئ والغربى الحديث :

الفصل الحادى عشر : تحليل الارتقاء

١ - المجتمع والفرد :

ثمة وجهتا نظر تقليديان شائعان تتصلان بعلاقة المجتمع بالفرد :
تجعل إحداهما من المجتمع مجرد حشد من ذرات هى الأفراد :
وتعتبر الأخرى المجتمع كائناً حياً ، وما الأفراد إلا أجزاء منه ؛
لا يدركون إلا أعضاء أو « خلايا » فى المجتمع الذى ينتسبون إليه .

ويبدى المؤلف عدم رضائه عن كلا الرأيين . وعنده أن المجتمع عبارة عن نظام للعلاقات بين الأفراد . ولا يتأتى للكائنات البشرية أن تحقق وجودها الحقيقى إلا بتفاعلها مع رفاقها . وهنا يكون المجتمع ميداناً للعمل لعدد من الكائنات البشرية :

يبد أن الأفراد هم « مصدر الفعل » . ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء ، تنبعث عن أفراد مبدعين أو أقليات صغيرة من الأفراد . ويتكون عملهم من جزئين :

تحقيق إلهامهم أو كشفهم ، مهما يكن من أمره .

وهداية المجتمع الذى ينتمون إليه ، إلى سبيل الحياة الجديد هذا :
ويتأتى — من الناحية النظرية — حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر :
إما بتعريض الجمع للتجربة الواقعية التى حولت الأفراد المبدعين :
وإما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية . وبعبارة أخرى ، الهداية
بفضل المحاكاة .

ويعتبر الطريق الأخير — من الناحية العملية — هو مجال الاختيار الوحيد
المفتوح فى حالة الجميع ، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشرى . وأن
المحاكاة هى « طريق مختصر » ، لكنه طريق فى وسع عامة الناس جميعاً سلوكه
فى إثر زعمائهم .

٢ — الانسحاب والعودة :

قد يمكن وصف فعل الفرد المبدع بأنه حركة مزدوجة قوامها
الانسحاب والعودة :

الانسحاب بغية الاستنارة .

والعودة ، رجاء إثارة رفقاته .

ويوضح المؤلف رأيه من مثال أفلاطون عن « الكهف » ، وقياس
القديس بولس عن البصرة ، ومن قصة الإنجيل ، ومن غيرها من المصادر .
ثم يوضح المؤلف فى الفعل العملى فى حياة الرواد العظام : القديس
بولس — القديس بندكت — القديس جريجورى الكبير — البوذا — الرسول
محمد — ماكيافيللى — دانتي .

٣ — الانسحاب والعودة : الأقليات المبدعة :

إن الانسحاب الذى تعقبه عودة ؛ هو كذلك سمة شبه المجتمعات التى تؤلف
الأجزاء الأساسية فى المجتمعات بمعناها الأصيل . وتتقدم الفترة التى تبذل فيها مثل

هذه المجتمعات الشبيهة ، مشاركتها في ارتقاء المجتمعات التي تنتمي إليها ؛ فترة ترتد فيها بجلاء عن الحياة العامة لمجتمعها .

ومن قبيل المثال : أثينا في الفصل الثاني من ارتقاء المجتمع الهليني ؛ وإيطاليا في الفصل الثاني من ارتقاء المجتمع الغربي ، وإنجلترا في فصله الثالث .
ويقرر المؤلف احتمال قيام روسيا بتأدية دور مماثل في الفصل الرابع من ارتقاء المجتمع الغربي .

الفصل الثاني عشر : التمايز من خلال الارتقاء

يتضمن الارتقاء بجلاء - وفقاً لوضعه في الفصل السابق - تمايزاً بين أجزاء مجتمع في مرحلة النمو . فإن بعض الأجزاء ستبرز استجابة ناجحة في كل مرحلة . وسينجح بعضها في تتبع خطاها بفضل المحاكات ، وسيفشل بعضها في تحقيق الاصالاة أو المحاكاة على السواء . ومن ثم تنهاوى .

وسيكون ثمة كذلك تمايز متزايد بين تواريخ المجتمعات : وواضح أن للمجتمعات المختلفة سمات غالبية مختلفة : إذ يتفوق بعضها في الفن والبعض في الدين ، والآخر في الابتكارات الصناعية ؛ بيد أنه لن تغفل المشابهة الجوهرية في غابات الحضارات ؛ فإن لكل حبة مصيرها ، لكن جميع البنود من نوع واحد ، يبذرهما « باذر » واحد ، على أمل اجتناء نفس المحصول .

الباب الرابع

انهيارات الحضارات

الفصل الثالث عشر : طبيعة المشكلة

من الواحد والعشرين حضارة (ومن ضمنها الحضارات المتعطلة الواردة في القائمة) ؛ تحققتنا من وفاة ست عشرة منها ، وأن تسعا من العشر الباقية — أى ما خلا الحضارة الغربية — يبدو عليها مظاهر الانهيار بالفعل .

ويمكن إجمال طبيعة الانهيار ؛ فى ثلاث نقط :
 إخفاق الطاقة الإبداعية فى الأقلية المبدعة . وتتحول هذه الأقلية منذ الآن فصاعداً إلى مجرد أقلية مهيمنة .
 وردّ الأغلبية على تحكم الأقلية بسحبها ولاعما والعدول عن محاكاتها ؛
 ويتلو ذلك ضياع الوحدة الاجتماعية فى المجتمع فى مجموعه .
 وسيكون علينا كشف عوامل مثل هذه الانهيارات .

الفصل الرابع عشر : حلول حتمية

نصرّ بعض المذاهب الفكرية على نسبة انهيارات الحضارات إلى عوامل خارج نطاق سلطة البشر .

١ — نادى الكتاب الوثنيون والمسيحيون على السواء إبان انحطاط الحضارة الهلينية بأن اضمحلّ مجتمعهم ، مرده « تهافت كوني » ؛ على أن علماء الطبيعة المحدثين قد أبعدوا عصر « التهافت الكوني » إلى مستقبل قصي ، لا يسهل تصوّره . وهذا يعنى انتفاء تأثيره كلية على حضارات سواء فى الحاضر أو فى الماضى .

٢ - اعتنق سبنجلر وغيره فكرة أن المجتمعات هي كائنات لها صفات التحول الطبيعي من الشباب والنضوج إلى الاضمحلال ، مثلها في ذلك مثل المخلوقات الحية .

لكن المجتمع ليس كائناً من هذا النوع .

٣ - نادى آخرون بوجود شيء حتمى من شأنه تعويق سير الوراثة ، الأمر الذى يؤثر تأثيراً سيئاً على الحضارة وعلى الطبيعة البشرية ، وإنه بعد انقضاء فترة من التحضر لا يتيسر انعاش الجنس إلا بفضل سكب « دم جديد همجى » .

ويناقد المؤلف هذا رأى ويدحضه .

٤ - تبقى نظرية أكوار التاريخ كما أبدأها أفلاطون في كتابه « تيمايوس » . وكما وردت في الأنشودة الرابعة لفرجيل وفي غيرها . ولقد يكون هذا منشأ الفكرة في كشوف الكلدنيين الخاصة بنظامنا الشمسى . بيد أن النظرية الحديثة الواسعة النطاق المتصلة بعلم الفلك ، قد جردت هذه النظرية من أساسها الفلكى . ولا يوجد دليل على صحة النظرية ، بل يوجد الكثير ضدها .

الفصل الخامس عشر : فقدان السيطرة على البيئة

إن الحجة الخاصة بهذا الفصل ، هي المناقض لحجة الفقرة الأولى من الفصل العاشر . حيث أبدى أن حدوث زيادة فى السيطرة على البيئة المادية - مقياسها التحسن فى الأسلوب التكنولوجى - وحدثت زيادة فى السيطرة على البيئة البشرية - بقياسها على أساس التوسع الجغرافى أو الغزو العسكرى - ليست هى مقاييس الارتقاء أو عوامله .

هنا يظهر المؤلف أن اضمحلال الأسلوب التكنولوجى والتقلص الجغرافى يفعل الغزو العسكرى الخارجى ، ليست مقاييس الانهيارات وعواملها .

١ - البيئة المادية :

يورد المؤلف عدة أمثلة لإظهار أن اضمحلال العمل الفني الفذ ، ما برح نتيجة - لا سبباً - لانهايار الحضارة : ومصادقاً لذلك ، كان التخلي عن الطرق الرومانية ونظام الري في العراق ، نتيجة - لا سبباً - لانهايركل من الحضارتين اللتين دأبتا على الاحتفاظ بهما من قبل . وأظهر المؤلف أن نفشى الملاريا الذى يقال إنه يحدث انهيارات الحضارات ، يعتبر نتيجة لها ، لا سبباً .

٢ - البيئة البشرية :

يناقش المؤلف هنا نظرية جيون التى تردّ « انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » إلى البربرية والدين (أى إلى المسيحية) ، ونجده ينقضها . فإن مظاهر البروليتاريين الخارجية والداخلية للمجتمع الهلنى ، كانت نتائج لانهاير المجتمع الهلنى التى كانت قد اتخذت بدورها مكانها فعلاً . ويعيب المؤلف على جيون أنه لا يعود لبدء حديثه إلى أزمنة أقدم مما اختار : وأنه ليخطئ إذ يجعل العصر الأنطونى « عصرأ ذهبياً » ، بينما هو فى الحقيقة « صيف هندى ».

ويستعرض المؤلف أمثلة مختلفة للعدوان الموفق ضد الحضارات : ثم يبدى أن العدوان الناجح ، يحدث فى كل حالة بعد الانهاير :

٣ - قضية سلبية :

يستثير عادة العدوان ضد مجتمع ما يزال فى غمار عملية الارتقاء ؛ هذا المجتمع ، لينذل جهدا أعظم : وحتى إن كان المجتمع قد أصبح فى طور الانحطاط ؛ فإن العدوان عليه ، قد يث فيه روح النشاط ويمنحه فترة حياة إضافية :

(يضيف الملخص حاشية تفسر المعنى الفنى المستخدم فى هذه الدراسة المقصود بكلمة « الانهاير ») :

تصويب

صواب	خطأ	صفحة	سطر	صواب	خطأ	صفحة	سطر
de	ed	٢٠٧	الأخير	جبال	جبل	١٥	٥
أصلا	في الأصل	١٠	٢٠٨	وحالها	وحالها	١٣	١٤
نفسه في تلك	نفسه تلك	٢	٢٠٩	انتقاء	انتقاء	٣	٥٦
تحول	تحول	١٦	٢١٠	origins	Orgens	٢٢	٦٥
اسمها	سمها	٢٤	٢١٨	Ethnology	Ethnology	٢١	٧١
تختو	تختي	١٥	٢٢٦	Anthropology	Anthrohotogy	٢٢	٧١
بالفعل	بالفل	١٥	٢٤٣	توكيد يدس	توكيد يدس	٢٢	٧٤
الثروة	الثروه	١٦	٢٤٥	وبالأخرى	والأخرى	٤	٨٢
فارق	فاروق	٤	٢٤٨	تشغل هذه	تشغل في هذه	٥	٩٧
ميناها	ميناه	١٩	٢٥١	حبكة	حكة	١٠	١٠٢
الآخى	الأخرى	٨	٢٥٢	متحجرة	متحررة	٢٥	١١٤
ثم	ثم	١٠	٢٥٢	الاختيار	الاختيار	٢	١١٩
الحافر	الحافر	١٢	٢٦٨	الفقر	الفقر	٢	١٢٢
المزود	المزدود	١	٢٧٨	أبها	إلا أبها	١٩	١٢٣
يشيران	يشيرا	٤	٢٧٨	جيرانه	جير أنه	١٨	١٥٨
ويمتج	ويمنج	١٥	٢٨٦	نصيب المنافسين	نصيب مستعمري	١٤	١٦٠
لامته	لامته	٣	٢٨٧	الفاشلين لمستعمري	المنافسين الفاشلين		
الساسة	السياسة	٦	٣٠٠	نيو إنجلند	نيو إنجلند		
التحويل	التحويل	١٣	٣١٦	بدا	بدا	١٢	١٦٢
القرطاجيين	القرطاجيين	٩	٣١٩	حد	حد	١٣	١٦٥
مرة أخرى	مرة	٦	٣٢١	آبائها	آبائهم	١٥	١٦٩
التكنولوجيا	التكنولوجيا	١	٣٢٩	على	عن	١٣	١٧١
يتابع	تتابع	١٥	٣٣٣	التخلص	للتخلص	٣	١٨١
قطرى	قطوى	١٣	٣٣٥	تجارتهم	تجارتهم	١٨	١٨٣
لفعل القوى	للفعل للقوى	٩	٣٣٧	دمرت	مرت	٢٣	١٨٦
ليشيترا	ليشيتو	١٦	٣٤٢	كلها	كلها	٩	١٩١
في	فيها	١٧	٣٤٢	وينتهي	اللى انتهى	٢٢	١٩٨
والجبل	ولليل	١	٣٧٢	كلتاها	كلاهما	١٨	٢٠٠
الغربي	العربي	٦	٤٠٠	يهينه	يهينه	١١	٢٠٢
				نواة	تواة	١٩	٢٠٣

فهرس

دراسة للتاريخ

صفحة

الموضوع

تقديم ٨ - ز

الباب الأول

٧٧ - ١

مقدمة

الفصل الأول : وحدة الدراسة التاريخية ٣ - ٢٠

الفصل الثاني : الدراسة المقارنة للحضارات ٢١ - ٥٧

١ - المجتمع المسيحي الأرثوذكسي ٢٦

٢ - المجتمع الإيراني والعربي والمجتمع السوري ٢٧

٣ - المجتمع السني ٣٤

٤ - المجتمع الصيني ٣٦

٥ - الجماعات المتحجرة ٣٨

٦ - المجتمع المينوي ٣٩

٧ - المجتمع السوري ٤٦

٨ - المجتمع الحيثي والبابلي ٤٩

٩ - المجتمع المصري ٥١

١٠ - المجتمع الأندلي ومجتمعات يوكاتا والمكسيك والمايان ٥٧

الفصل الثالث : مدى إمكان مقارنة الحضارات بعضها

بالبعض الآخر ٥٨ - ٧٧

١ - الحضارات والمجتمعات البدائية ٥٨

٢ - خطأ فكرة وحدة الحضارة ٥٩

٣ - إمكان مقارنة الحضارة ٦٩

٤ - التاريخ والعلم والمصنفات الخيالية ٧٢

الباب الثانى

٧٩ - ٢٧١

مبادئ الحضارات

الفصل ١١ ابع : المشكلة وكيف لا يجب حلها ٨١ - ١٠٠

١ - عرض المشكلة... .. ٨١

٢ - الجنس ٨٦

٣ - البيئة ٩٣

الفصل الخامس : التحدى والاستجابة ١٠١ - ١٣١

١ - الدليل المستمد من الأساطير ١٠١

٢ - تطبيق الأسطورة على المشكلة ١١٢

١ (١) العامل الذى لا يتأق التكهّن به ١١٢

٢ (٢) بدء الحضارة المصرية ١١٣

٣ (٣) بدء الحضارة السومرية ١٢١

٤ (٤) بدء الحضارة الصينية ١٢٣

٥ (٥) بدء الحضارتين المايانية والأندىانية ١٢٤

٦ (٦) بدء الحضارة المينوىة... .. ١٢٥

٧ (٧) بدء الحضارات المنتسبة ١٢٧

الفصل السادس : فضائل الشدائد ١٣٢ - ١٤٦

١ - اختيار أشد دقة ١٣٢

٢ - أميركا الوسطى... .. ١٣٢

٣ - سيلان ١٣٤

٤ - الصحراء العربية الشمالية ١٣٥

٥ - جزيرة إيستر ١٣٧

٦ - إنجلترا الجديدة... .. ١٣٩

٧ - السهل الرومانى... .. ١٤٠

الموضوع	صفحة
٨ - كابوا الغادرة	١٤١
٩ - نصيحة أرتيميرس	١٤٢
١٠ - الأوديسية والخروج	١٤٣
١١ - أمة إفل ما تشاء	١٤٤
الفصل السابع : تحدى البيثة	١٤٧ - ٢٣٢
١ - الحافز في البلاد الصعبة	١٤٧
(١) خطوط الاستقصاء	١٤٧
(٢) النهر الأصفر واليانجتى	١٤٨
(٣) آتيكا ويوشيا	١٤٩
(٤) بيزنطة وكالشيون	١٥٢
٢ - (٥) الإسرائيليون والفينيقيون والفلسطينيون	١٥٣
(٦) براندنبرج وأرض الراين	١٥٨
(٧) اسكتلندا وإنجلترا	١٥٩
(٨) الكفاح في سبيل أميركا الشمالية	١٦٠
٢ - حافز الاستيطان في أرض جديدة	١٦٥
٣ - الحافز الناتج عن الضربات	١٨١
٤ - الضغط كعامل حافز	١٨٧
١ - (١) في العالم المصرى	١٨٧
(٢) في العالم الإيراني	١٨٨
(٣) في المسيحية الأرثوذكسية الروسية	١٩١
(٤) في العالم الغربي المواجه لبرابرة القارة	١٩٤
(٥) في العالم الغربي المواجه للإمبراطورية العثمانية	١٩٨
(٦) في العالم الغربي على حدوده الغربية	٢٠١
الأول : ضغط المذهب الكلتى	٢٠٢
الثاني : الضغط الاسكتلندى	٢٠٥
الثالث : ضغط الحضارة السورية	٢٠٧
٥ - اقتصاص كامل حافز	٢١٠
(١) الحدادون للمرج والشمرء العميان	٢١٠

الموضوع	صفحة
(٢) الرق	٢١١
(٣) الفناريون والقازانية وسكان للشرق الأدنى	٢١٧
(٤) اليهود	٢٢٥

الفصل الثامن : الوسط الذهبي ٢٣٣ - ٢٧١

١ - الإفراط والتفريط	٢٣٣
٢ - مقارنات بين حدود ثلاثة	٣٤١
(١) مواجهة جديدة للمشكلة	٢٤١
(٢) الترويح ، آيسلندا ، جرينلند	٢٤٢
(٣) ديكسى ، ماساتشوستس ، ماين	٧٤٣
(٤) البرازيل ، لابلانا ، باتاجونيا	٢٤٥
(٥) جالواى ، آلستر ، أبالشيا	٢٤٦
(٦) ردود الفعل لتخريب الحروب	٢٤٨
(٧) ردود الفعل العينية تجاه الهجرة	٢٥٠
(٨) السلاف والآخيون والكلمت	٢٥١
٣ - حضارتان عقيمتان	٢٥٥
(١) مؤخرة الهجرات التيوتونية	٢٥٥
(٢) حضارة مسيحية الغرب الأقصى المقيمة	٢٥٧
(٣) الحضارة السكندنافية المقيمة	٢٦٠
٤ - اصطدام الإسلام بالعالمين المسيحيين	٢٦٦

الباب الثالث

٢٧٣ - ٤٠٦ نمو الحضارات

الفصل التاسع - الحضارات المتعظلة ٢٧٥ - ٣١٢

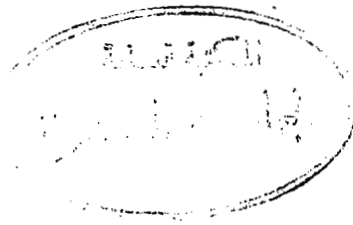
١ - البوينيزية والإسكيمو والبدو	٣٧٥
٢ - المينانيون	٢٨٧
٣ - الإسبرطيون	٢٩٨
٤ - خصائص عامة	٣٠٣
حاشية - البحر والمهب كادافى فقل لغوى ..	٣١٥

الموضوع	صفحة
الفصل العاشر - طبيعة ارتقاء الحضارات	٣١٣ - ٢٤٨
١ - تتبع أثرين مشكلين	٣١٣
٢ - الارتقاء صوب تقرير المصير	٣٢١
الفصل الحادى عشر - تحليل الحضارات	٣٤٩ - ٤٠٠
١ - المجتمع والفرد	٣٤٩
٢ - الاعتزال والعودة - الأفراد	٣٦٢
(١) عرض عام	٣٦٢
(٢) القديس بولس	٣٧٥
(٣) » بنديكت	٣٧٦
(٤) سانت جريجورى الكبير	٣٧٧
(٥) البنودا	٣٧٩
(٦) محمد	٣٨٠
(٧) ماكيافللى ..	٣٨٢
(٨) دانتي	٣٨٤
٣ - الاعتزال والعودة (الأقليات المبدعة)	٣٨٥
(١) أثينا فى الفصل لثانى من ارتقاء المجتمع الهلنى	٣٨٥
(٢) إيطاليا فى الفصل الثانى من ارتقاء المجتمع الغربى	٣٨٧
(٣) إنجلترا فى الفصل الثالث من تقدم المجتمع الغربى	٣٩٢
(٤) ما هو دور روسيا فى تاريخنا الغربى ؟	٣٩٩
الفصل الثانى عشر - التمايز عن طريق الارتقاء	٤٠١ - ٤٠٦

الباب الرابع

انهار الحضارات	٤٠٧ - ٤٥٥
الفصل الثالث عشر - طبيعة المشكلة	٤٠٩ - ٤١٣
الفصل الرابع عشر - حلول حتمية	٤١٤ - ٤٢٧
الفصل الخامس عشر - فقدان السيطرة على البيئة...	٤٢٨ - ٤٥٥

الموضوع	صفحة
١ - البيئة المادية	٢٢٨
٢ - البيئة البشرية	٢٣٦
٣ - حكم سليمى	٢٥٥
سياق الاستدلال	٢٥٩
أخطاء مطبعية	٢٨٢
فهرس الجزء الأول من مختصر دراسة للتاريخ	٢٨٣

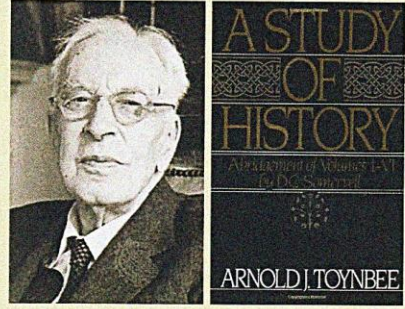


الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



يذهب توينبي في هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية. يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهايار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبي يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرده بصنع الحضارة، فالأعراق - فى معظمها - ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة. ويرى توينبي أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية - على سبيل المثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما - معا - ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.